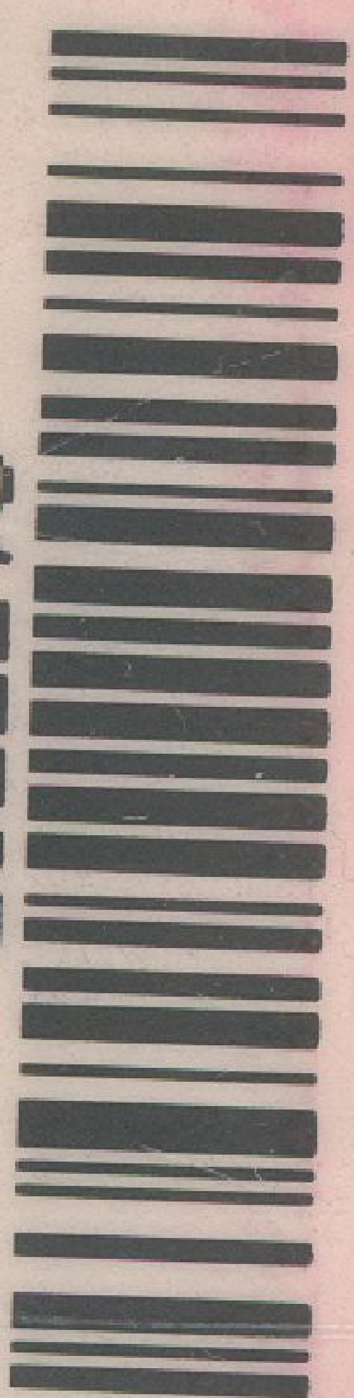



كرم ملحم كرم

اقرأ

اللحن الشرود

اللحن الشرود

كرم ملحم كرم

اللّحن الشّرود

اقرأ ١١٦
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٦ — سبتمبر سنة ١٩٥٢



١

سكن الليل وما أغفى الوتر . فما ينى يسكب رناته المخضبة بالنشوة ، كأنه الشلال المترنم بأنشودة الأبد . واكتنزت العتمة، وجاول النعاس الأجفان يعقدها بأصابعه اللدان ويهبها لسحره المجنّح . ومن حجرة ضيقة ، فى بيت حقير ، أطلت على هذا المعتكف على الأوتار يؤرقها ، امرأة عجوز ، سوداء الجلباب ، بيضاء اللمـّة ، تخاطبه بالبيان الرفيق الملتاع : ألا خذ لنفسك بعض الراحة . فالليل يهمّ بأن يطوى أذياله والفجر يوشك أن يلوح . إنى لأخشى عليك من العناء وقد سطا عليك السهاد الأكول !

فلم يشأ أن يصغى إلى هذه الغارقة فى الكبر ، المتهدلة الخدين ، المترهلة الجسد ، الفاشية الغضون . فدنت منه حتى كادت تلامسه ، وجمجت بضراعة كأنها تتشفع إليه فى مهجتها : قم إلى فراشك، يا روح أملك . فالأوتار تعبت من نقر ريشتك . فإن تكن لا تشفق على نفسك فارحم عودك ، والجماد كالحىّ بحاجة إلى فترة من هدوء !

فمضى فى إثارة الأنغام لا يهادن واللحن لم ينته . فليست تدرك هذه العجوز القلقة عليه مدى روعة بيانه المسلوخ من حوانيه . وفى النغم من سمو الإبداع ما يعدل بلاغة القول الخلوب. لتدعه أمه يأنس ببدائعه ويطلقها على سبعة مدى ، أبكاراً فواتن . ولكن الأم الفائرة الحنو أبت عليه الاسترسال إلى شجوه الغرّيد . فقالت بصوت بكيّ تغلو به فى الاسترحام : صن أملك من الأرق إن تكن تبتغيه لنفسك . فهل ترضى بأن تشقى أملك ؟

فهتف بغيظ : دعينى !

إنها لتزعجه بإبعاده عن ألحانه النواضر ، وما ينقر عوده إلا ليذيع صبابته . فليعلم الليل ، والأفق ، والفجر ، أنه عاشق ولهان . ولتتألق دنياه بوهج غرامه . ولكن هذه الملحّة فى ثنيه عن كرائم أوتاره ليست سوى أمه . ولم تمت فى سويدائه جلالة برّ الوالدين . فآثر إيلام نفسه على الإساءة إلى من تغمره بحنانها خالصاً من المنة ، بريئاً من الإمساك . وطاب عن إجهاد عوده ، وأودعه مصانه . والتفت إلى العجوز الشحيحة عليه بالضنى يقول ببسمة الاسترضاء : صدقت ، حان لى أن أنام وأن تستريحى . لى من غدى إلى عودى وأفر المتسع !

ورفع عن عينيه نظارتين سوداوين . وحبا إلى سريره على

عمه كأنه لا يتبين طريقه . فأمسكت أمه بذراعه تقوده إلى مرقده كالأعمى . وهو ذلك الأعمى وفى محجريه باصرتان منطفئتان لا تختلجان بومضة . فتلقته القوابل كفيفاً وما أذنت الغشاوة المضروبة على عينيه فى انقشاع . إنها لإحدى القواصم ، وقد عجز الإدمان عن تليين قسوتها ودفع مضضها .

وغار فى الدهمة المعاندة فى الجلاء وحياته كلها ليل . يدلج ولا صبح له . ويحس بأنه سجين وهو الطليق الجناح . فيمشى ويجهل أمده . ويعيش وليس يدرى أين ، والأماكن والوجوه لا ينفذ إليها إنساناه .

ويؤلمه الحرمان وليس يعرف ما شكل الأرض ، وما زرقة السماء . ما لون الريحانة ، وما شعاع الشمس . ما سعة الخضم ، وما ديباجة الغروب . فكل ما حوله ألغاز وهو البعيد حتى عن نفسه . فغاب عنه ما يطأ ، وما يرتدى . ما يقتعد ، وما يمضغ . وودّ لو يعلم كيف تميل الريح بالأغصان ، وكيف يكتب الموج سطوره على صفحات الرجراج ثم يمحوها . وأنى يدرك الصبوة وقد تقطعت الأسباب بينه وبين حقائق الأشياء ؟

بل ودّ لو اتقى صنيع من حوله وهم يرشدونه إلى هدفه ، ويقودونه إلى مقعده ، ويظاهرونه حتى على الاهتداء إلى لقمته وشربته ، وعلى ارتداء ثيابه كأنه الطفل الحيران ، بل كأنه

السائل الذليل فى ما له فيه عن السؤال غناء .

وأحس من أيامه بأنه غريب عنها وقد ضاق بالحياة . فالبخيلة لم تنفحه منها بما يعدو سفعة الغراب . وما ركن إلى سوى عوده وعصاه وهما رفيقاه الأمينان لا يملانه ، ولا يتفاديان من البذل فى الألفة . عوده خدين شجوه . يبثه شكواه فتفيض الأوتار بمنازعه . وعصاه نبراسه فى خطوه . فيجس بها الأرض ويتقى الزلل . وفى هذا النطاق الحفيل بالعراقيل تنقضى أيامه . فيجرى أبداً من عالمه المجهول فى رواق قاتم ضل عن آخره .

وما كانت نفس «عزيز عدوان» لتنطوى على البهجة وقد تراءى له أنه فى البسيطة أشبه بالطفيلى فى عرس . فإلام دعى وليس يتحرك بطلاقة ، وما يكسب قوته بهناءة ؟ ... ومن دعاه وما جادت عليه المقادير بوفر يقيه الكدح ، وينفس عنه كربة ظلامه الدائم ، كأن قد أطبقت عليه جدران أربعة لا تبيح له فرجة إلى هواء ، ولا خرمة إلى نور ؟ ... على أنه غالب ، بما أوتى من وسع ، النكد المحلولك . فيدعى إلى الليالى الملاح لعزف أنغامه ، ويتقاضى ما يجنبه العثرة . يحيى فى النفوس الطرب ولا يلقى من ينعش نفسه ، كأنه المهمل الزرى . فيتمايل سامعوه ثملين بألحانه ، على حين ينغمس فى أسى مرير ليس لليله صباح . الله للبلبل السجين كم ينتشى بزفراته من يلقون إليه

آذانهم ، وما فى صداحه غير مهجة تئن ، وحشاشة تذوب !

وعزيز أخذ نقر العود عن أبيه. وما تزال بلدة « إهدن » اللبنانية ، أخت الأرز وجارة السماء ، تذكر «جميل عدوان» فى أناشيده السماح ، وفى زقزقات أوتاره الشوادى. ولكن عزيزاً إذا ورث عن أبيه العود والبؤس ، فلم يرث عنه رخامة الصوت ، ولا جلاء البصر ، وقد تنكبت حنجرة الابن عن العذوبة ، وبلاه سوء طالعه بمذلة العمى يجرّها كما يجر السائل أطماره ، والأثيم خطاياه .

إلا أن لهذا الضرير روحاً أبية تسيل حناناً ، وشعوراً رهيفاً يحبب إليه الفداء . وانطبع على ليان فى المعاشرة ، وعلى ذاكرة أمينة لا يلم بها نسيان . فإنه ليعرف الدارجين حوله من وقع خطواتهم ، وهمس شفاههم ، وما ضنّت عليه القدرة بأذن سامعة لا تنبو حتى عن الهينمة الخجول .

وأمه وحدها تشاطره مبيته . أمه الراضية من حكم الدهر بالجفاء والضنك . فتقاسم ابنها الرغيف إذا توافر . وتقيم على الطوى إذا قبضت عنها الرحمة نداوتها . غير أن إهدن المتلاف فى سخائها ، الكاتبة الصفحات البيض فى الليالى السود ، لم تكن تبخل على عزيز عدوان بما يزيح عن جبينه وطأة الغضون الدهم .

وإهدن معراج الجنة . تحتفل فى صيفها بربيعها لفرط

اخضرارها . فالينابيع تتدفق من كل صدر ومنحنى فى المربض الأريض ، الشاهق كأنه وكر النسور . وتتعاقد فيه أغصان بواسق الشجر من جوز ، وصفصاف ، وسنديان ، فترصعه بجميل النضارة ، وتشيد فيه القباب الخضر كأنها ملاجئ الرحمة لمن كواه القيظ اللهيم .

واعتمّت البلدة بقمم جرد تفرض وعورتها وجلالتها على الرائى الخشوع ، وبهضاب صاح فيها الصنوبر والأرز والشربين كالبسمة فى القطوب ، وانتثرت عند قدميها التلال والسهول والأغوار وقد تراكبت فيها الحقول كدرجات السلالم ، وتعرّشت على أحفتها الدوالى تتلألأ ببواسم العناقيد .

وفى ساحات إهدن ورياضها تمرح أسراب الغيد ميّاسات القدود ، حاليات النحور والمعاصم ، فيزدن فى بهجة البلدة الفاتحة صدرها للنزيل ، والمتغنية بمتعة الأنس وهى منها على فتون . وفى هذا الفيض من البدائع عاش عزيز عدوان ، إلا أنه أشبه بمن ينعم بالعرف دون مرأى الزهرة ، وبرسيل الماء دون التلذذ بمشاهدة الينبوع .

وفى الليلة المبسوطة الأمد ، الحلوة الأرق — ولم يرقد فيها عزيز حتى على اضطجاعه فى سريره — رجع ناقر العود الأعمى إلى منزله على نشوة ، كأن ليس فى عروقه غير خمرة تسيل .

وجلس إلى أوتاره يسكب فيها ثمله . فهو طروب . وأى نجىّ له أصدق من هذا العود يودعه شجوه وقد أقامه ، منذ تعارفا ، أميناً على سره؟... فيبوح له بالغبطة وباللهفة ، بالشهوة وبالخيبة ، بالعسر وباليسر . والعود أليف وفىّ ، يرذد على صدق فى الأداء ما تختلج به هذه النفس الأسيرة ، المكدودة ، من مرح وكمدة ، من وحشة وأنس . وما كانت الوحشة والكمدة لتنجليا فى سوى النزرعن ذلك البال المعنّى ، وقد وترته الأيام حقّاً ضاعت به لديه الرسوم ، والتخوم ، فما يدعو إذاً هذا المغبون ، المتمادى الظلامة ، إلى الحبور وفى ضميره من جفوة القدر جراح نازية ، لا تختم على برء ؟

هو يعود من سهرة حفية ، زاخرة بالطيب ، أصغى فيها إلى همس بليل انتشت به أذنه ، وترنح قلبه . فما يفتأ يتردد إلى مثوى «أمين الطريف» فيحضر مجالسه ، ويطلق فيها أنغامه . وبات بعد طول مؤالفة من أصدقاء المنزل ، بل ممن يعطف عليهم أمين الطريف ويظاهرهم على قسوة العيش . فيدخل عزيز عدوان المغنى المضياف وئيد الخطو ، منخفض الجناح ، كأنه يحبو إلى معبد . وتنفرج أساريره عن بسمة اطمئنان ليقينه أنه فى دارقوم بررة لا يتنكرون للنزيل ، ولا يشمخون على الجليس .

وأمين الطريف فى إهدن من النواصى ، وقد ترجح على وفر

من مال وجاه . فلا تلتوى له كلمة ، ولا تهون كرامة ، وقد عرف مداه فما يجاوز الوسع . وبسط يده فنعم بمكانته . ودرج فى رحابه ثلاثة أولاد أوتوا من العلم ذخر المتفوقين ، ومن اللطف والرواء قسط المحظوظين . وأعدّهم أبوهم لغد مغبوط واقفاً عليهم جهده . حميد ، الابن البكر ، للمحاماة . ومنير ، وهو الأوسط ، للطبابة . وفادية الصغرى لمن يعادلها محتداً ، ويضمن لها وارف الرخاء .

وفادية ذات طلعة ريّا ، وقدّ وثاب ، برىء من البدانة . بيضاء البشرة على دعج مقلة ، وسواد غديرة . مستديرة المحيا على عذوبة . ضاحكة المبسم على خلوّ ضمير . عاطلة من الزهو ولم يكن للكبر مجال إلى روحها . بارعة فى الرقص على مختلف ضروبه . غنية الحنجرة بصوت مغناج ، أغنّ . طويلة الساقين على رقة وانسجام . لا تعدو العشرين . ولقد صفا لها قلب أبيها ، وهى لديه أغلى من مهجته ، وأحلى من بسمة القمر فى الليلة الضلول .

وما كانت إلا حيث علا بها ظن أبيها ، فى المرتع العالى من الدراية والرزانة . وصوتها الندىّ الصداح حدا عزيز عدوان على الإفراط فى المجىء إليها يرافق صوتها الحلو الرنّة بأوتاره المرنّحة . فشعر بأن مكانه بجانب هذه الجميلة النغم . فيستسلم ، وقد جلس

إليها، إلى شجو فاتن يخدرأعصابه، وتنعم بمتعته نفسه الجافة. العطشى إلى الحنان . فلم يتفق لناقر العود الأعمى أن يظفر بهذا العطف بعيداً عن فادية الطريف، وقد حدبت عليه حتى باتت تحسبه من أوفى خلصانها .

إنه ليجهل معارفها وليس يبصر روعة مبسمها ، ولا بياض ثناياها . ولكنه لم يغفل عن كونها الحسن اللباب مع ضياعه عن الحسن وما يدركه . هو لم يتبين لطف قامتها ، ولا انسجام ساقيها . إلا أنه يحس بكونه حيال علق نفيس، عابق الطيب، سمح الخلق . هو لا يلم بصفاء بشرتها ، وبتلاعة جيدها ، وبانتبار نهديها ، وبضاضة ذراعيها . غير أنه يدرى، بما تنتفض به بصيرته من رهافة جلاء ، أنه إزاء حرم مصون ليس له أن يطمع منه فى لمسة . ويدمى قلبه أن يمتد به الحرمان حتى إلى رؤية أقرب من يألف . فيكاد يتلاشى زفيراً وحرقة لولا ما يتوسد من قناعة ، وما يتذرع به من صبر .

وما كان يشتهى — على وفر ما يدهمه من ضؤولة شأو — إلا البقاء فى موضعه لا تزعزعه الدواهى الممعنة فى قهره، مكتفياً من الواقع بالوهم ، ومن الصوت بالصدى . فلا تبعده فادية عنها لعثرة تبدر منه ، أو لبرم به . فلملم نفسه فى مخاطبتها ، وفى جلوسه إليها ، كالأجير المتخشى ، يحاذر أن يطرده سيده

فيبالغ فى اتقاء الخاذلة .

وهاله أن يقر لنفسه بكونه يهيم بهذا الكمال الأنيق . أيعشق فادية الطريف وهو فى المرتبة ذرارة لا تبصرها عين لفرط حقارتها؟... وجاهد فى أن يخرس فيه الصوت المتعالى ، وأن يمسك بقلبه عن الخفقان الجانى ، وليس لمثله المزدرى ، الكسيح ، أن يصعد القمة الشامخة . فخانه ذرعه . فالحب النامى فيه عنيف الخلجة ، طاغى السلطان ، هز جوارحه . وكل سعى للوقوف به عن أمده بات كليل الوسع .

وارتعش عزيز هلعاً . أيهوى المحال ؟ ... إلى أى متعبة يجره قلبه ؟ .. وأنكر على هذا الخافق بين جنبيه نبضة الكلف . ليس له أن يغالب الحريز . ولكن الشوق ما فتئ يضطرم . ونقم عزيز على خاطره . بيد أن النقمة لا تكاد تتلاشى حتى يحس الصب المغرم بهناءة الشغف . فلم يغب عنه أن الحب متعة ، وأن أجمل الأيام ما حفل بروعة الحنين . فأجمع على انتهاج طريقه الوعر ، وإن يكن فيه أشبه بمبتغى النجم الراسى فى مناط الفلك .

على أنه سيكتم هذا الميل عن فادية ، وليس له أن يجازف بمكانته منها . فحسبه أن يهواها وأن يتسع له الجلوس إليها ، مع إخفائه عنها نزوعه . فالنسيم الموهون يلقى فى كل صعيد هائمين ،

متيمين ، غير أن آذانه تنبو عن سماع هتفات الشوق . ولا على فادية الطريف أن تقف من عزيز عدوان موقف النسيم المحيي من المتصابين إليه . فينعشه قربها ، وطيبها ، وحديثها ، دون أن تلم بما به منها. وإذا ما اكتوى بهواه الحبيس فإنه ليعلم أنه يشقى فى حب يسموه خطراً . وفى هذا الإغراق فى الطماح بعض العزاء لمن يلتمس الحرون .

وفى كل يوم لعزيز عدوان إلى دار أمين الطريف مزار. فيجالس فادية ، ويسمعها ألحانه ، ويطلب إليها أن تغنيه أشهى أغاريدها كى يطلق لأوتاره مداها احتفالا بالشدو الأغن . وإذا فاته الحافز إلى ارتياد مغناها بحث عنه واهتدى إليه . فيبدو وفى مقوله خبر . هذا لحن جديد وقع عليه . وتلك أغنية شائعة حفظ كلماتها وأقبل يرددها فى مسمع فادية كى تحفظها وتؤديها .

وما سد عنه المأوى الرحيب بابه . فالبشاشة تغمره ، والرفق يشفع فيه . ودعاه أمين الطريف إلى مائدته ولم يمسك عنه رفده . ولكن عزيزاً ما يجىء سائلا . فاعتصم بالرفض . إن له من إبائه مناعة تقيه معرة الابتذال . ولكن اليد السخية لا تهادن فى النوال ، فيضطر عزيز إلى الإجابة وفى شفتيه غمغمة الشكر ، وفى نفسه صرخة الألم . فما يذهب عنه ، على ندرة

ما أوتى من علم ، أن الإشاحة عن العطية لؤم مكسر . ويحبو إلى فادية يستجير بها من أبيها ، معلناً بلهجة لا تخلو من مرارة العتب : ولكنى لا أبدو فيكم لامتحان فضلكم ، وأنتم معدن المبرّة . فما يدفعنى إلى موئلكم سوى إعجابى بنفسى وأنا أظفر بمجالستكم . فليرأف أبوك بكرامتى وليمنع عنى الخجل من ضميرى . إنى لفقير ، ولكن زمنى لا يبخل علىّ برزقى !

وتأفف من إحراز مال لا حق له به . فضحكت فادية وهتفت به جذلى : خفف عنك . ما شيدنا لك منزلا ، ولا وهبنا لك بستاناً . إن هى إلا بعض أعطيات لا تسمن ، ولا تذل ، يرى فيها أبى تكريماً ، وإقراراً بالضلاعة !

فلم يحتمل طبعه مذلة الاستجداء . قال : ولكن أباك أثقل جيوبى بهباته ، حتى بت أتحامى لقاءه . فليوفر لى أنفتى بالاتئاد فى البذل ، وأنا الشاكر الراضى !

فأحست بوجعه ، وأكبرت فيه عفة المهجة . ودعته إلى التنفيس عن خاطره وستحمل أباها على التريث فى المنحة . قال عزيز : مجالس الطرب فى إهدن لا يجفّ موردها ، وريعها يقوم بى . وإنى لأشعر بشلل فى يمينى وهى تقبض على مال لم يبلله عرق جبينى !

وينقر أوتاره باكتئاب ، ويتجلى لفادية مبلغ أساه .

١٧

ويحاول ألا يعود . ولكن العودة مقدورة عليه؛وليس له أن يعيش بمعزل عمن أمست لديه شطراً من روحه . فالإقامة ، حتى الأبد ، على جوع جسد ، أهون عليه من البقاء ، لبعض يوم ، على جوع روح .

٢

حبت فادية إلى أبيها تقول ببسمة تحفل بالرجاء وبالإعجاب : هل لك أن ترفق بحمية عزيز عدوان ؟ ... ما حسبتَ هذا الأعمى على تلك الرحابة من النبل . فيضيمه أن يتناول مالا لم يربحه جهده . وأنت تنفحه بالعطاء فتثقله . هلا أقمت له من برك عملا يتكافأ وما يروقك أن تجود به عليه ؟

فطاب له الضحك حيال قزم يصول . هل للمعدم أن يغضب والرزق يجرى عليه بلا عناء ؟ ... بيد أن أميناً الطريف ليس بمن يسخر برفعة النفس أنى بدا وجهها . فقال يخاطب ابنته مكبراً وضاءة الروح فى العواد الضرير : هل أبدى الظلامة يا فادية ؟ ... إنه لمفطور على الإباء . هذه الصدف الحافلة بالدر نادرة ، غير أنها لا تشكو النفاد . وعزيز عدوان منها . يبهجنى أن أرى من يطمع فى مضغ لقمته مغموسة فى ندى مجهوده . ولكن أى عمل يقوى عليه الكفيف ؟

فأطرقت لتقول بحماسة كأنها وقعت على المنشود : ما رأيك فى دعوته إلى تعليمى نقر العود ؟

فراق أميناً أن يسقط على حيلة موفقة تبيح له التمادى فى الحدب على الفتى الأعمى . وقال يطرى فى ابنته الفطانة : أصبت يا فادية ، إنك لذات حصافة . سنعهد إلى عزيز فى تمرين أناملك على رنات الوتر . تأخذين منه ويأخذ منا . ولا يقف بنا عند ذاك حياؤه عن إنقاذه من عسره ، وأنا الملمّ بما يكابد من ضيق !

واتفقا على المداورة فى المنة . فإن لم يرض عنها عزيز عدوان هبة فلتكن جعالة . وحض أمين الطريف ابنته على الرأفة بالكليل النظر . قال ببيان السماح : من المقدور على من نصرهم الزمن ، أن يجلوا بقدر المستطاع القطوب عمن تجهمت لهم نضرة العيش ، يا ابنتى . ونحن وقد أنزلت علينا السماء خيرها ، لن نشقى بمنح المقلين بعض عوارفها . ليكن عزيز عدوان ممن كتب لهم علينا حق الزكاة !

وانتشرت فى الوجهين ابتسامتان هانئتان . فالرحمة لا يضيرها أن تسلك متعدد الطرق إلى محجّها ، ولا أن ترتدى مختلف الأزياء . فستظل رحمة أنى لاح خيالها . ورصدت فادية عزيزاً وليس له أن يطيل الغياب عنها . بيد أنه تأخر فى ذلك النهار وقد دعى إلى نبع مار سركيس ، المتدفق من أحشاء الصخر غدائر سخية من السلسبيل العذب ، يحيى فيه إحدى الليالى الملاح .

ورقبت فادية مجيئه بما لم تتعود من الاكتراث له . ما به أطال غيبته ؟... هل ساءه احتفال أبيها بالالتفات إليه فقطع أوبته ؟ ... وأوجعها ألا تراه . وأحست بكونها ليست على اطمئنان وهي تفقده . فما تطيق أن تجرح قلباً وتكوى مهجة. واعتزمت أن تناديه إليها فتزيل عنه حرده ،وليس لها أن تبقيه مرضوض الخاطر ، دامى الحمية .

ولفتت أباها إلى تماسك عزيز عدوان عن الزيارة . قالت: أرأيت أنه يكرم نفسه ؟

فأعلن الأب ، وكأنه يعتذر عن حسن صنيعه : ما رميت إلى الغمز من أنفته ، يشهد الله . ولكنى رغبت فى إكرامه . لك أن تدفعي إليه من يجيئك به . وستوفر على محو الهفوة وما كنت أحسب فى الإنالة مذمة !

وأرمد الزوجين أن يهصرا فى بال الضرير المسكين نفخة الإباء . فليس لمناعة النفس أن تضام حتى فى هباءة . وانبسط فى الأب وابنته الإعجاب بالكفيف العيوف ، المحتاج المكتفى ، الطامع فى الارتزاق من ريشته ووتره لا يعدوهما . فإن لم تدرّا عليه بما يقيه العوز ، فسيصبر على البلاء ، مقتاتاً بجلده ودمعه .

قالت فادية : ليس لنا أن ننفى عزة الجانب عن ذوى

الأسمال . وما كانت وقفاً على الشبعان من هبات الزمن . ففى أبراد هؤلاء الرازحين بالشدة تغلى أحياناً رفعة وجلالة تخلو منهما صدور السراة !

فوافق أبوها على قولتها . وما كان من تستطيل عليه الرثاثة بالخانع المزدرى . ونامت فادية ليلتها ونفسها ممتلئة بمناقب العود الأعمى . وإنه ليبدو لها فى إطار من السمو يعز على سواه من أرباب المكانة . وراعها استمساكه بطهارة يده . ليس ممن تنساب اللقمة إلى مبالعهم ملطخة بهتيكة السؤال .

واستوضحت فادية الطريف خاطرها . أليس لها أن ترفع إليهاهذه النفس المكابدة ، على رغمها، جورالزمن ؟...حرمها دهرها النعمة فى صعيدين ، صعيد اليسر ، وصعيد النظر . فلو كان عزيز عدوان ممن ملكوا سلامة العين لتبدل أمره . فيجرى فى شوط ذوى الجد ، وينعم بالوفر فلايجفوه الرغد . ولكن القدر وتره حقه بالحياة المخصبة بالرفاه . وعلى من أوتوا الرخاء أن ينجدوا الملهوف ، ويدفعوا عنه لؤم المحن .

ومن يتمايل فى سنّ فادية يغمر روحه شعور من رفق بكر ، لاتثنيه عقبة ، ولا ترهبه جسامة الفداء . فما انسلت إلى قلبه وذهنه مشاين الصلف ليمتهن من خانهم الحظ ، ولا عرت لبهمقابح الغدر ليكيد لمن حالفهم السعد . فإن نفسه لمرآة صافية

ما تشوب نقاوتها ذرارة . وبهذه المهجة السليمة من فحيح البطر ، ودرن الحقد ، جنحت الغادة الرحوم ، الوضاءة الدخلة ، إلى نصرة الأعمى غريق النكد .

هل خفق له جنانها برعشة الهوى ؟ ... لم يكن لها أن تطبع عاطفتها الجياشة بطابع الحنين وما زالت بمنأى عن الشوق والكلف . إلا أنها اعتزمت الإنقاذ كأنها مدعوة إلى أداء رسالة . وستحمل بيمينها مشعل الهداية عالياً لتنير به سبيل ذلك التائه فى الديجور . فتسعده وتذهب عنه بالعناء ، وليس لها أن تهبه للدواهى تتخاطفه سلعة بخسة . فالرحمة مقدورة عليها وما لمثلها أن تصد عن منكوب .

ولكنها تحس بأن موقفها من عزيز عدوان يجاوز الرحمة . ثمة ولاء وصداقة ، بل ماهو أبعد من الولاء والصداقة وقد بلغ الأعمى من مودتها المقام المنيف . فخيل إليها أنها تلمس فى أنغامه شجواً يهزها ، كأن قلبه يتماوج على الأوتار ، مبتلاً بمنازعه الخرساء الناطقة .

أيهواها ؟ ... وغالبت هذا الاستفهام العارض . فهل لها أن تشعر بنبضة الوله إزاء ضرير يكويه الإملاق ؟ ... إن بينها وبين عزيز عدوان لفلوات شواسع . فإذا اتفقا ذوقاً فقد اختلفا مقاماً . على أن فادية صادمت نفسها فى هذا الفاصل العريض

القاعد عنها بالكفيف المقل . وهل يكون المقام سداً دون الميول ، فلا يتهدم وتتساوى القمم والوهدان ؟ ... لها من مال والدها ما يكفيها ويصون الأعمى من المشقة . ولكن ما بها تهبط الأغوار ، أتجهل نفسها وتخفى عليها منزلة أمين الطريف أبيها ؟

وعادت إلى سلخ الخاطر الوامض دراكاً فى ذهنها . بيد أنها لن تسلم من عبثه إلا والرقاد ينشر عليها غفلته . فتغوص فى سكينة تضيع فيها خلجات الحس . على أن لبها الساهر عاند فى الإغفاء كأنها تصارع ما يرجحها همة ، ويعدوها أمداً . عزيز عدوان لم يكن يغيب عن خيالها .

وأجمعت على كونها ليست منه على ولوع ، وما يزيد التفاتها إليه على مهزة الاستلطاف . إلا أن هذا الرأى ما لبث أن التوى فيها وقد دهمتها الحيرة . فهتفت فيما بينها وبين نفسها : لا أدرى ما بى منه !

وأقرت بجهلها . أهيام أم رأفة ؟ ... وضاق بها البيان فألقت الغطاء إلى ما فوق رأسها تبتغى الانغماس فى رقدة عريضة . فالنوم وحده يخفت فيها الوسواس . وتململت طويلا وكادت تيأس من الكرى . غير أن النعاس لم يلبث أن ران عليها فغابت فى لفائفه العذاب .

وليس أحب من التخدير الشبيه بالاضمحلال إلى النفوس

القلقة . وما استيقظت فادية إلا والشمس مستطيلة الأشعة ، تفيض بنورها على القمة والسفح ، وتنفذ إلى أصلاب الأرز ، والشربين ، والجوز ، والحور ، والصفصاف ، فتكسوها حلة من نضار تختال بها . وتقتنص من ظلالها بما تخلع عليها من مستكمل الضياء . وتذيب سحرها فى الماءفيختلط الذهب بالفضة ولا تغفل عن الدالية فتلهب بميسمها خد العنقود وتبقى فيه ، وقد نضج ، شعلة من مبسمها . وتسكب على التينة الينوع فتسيل حلاوة وكأنها تتناهى فتوناً .

ودرج الفلاح وراء محراثه يشق الأرض منتشياً بعبيرها ، راصداً خيرها ، لاكزاً بقرتيه وهو يطلق أغانيه ، شاخصاً بفؤاده إلى هذه المقيمة فى القرية ترقب عودته وخيالها فى ضميره. وجاراه الراعى فى رنة الطرب . فبث مزمار القصب الأمنية اللجوج وما ينفك طيف الحبيبة السوداء العين ، الريا البسمة، يموج فى إحساسه ، فيغلى له دمه ، وتهيج عروقه .

وقامت فادية إلى نافذة حجرتها تجيل العين فى فرائد الخلق وقد راعها التلوين . فما تماثلت الشواهق شكلا ، ولا تساوت السفوح انحداراً . بل ارتقت القمم بعضها عن بعض بفجوات ومخارم مختلفة التعاريج . ونعم بعضها بالخضرة ، وعبس فى بعضها جفاف الصخر ، وكلها متقارب ، متلاصق ، يتعالى من أركان واحدة .

وهذا التفاوت فى المعادلة أهاب بابنة أمين الطريف إلى تشبيه الخلق بعضه ببعض . فمن أبدع الكون ضن عليه بالمساواة ومن المحال أن يظفر بها . فالرواسى غير الأودية ، والصخر غير التربة ، والشجرة غير الزهرة ، والماء غير اليبس . كلها نشأت فى أديم واحد وما تحاكت لوناً ، ولا شكلا ، ولا جنى . وهكذا الناس . انبثقوا من معدن واحد وتباينوا مذهباً ، ومقاماً ، ووجهاً ، وقدًّا ، وطبعاً ، وثروة . فأين المساواة ؟

وانتفض فى خاطر فادية شبح عزيز عدوان . فهو مثلها من لحم ودم ، الا أنه دونها أميالا فى الجاه وفى النعمة . كأن هذه الطينة النافثة البشر تأبى أن تلدهم على مماثلة وقد أقامتهم كدرجات السلم ، بعضهم دون بعض . فلماذا لا يكون عزيز عدوان صحيح العينين ، غنيًّا ، سريًّا فى قومه ، فيبيت خليقاً بها ؟

وتواردت الخواطر . هذا ما ساءل عنه عزيز مراراً نفسه . لماذا جاء فى آخر القافلة ولم يكن فى الرأس ؟ . . . فبدا تابعاً لا متبوعاً ، معوزاً لا موسراً ، أعمى لا بصيراً ، حقيراً لا وجيهاً ، تاعساً لا محظوظاً . هل كان يضير من جبله لو نفحه بعلالة من سعد؟... وتراءى لفادية أنها تفكر فى عزيز مكرهة على أمرها . فما يحملها على الاهتمام بالمرزوء بأمنه وعيشه وليس من آصرة تشبكه بها ؟... ونفرت إلى صحن الدار تلوذ بأبيها وأمها.

على أن باصرتيها جمدتا ذهولاً وقد وقعتا على ناقر العود الضرير. فهو بجانب أبيها يسايره ويلاطفه بارتقاب يقظتها .

وابتسمت وقد لاح لها الأعمى . فلم يقطع مودتها . وحبت إليه تلقى تحية الصباح وتصافحه باغتباط قائلة له : أهلا ومرحباً !

فسقطت إليه كلمتاها سقوط الماء في الفم العطشان ، فأحيتا فيه الطمأنينة المعتلة . والتفت أمين الطريف إلى ابنته يقول : ما أبرح أعتذر إليه عن إيلامي خاطره، وما أردت له غير الراحة . فليس ما أؤدى إليه إحساناً ، بل إكراماً يدفعني إليه إعجابي ببراعته في الحرفة !

فقالت فادية تؤيد أباها في ما يذهب إليه من جميل الرأى : نحن من يجلون المقدرة حيث يبزغ نورها . فإذا ما كافأناها فما أذنبنا ولا تجنينا !

وخاطباه بلهجة العتاب الدمثة . فأخجلاه ولم يكن يدرى بمَ يجيب . ضاع عن سديد العذر . إلا أن فادية ، وهي المطلعة على ما يحفزه إلى التبرم بالعطية ، صانته من الارتباك وقالت تسوق الكلام إلى أبيها : هل حدثته بما أزمعنا ؟

فقال لها الأب : أوضحي له الرغبة بنفسك !

فالتفتت إلى عزيز عدوان ، المترفع عن الاستجداء مع

صيّاح فاقته ، وبادرته بقولها وقد جلست بجانبه : اعتزمت أن أشترى عوداً وأتعلم به نقر الأوتار ، فهل لك أن تمهد لى إلى المبتغى ؟ ... لا بأس على من يملك الصوت الرفيق أن يجيد العزف الصحيح . فماذا يبدو لك مما أجمعت عليه ؟

فهتف بجذل : أتميلين إلى ضرب العود ؟

ـ أنتِ حببته إلىّ . ووافقنى عليه أبى . تجلى لى فيك الإبداع فتقت إلى الأخذ عنك . أيضايقك أن تأتى إلىّ فتدربنى على أداء النغم !

فالتهب استبشاراً بما تصبو إليه من شهوة . لقى طريقه إليها. فلن يشق فى اختلاق الأعذار كلما همّ بارتياد منزلها لمجالستها واستماع حديثها البليل ، وصوتها الأغنّ . قال يهوّن عليها المطلب : لا أراك تحتاجين إلى وقت طويل كى تبلغى المشتهى ، وكل ما فيك يدنيك إليه ، صوتك ، ورشاقتك ، وفطانتك . وسأجتهد فى تلقينك الأصول فى أقرب آن . فما هو شهر حتى تبيت أناملك طائعة ، فتجرى بها الريشة عفواً بخضوع ولين !

قالت وهى تتبين فيه المسرة : ومتى نبدأ ؟

فأجاب بمرح يتلظى : الساعة إذا شئت !

وهو يحمل أبداً عوده كما يحمل عصاه وعماه . وضحك الأب وابنته وهما يجدانه على امتثال للرغبة بمثل هذا الطرب

السبوح . قال أمين الطريف : بل ننتظر إلى غد . فأشترى لفادية عوداً تختاره لها بنفسك، وليس من ينفى عنك الخبرة وقد أصبحت من أرباب هذا العلم !

— ولكن عودى معى !

— لا بأس بالانتظار إلى غد !

فودّ لو تمّ له فوراً أن يجلس إلى فادية جلسة الأستاذ من التلميذ . فتلمس يده يدها ، وذراعها ، وركبتها . وتفوح فى أنفه طيوب أنفاسها . ويحدثها بلهجة قاطعة تشيع فيها الدالة على اللدونة والحسن . واستوضحته الفتاة وقد راقتها غبطته : أين كنت أمس ؟

فأعلن بصوت خشيان كمن يلتمس المغفرة : دعانى نفر من الإخوان إلى النبع . ومالوا إلى الاستمتاع بأويقات من الأنس فتوفرت على إرضائهم . وليس لى أن أرد لهم مطلباً وهم علىّ كرام الوجوه !

— أما تدرى أننا نرقب ظهورك فينا ؟

فسالت نفسه حنيناً . هل بلغ من القوم هذه المنزلة المنيفة ؟ قال يرتجى الصفح : عفواً عنى إن أكن أمسكت عن ولوج هذه الدار ، وهى أبداً هدفى . فأحج إليها كأنى أزحف إلى مزار ولىّ !

وما حسب أن غيبته ستلفتهم إليه بهذا القدر وهو منهم نملة إزاء طود . وسرّه العتاب . هل وقع من شادية الموقع الأثير ؟ وردّ عن نفسه الحلم الخابي الومضة وما يتماسك على هبة ريح. فهل لمثله أن يعلو فيدرك مرتبة آل الطريف ؟ ... أهون عليه أن يبصر من أن يرتقي إلى هذا الشموخ . وتنكر للخاطر الوعر مكتفياً بأن يلقى من فادية رذاذاً من بشاشة ورفق .

وفزع إلى عوده مما يساوره من وهم . قال يدعو فادية إلى الإنشاد : هل لك فى إحدى الأغانى السماح ، فيثمل بها الوتر ، فيجن ؟

فقال أبوها : هاتى يا ابنتى . نحن بشوق إلى الخمر !

فابتسمت ولم تبخل بفرائد حنجرتها . وأبدعت وأجاد ناقر العود . كلاهما سما عن حقارة الرغام كأن الفلك مسبحهما ، وقد ارتفعا إليه بأجنحة من سحر وعطر . وشعر أمين الطريف بأنه فى غيبوبة من متعة . إنها لسكرة لا يكاد يستفيق منها من يجرع أكوابها الطفاح الصباح . وتصاعدت من صدره هتفات الطرب دراكاً كأنه لفرط نشوته فى أنين .

وأفاضت ابنته بأشجى ما عندها . فكل ما يتقد فى صدرها من رأفة وحنان سال على أطراف شفتيها . وجاراها عزيز عدوان فى التفوق ، فأعطى كل ما يختلج فيه من صبابة وشوق . وبات

وفادية روحين منطلقين فى المدى الأرحب على أمل، وكلف ، وحبور .

هذه ساعة الشرود فى رحاب الأمانى . ورب ساعة ترجح العمر الملئ . وانقطع التغريد ، وجمد الوتر ، فأبقيا بعدهما سكوناً من ماتع التخدير وما فتئ الثمل يجاول الأرواح ويأسرها. إنه لجو الخشوع وليد الإعجاب الحفيل . ولم تخرج الأذهان عن غشيانها المرىء إلا وقد تكلم أمين الطريف وهو يخشى أن يتعتع لفرط البهجة. قال : ما أرانى عرفت قبل الساعة السحر الحلال . مرحى يا فادية ، وعوفيت يا عزيز !

وجميع من فى الدار تولاهم الشده . فهم فى غمرة من جلال التقى كأنهم فى معبد . وما انفك الصدى الرخيم يتردد فى الأسماع فيستبقى فى الخواطر النشوة البعيدة الأمد . وما جاولت البسمة الشفاه ، وانتفضت الأفواه تعلن الإطراء ، حتى شعر هؤلاء المفتونون بالأنغام العلوية بكونهم يهبطون من عالم رفيع ، سحيق ، يطيب فيه القرار ، وتحلو السجدة .

وأفاضوا بهتاف الإكبار. ومالوا على فادية وعزيز ينشرون عليهما الأماديح .وأنى للمطبوع على الجهر باليقين أن يخفى وقدة الإحساس المتوهجة فى الحوانى ؟ ... وزادوا ، دون أن يعلموا ، فى رسوخ الروحين فى بسطة الألفة . عزيز وفادية يشعران ، على

رغمهما ، بكونهما موثقين بعضهما ببعض برابطة الوئام الوطيد . وربما كان هذا الوئام ، في عرف الضمير ، لفتة من نديان النزوع .

غير أن ما تنبض به المهجة أمسكت عليه . فما حان عهد الإفصاح . كأن الوجد لا يبرح فطيراً وللاختمار زمن . وأعلنت فادية تهنئ العازف الضرير بطول باعه في فنه : ليس لي إلا أن أبثك محض الثناء . كنت في الشوط المجلى . فسقيت وأسكرت !

واحتالت بقولتها الخالبة على إبداء خلجة من ميولها ، كأنها تتوق إلى إزاحة الستار المسدول على عاطفتها . مع كونها تتردد في جلائها وتهيب إقرارها . أحب أم رحمة ؟ ... هذا هو السؤال الحائر ويكاد إعلانه يدمى ذهنها . فتجاهد في الغوص على إيضاح يشفى ارتباكها ولا تسقط على البيان الصراح . أتحبّ أم تشفق ؟ ... إنه للغز يصطرع فيه قلبها ونهيتها ولا تهتدى فيه إلى مخرج جلىّ .

وأبدى عزيز عدوان الزهد في ما تخلع عليه من شكران . فقال يتواضع : إنك لتنكرين نفسك حيث لم يظهر سواك . فأى مأثرة لعزيز في ماجاوزت فيه تسابيح الملائكة وأغاريد الشحارير ؟

وتبادلا التقريظ وكأنهما ينشران ، مكرهين ، ما يمور فيهما من صبابة . وللكلام أحياناً رموز تخرج به عن مدلوله ، وليس البيان فيها مرهوناً بالأداء الجهير .

٣

يالضحكة اللؤلؤ النظيم الثنايا فى العود المستقر بحضن فادية الطريف . ويالبضاضة الأنامل القابضة على المعزف وعلى الريشة . فكأن الترف ، وقد عطف ، لا يسكن جأشه إلا وقد عمّ .

ويالفرحة عزيز عدوان وهو المعلم الندب . ماعرف نفسه فى بهجة تضارع ما ينعم به من جذل ورفاء . فالرغد والرجاوة ملء يديه . وطابت له دنياه كأنه ينهل منها الأفاويق . فلا ضنى ولا كدر بعد اليوم ، والمنى تحبو على يمن ويسر .

وصبا إلى استدرار النهزة . فلن يفوته الانتفاع بما يمهد له إلى المشتهى . وأصلح هندامه وتعطر . له القميص النظيف الحسن الكيّ ، والثوب الخالى من الفتوق ومن الأدران ، والجورب السليم من الثقوب ، والحذاء المصبوغ البادى الجدة . وللمزين أن يغالى فى زخرفته. فيسرّح له شعره ويطيّبه . ويميل على ذقنه بالموسى فيملس وتنجلى غضاضته السمحة .

وجنح إلى حياة أندى وأصفى . فما هنئ به فى جنانه ابتغى أن يظفر به فى عيشه . ولكن هل تنجده يده ؟ . . . ما زاد دخله على ما يبيح له الإسراف . فالقروش الضئيلة ، المعدودة ، هى هى ، وكأنها تمانع فى أن تتهادى على وفر . له أن يأكل ويكتسى . وأحياناً يضيق المغنم بالكفاف ، فيلتاع عزيز وتبكى أمه . وتبرم الفتى المغرم بهذا الأمد المحدود وما يتسع لطلقة نفَس . أيهيم بالصباحة المثلى ولا يملك ما يسد به الرمق ؟

وتهكم على مهجته الطامعة فى ما يعدوها . واجتهد فى أن يتماسك، ويسلو وما للبعوضة أن تصبح صقراً . فليقف من فادية الطريف موقف القانع باستنشاق العبير المالئ الجو فوحاً، وما لمثله أن يرصع صدره بناشرة الطيب . غير أنه لا يكاد يجلس بجانب فادية، حتى يذهب عنه ما وطن عليه النفس . فيحس بأنه دون ما يلجّ فيه رشده من ملتمس .

وفادية زادت فى شوقه إليها بما تلقاه به من إيناس ، وبما تطارحه من دعابة . ولمس فى صوتها ليان المخمل ، ورنة الوتر . ووقعت يده على يدها فيما يلقنها ضرب العود، فاهتز كأن يمينه فى رعشة من ورع . وأنى له حيال هذه الفواتن أن يكون حجراً أصلد ؟

وود ألا يسلخ يده من يدها . فلتدم هذه اللمسة الماتعة، الفياضة بالثمل ، المتصلة الأسلاك بالكبد كأنها أوتار تصدح بأشجى نغم . ولم تكن فادية تتحامى ملامساته ولها منها رحيق مصفى لا تفتر له نشوة . وأطال الإمساك بالأنامل وبالمعصم . وقبض على الذراع ونفسه تسيل فى اللدونة والمواهة . وكبر ورجّع. واشتهى أن تفيض روحه وهو غريق اللذة العابقة الأرج .

ويذكر نفسه وما يقدر عليه الحياء فيرتدع وفى قلبه غصّة. ما أبخل الزمن وقد جار عليه فى الحرمان . لم يكن له أن ييأس من فادية الطريف لو احتظى بالبصر . وينخلع عنها وفى صدره كلوم . ويعود إليها وفى ضميره آمال . ما أوسع مهيع الرجاء فى مندلع الأشواق !

وتتظاهر فادية بأنها ناشطة للاقتباس . فتستوضح وتستقصى . كيف تقبض على العود ، وكيف تنقر الوتر ؟ ... ويجود عزيز بالهداية بلا إمساك . فيفيض بأسرار الحرفة غير متورع من إذاعة المستور. لتأخذ فادية علمه كله ولن يخشى منها الإغارة على مورد رزقه ، فتنافسه فى البلغة المكتوبة لأمثاله المجهودين .

وهو لو شاء أن يحبس لسانه عن التبيان لدهمه الكلال . فتراءى له أنه مكره على الجهر بخفايا الصناعة ، كأن فنه مباح لهذه الراتعة فى خاطره الولهان . وفادية المقيمة من الذكاء على دفق

لم يطل عليها أمد الإلمام بمطاوى العزف . فلاينها الوتر . ودان لها العود كأنه ترنح بوقع ملامسها . واطمأن عزيز عدوان إلى جهده كما اطمأن إلى نعيمه . وفادية على دراية بغبطته ، وبها منها مثلها ، دون أن تشير إليها بكلمة، أو أن تتجنبها بحركة يرين عليها النفار والنشوز .

ولما بدا أمين الطريف يسأل عن مدى نجاح ابنته ، متغامزاً وإياها على عزيز غمزات حافلة بالابتسام ، بريئة من السخر ، قال العازف الأعمى بمستطيل الإجلال : لم يسبق لى أن شهدت هذه الطفرة فى ذى نهية . فكأن العلم مطبوع فى الآنسة فادية وقد كادت تعادلنى فى أصول الحرفة !

فقهقهت فادية ضاحكة وقالت : هذا إطراء يا عزيز أراه ينبو عن موضعه ، وما أزال فى مستهل الصناعة !

فأعلن بإيمان المقتنع بصحة ما يبدى : والله ، ما وقعت على من يضاهيك اجتهاداً وكفاية . فارتمى الفن عند قدميك أسيراً !

فقال أبوها راضياً عن نفسه، وقد استطاع أن ينفح الأعمى بما ينقذه من الضنى ، ومبتهجاً بضلاعة ابنته الفطنة : ولكن ليس لنا أن ننسى يدك البيضاء . فأنت صاحب الفضل. ولولاك لم يكن لفادية أن تبلغ هذا التوفيق . فإذا امتدحنا تفوّقها، فهل

نجحد سعيك لتذريبها ؟

فأبان ينزع من نفسه كل جميل : حاولت في عدد جم ما بذلت بجانبها من وكد فما وصلت إلى بعض ما أحرزت مز شأو فيها . فليس لنا أن ننكر النبوغ ، يا سيدى الكريم !

فعادت فادية إلى قهقهتها وقالت : إنلك لترفعني إلى حيث لا ترتقى بى قدم يا عزيز ، فدعنى فى حضيضى !

فهتف ينكر عليها تواضعاً لا يهدأ جنباه : ولماذ الخروج عن الراهن؟ . . . حفظتك العناية . أصبحت فى إطلاق الرنات من الثقات . ألا اسمعينا بعض ما سموت إليا فى علمك . فهل لمن قضوا السنوات الطويلة فى العزف أن يبزّوك ؟

ودعاها إلى نقر الوتر فامتثلت للمطلب . وعلت الأنغام منسجمة مأنوسة . وأيقن الأب أن ابنته ذات دهاء دهاق لا تغلق به عليها أحاجى المعرفة . وتصاعدت من شفتيه صيحات الطرب .فادية ممن يجيدون السيطرة على العود فى رنينه النشوان . وأذاع أمين الطريف يقرّ لابنته بالدراية : صدق عزيز عدوان يا فادية . إنلك لمن المجلّين . ففى ريشتك جسن أداء ، وفى أناملك سلاسة . وأرى عزيزاً قد سكب فى روحك الفن بأمه وأبيه، لا يدخر منه ذرارة . وهو الإخلاص

التمّ والولاء الأوفى . وليس لنا أن نقف إزاء المكرمة موقف المتعامى . علينا لمن يمنحنا من نفسه أن نسهل له إلى مجانينا !

وقبض على راحة العازف الضرير يلقى فيها كدسة من رقاع النقد ، قائلا له بلهجة يعروها رفيف من ضراعة : أرغب إليك يا صاحبي أن تمنع عني الخيبة . فما فى هذا البدل البخس غير حق لك علينا . فادية أحرزت فنك . ولك فى مقابل عطائك نفحة من عرفان الجميل . فليس ما نحبوك أجراً ، بل طاقة من ريحان لإذاعة الشكر وإكرام الأريحية !

وشعر عزيز بكونه يلمس المال فارتجف . يؤلم ضميره أن يأخذ ممن أعطت . فادية سخت عليه برعشة الوله وليس ما أنالها ليعادل منها لمسة . فكيف يتقاضى بدلا ممن لها عنده حفلٌ من ديون ؟ ... أيبيع حبه وأمله بقبضة من رغام ؟ . . . هواه أسنى وأرفع . قال يغالى فى الرفض : سيدى الجليل ، دع لى منفذاً لطلاقة النفَس . ما أزال مثقل العنق بعميم خيركم ، فلا تزد فى المبرّة لئلا أعيا عن الاحتمال فأشقى . وما أنت بمن يريد لى المضرة . عاهدت نفسى على تعليم الآنسة فادية بلا مغنم ، فلا تخرج بى عن ذمتى وما كنت لها إلا حافظاً !

وسعى للإفلات من قبضة أمين الطريف وقد قلب

راحته متورعاً من مس العطية . فراع الإباء أميناً ، وأوجعه أن يظل حيال هذا المملق الأنوف على كلال . فنبر وفى صوته خشونة من غيظ وإخفاق ، وانتفاضة من خجل : ولكن حقك لن يضيع فينا . نحن قوم لا نرضى أن نحرم أرباب الجهد حسن الجزاء لقاء ما توفروا به على نفعنا . إن تكن ترغب فى أن تأتى إلينا فأنصفنا من أنفسنا . هذا المال بعض ما وجب لك علينا !

وتدخلت فادية تقول : أيروقك أن يذيع عنا أننا نهضم المفروض علينا ، فلا نؤدى إلى أصحاب الحق أماناتهم فى أعناقنا ؟ . . . إذن لسنا من ذوى العهد والوفاء . وأنت نفسك لا ترضى بأن تأتى إلى قوم تداعى فيهم الحفاظ . وهل أقدمت عفواً على تعليمى ضرب العود ؟ . . . لم تفعل إلا وقد دعوناك إلى بذل بعض وقتك فى إرشادى إلى أساليب الحرفة . ولهذا الوقت ثمن لا ترقب منا أن نمسكه عنك . وإلا قطعنا كل ما بيننا من أسباب المخالصة !

وهى تدرى أن ليس ما يؤلمه كهذه القطيعة . فيضحى بكل جسيم لاستبقاء الصلة الوثقى : قال وكلماته تتساقط من شفتيه مرضوضة، لهافاً : هذا جور . فكيف تأبيان علىّ أن أتقيه ؟ . . . ما جئت هذه الدار سائلا ، بل مدفوعاً بولاء

أضنّ به أن يخرج عن موئله . وهل لى أن أبصر جهدى السليم من شائبة الطمع ملطخاً بوصمة الابتزاز ؟ . . . عفواً عن رثاثتى ، ورفقاً بمن يشوقه إجلال المروءة !

ولكن أميناً الطريف شدّد فى الأداء، وإلا بحثت ابنته عن عازف آخر . فارتعد عزيز عدوان فرقاً . أيقضى عليه بالانفصال عن فادية ؟ . . . إن الموت لأطيب مخبراً وأهنأ وسادة . وانحنى تجاه المشيئة الطاغية .معلناً بذبول حشاشة : أما وأنتما تصدّان عن مبذول وسعى ، وهو كل ما عندى ، فإنى لأجد نفسى مكرهاً على احتمال الغبن . ولو رحمتمانى لدفعتما عنى المهانة . هذا ذرع المقلّ . وإنه لهباءة إزاء دائم رفدكما !

وأخفى فى جيبه . بمستفيض الخجل ، كدسة رقاع النقد . لا حيلة فى المناهضة وعليه أن يخضع لحكم فادية وأبيها . قال أمين الطريف راضياً عما انتهى إليه التدبير : لك أن تمضى فى التعليم وقد تواضعنا على المعادلة . فلا سعى بلا أجر وكلنا على غبطة !

فنفر عزيز عدوان إلى الاعتراض . ولكنه أدرك أن ليس فى الممانعة عائدة . فعليه بالمواءمة وهى خير ما يلوذ به إذا ما جنح إلى لقاء فادية . وإلا فالشوق يهيض جناحيه ،

والحرقة تذهب بعلالة الجلد وقد ذوت الرجاوة . وبقيت كلمات العازف الأعمى تحوم على شفتيه ولا تنجلى . ليس للمعدم أن يملك أمره حتى فى مقابلة حسن الصنيع ببعضه ، كأنه فى المليح والقبيح على زراية . وإذا طلب هان . وإذا أعطى خاب . فلا يسقط فى الحالين على مداراة ومسايرة .

وصمم عزيز على التظلم من فادية إليها . سيشكو لها أمره فى إحدى خلواتهما ويرغب إليها الإشفاق على مهجته البالية . وابتعد وفى خاطره كآبة ، وبين أضالعه استخفاف بمنزلته ، وما يهتدى إلى من يكرم فيه نصاعة الروح واليد . فهل يضيم ذا الخصاصة أن ينفح أرباب اليسر بقرص من الشهد ، وهل يضيرهم الارتياح إلى الهدية على تفاهتها ؟

وأنف الكفيف ، المعسر ، من ضميره وهو يمد أبداً يمينه . أليس له عن الاستجداء بعض غناء ؟ . . . وارتمى فى فراشه ، لا يدندن أغنية ، ولا يجبس وتراً . وسألته أمه هل له فى الجلوس إلى مأكله . فأبان أن لا شهوة له فى طعام أو شراب ، وكل ما يجنح إليه أن يغفو بسلام . فوضح لها أنه على ارتماض سويداء . وتمتمت تستطلعه أمره . فسكت وفى السكوت فصل الخطاب . ونام متعب الروح . إنه لشقىّ حتى فى نعيمه .

وأمين الطريف وابنته ما سعيا لإيلامه وهما يطيبان عن كرم يده . فالحمية تجلت لهما فيه . والولاء كشف ، فى هذا النصير الأمين ، عن جبينه . إلا أنهما يعرفانه فى ضيق . وما دعواه إليهما لسوى انتشاله من عوزه . فكيف يداويانه بدائه وقد توفرا على تبديد فاقته ؟ . . . قال الأب : لكأنه يأبى إلا النضح عفواً بعصارة مجهوده . ولقد بدا لى أشبه بزنبقة الحقل . ما تكلف من يروم الظفر بها سوى قطفها . فلا عناية بإنمائها . ولا بعض لفتة إليها إلا وقد أورقت وسطعت ، تدل على نفسها وتغرى بها . على أننا ما كلفنا عزيزاً فتح عينيك على قواعد نقر العود هياماً منا برنة الوتر ، بل للتحايل على درء تعسه عنه . فما به يضيّق علينا وسعنا ؟

وأظهر أمين الحنق . غير أنه أقرّ عالياً لعزيز عدوان بنبل الطوية . ورضيت فادية عن هذا الشمم المطبوع فى خلق الضرير . إنه لينبوع مكارم . وازدادت إليه نزوعاً . وما انفكت تستعيد فى خيالها وقفته وتردد أقواله . وتعجبت فيه من مزيج الفاقة والأريحية ، فكيف يلتئمان ؟

وأخذت تحس بأنها منه على استحياء وكأنه يعلوها محتداً وسمواً . وما ندّ عنها كونه سيبدو فيها عاتباً ممتعضاً . على أنها ستقاوم فيه نزاهة تنبو عن مهيعها . فأنى يعيش وقد وهب

مكسبه وتخلى عن بذل قوته ؟ ... ولم تكن إلا موفقة فى تخمينها . فولج عزيز عدوان فى اليوم التالى دار أمين الطريف على شحوب وجه ، وفتور خطو . وحدقت إليه فادية وكأنها تتبين فى جبينه غضوناً ، وفى خديه تجاعيد .

وهالتها كمدته . ومشت إليه ترحب به بمنبسط الحفاوة . أما هو فما هشّ ولا بشّ ، بل زفر وقال بصوت تعترّيه اليبوسة : أحييك أيتها الآنسة فادية !

وابتسم لها ابتسامة مجهودة . فأمسكت بيده وقادته إلى مقره فى تعليمها . فجلس بذهن ملتهب وعزمة قلقة . وانتشر فيه الغم فقال يجلو شجوته : ما حسبتنى فى هذه الدار غريباً . أفرط أبوك فى الجائزة . هذا إسراف . فحبانى ما ليس لى أن أجمع فى سنة . مع أن إحسانكم لا ينفك يتدفق علىّ . أما تفتأون ترون فى عزيز عدوان مستعطياً ؟

وبكى حظه . إنه لفى عسف عاصف . إذا ما شاء أن يعتصم بالكرامة قيل له : « إلزم حدك ، فأنت غريب عن السماح ! » . وراع فادية أن تبصره يجود بدمعه . وانحنت عليه هاتفة بجزع : عزيز ، عزيز !

فتماسك وقد تذكر أن ليس لمثله أن يطلق الدمع . فصاحت ابنة أمين الطريف بلهفة موجعة : أتبكى ؟ . . .

أيدهمك الأسى ؟ . . . ولكننا ما طلبنا منك الاختلاف إلينا كي نؤذي فيك إباءك . أبى نفحك بحقك ، لا بالصدقة ، وقد وضح له أنك تتكارم عنها . أليس لك أن تعيش ؟ . . . أمين الطريف لا يزعجه أن يؤدى ما عليه . والامتناع من الاستيلاء على بدل أتعابك يجد فيه أبى امتهاناً لشأنه . فلماذا تغفل عن الواقع وتفرض علينا ما لا نطيق ؟ . . . كنت تتألم من الهبة وترى فيها إحساناً ، أما الآن فلماذا الألم وأنت تتقاضى حقاً مقدوراً ؟

وأنجدها البيان فأخرست الأعمى الحميّ . ما به يشكو وهو يتناول أجره ؟ . . . أيقوى على مجاهدة صعاب الحياة وقد عطل من الذخر ؟ . . . ولكن الخرس المستحوذ على الضرير ما لبث أن تبدد ، كأن ومضة الهدى أنارت الذهن العييّ . قال عزيز عدوان بجرأة لم يؤمن بانتقادها فى أوصاله : ما جئت إليكم كي أتعيش يا فادية . فإن ترددى إلى مثوى أمين الطريف لأرحب مجالا وأسمى مرتعاً !

واندفعت كلماته على غليان . مع أنه أرسلها بتؤدة ورصانة. وما خفى على فادية مرماه وقد اهتدت فى ملامساته إلى خلجات ضميره . فهو منها على هوى . وأبت أن تلجّ فى الاستقصاء عن المجال الأرحب والمرتع الأسمى ، مع لهبة الفضول المتوهجة

فيها . قالت متجاهلة ما تسمع : نبل روحك لا يقعد بك عن الانتفاع بحسن سعيك . فإن تكن تحاذر أن تبسط يمينك للصدقة ، فهل ترتقب من أمين الطريف ، وهو ذو الوفر اللجّ ، أن يختلف عنك فى المترع ؟

وأجادت الرمية . قال وقد أحس بكونه تقهقر فى المصاولة : ولكن أباك سخا علىّ بما حفزنى إلى اليقين أنى ما أزال فى عرفه ذلك المستجدى . مع أنى هنا لمطلب أرفع !

وردد التلميح كأن هذه الميول المتأججة بين ضلوعه تأبى أن تظل على احتجاب ، فاندلعت على رغمه تتحدث عن شبوبها . فاضطرت فادية إلى الاستيضاح مغلوبة على أمرها : وما هو هذا المطلب الرفيع يا صديقى ؟

وعجزت عن كتمان شوقها إلى المعرفة . فلينطق عزيز بما يهيجه . وشعر الأعمى الهائم بحرج الموقف . هل له أن يجلو اللغز ؟ . . . ألا ما يكون نصيبه من ابنة أمين الطريف وقد فشا لها سره ؟ . . . أما تنبذه كالنفاية وتأبى عليه العودة إليها ، فيخسر بها معقد أمله ؟ ... حسبه أن يبلغ من كلفه بها جلوسه إليها .

وبقى السؤال بلا جواب . وبلع عزيز ريقه . بماذا له أن يفضى ؟ . . . أيكشف عن ولوعه بالحسن النديان ؟ . . .

ولكن أنى يحتمل الصدمة والخيبة تدهمه ؟ . . . وماذا يقول فيه أمين الطريف وقد درى ؟ . . . ويلٌ له من الغضبة الماحقة ومن السخر المبيد . وجمد لسانه وانتشر فيه الخوف ، فودّ لو غار بعضه فى بعض . ما به يركب المنايا ؟ . . . واستبطأت فادية بيانه فعادت تستقصى : ما هو مطلبك الأرفع يا عزيز ؟

فلم يبق مذهب عن الإعلان . وأيقن عزيز بكونه فى أدهى ساعة من زمنه . هذه هى الخطوة الفصل . فإما نعيمٌ وإما شقاء . وخضخضته الحيرة . وتراءى له أن أنفاسه استقرت بشفتيه . أيتطاول ، وهو الرضراض ، إلى مستوى الدر ؟ . . . وانتفض لسانه بفيضان جأشه . قال وكأنه يتلو صلاة : مطلبى الأرفع أن أحظى ببعض عطفك علىّ !

وسكت . لقد تفوّه بما يرجح الطاقة . وازداد عمى . وخفق قلبه حتى كاد ينصدع . وخيل إليه أنه تمتم تمتمة هذيان محموم . ورقب اللطمة كما رقب الرحمة . ونظرت إليه فادية فى بحرانه وخشوعه فابتسمت وقالت وما تزال تستنبئْ : ولكنك رائع فى عطفى يا صديقى . أتشتهى ما أنت مدركه ؟

ومالت به إلى التمادى فى الإبانة . فأثقلت كتفيه ، وعصرت فؤاده . وما يزال يرى التبر والتراب . أيختلطان ؟ . . .

وجاول ظنه أن الجرأة منقذة أحياناً ، وأن لا عليه وقد عاذ بها فى النجاة من لبكته . قال وفى ألفاظه لجلجة كأن لسانه يتعارج : إنى لأطمع منك فى عطف أسنى ، وما أجدنى حيالك غير مبتهل فى معبد . أحبك يا فادية مع ثقتى بأنى أناطح صخرة !

وأكب على وجهه يشهق وقد تبين نجاطه غور المهواة فهو من خبيث المعدن وفادية من كريم الجوهر . وهل يجتمع الضدان ؟ . . . ورسخ فى باله أنه من الهالكين . لقد نشر كفراً . ورصد الطرد . ستصرخ به فادية الطريف : « اخرج أيها الوقح . هل ضعت عن نفسك ؟ » . وهمّ بالفرار . فى أى مجهل أطلق عنانه ؟ . . . بيد أنه لم يحس بسوى يدين رخصتين تطوقانه ، وبصوت خضل يهمس فى أذنه : عزيز ، عزيز ، لا تيأس من رحمة ربك . فإن للسماء مسامع لا تنبو عن صرخة الرجاء ! ـ

فأذهلته حتى شك فى نفسه لا يؤمن بما يسقط إليه . ورفع رأسه وودّ فى هذه اللمحة الحاسمة من العمر لو كان مبصراً . فيرى ما يرتسم فى محيا فادية من خلجات الصدق ومظاهر المودة . أصحيح أنها تفسح له إلى مهجتها وقد وقع منها ؟ . . . وتفاقمت فيه الريبة . أذناه تنقلان إليه الكذب ـ

وآمن وتردد . وانتعش وارتاع . إن فى ما انتفض فى وعيه من القول الأثيل ، الحميل ، ما يحدوه على إنكار كنهه . فادية الطريف لا تخاطب عزيز عدوان بهذا البيان الأثير ، الأثيل . فإما ضلت عنه ، وإما خدعه سمعه . وانتابه دوار خالع من ارتباك ورهبة . فهو فى أزمة من ارتياب . وهاله التصديق وخشى أن يتلفظ بما يمعن فى إحراجه . أى سيد جليل هو كى تذيع فيه ابنة أمين الطريف ، أحد سراة إهدن الأكارم ، ذلك النداء المحيى ، الزاخر بالأمل ، كأنه بشرى الخلاص فى أفواه الأنبياء ؟

وشخص له أنه يحلم . فهو ضحية السراب . بيد أن فادية أنقذته من بحرانه ، وما زالت تجاهه ملك الرحمة ، وكررت ما أضحى به الوهم توكيداً ، قالت : عزيز ، لقيت مجيباً . فادية لا تتنكر لهواك !

فخانه النطق واتسع فيه ذهوله . لا ، لم تخدعه أذناه . فياللفرحة المتوهجة اللألاء ما أنداك . ففيك اليمن ، وفيك الرأفة . نزلت على الجديب فأمرع . وتنفس عزيز عدوان عالياً كى يملك سيطرته على هداه . إن الغبطة لتخلخل فيه مكمن الحجا . هل بات من أنداد أمين الطريف فرضيت به فادية حبيباً ؟

وتكلم وما راقه إلا أن يشدو . قال يجاهد تعتعته فى إعلان حبوره : يا طلعة السعد ما أحلى مجاليك . أنلتنى المبتغى الحريز وما تعللت منه بإغماضة . رضيتُ عنى القدرة بعد طول جفاء ، فأحلتنى منها بما أصبحت به أكرم البشر !

وبحث عن أنامل فادية اللذان يزفّها قبلاته المشتعلة ، العجال ، المشتاقة ، كأنه فى سغب وما يفتأ من زاد الوصال على عدم . وقال يستزيد متيمته إيضاحاً : أأكون فى مأواى الآمن يا فادية ؟ . . . أهذا هو موقعى المصون منك ؟ . . . هل سالمنى القدر ؟

فسرّها أن يمضى فى مناداتها بلا لقب كأنه منها على وحدة مستوى . وأجابت تمنحه نفسها عطية خالصة لا تتحرز فيها : هذا هو مكانك فارتع فيه على طلاقة يا حبيبى !

فسطا عليه السهو، بل الجنون. أتهزأ به الليالى ؟... فادية تناديه: « يا حبيبى ! » . فادية بنت أمين الطريف . فما أشهى اللفظة وما أطيب النداء . وانهار عند قدميها كأنه عابد الصنم . صعقه هذا الفيض من النعمى وما كان ليرصد رشاشاً من قطرة . فما للكرائم تسعى إليه أزواجاً ؟ . . . وطبعت شفتاه القبلات على الساقين الغضتين ، الغضيرتين ، كأنهما من ناصع الغمام . وما انفك على ضعضعة . إن السعادة لتطوىء

أحياناً النهية . قال وفؤاده ينبض فى كلماته : ما هذه البهجة المفاجئة يا فادية وما كنت لها مرتقباً ؟ ... أما يضحك منى الزمن الساخر ، الخادع ؟

فأعلنت بصوت وئيد ، نغوم ، كأنها ما تبرح تنقر الوتر : بل هو يواليك . فاهنأ . بلغت المنى . أنا أقيم منذ أمد على كلف بك ، وما جهرت بحبى لك قبل الساعة . وهى أوانه . وإنك لتدهش وقد مالت إليك ابنة أمين الطريف . ولكن غرائب الحياة تبيح لك الإيمان بصدق الأعجوبة . نزع إليك جنانى كأنى وإياك على موعد . وغالبت هذا النزوع وشئت أن أقنع ضميرى بكونى على شطط . ولكن الراهن لا يخبو ضياؤه . ولقد استسلمت إليه لا أجبن . وتجلى لى منك أنك تنطوى على مثل ما بى من سورة الأشواق. ورقبت بيانك كى أؤيدك فيه ، كما يرقب العطشان البلل . وأبديت هواك فرددت جوارحى صدى الوله . إننا لموثقان برباط الولوع ، فلننعم بالصبوة !

فكأنها تغنى له اللحن المضمخ بأعراف الجنة . فتهدهده به على شجىّ المتعة . وما استطاع إلا أن يوقن بكونه سعيداً . ولكن إلى متى تدوم سعادته ؟ . . . هل له أن يرسخ فيها فلا تدهمه عثرة ؟ ... وماج فى خياله طيف أمين الطريف

فارتعد . إذا رضيت الابنة فأنى يرضى الأب ؟ . . . . أيجيز القطب الإهدنى لأجير من أجرائه أن يصاهره ؟ . . .
وتقلب عزيز عدوان بين الأمن والخطر ، بين الحقيقة والحلم . فما إن يستقر بجأشه الأمل حتى يزعزعه القنوط . وانتفضت حنجرته برهبته فصاح : وأبوك يا فادية ؟

فوجمت . نسيت أباها . أى غضبة صاهلة ، ماحية ، ستجلجل فى أمين الطريف وقد خدش سمعه النبأ الفادح ؟ . . .
وطال الشده . وصال الخوف . فكأن البناء على الملح . انصباب الغيث يقوّضه . غير أن فادية بددت الخشية باعتدادها بدالتها على أبيها . أمين الطريف لا يصدمها فى أمنية مهما غلت وشحط مداها .

ودعت عزيزاً إلى الغبطة . سيهنأ بالرجاوة على مديد شأوها . باتت الطلبة ملك يديه . فانطلق العازف الضرير إلى مسكنه وقد أظلم الليل . وما توكأ فى خطوه على عصاه كأن فرحة قلبه طغت على عينيه فأبصر . وجلس فى مبيته إلى عوده يؤرق به النيام ، ويخلع على كبده المسرة . ظفر بأوفى صبابة . ليعلم الإنس والجن أنه سعيد ، رخىّ البال .

ولولا أن تقبل إليه أمه ، مشفقة عليه من نفسه ، فتدعوه بلجاجة إلى الاضطجاع فى مرقده ، لطوى الليل

حتى منتهاه ، ووقف من الصباح وقفة الترحيب ليبثه شجوه الأغيد . فهو ممن أقامهم الحظ فى الذروة . فقهر الشقاوة العضوض مع عماه التليد ، وذلل لحواه المرتقى الوعر ، كأنه ممن أوتوا القدرة على تليين الصخر ، واستنبات القحل . إنه لمن أخيار فرادى : تفتحت لهم الجنة فى القطوب ! ...

٤

إهدن وزغرتا توأمان . هذه فى السفح ، غارقة بين كروم الزيتون ، متكئة على ضفاف نهر رشعين ، على كتف طرابلس الفيحاء . وتلك فى الرابية ، سارحة بجوار الأرز ، بين الدوالى ، تسبح الله وتمد إلى السماء يداً تعاهد بها على الولاء النصيح .

وكل إهدنى زغرتاوى ولا خلاف . له فى الصيف إهدن يعتلى هضابها ، ويثوى فيها بمسكنه . وينحدر فى الشتاء إلى زغرتا المتبطنة السواحل ويقطن فى مأواه . ولا بد له من إنشاء بيتين ، واحد فى هذه ، وآخر فى تلك ، كى يرضى عن نفسه ويتسع له إلى بدائع التوأمين .

وما أنجبت البلدتان غير الأشداء ، أرباب البطولة والنجدة ، وذوى الحمية والكرم . ضيفهم عزيز . وخصمهم محترز . وفتاهم همام . وفى الصيف تقفر زغرتا وتبيت جوفاء كالأطلال . وفى الشتاء تسكن إهدن ، وتغلّف نفسها بنفسها ، لترقد رقدة أهل الكهف . فلا تستيقظ إلا والربيع

السمح يفتح عينيها بأنامل من ريحان .

وأمين الطريف ، وقد هبت أنفاس الخريف القارسة ، اعتزم هبوط زغرتا وقد شيد فيها المغنى الضحوك . فالبذخ والذوق يلتمعان فيه وما عوّد صاحبه نفسه غير الترف . وأجمعت الأسرة على النزوح عن وكر النسور وقد دهم اخضراره الاصفرار ، وأخذت أوراق خمائله وغياضه تتناثر ، فتجرفها الريح وهي تخشخش فيها إلى كبد الساقية وقعر الوادي .

وليس لعزيز عدوان إلا أن يجرى فى القافلة . فيتوسد كوخه فى زغرتا ، الشبيه بكوخه فى إهدن ، لئلا يغار هذا من ذاك . بيد أن عزيزاً يرى نفسه فى أكرم مثوى ، وما لنزلاء الصروح أن يعادلوه فى أبهة الجلالة . أما يهوى فادية الطريف ، ابنة السيد الأروع ، ذات الرونق الأثير ؟ . . . ومن كفادية فى ذوات الأناقة والطلالة ، والأنس المطبوع ؟

وبدأ العازف الضرير فى نشوة مديدة لا تكاد تنتهى . فيطأ الأرض وكأنه يسير فيها على بساط من فلّ وورد . ويخيل إليه فيما ينصرف عن فادية أنه يسبح على منكب الغيم . لقد ارتقى عن الصلصال الحقير . وفادية مهدت له إلى الاعتزاز بنفسه بما أعطته من نفحات المنى . فمالت به إلى

اليقين أنها ستكون له على رغم الحوائل الصعاب . وكلما جبهها بممانعة أبيها وعدته باجتياز العقبة . فليس ما يحول بينه وبين اليوم البهيج .

على أن عزيزاً ، مع إيمانه بصدق فادية فى الإعلان ، لم يكن يستطيع ، عندما يخلو إلى ضميره، البقاء فى جوه الرفيع . فيطوى مكرهاً جناحيه المبسوطين على مداهما ليأوى إلى نفسه العارية من بواسق الأمل ، الصاحية من شوارد الخيال فيستشيرها فى ما يزخرف له الغد من مطمع . هل له أن يعلو فيجاور السحاب وما فى قوادمه ولا خوافيه علالة من ريش ؟.. بل إن هذا الريش لم ينبت فى الجسم الكليل ، الأمعط ، فكيف يجوب الفلك ؟

إن الرجاء ليهب له الأجنحة فيطير بها . ولكنها أجنحة من وهم لا تتماسك فى اليقظة الفاضحة . وينهد إلى الهرب من غضبة الإعصار، ولا محيد عن هبوب الزوبعة فتجرفه ، وتطرحه على نواتئ الصخور فيتحطم ، وينتثر أشلاء ضائعة المعالم ، مباحة لذوات الناب والمنسر . غير أن قلبه يميل به إلى البقاء فى مدرج الريح ، بل يحفزه إلى اليقين بكونه فى أمان . فليثبت .

ويعبث بنقمة أمين الطريف وفادية ستحجب بحكمتها

الفورة . بيد أنه لا يلبث أن يلتفت إلى نفسه فيزدريها . فهل له ، وهو المسخ ، أن يصبح من أرباب الجاه والصولة؟... وما انفك يندد بهذا العمى الممسك به . إن عيبه فى عرفه لا يعدو كونه أعمى . فإذا نجا من عاهته فقد سلم من الشين . وأنى تطيق فادية أن يتزوجها ضرير لا يبصر طريقه ولا يستجلى فتنتها ، ولا يبدو له جلساؤه ، فتضطر إلى استبقاء فمها فى أذنه ، كى تطلعه على ما يجرى حوله ، وإلى شدّ ذراعها بذراعه كى تقوده فى حبوه ، وإلى مدّ يدها إلى فمه كى تطعمه ، كأنه الطفل ؟

وتثور عليه نفسه . ركب المحال . ويعتزم الصدوف عن آل الطريف . لماذا امتهان المهجة ؟ . . . بيد أن هذا الخافق فى جنبه ، الآمر النبضة، لا يأذن فى قطيعة . فادية تحبه ، فلماذا الإحجام عن الجلوس إلى مائدتها ، ومشاطرتها مناعمها ، ولابد أن يجرح التخلف ضميرها ؟ ... ويعود فيقول وما لرأيه فى أمره قرار : ولكنها فى سن لا تدرك بها وجه قلبها . فما حبها لى غير رأفة تجسمت، فتراءى لها أنها ولوع . وغداً عندما ينجلى الستار عن عينيها ستتضح لها الخدعة ، وتشيح عن قزم دميم !

غير أن هذا البيان مع سداده ينكسف إزاء نبضة

الشغف الملحاح . فينقاد عزيز فى مساق عاطفته مغلوبا على أمره . وتنأى عنه هواجسه ليغوص فى سكرته . وتسوقه منازعه إلى فادية فيجلس إليها وفى حنجرته أغاريد . وكأنه يرى بخياله ما فات عينه الإلمام به . فيصف الأفق ، والغدير ، والساقية ، والشجرة ، والروضة ، كأن نظرة فيها . ويخلع على فادية من صادق التشابيه ما يكاد يذهب جلاؤه عن صحيح اللفتة .

وتطرب فادية وهى تصغى إليه فى تشبيه بها . وتستزيده ما يخلب به سمعها من جزل المقال . فيجهر بفيض سويدائه معلناً بمضطرم الافتتان : لو لم يكن لى منك غير هذا البوح بحنينك إلى مثلى ، لكفانى زمنى مشقة الحرمان . فأنا اليوم هنيء البال وكأنى أحرزت البصر . فأشاهد كل ما حولى من بدائع وطرائف وقد احتشدت كلها فيك . وليت يطلقنى القدر من يد البقاء فأموت مغتبط الروح ، وأضاجع التراب على مسرة . فحسب شارب الكأس مصة من بهيج الراح . ويكفى النفس أن تنتشى ببعض أغنية لتستغنى عن مستفيض الصداح . وفى الثمرة سر الشجرة . وأنا ، وقد سمعت من مبسمك ما عالنى بكونك على هيام بى ، تولانى الاكتفاء ، وأمسيت لا أشتهى إلا أن يضمنى ضريحى على اغتباط بما

حزت من مشبوب المنى . وليس لى أن أبقى، فيعترينى من لصروف ما يبدد عنى لذة ما ارتشفت من المنهل الحلو، السلسال !

فهتفت به متبرمة بيأسه المزمن : وأين الصروف فى سمائنا المشرقة ؟

فزفر وأجاب ملتاعاً : إن تكن لا تبدو لك فإنى لأبصرها ولست أخشى سواها . فهى موكلة أبداً بخطوى . فترحمنى فى قيامى وقعودى . وتسد علىّ طريقى . وأنا منها كالطريدة فى رمية صياد . فإذا أخطأنى سهم فلن أسلم مما تزخر به الجعبة من رهيف النبال . فلا مقامى يشد بى إلى عالى مرتبتك . ولا عماى يحببك إلى من يهون فى إدراك سحر مرآك . أجل، إن فى حسو الخمرة غنى عن البصر بها . ولكن فى النظر إليها تسطع فى الكأس لذة أخرى تعدلها أنا منها على إنفاض . وللزنبقة من طيب الفوح ما ينعش مكتئب الروح ، إلا أن فى التحديق إليها فى نصاعتها، وإعجابها بنقاوتها، متعة أشهى لست منها على بعض حظوة . فأنى تتجنبنى المكاره وهذا نصيبى من حيف الأقدار ؟

فأقلقها التطير الراسخ فى مهجته ونبرت بألم : أنت عصارة التشاؤم يا حبيبى ، وهو ما لا أريدك فيه فتبدد به مرحنا !

فأبدى باستكانة : ليس لمن تجمح به عينه إلى ما يسمو أن يقيم من أمره على طمأنينة . وأنا أعلم كونى أصبو إلى ما يرجحنى مكانة وروعة ، فأنى يهدأ لى بال ؟ ... إنك لتمنحينى الأمان بمقالك الشبيه بقطر الندى فى الزهرة الظمأى . بيد أنى لا أكاد أنحدر إلى بهرة نفسى أستجليها حتى يتبين لى أنى كملتمس الممتنع . فلا سبيل لى إليك . وهل لأمين الطريف ، أبيك ، أن يسخو بغواليه على الصعاليك أمثالى ؟

وقهقه قهقهة المفؤود . وظهرت له نفسه كالحتاتة . وتعبت فادية فى إعادة سكينته إليه . فما به يتفجع فى زهورة العرس ؟ . . . هل كتب سرمداً عليه أن يحمل منديله لالتقاط دمعه ؟ . . . أما يجيد غير التلهف والندب والرثاء ، فيسكر بعبرته فيما تسيل الخمرة الصافية فى كؤوس الندمان ؟... أما تعوّد الظهور بسوى ريش الغراب ، فتساوت لديه المآتم والأفراح ؟

قالت ابنة أمين الطريف تخرج به عن نواحه : إن الأمل واليأس ليتصارعان فيك . ويدلنى زفيرك على كون يأسك يعلو أملك . مع أن الرجاء أوطد أسًّا وأبقى . فلا يهون حتى فى مكتنز الشدة . وما يهيب بك إلى الانتحاب فى المرح ، وإلى الولولة فى بسطة الأنس ؟ . . . فإن تكن

تجد فى غبطتك ما يرزح به منكباك . فتجزع . فاذكر أن صغير الطير يبلغ أعالى الأطواد كالنسور . وأن فراشة السفح تحوم على أزهار القمة ولا يلتوى جناحاها ، وأن للنملة مدبًّا فى الوادى وفى الأكمة . فمهما صغرت فى عين نفسك فلن تعجز عن ارتقاء المعارج الفاصلة بيننا . ولكنى لست أرى مشقة تبعدنى عنك . فأنت فى خاطرى. وليس من هو أقرب منك إلى صميمى . فابتهج ولسنا فى جنازة ، بل فى موكب جزل . أسمعنى رنين الكأس ، وعندلة الوتر ، وأغرودة الشحرور . وأبعد عن أذنى نعاب البومة ، وبكاء الخريف ، وإعوال النائبة . فإننا لفى مجمع أهازيج ، لا فى مناحة تستدر الدموع !

فأخجلته . ما نطقت إلا صواباً . ليس له أن يشكو الظمأ وهى تسقيه من يدها ، وبجانبها الخابية الطفحى ، وينبوع الماء النمير . قال يغالب عياءه وقنوطه : صدقت . إن اللوعة لتنبو فينا عن موضعها . وما كانت لسوى من خار عزمه وضعف إيمانه . فعفوك عمن لم يدمن النعمة ، وما إن والته بعد مديد طمعه فيها حتى رهب أن تفلت منه . فسال دمعه أسى ، وعليه أن يميع سروراً . أضاع رشدى فيض النوال . فتراءى لى أن زمنى ما وهب لى صفاياه إلا ليستردها .

فيعللنى بمرآها ولا يبيح لى التلذذ بطعمها . وهو شأن كل من ظفر بالعطايا بعد حرمان . أجل ، علينا أن نطرب ، لا أن ننغمس فى الغمة ! . . .

وأكب على عوده يبعث فيه الدفء والطلاقة . وجارته فادية فى نقر الوتر فأنطقا الخشب الجاف بالشجو الأريض ، السيّال البشاشة ، الطاغى الفتنة . إنهما ليسكبان لاعج هواهما فى ما يترنم به الجماد من آسر النغم . وغابا فى سكرة الألحان . ولم يشعرا بمن تحلق عليهما مسحوراً بكرائم الشجو المخمور ، المتدفق سجعاً وترتيلا . فالدار بمن فيها أرهفت السمع . وتولى الجمود كل ذى حس وقد حبس الجميع أنفاسهم إكباراً ولذة ، حتى الحيوان والشجر ترنحا بفواتن النشوة المبسوطة .

هذه أصداء الجنة ترددها الأرض فيسكر بها أبناء التراب. ويخيل إليهم لهنيهات معدودة أنهم ركبوا بساط الريح وأشرفوا منه على مباهج السماء . وامتد الهتاف مثقلا بمتماوج المتعة وقد قرّت الأوتار فى سكينتها ، كأن الدنان تستصفى أحشاءها وقد ارتوى بعصيرها كل من حفل بهم المجلس اللعوب الوسنان .

وأقبل أمين الطريف على ابنته وقبلها فى جبينها قائلا

لها بحفيل الإعجاب : أزف إليك خالص التهنئة يا فادية .
إني لأغبط نفسي السعيدة بك وقد نفحتها بالطيب والرضوان !

ودنا من عزيز عدوان يهز يده ويقول بوارف الارتياح : شكراً يا عزيز . إنك لتزيدنى يقيناً بكونك لم تبخل علينا بعلمك يا صاحبي وقد خلعته على فادية كله . وهى مأثرة لا تجحد ، دلتنى على منعة الولاء فيك !

فابتسم عزيز ابتسامة العيّ . هل له أن يفصح عما تقتعد منه فادية الطريف ؟ . . . هذا السخاء عليها بالفن بلا تقتير مصدره نزعتان ، حب الأعمى إخلاصه . هام بالفتاة وأخلص لأبيها فحباها كل ما عنده ، جنانه وعلمه . ولا غنية عن بيان تفرضه المجاملة . قال العازف الكفيف : كل ما نبدى من جهد قليل فى جنب ما أوليتنا من فضل يا أبا حميد . نحن نغرف من بحرك حيث كنا ، وقد ملأت جرارنا ودفعت الكربة عن أرواحنا !

فاستحيا أمين . ليس يطيق الشكر فى ما يراه عليه مقدوراً . إن لم يتوفر أمثاله على جبر الخواطر الكسيرة فمن لهؤلاء البائسين المناكيد يدرأ عنهم الضر ؟ . . . فأعلن يقصى عن نفسه منسكب المديح : ما أرانى قمت بما يدعونى إليه الوسع وما أبرح على تفريط فى نصرة المروءة . وأى شأن لى

فى داري وقد وبختموها وهى مثواكم جميعاً ؟ . . . أمين الطريف
أخوكم لا سيدكم ، وأنتم شركاؤه فى كل ما يقرّ فى يديه !

وهذا السماح الأبلج ليس غريباً عن أمين . نزلت الرأ جأشه فسالت يده ندى . وما لقى فى سامعيه غير من يشه بالمعروف وقد لمس البر . فالمكان موئل خير ورحمة . واستطار والد فادية أن ينفح العازف الضرير ببعض ما يحس به أ الولاء لا يضيع . بيد أنه تحامى الصدمة وسيجبهه عز عدوان بالرفض . وخطر له أن يهدى إلى الأعمى الأ ما لا يجرح فيه نفخة الشمم والعفة . فنزع من بنصره خا المرصع بثمين الياقوت معلناً : للمجهود راجح الوزن عند يا عزيز . فهل لك أن لا تخذل صديقك أميناً فى بعض ما يذيع وارف مأثرتك ؟

وتناول يمينَ الأعمى وزانها بالخاتم . ورهب فى عزيز الانتفاض والصدّ . غير أن عزيزاً أمسك باليد المحسنة إليا وقبلها . وانتشر دمعه على خديه وقال : شكراً للمقادير وقد أقامتك لى أباً . فمن يرفق به أمين الطريف فالحظ خادمه !

ونفر إلى عوده ينطقه بتسبيح الوفاء والسخاء . أبو حميد ركن قويم فى معقل الحفاظ . وارتاح والد فادية لسكون الأعمى إلى العطية وكان يخشى هبوب الزوبعة . وابتعد ومن

ـوله عن مجلس العزف يخلونه للعودين الشاديين . وهدأت
الأوتار بعد إجهاد . وغمغم عزيز قولته : هل رضيت عنى
يا فادية وأنا أطأطئ الرأس لحكم أبيك؟ ... جاد علىّ
بخاتمه فأبديت الامتثال ولم أصدم شهوة الكرم . وما ابتغيت
إلا أن أوضح كونى ذلك المطيع الطامع فى رضى سيده عنه .
أمين الطريف سيدى . وأنت مولاتى . ويا لهناءة هذا العبد
وقد أسعفته الطفرة فى إحراز عطف سادته فرفعوه إليهم ،
وأجروا عليه عوارفهم ، وكسوه مطارفهم ، فبات ذا مكانة
ونبل !

وبحث عن يدها فقبلها وما ينفك يحس فى حضرة
فادية بأنه لا يعدو كونه أجيراً . غير أنه أجير محظوظ
وقد رتع فى بحبوحة النعمى . وليس لسوى أرباب العز أن
يبلغوا من ابنة أمين الطريف ما بلغ من رفيع الخطر .
وهو إذا قبل يدها إقراراً بسيادتها فما تناسى أمره كحبيب .
فجمعت قبلته بين الرق والشوق . وإنه لرق فى الحالين ،
يالهائم عبد قلبه . قالت فادية الطريف : ما فتئت أعالنك
بكون قبول الهدية شبه مقدور ، وردها إساءة لا يندمل
لها جرح . وما ينزع أبى إلى الحط من منزلتك فيما ينيلك
بصلته . فهو أمين الطريف من مناعة الطبع ما يسمو به عن

الإزراء بالكرامات . أما أن تكون عبداً فهو ما دحضه طب
فعالك ، وقد دللتنا على أن بين جوانحك نفس كريم حر !
فانسكبت مهجته على أسلة لسانه وقال يكشف
لواعجه : فادية ، ما تعلمت عفة الضمير في سوى
المغنى الزاخر بالمحامد . فالبيئة طبعتنى على غرارها وأطلة
شاهداً من شواهدها . وأى فضيلة تنبو عنكم وقد و
المفاخر على مداها ؟ . . . فالجاه ينبع فيكم . والأر
تتباهى بانتمائها إلى حماكم . فتح أبوك صدره للواردين ف
منه أفاويق البذل والرفق ، وما كنت فى سوى الرعيل ال
من المنتجعين . بل أرانى فى الطليعة وأنت تحبسين على
قلبك . وتحشدين فى إسعادى حليتيك ، ريعان ال
وغضارة الحسب . ويا لرغادة عيش عزيز عدوان وقد و
له دهره أطيب ما عنده .. فساق إليه الطهر ، والأناقة
والشرف ، واللدونة ، واليسر . وما كان للمقعد أن يهت
إلى رجلين سليمتين لولا بقية من أعاجيب . ففى حنينك
معجزة صرف ما أجد لها تأويلا فى سوى رحمة السماء . ا
للمصاب بنظره ، وذات يده ، أن يرجو الوثوب إلى الذ
لولا قهر المحال ؟ ... فالحرون فى هواك بات سلساً
والصعب ليناً ، كأنك خضدت فى نزولك إلى عزيز عد

الحاجز الممتنع . وهى مبرة الحنوّ الأثيل وما أقع لها على ما يجلو كنهها . فنى الخلق حفل من أسرار ليس لأبناء التراب أن يقبضوا على مفاتيحها المستعصية على ضحايا الفناء !

فأيدته فى مذهبه الحق . فى مكامن المجهول من الألغاز ما يقف حيالها علم الإنسان حسيراً . وإلا فما أقامها على شغف بمن يتقاصر عنها أرومة ورونقاً ؟ . . . فهل لها أن تسكن إلى مودة أعمى ، مملق ، ناقر عود ، ولها من المعجبين بها ، والطامعين فى إحرازها ، العديد الضخم من أرباب المحتد الباذخ ، والغنى اللباب ؟

وما كانت إلا راضية عما أزجاها إليه طالعها . وهل لها أن تتخطى المكتوب ؟ . . . فكما نشأت فى حجر أمين لطريف بدافع المشيئة المسترة العليا ، أحبت عزيز عدوان دون أن يكون لها فى أمرها يد . فهى تخطو حيث تدعى عفواً إلى الخطو لا حيث تريد . وقد يخيل إليها كونها صاحبة الشأن القاطع فى مصيرها ، ولكنها على وهم . إن هى إلا لعبة بيمين هذا الوارف الدلال ، الساحب أبداً ذيل التيه ، المدعو القدر . قالت : ليس لنا أن نذهل عن أنفسنا بالنظر فى أحكام الزمن علينا ، وهى غوامض لا تنقشع عنها ستائرها . بل علينا أن ننعم بروافد النهزة المؤاتية . وذو العقل لا يضيع

عن حاضره . فمن أطلق البشر قطيعاً يرعى فى مسارح الوجود
وقادهم فى متعدد السبل ينعمون فيها ويشقون ، يتحالف
ويتصارعون ، يفوزون ويكبون ، مال بنا إلى التلاقى فى صم
الشوق ، فلنقتطف السعد الموفور من مجناه وهو مباح لنا !

وانعقدت الأنامل على الأنامل . وترطبت الشفاه بالش
وما برحت على ظمأ . فلا ارتواء ولا اكتفاء . وهتف عز
عدوان من كبد تستعر حنيناً : يا رحمة الله ما أصفاك وأسما
عرفتنى ضعيفاً فشددت ساعدى . ومنطفىء البصر فأنر
بصيرتى . ومكدوداً فأنعشت قلبى . ومقطوعاً فحبوتنى الأنس
وحقيراً فأنلتنى الرفعة . هدمتنى النوائب فبنيت ما انهار
نعيمى . ولقد طال عتبى عليك بطول نفارك عنى ،
وثناياك تتكشف لى عن رضى فلم يبق لى إلا أن أؤمن بد
نصرتك . فأنا الغصن اليبيس المورق بعد ما أوشكت الفأ
أن تقطعه وتلقمه النار . أنا البنفسجة الذابلة فى الزا
الموحشة ، وقد صوّحها القيظ ، فبللها قطر الندى و
عنها الانتثار أوراقاً جافة ، كفلول المهزومين فى معركة البقاء
أنا الثمرة الناضجة الطيبة فى مرذول الأشجار ، فقطفتنى أك
يد وقد أبت علىّ أن أسقط فى مناقير الطير وأشداق الحشرات

والتفت بسراه على خصر فادية ، وألقى رأسها إلى كتفه

وما فتئت يمناه قابضة على يمينها . وقال بشجو غرّيد : أيقنت الساعة أن المعادلة فى البشر ليست ضرباً من المحال . فمن أنشأ الكون من جبال وسهول وأغوار ، وقضى على الناس بأن يعيشوا طبقات ، لا يضيق به أن يجمعهم ويقيمهم على مرتبة متساوية . فالعناصر تختلف قيمة ، إلا أنها واحدة فى جوهرها . وقد تمترج فتتوازى . ولا يضير الوردة أن تلتصق بعنقها الشوكة وهى منها . إنى لأعلم بكونى عدوت طورى والحب يوثقنى بك ، غير أنى آمنت بالطفرة . فالحظ يهب اليمن للمعدم ، والنبل للمهين ، والقوة للحسير . وليس لى أن أنكر يد الحظ فى ما أرتع فيه من شأن وهناءة . تبارك الله وهو يأسو جراحى وينفحها بالبرء المنّان !

ونسخ من ذهنه الهاجس المرتاب . فهو لسعده ولذته ولن يتقاعد الجسور عن بلوغ مناه . فالقمة ليست وقفاً على صحيح الرجلين وللأعرج أن يبلغها متوكئاً على عصاه ، وللكسيح أن يرتقى إليها دبيباً وزحفاً . فالجهد المقرون بسماح الزمن حليف النجاح .

ونام عن طمحات القدر الغادر . وركن إلى قلبه وغده . فكل ما يتراءى له من موفور الغبطة دله على كون الرجاوة تمأمن من طوارئ الأحداث ...

٥

لبنان شطران . شطرٌ ارتضى العليقة ، والصخرة والهواء البليل ، ورسيل الماء ، وشطر حنّ إلى اليسر فاغترب يحفزه الجد والإقدام . ولقد توغل فى الأقاصى يجود علب بسعيه ويستدر غاليها . فهو فى كل مكان كالنور والظلام إلا أنه نور وقد حمل مشعل العلم يضىء به ويهدى . فما نز قطراً إلا كان فيه رسول إخاء وعرفان .

فى أفريقيا يربض لبنان البلد الضيق الوثاب ، المتو الذكاء . وفى أميركا ينتشر هذا المجاهد السبوح الشأو ، الصاد العزمة . وما خلت منه أوربا وهو فى عواصمها وثغور ومجاهلها . ولا عزّت عليه أوقيانوسيا المتطايرة جزراً وقد ر منها فى كل دسكرة . فتوغل فى قلب أستراليا ، وزيلن الجديدة ، وفيليبين . وامتدت به القدم إلى الشرق الأقصى من هند وصين ويابان .

لكأنه روح الله انتشر فعمّ . ومن العجيب أن ينبس هذا الشعب الضئيل فيملأ المعموز . وهو أنى كان لا ينس

وطنه . فيظل فى نهمة من فضول إلى أنباء بلد هجره ويشوقه أن يعود إليه . فالحكم من يقبض على أعنته ؟ . . . والقرية من يسوسها ؟ . . . ويأبى أن تفوته أخبار الناطور ، والشاة ، والعنزة ، والسنديانة القائمة فى أطراف الضيعة كالمهجور لا يلقى حوله غير أساه .

وزغرتا أطلقت إلى المهاجر القوافل تلو القوافل من سواعدها المجدولة . فهم فى ما وراء البحار ألوف تمور كالكتائب المجندة . وما يبخلون على الأهل بجنى اليد ومكتنز العطاء . ويرجع فريق منهم إلى أرض الآباء والأجداد بالأموال الجزيلة . وبعضهم يبدو كى يقع على من يتزوجها ، ثم يلجّ فى الرحيل ، كأن جميع نساء العالم لديه دون ابنة قومه ، اللبنانية الزهراء .

وهو حنين الدم إلى الدم . وشوق الطبع إلى الطبع . فتمترج العادات وتتلاقى . وتتفاهم الأرواح وتنجلى الأحساب . والميل إلى الانصباب فى بوتقة الأعراق متأصل فى كل قوم ، لا فى لبنان وحسب . فيروق من يجنح إلى تشييد وكره أن يقرّ فيه على راحة . ولن يجد صبوته فى سوى قرب من تتصل به بوشيجة المنبت . فيعرفها وتعرفه . ويشتمّ فيها ريح بلده . وتوثق بعضهما ببعض ذكريات واحدة ، هى فى عرفه أمنع

رابطة لاستبقاء المودة والوئام . .

ويوم احتفت زغرتا بوفود حاتم منظور عليها حيث يا
أبناءها المهاجرين ، المتطايرين عنها إلى كل صوب كأنه
ينهدون إلى غزو العالم . فاندفعت إلى لقاء العائد على متو
خيولها . واقتعدت العقل والكوفيات رؤوس بنيها . والتف
القدود بالأعبئة . وبدت فتياتها بأهازيجهن وقد شابهن جآذ
الصحراء بعيونهن السود المكحولة ، وبقاماتهن المياسة المصقولة
وبخطواتهن الرشيقة الخطرة .

وتلوت الرماح بأيمان الفرسان كأن فى قبضة كل منه
لساناً مندلعاً من مشبوب النار . ولزغرتا وما حولها من بلا
الأرز ، وعكار ، وبعلبك ، صلات وثيقة بالبادية
فالعادات العربية الصرف متوطدة فيها، وكأن القوم قبائل ذوات
بطون وأفخاذ يرين عليها روح العشيرة . فهم يد واحدة في
السراء والضراء ، وأرباب أنفة وحفاظ . لهم فى الأخذ بالثأ
سمت القدامى وما تبدلوا عنهم فى الغارات . وإذا عبدوا الا
فما أقصوا عنه بعيداً الوطن والبطولة والسماح .

والعقل والكوفيات على سواد لون . بل إن هذا السوا
يصبغ القوم فى الصدرة ، والقميص ، والزنار ، والسروا
القصير الذيل . كأنهم فى وقار دائم يشحون به على الابتذال

وما خرج عن هذا الزىّ غير عصبة من الجيل الجديد سطت عليها بهارج الحضارة فقادتها فى المهيع الغربى ، الحديث الشكل والوجه .

وبدا حاتم منظور فى إخوانه صقراً طويل الجناح ، رهيف المنقار والمخلب . فهو هو ابن الأرز البار وما لوت الغربة من شموخه . ولا أذلت من نقاوة جبينه صلابة الجهاد . فالسمرة الصافية كلوائح الفجر سالت فى قسامته . وجبهته العريضة دلت على وهج فطنته . وعيناه الحادتان ، الوسيعتان ، المتقلبتان على مضاء وحلم ، أظهرتا اعتداده بنفسه ، وإن هو إلا من أصلاب النسور . وقامته الطويلة ، الراسخة الجذع ، الجانحة عن البدانة ، جهرت بكونه سليل ذلك المطمئن المنيع البديع .

وتكلمت السعة فى مظهره ومهزّته . فما قنصته الهجرة حقه ولا أزرت بصدق نضاله . بل جادت عليه بالوفر وما كان حاتم له حافظاً ، وقد شبكته بسميّه الطائى بعض أسباب . راقه أن يحشد المال ليجيد نثره . فيسخو به غير مدخر منه لنفسه إلا الكفاف . بيد أن هذا الزاهد فى الدينار الحظ أن يجلو عنه . فما إن ينفق العشرة حتى يقع على . وفى هذا الفيض من النعمة استقرت بيمينه ثروة

مغبوطة . فتراكم عليه الخير فى تجارته فى البرازيل كأنه على بحر طمى . فما إن تطغى عليه موجة من يسر حتى ترفدها موجات . وليس لليمن ، وقد حالف ، سكون واسترخاء .

وزغرتا عرفت فى ابنها العائد سجية الكرم ، ودفقة الإقبال . فحنت إلى لقائه كأنها فى تحية بطل من أبطالها ، رافعة له الرايات ، شاهرة العوالى . وأفاضت بالحداء والهتاف : فن عصائب فى أهازيج . ومن أسراب فى أغاريد . كأن زغرتا فى لقاء فاتح ، أو فى عرس قطب صنديد . ووقف فيها حاتم منظور وقفة الشكور المبسام . وكادت عيناه تغرورقان حيال الإيناس المنشور . لم يبخل عليه بنو قومه بباذخ التكريم وما غابت عنهم حظوته السامقة وأريحيته الدهاق.

ورفرفت عليه أوراق الزهر كأجنحة الأمان . وتساقط عليه منثور العطر غيثاً ناطقاً بنداوة الترحيب وما توارث زغرتا فى عاطفتها . ولوّحت الصبايا بمناديلهن مبتهجات بعودة الغانم المنصور وما يزال فى غضاضة الشباب . ورمقنه بعيون يتأجج فيها الشوق وما ندّ عنهن أن هذا المقبل بطبل ، وزمر ، لم تقيده أغلال الزواج .

وتحدث الزغرتاويون عن أخيهم العائد بإعجاب وعقدوا عليه الأساطير . وساءلت النساء بعضهن بعضاً بملحاح

الفضول عمن وقعت منه من فتيات بلدته ، وفيهن من ذوات الروعة نخبة من الزواكى تتواثب على قوة أسر ودل . وأقيمت لحاتم المآدب ، وتصدر المجالس ، وشهد ليالى الأنس تغنى له فيها الظباء الشوادن على ألحان أوتار عزيز عدوان الضرير .

ولقى عزيز لدى حاتم منظور كل رعاية . فخصه بالمال طفاح اليدين قائلا له : أنت مضرم مسرّاتنا يا صاحبى ، وكأن لا حياة لمحافل بهجتنا إن لم تخلع عليها رنات عودك الخضال !

وأشفق عليه وأكبر جهده وقال فيه : علينا جميعاً أن نظاهر هذا الموتور الحق على كسب رزقه . فإذا شقينا ساعة فى التحصيل شقى أضعافها . وإنى لأنظر إليه وريشته تثير الأنغام من قلب الجماد الأصم فيدهشنى صبره على زمنه . فهو أصدقنا سعياً ، وأمضانا كفاحاً ، وأجدر منا باللقمة المبتلة بالرغد !

وأكثر من دعوته إليه . وتحامى تجاهه من إظهار رأفته به . فإنه ليكرمه كعازف متفوق . وروى عزيز لفادية الطريف ما يلقى من إعجاب حاتم منظور . فالرضى عن فنه مدعاة إلى فخره . وتمادى فى سرد مكارم المغترب الراجع إلى الأهل والخلان . وفادية سمعت وارتاحت إلى الأماديح .

هذا مقحام عنيد يشق طريقه بمضاء إلى روائس النباهة . وأبوها حكى لها عن حاتم ما دل على الاطمئنان إلى همة فتى الإقدام والمروءة . قال أمين الطريف : ما رأيت من يرجحه فى الأريحية يا فادية . فكأن السخاء أرخص ما لديه . فالذهب يرشح من بين أصابعه كيفما امتدت يمينه . لكأنه دفقة من دفقات الجود !

وأمين زار الفتى مهنئاً . وبدا حاتم يرد الزيارة . وخطرت له فادية فى أناقتها ، ووعى لطافة بيانها ، فشاقه الرواء الساطع النور . ولاين وداعب . وطال جلوسه إلى الرونق المطبوع . ونهض للانصراف استحياء من الإطالة وبوده لو رسا . وابتعد وفى عينه تمثال من نصيع البهاء ، وفى خاطره تفكير . لماذا رجع إلى قومه ؟ . . . هل وقع على المنشود ؟

ولاحت له الفتيات سيولا تندفع على شعلة من نضارة وضياء . غير أن وسامتهن لم تبدد من خياله طيف فادية . فما زالت ابنة أمين الطريف وجه الحسن المبسوط . ولم يجهل مكانة أبيها القطب المهيب . واستطلع أمرها فما سقط إليه غير مستعذب الإطراء . فادية فى أرفع مستوى من العلم والتهذيب ، وقد صانها أبوها من كل زلة ، وصانت نفسها من التفريط فى الحشمة والسمعة ، وما تنفك تحرص على وجهها النقى .

وجاءه من يدعوه إلى التماسها من أبيها . هذه خير من يحاول ناظراه من ذوات الملاحة والفطانة والفضيلة . ما تبذلت ولا ماعت . وبخل بها أبوها فأودعها أكنافه كاللؤلؤة الثمينة في أمنع حرز . وحاتم منظور نشط إلى الصبوة . فادية أكرم ذات نداوة اختلجت في باصرتيه . وأزمع أن يطلبها من والدها . وعلت لشهوته غمغمة تجاوب صداها في مسمع أمين الطريف .

وأمين لم يتعجب مما سقط إليه . فما حاتم منظور أول من كشف عن الرجاوة وابتغى فادية زوجة له . غير أن أميناً صدّ عن إجابة من سبقت لهم في المجال خطوة . فما يكون منه تجاه فتى الحمية والجود ؟ . . . وراز المطلب بتؤدة أهل النظر . فليس من السهل إقرار مصير فلذات الأكباد . وتجلى له في حاتم موئل أمن ، ومعقد ثقة . فالشباب الريان يدرج على سعة من فياض النعمة . فإذا انتهت إليه فادية فلن تشقى وتهون .

وما يشتهي الآباء للأولاد إلا أن يسعدوا . فيواكبهم في غدهم الخصب والرخاء . وجلّ ما رغب فيه أمين الطريف لابنته أن تمضي في عيشها الرفيه . فتقع على من يمهد لها إلى حياة من طمأنينة أشبه بما ترتع فيه في ظلال أبيها من خفض .

وعالن من حدّثه عن ملتمس حاتم منظور بأنه لا يتنكر للأمنية . ولكن عليه أن يتداول وابنته خمير الرأى ، فتدلى فادية بصريح التروع .

وأمين الطريف مع استوائه فى أسرته على مطلق سؤدد ، وفصل خطاب ، وليس لكلمته مردّ ، ولا لإشارته نبوة ، يتوق إلى الظهور حيال أولاده بمظهر من يبادلهم المشورة . فيقف على ميولهم فى ما يعتزم قبل أن يبت ويجزم ، وخصوصاً فى ما يتصل بهم من أمر . وجنح إزاء فادية إلى استطلاع رأيها فى ما يعرض له فيها . أترضى بحاتم منظور رفيق عمر ، وأليف صبابة ؟

وقام إليها على وارف ابتسامة ، فإذا بها جالسة إلى عزيز عدوان تحبس عودها . ولاح له أنها ممتلئة روعة كأنها فى أكمل محاسنها . وأشرقت عيناها وقد توهج فيهما نور وخمر ، كأنهما هيكل من سحر يفيض جلالا وأسراً . وليس لمن تقعان عليه أن يسلم من السجود مستنيما إلى عظمة الفتون .

ونقرت عودها . ورافقت النغم بصوتها المضمخ بعبير الخمرة . فترنحت لها حتى الأزهار فى الآنية . هذا عيد فى الجنة . ولمس أمين فى ابنته تبديلا وقد تبين منها أنها على ثمل ، كأنها جرعت من عصير الكرمة الكأس الدهاق . فهل دبت

فى عروقها نشوة الهوى ؟ . . . إن فى هذا الصوت المجنَّح من دفق الحميا بما يجلو متعة الشغف العريق . فمن أحبت فادية ؟. . . هل سعى إليها حاتم منظور بعد الأوان ؟

وخاف أبو حميد من اندلاع الشوق فى مدّات الصوت وليّاته . ما ثمة شجو خلىّ . وحدج ابنته بعين قلقة . فمن هو المستأثر بلدونة حنينها وبينوع قلبها البكر ؟ . . . وأبصرت أباها فما برئ خداها من وقد الاحمرار ، كالنار تزداد وهجاً كلما زيدت حطباً ، بل كالشفق أمعنت فى تلوينه قبلة الشمس المودعة . آلمت خفر الأفق بعناقها فاحمرّ خجلا وقد استحيا .

وابتسمت فادية لوالدها ونهضت تحييه . فطبع قبلة فى جبينها وقال يكرر هتفة الإعجاب : أمسيت من نقر العود على ضلاعة المبدعين . وهو ما لم يدهشنى فيك وقد انطويت على مرهف البراعة . ويشوقنى أن أنقل إليك حديثاً جاءنى عنك . فهل لك أن تأتى إلىّ فى حجرتى بأذنين سامعتين وخاطر طليق ؟

فارتعشت قلقاً وكأنها أدركت ما يشتهى أن يجاهرها به . فما ثمة غير حديث عن زواج . ولهجة أبيها دلتها على ما ينغش فى صدر أمين الطريف . وكرهت الإصغاء إلى بيان أبى حميد وسيسلخها من هواها الأثيل . فليست تهيم بسوى العازف

الأعمى وهو فى عرفها خير من تجمعها به صلة من ولوع . غير أن ما انطبعت عليه من برّ الوالدين نزع بها إلى التلبية فقالت وهى تبتسم ، على حين يرتجف قلبها : حبًّا وكرامة يا أبا حميد !

ونهضت تستأذن من ناقر العود . وأحس عزيز بأنه فى غير موضعه ، فقام يدرج إلى مبيته وقد أخلى المكان للأب وابنته . رابته هذه الخلوة . فعلامَ تنطوى جوانح أمين ؟ .. هل وفد عليه طالب زواج يبتغى فادية ؟ . . . ورسا فى ذهن الأعمى الهائم أن حاتم منظور رنا إليها ، وأنها ستكون له . وأدمى قلبه الخاطر الحاطم ، وآمن به كأنه يلمس الكارثة بملء يديه . وشعر بأن حبلا ينعقد على عنقه فيكاد يخنقه . أفلتت منه فادية الطريف .

وضرب الأرض بعصاه يستهدى وبصيرته الرهيفة الإحساس فى شبه عمى . وكاد يضل عن طريقه وهواجس السوء تتقاذفه ، كأنه الأرجوحة فى يمين مهووس . ما عوّده حدسه الشطط . وسرت فى عروقه خلجة باردة . فهو فى اضطراب والتياع . ولكن أتخلع فادية ذمته وتنفضه منها ؟ . . . ليس يراها تقدم على هذا الكفر وهو دون سجيتها الصدوق .

وجاءه من يدعوه إلى إحياء مجلس طرب ، وله العطاء

السمين . فاعتذر كارهاً . إنه لمريض . وخرجت كلماته
من شفتيه معتلة محمومة ، كأنه يعانى وطأة داء مهيض .
نفسه لا تتسع للبهجة وقد جاولتها رهبة عاصرة كالكابوس .
فالشر لم يقع ، ولكن مهجة عزيز عدوان تمثلته واقعاً ،
كأن له من نهيته رائداً يفسح له إلى معرفة الغيوب .

وللبصائر أحياناً نفاذ إلى الحق . فيتجلى لها الغد بدافع
الحس كأنها عيون ترى الدفين الوشيك النشور . وما أخطأ
عزيز عدوان فى بوادر تخمينه . قوة الوحى فيه صدقته النبأ
كأنها تبثه اليقين . فما حدث أمين الطريف ابنته فادية
عن سوى حاتم منظور . قال يمهد إلى البغية : أنت فى مستهل
النداوة يا ابنتى ، وما زلت فى بكور الربيع . والأنظار تحوم
عليك معجبة بنضارتك . وحبا إلىّ فى التماسك عدد جم من
فتياننا ، جلهم من الزهرة . غير أنى كنت أراك لا تبرحين
بعيدة عن الخليق بك . أما الآن فشاع فى ضميرى أن
الموعد حان . وليس طالبك من الطالعين علينا فى كل غدوة ،
وهو ممن لا يجود بهم الحظ أبداً . وكنت أعقد الصفقة لولا
الرغبة فى استطلاعك الرأى ، لئلا تقولى إنى أستأثر بلبك .
فلا أبيح لك المجال إلى ميولك . فماذا ترين فى حاتم منظور ؟

فجرضت بريقها . ما رقبت من أبيها غير هذا البيان ،

وقد جلته لها مهجتها اليقظى . وانتفض فى وعيها خيالان حاتم منظور وعزيز عدوان . وما غفلت عن المحسوس فالشقة بعيدة بين الأعمى والبصير ، بين الفقير والغنى بين الحقير والوجيه . عزيز فى رثاثة جيب وقميص ، على حين يرفل حاتم منظور فى يمن ويسر ورحابة وعز . حبيبها الكفيف لا يكسب قوت يومه إلا وقد استحلب الصخر ، فى حين أن النعمة تتمرغ فى عتبة حاتم وما تشتهى إلا أن تدوسها قدماه .

غير أن ابنة أمين الطريف ملكت روحاً يميل بها إلى إدراك الغنى والجاه الكامنين فى مطاوى النفوس ، لا البادين للعيون . ففى أعماق ضمير العازف الأعمى كنز من رفعة وحفاظ لا تعدله فادية بثروة من نضار مهما رجحت وسمت . وإنها لترى عزيزاً أبهى وأغنى وأوفى من حاتم ، مالئ بلدتها ، وشاغل الأذهان . وما نسيت عهدها ، والحرص على المواثيق من شيمتها . فليس ما تواضعت عليه وناقر العود الضرير مما تذهب به روعة ، ويمحوه وفر .

قد يكون حاتم فى خلق الأباة الغيارى . وإن هو من سوى هذا الرعيل كما بدا منه وعرفت عنه . غير أنها أحبت عزيزاً والحب ستار دون كل إغراء . بل هو أبعد إغراء وليس

ما يدانيه فى الفتنة . وفادية تحب فتاها على فقره وعماه ، فأنى تشيح عنه ؟ . . . ولاحت لها غثاثته نعيما حافلا بالكرائم . وتعامت عن فرائد حاتم منظور وليست تهواه . قالت ترد على أبيها : شكراً لوالدى وقد أقامنى منه بمقام الراشدين ، فاستشارنى فى أمرى . وما كان لى إلا أن أؤيده فى دنو الوعد ، لولا رغبة فى نفسى تقعد بى عن حاتم منظور !

فراعه مقالها . واتسعت عيناه وفتح فمه وجمدت فى أساريره البسمة . من سلبه فادية واستقر بسويدائها ؟ ... وشاء النطق والاستقصاء فخاف أن يقع على ما ليس يرضيه . هل اختارت ابنته فارسها ؟ ... وارتبك أمين الطريف . فمن هو الغانم الموفق وقد جهله أبو حميد ؟ ... أهو من الصفوة ؟ ... وأقلقه أن تكون أسفّت ابنته فى من أوثقها به فؤاد هاالبكر . ولكنها ما عوّدته الإسفاف . وطغى عليه ملحاح الفضول فاستفهم بحذر الخشيان مع شديد ثقته بفادية . هل تأخر حاتم منظور عنك يا ابنتى ؟ ... ألا من بلغ مناط الثريا فاستهواك ؟

وانحبست أنفاسه فى صدره على رهبة وشوق إلى الإلمام بالواقع . من اختطف منه فادية دون أن يدرى ؟ ... ليس يعرف ابنته على صلة بسوى العازف الضرير . فهل أحبت فادية عزيزاً ؟ ... وسخر أمين الطريف بهذا الخاطر المبتذل

وود لو لم يعرض له فى بال . ما به ينحدر إلى درك الإثم ؟ ... ورصد بيان ابنته وكأن حياته موقوفة على ما يفيض به المبسم البليل . قالت فادية دون أن ترتبك فى الإيضاح : نفسى تأبى علىّ هجر أكنافك . فالاستقرار بظلك تلتفت إليه شهوتى . فهل يبخل أمين الطريف على ابنته فادية بالضيافة وهى بعض مكارمه ؟

فما سكن إلى ما تجلو من عذر . فالتروع عن حاتم منظور مصدره باعث آخر. قال يشدد عليها فى الإعلان لا أراك تكشفين عن خفاياك فى ما تذيعين . هناك من يحن إليه صميمك ، فأزيحى عنه الستار كى يعرفه أبوك . فإن يكن من معدنك ، أو ممن ترجى لك السعادة فى أفيائهم ، فهو لك . ولينطلق حاتم فى البحث عمن لاتزال ترقب ومضة الرجاء، ولن يشق فى الاهتداء إلى ما ينشد من منى . من هو المتغلغل فى جوارحك ؟

وانتظر الإيضاح وفى عروقه نار . هل أذلت ابنته شموخه؟... وفادية ، ذات الطبع الصريح ، نهدت إلى البيان . فلتحدث أباها بصادق منازعها ولتتبين موقفه منها . ولم تكن تجهل أن الرفض نصيبها ولن يؤيدها أمين الطريف فى هذا الهبوط البخس . على أن لها قلبها يتشفع فيها . قالت وقد صممت على

مجاولة الإعصار : أبى يعلم أن للأفئدة وثبات مجهولة المنبع . فلا يحس المرء إلا وقد تلظى على رغمه بوهج الحنين . فيفقد سيطرته على حسه وتخبو نهيته وقد دوّخها هواه . ويميل إلى حيث لم يكن يشتهى أن تتوطد قدمه . وأنا مع يقينى برفيع مكانتى ، وبسحيق شأو أمين الطريف والدى ، أحببت ...

وأمسكت عن الجهر بالاسم كأنها رهبت فى اللحظة الفاصلة الارتماء فى فوهة الخطر . ودرى أبوها مما أسهبت فيه بأن الانحطاط وقع . فصرخ من كبد تفور : مَن يا شقية ؟

واحمرّ وجهه غيظاً . وشهر قبضتيه للكم والضرب كأنه حيال من يرغب فى صرعه وتهشيمه . فانطلق الاسم عفواً من مبسم فادية تجاه هذه الدعوة الآمرة إلى الإبانة . قالت دون أن ترهب سوء المغبة : عزيز عدوان ، يا أبى !

فتصاعد العواء من حنجرة أبيها . واستطلعها ما أفاضت به كأن فى أذنيه وقراً فلم يسمع : من ؟ ... من ؟!

فنكست بصرها وغمغمت بدافع الصدق الراسخ فيها ، وبقوة إيمانها بهواها الملحاح : عزيز عدوان، ناقر العود الأعمى !

ورقبت أن يطيحها الزلزال . وغاب أمين الطريف عن نفسه وهو يوقن أنها جادّة فى ما أعلنت . وهاج كالملسوع فى قلبه وفى أنفته . فأغار كالزوبعة على ابنته يطوّق بقبضتيه

جيدها ويعصره وما يروم سوى خنقها . وغلت فيه نزواته فبات لا يبصر ولا يدرك ما يقدم عليه . وزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب ، وهو يود لو اتسع له إلى نثر الأرض شظايا فى بؤرة العدم ، كى يمحو ما يلمّ به من عار . داست منه ابنته أكرم عنوان . ألا من أحبت البلهاء ؟ ... وهدر والضغينة تدمدم فيه : بمن شغفت يا عاثبة ؟

وسمع من فى المنزل فطفروا إلى مصدر الزعقات . ولاح لهم رب المكان يخنق ابنته بلا هوادة فى استلال روحها ، والفتاة تتلوى بين يديه على فضلة من رمق . وما دروا الحافز إلى هذه القسوة وكادوا ينكرون ما يرتسم فى عيونهم . أيجنح أبو حميد إلى القضاء على ابنته المدللة ؟ ... ولكنه يؤثرها على قبيل . فماذا ارتكبت من نكر حمل على هذه الخشونة فى التأديب ؟ ... وهبوا يفصلونه عنها صائحين : عفوك يا أبا حميد . تكاد تقتلها !

فنبر باحتدام يستشرى فيه : ابتعدوا عنى . لن يسلم من يحول بينى وبينها . دعونى أختطف أيامها . هذه مجنونة وجنونها سيقضى على شرفنا . أبيحوا لى طلاقة يدى فيها !

وعلا شدقيه الزبد . وتطايرت كلماته من شفتيه ثائرة متراكمة ، يزحم بعضها بعضاً . وأبعده من حوله عن ابنته ، ولكن بعد فائق الجهد . وحملوا الفتاة إلى حجرتها يلقونها فى سريرها

ويجتهدون فى إنعاشها . وأشرفت فادية على الموت . فخارت قواها وأحست بمداركها تضمحل، وبالظلمات تطغو على روحها . وانتابها غشيان غاب به عنها المنظور الملموس . وهفت الأم إلى الأب تصيح به مرعوبة : ماذا فعلت بها وقد ضاعت عن صوابها ؟ ... هل قتلتها ؟

فأعلن وهو يرتجف حنقاً : ما وددت إلا أن أراها مائتة فهى خبلاء . لو عرفتِ بمن تهيم لساعدتنى على محوها . فهى على شغف بعزيز الأعمى !

فاختلجت واستفهمت بمتفاقم الذعر : ماذا تقول ؟

فأجاب بمديد التهكم والألم : لست أختلق . فهى على كلف بعزيز عدوان . والنبأ سقط إلىّ من شفتيها فيما كنت أحدثها عن رغبة حاتم منظور فى الزواج بها !

وأطلق قولته حافلة بالاحتقار والمرارة . فشكت امرأته فى صدق ما يطرق أذنيها . وهتفت تنكر ما يجاهرها به : لاأستطيع الركون إلى ما أسمع . فمن الراهن أنك جهلت مرماها . وهل لابنتنا أن تكبو هذه الكبوة ؟ ... أين كرامتها وحجاها ؟

فقصف كالرعد : لقد نحرتهما لأجل من لا يليق بأن يكون من خدمها . فهل وقعت على ما هو أدهى ؟ ... كأن تعبنا فى تثقيفها همسة فى صخب العباب . ألا كيف تجرأت

على هوى ينزل بها إلى الحمأة ؟ ... هل دعيت إلى قتل أبيها وتلطيخ محتدها ؟

فارتبكت الأم وناءت بحمل المصيبة . كيف ترضى فادية عن هذا الدله المعيب ؟ ... أما انتخبت من جميع فتيان زغرتا ، وكلهم من الزهرة ، من يعلو عزيز عدوان مكانة وشباباً ؟ ... وانتاب الذهول ، الشبيه بالمسّ ، الوالدة الحائرة . وخافت على زوجها أكثر منها على ابنتها . قالت وكل ما فيها ينبض هولا ، وقد لمست فى بعلها الأسى المجتاح : إن تكن تسعى للحطّ من منزلتنا فلا خرجت من إغمائها . لتكن غيبوبتها مطلقة الأمد !

وران القهر على الوالدين ، فتجهمت أساريرهما وقلقت فيهما مكامن الرفاه . أى جنون صارخ يدفع فادية إلى هذا الحب الممتهن ، الذميم ، وفيه تقويض أسرة ، ومحو عز وجلال ؟

٦

أمين الطريف حبيس الزاوية لا يبرحها . فألقى رأسه بين يديه وأطرق كأنه يكابد أثقال النوازل على بعيد فدحها . من كان يحسبها تبخل به على الهوان أول من يطوى فيه سمو الحظوة . ولكنه لن يطأطئ هامته للذل الشادخ وفى يمينه سلاحان قاطعان فى الذود عن الأنفة . فإما إكراه فادية على الخضوع للرغبة ، وإما قتلها .

والقتل ليس مستهجناً فى بلدة تتيه بنصالها ورصاصها . وما أمين الطريف بمن يتورع من اختلاس الأعمار انتصاراً للأنفة . فإن تكن ابنته تجنح إلى وصمه بالشين فلتنزل بطون الأرماس . ولن يشفع فيها كونها نطفة من صلبه . واجتهد فى طمس النبأ . فيا لخجله من بلدته زغرتا ومن بنى قومه الزغرتاويين وقد دروا . أتعشق ابنته ناقر عود أعمى؟ ... ولعن ساعة الرحمة . لم يكن له أن يشفق على العازف الضرير ، فيجيز له تعليم فادية العود كى يحسن إليه . فالإحسان ينقلب أبداً إلى جحود ، كأن البشر غير جديرين بالرأفة .

على أن التبعة لا تتناول عزيزاً بمقدار ما تصيب فادية . فكان عليها أن تدرك منزلتها حيال من لا يدانيها فى جاه ولا نعمة . وما حداها على النزوع إلى بائس كفيف لا يرجح خدم أبيها مقاماً ؟ ... ألم تملك حياله صلابة التماسك والترفع عن الهفوة ؟

وأزمع الأب المفجوع بحميته ، وبخطره ، المسير إلى عزيز نفسه . فيدعوه إلى الرحيل عن زغرتا إلى حيث لا يبدو له غبار . وله فى مقابل هذا المعروف جائزة تكفيه مشقات الزمن . ولكن أبا حميد تحرّز من ولوج مسكن الأعمى ، لا احتقاراً وإعراضاً ، بل رغبة فى الكتمان . فليس لزغرتا أن تلمّ بالنبأ المنتهك الحرمة ، البعيد الدويّ . وآثر أمين الطريف الانتظار . فلا غنية للعازف عن المجيء إلى فادية . فيخلو به ويحفزه إلى الهجران . وإذا مانع فلتتفجع عليه نفسه ، ولن يكون نصيبه غير حفرة فى الصلصال .

ورصد أبو حميد ظهور ناقر العود فى المثوى الرحيب . وعزيز عدوان ، وقد قضى ليله فى غمرة من الهواجس السحم ، لم يطق البقاء بعيداً عن فادية . فشاء أن يعلم ما خاطبها به أبوها من خفىّ . فأى سر همس به فى أذنها أمين الطريف ؟ ... هل من يطلبها زوجة له فيسلب عزيزاً روائعها ؟

وشخص للعاشق الضرير أن زمن الأنس ولّى ، وأن البلاء انساب إلى الهناءة يقرض صفاياها . فلن تبقى له فادية . وأنى تبقى النعمة فى قبضة المسكين ؟ ... ولجّ فى بلوغ الدار المخيمة على أنقى لؤلؤة فى عقد الوسامة . ودخل يضرب وجه الأرض بعصاه ويبالغ فى التحية . فقام إليه أمين الطريف بنفسه يرحب به . وانتشرت الدماثة فى ألفاظ الحفاوة ، ولكن بمقدار ، وحدقت باصرتا الأب المرضوض المهجة إلى العازف الأعمى ، فإذا به على سهوم ، كأن ضميره أهاب به إلى الحذر من الغاشية المنذرة بالاندلاع .

وارتجف عزيز عدوان وهو يسمع والد فادية يحييه . وكأن نبلة غرزت فى كبده وليس من عادة والد فادية أن يعترض طريقه . فهل وقع المقدور؟... وأحس بأنه فى دوار. وجهل أين يلقى قدمه . وتراءى له أنه على فوهة مهواة توشك أن تبتلعه . فما لقيه أمين الطريف ليزف إليه بشرى ، بل لينعى إليه قلبه . أتكون فادية أطلعته على ما يوثقها بناقر العود من وشائج الحنين ؟

وأزرى أمين بميل ابنته . إن حاسة الذوق فيها لعلى إصغاء . أتهيم الزنبقة بالشوكة ؟ ... وهل للنور أن يحتجب فى بطن حوت ؟ ... ليس عزيز عدوان إزاء فادية غير ذرارة على نفيس

الياقوت ، غير حصاة خشنة بجانب تمثال من الذهب الحرّ ، غير ورقة صفراء فى الأملود الرطب . فما للورقاء تسقط على حبة جوفاء مرذولة ؟ ... فهل للشمس أن تنزوى فى جحر ؟

وتبين للأب المنكود أن العمى فى ابنته ، لا فى من تهوى . فما عزيز عدوان ، على عماه ، من سوى ذوى البصر الصحيح ، كالبزاة الناعمة بالنظر الحديد . وأمسك أمين بيد الكفيف ببعض الشدة ، قائلا له : هل لك فى مجالستى لبضع هنيهات يا عزيز؟

فخيل إلى الضرير أن كل ما حوله يميد به . واستسلم إلى قبضة أمين الطريف كالمجرم إلى وثاق رجل الأمن . وأيقن بدنو ساعته وقد حلق ، وهو الركيك ، المنتوف الريش ، فى مسابح النسور . وساءل ضميره إلى أين يقوده الأب القاطع الكلمة ، المبرم الحكم . هل تجلى له المكنون ففزع إلى بالإدانة ينتقم بها لعرضه المصون ؟

وخاف عزيز عدوان على فادية لا على نفسه . وما هى نفسه ؟ . . . قطرة ماء فى ظامئ الرمل . أما فادية فإنها لعالم من معجزات . فهل افتضح أمره لدى أبيها ووقف أمين الطريف على الحب المعقود ؟ . . . كل ما هب فى هذه اللمحات الخواطف ، فى ذهن عزيز ، من تخمين ، جنح به إلى اليقين أن الهتيكة وقعت . والد فادية نفذ إلى صميم

المحسوس . ولكن ماذا حلّ بفادية ؟... هذا جلّ ما التفت إليه العازف الضرير .

ونجم له بعين خاطره أن أميناً دخل به حجرة ضيقة ، مظلمة . أتكون جدثه ؟ ... لا بأس أن يموت على أن تسلم من أحب . ورقب أن تتساقط عليه الطعنات دراكاً . فيسيل دمه ويلفظ روحه جزاء اجترائه على المحارم . ولكن هذه الطعنات لم تنزل به . وسمع صوت أمين الطريف يقول بعذوبة يكسوها التهكم الحادّ : اجلس هنا ، هنا يا عزيز !

وأدناه إلى مقعد من لين القش . فرسا فيه وقلبه فى شديد الخفقان ، كأنه على وشك الانفلات من مناطه ، ونفسه تكابد سكرات الموت ، وكأنها تذوب . وجلس بجانبه أمين الطريف يقول بصوت هادئ ، وإن تكن تجيش فى مطاويه النار : اعتقد أنى ما أسأت إليك يا عزيز وأنا أعهد إليك فى ابنتى لتعليمها نقر العود ، فما بك تسيء إلينا يا صاحبي ؟

فتجلى لعزيز عدوان فى ما يسمع العتاب الممضّ ، وقد شف حلوه عن مرّه . فإذا انبسط عن سماح فما أخفى الوعيد . وارتاع الضرير وغار بعضه فى بعض ، وقال بوهلة : ما قمت بسوى ما دعوتنى إليه يا سيدى ، وأنا رجل حريص على الأمانة . فادية أضحت من المتفوقات فى إذلال الوتر لسلطان ريشتها

الغيداء ، وذلك حسبي !

فأعلن أمين الطريف وما يزال الهدوء المبطن بالجمر يمشي في بيانه : ولكنها تفوقت في ضرب آخر من ضروب المعرفة . وهو ما وددت ألا تكون أستاذها فيه !

فدمغه . وتعتع الكفيف تحت وقع الهزة هاتفاً كالمستعيذ بربه من شر إثمه : سيدي ... سيدي !

فغلى أمين الطريف بركاناً جياشاً وقد نضا عنه ستار الحلم وصاح : بمَ تعتذر ولؤمك وضح ؟ ... كنت تختلس من ابنتي وقت تعليمها لتصرفها إلى الحنو عليك . ولم يلبث هذا الحنو أن بات هياماً . ألا أين ما ادعيت من رفعة عن النكر ، وما تظاهرت به من جنوح عن الإسفاف ؟ ... أتلعن الخسة وتجترحها ؟... فمن أنت تجاه فادية الطريف كي تطمع فيها؟ ... أما ترى أنك ابتغيت ما لا طاقة لك عليه ؟ ... وأنى للهر أن يصبح نمراً ، وللثعلب أن يحاكي الأسد ؟ ... أريد أن تعلم أني ما وكلت إليك تخريج ابنتي في العزف شوقاً إلى إجادتها نقر العود ، بل رغبة منا في الإحسان إليك . فأبينا أن نجرح كرامتك وأنت تنفر عن الصدقة ، فابتكرنا هذه الوسيلة في الحدب عليك . وبمَ كافأتنا ؟ ... بشرّ ما يجازي به الكنود المشفقين عليه . فهنيئاً لك وفاء المعروف وقد رميت إلى

تحطيم أجنحتنا . أفما تدرى أن استطالتك علينا ، وأنت من خبيث المعدن ، لطخة لا تمحى فى جباهنا ؟ ... ألا ما هذه القحة المستهترة تتوقد فيك ؟

وودّ لو طمس فيه شعلة الروح . فليمت المتجاسر على تدنيس النباهة وثلم الشموخ . وعزيز عدوان ود لو انطفأ تحت وقع الإهانة الماحقة . فما أبقى منه أمين الطريف ذرة سليمة من العطب ، ولا خلجة بريئة من وقر الغضاضة . وخانه النطق فجهل ما يعلن . لم يدع أبو حميد إلا حقًّا . ائتمنه على خير وديعة فصبا إلى الاستئثار بها . فأين الحفاظ ؟ ... أليس للأمانة ميثاق مصون ؟

وانحنى عزيز وقد لوت الهتيكة ظهره فكادت جبهته تلتصق بالأرض . وللمرة الأولى شكر القدر وقد أزجاه إلى دنياه أعمى ، فلا يبصر جهامة أمين الطريف ، ولا شزر عينيه ، ولا امتقاع لونه . وأوضح مكرهاً ، وليس عن الإيضاح غناء ، فقال بذل المقرّ بشناعة عملته : سيدى ، غفرانك . كل ما صارحتنى به وجيه سديد . فليس لمثلى ، وأنا من جفته النعمى ، أن يدرج فى طريق السعد . لا ، ليس لناقر العود الأعمى أن يتعزى عن فقد عينيه بفرحة قلبه . فهو ممن كتب عليهم زمنهم التعس . وعليه أن يستقر أبداً بغياهب البؤس فلا يتخطاها إلى الضياء .

على أنى ، لضعف فى نهيتى ، حاولت أن أشق عن مهجتى غلاف الشقاء . وجهلت أن المسعى علىّ حرام . فعفواً عن ضلالى وحمقى. ولكن أنى لى أن أجلس بجانب الوردة فأكتفى منها بالشوك يا أباحميد ، ولا أستنشق عبيرها الزكى؟ ... أنى لى ، وأنا المقيم أبد الدهر على ظمأ، أن أدنو من الينبوع النمير ولا أبلّ ريقى بقطرة من مائه الرسيل ؟ ... وفادية ... بل الآنسة فادية ، ولا حق لى أن أتلفظ باسمها بما يقيمها منى على وحدة مستوى، كانت الوردة لروحى ، والنداوة لقلبى ، فتجرأت على استرواح العرف ، وأزمعت نقع الغلة . ولا جناح على من يصبو إلى الروائع يا سيدى والمرء رهين بما جنى . أما وأنت لا ترانى حقيقاً بفوح الطيب ، ولا بقطرة الندى ، فسأفرض على نفسى الزكام والعطش ولا أعدو ضيق نطاق . ولتسبح ابنتك فى جوها الرحيب. وليس لمن يملك جناحين طليقين أن يخالق الأمرط ، الكليل !

وشاع فى مقاله الألم الخانق . فهو يشكو حيف الزمن ويطأطئ الهامة لحكم الدهر المستبد ، الغدور . فما عاش فى متعة غير محظوظ . وعادت الشفقة تأخذ من أمين الطريف لعزيز عدوان . فمن حق هذا الأعمى أن يخلع عنه القطوب . ولكن ما قضى به القدر الغاشم لن ينقضه مخلوق . وما من مخلوق

يملك قياده وهو المجرور . وأمين الطريف من هذا القطيع المقبل على رغمه إلى دنياه ، والمحتجب عنها على رغمه . فأنى يعاند مشيئة القدر المدلّ ؟... وجرى فى التيار المفروض ، يدعو عزيزاً إلى التنحى عن الينبوع ، وسدّ منخريه عن فاغم الطيب . وليس للعنزة الجرباء نصيب من عطف ، ولا علالة من لين .

قال والد فادية وقد شاقه من العازف الضرير النكوص عن محجة الولوع : كنت أريدك على الامتناع من إضرام النار فتكفينا مؤونة إطفائها . أما وأنت توقن بأنك جازفت فلقد أنلتك عفوى . على أن تحبو إلى فادية وتعالنها بأنك كنت تمزح فى ما بثثتها من شوق . وسأقيم فى الحجرة القريبة فأسمع ما تطارحها من بيان . واحذر المواربة وليست تجديك !

فخضخض روعه التهديد وما احتمل وقعه . غير أنه مكره على الإذعان وهو فى حضرة قطب مطاع ، وما تبرح الزعامة ممدودة الرواق فى لبنان . قال يكشف لأمين الطريف عن نفس لم تزل مع إكرامها لسادتها معتصمة بإبائها : سيدى الجليل ، ليس لك أن تتوعدنى كى أمتثل لأمرك . فحسبك أن تدعو كى أجيب . ما دام حبى لفادية لطخة عار فى ناصيتها فسأمحو بيدىّ الاثنتين هذا الشنار وأستبقيه لنفسى . فما يضيق عزيز

عدوان، وهو التاعس ، بمتراحم المشاين تعلو منكبيه . فمن عاش في النكد ، وعششت في دمه الفجيعة ، فلن ينبو عن ويل آخر يزحف إليه . فالبحر لا يغص بساقية تصبّ فيه وهو الفاتح صدره لجميع الأنهار !

فتصامّ أمين الطريف عن اللوعة الحافلة بالوخز والجديرة بالرفق . وقال وما يرمى إلى سوى إنقاذ سمعته وابنته مما يساورهما من دميم المكروه : قم الآن إلى فادية وانقر لها عودك . وصارحها بأنك لم تكن جاداً في هيامك بها . فما ابتغيت التودد إليها لسوى مجاهرتها ببليغ سلطانها على الأرواح . ولا تخجل من الإفاضة في مسمعها بضؤولة شأنك إزاء بسطة جاه حاتم منظور. كن صادقاً في الإبانة وأظهر لأمين الطريف أنك من الحراص على الولاء !

وعاد يمسك بيده بقوة قاهرة . ورفعه عن مقعده وسار به إلى حجرة فادية وهو يقول له : سأودعك غرفتها . وسأجلس محتجباً عنكما لالتقاط الحديث . فبادلني إخلاصاً بإخلاص !

وانتهج حياله الرقة الناضحة بالشدة. لا ندحة عن الامتثال. وشعر عزيز عدوان بالجو الرهيب المنشور حوله . فالضغط ملموس يفرض الخضوع . وإلا فالموت فاغر الشدقين . غير أن عزيزاً لم يكترث للموت وهو يعيش كالأموات . هم في

ظلام وهو فى ظلام . وجلّ ما يختلف به عنهم أنه ميت متحرك .
يمشي ويأكل ويتكلم ويسمع . بيد أن الوجود ينأى عنه
أن يفصلهما شاسع المراحل . أما الموت فأيسر وأدنى وهو ملء
راحتين .

وما غاب عن الضرير المفقود أنه يمشي إلى قبره . أمين
الطريف يزجيه سراعاً إلى الاضمحلال . وراعه أن يصدق
دسه . حاتم منظور منافسه فى سيدة جأشه وضميره .
فجعت نفسه على السعد المتلاشي ، كأن المنى ومضة فى
بل . تنير الطريق لامحة خاطفة ، وتظل العتمة مسدولة
ستائر ، فضفاضة الأذيال .

٧

فادية فى سريرها النفيس ، الضاحك اللون كالشروق المو
بالأرجوان ، تحاكى زهرة من الفل فى مهدها الباسم .
أنها زهرة حردة ، متهدلة الأوراق ، كأن بينها وبين منسك
الندى وتراً أقامهما على وحشة ونفار . ونضبت الروعاء ، المكد
اللب ، غشيانها عنها والتفتت إلى نفسها ، فهالها ما يمور
ذهنها من رؤى لا يزال يغلفها ضباب من تخدير ، يهادن
الجلاء . ولكنها ليست رؤى وما ثمة غير ظلال من حقائق وقعت
ولا تنفك صورها تموج فى البال .

وتذكرت فادية . فهى على خصام ووالدها . أمين الطري
أرادها لحاتم منظور فأزاحت عن سويدائها القناع . وما
الصميم غير رسم لفتى أعمى ، نزل قلبها كما تنزل تماثيل الأب
الهياكل ، وتحنى لها الجباه . وفار فائر الأب وقد أخذته سو
الحنق . وقبض على عنق فادية يستجيز لنفسه الخنق . فرضي
الهائمة ، الصدوق ، بالموت تؤثره على الكفران بهواها . وفى الح
النصوح إيمان لا تتزعزع فيه الضمائر المفطورة على يقين وثبات

وتمنت فادية ، وهي تستفيق من غيبوبتها ، ويتجلى لها ماانتابها ، لو ظلت سادرة فى الإغماء . فلا تخجل من أبيها ، ولا من قلبها ، بل تنطلق إلى ضريحها شهيدة حبها . فلا يشقى والدها وقد شغفت بمن هو دونه ، ولا يعيرها عزيز عدوان خفر الذمم وقد ماتت فداه . على أن حظها يأبى عليها إلا أن تتعذب ، فما طارت عنها أنفاسها كى ترقد بسلام .

وخضد روعها أن تؤلم أباها . أمين الطريف لم يبخل عليها بالرفق ، ولم يمنع عنها الكريم الحريز ، فما يحملها على رض روحه ، وحطم جبينه؟... ولكنه قلبها وهو سيدها . وحكمه عليها صارم ، قاهر ، لا يتنفس عن هوادة ، ولا يوائم فى رشد . فإذا ما ابتغت الخروج على سلطانه دهمها كلال يتمشى فى جميع أوصالها . واصطرعت فيها قوتان طاغيتان ، إكرام أبيها ومجاراة فؤادها . وشددت على نفسها فى أن تتمثل عزيزاً فى رثاثته وعماه ، فى حقارة شأنه وبؤسه ، فى جهله وغضاضة منتماه ، فما ازدادت له إلا ألفة ووجداً ، كأن فقره زينته ، وجهله فخره ، وعماه فضيلته . لقد بهرتها ريشة الحب المزخرفة ، الغرارة ، وإلا فكيف تنسجم الأرواح ؟

وأبصرت أمها فأغضت استحياء . ما أقدمت على جهد مبرور كى تجرؤ على التحديق إلى من حولها . كما أنها ليست

مجرمة وما اقترفت الإثم . فلماذا الخوف واللبكة ؟ ... ورنت إلى أمها ، لدن اقتربت منها ، بعين جامدة يشيع فيها الفتور والألم . ولم تعانقها الأم كالمعتاد سعياً لإبلاغها كونها غير مطمئنة إلى البادرة الشاذة ، والعرف ينكرها . وتمتمت زوجة أمين الطريف بلهجة عاتبة : هل أضعت صوابك ؟ ... أين رجاحة نهيتك وما توفرت على تهذيب بلهاء ؟ ... أقلقتنا جميعاً عبثك بالمألوف ! .

وما أبدت لها نزراً من الأسف على ما أصابها . وهو الدليل على كونها تؤيد زوجها فى ما ذهب إليه من تعنيف وعنف . ولم تجد فادية غير الدمع جواباً . فهى فى حرقة تتشظى عبرات . قالت الأم وما زالت تبدى العتب ، كأن لا رقة فى جأشها حيال أسيان الدمع : ألا كيف خطر لك أن تنفرى عن كريم محتدك ؟... هل جهلت مستوى أبيك ؟ ... يعاند عقلى فى الإيمان بكونك ارتضيت ذلك الأعمى حبيباً . فأين عيناك ؟

فأبانت وهى تغور فى النشيج : ولكنى أحبه يا أمى !

فاهتزت أمها هولا . وسرت فى عروقها رعشة باردة أحست بها أن قواها تميع استكباراً للخطب الناهك . وقالت بفائر السخط : أما تنفكين تفيضين بالهذيان ؟ ... ألا يحمر وجهك حياء

وأنت تعلنين كونك على هيام بالمسخ ؟ ... ألا أين إجلالك كرامة أبيك ؟ .

فما استطاعت أن تنفى ما فى ميلها إلى عزيز عدوان من غضاضة على أبيها ، القطب الإهدنى . لم تنشأ فى حجره كى تقوض مكانته . على أن حجتها على الاستمساك بعزيز ، ناقز العود الضرير ، ظلت هى إياها . إن الحب ليشدها به . وفى الحب من الأحاجى كل مبهم مغلق . فلا يحل له لغز ، ولا تنفك عقدة ، كأن دوافعه سر صفيق أشبه بالأزل والأبد ، والبقاء والفناء . قالت فادية وهى تتظلم وتستغيث : ما يغيب عنى أنى أوجع روح أبى بجنيى إلى عزيز عدوان ، ولكنى أحبه يا أمى . أما ترفقان بى وبقلبى فتنصرانى فى ميولى ؟ ... بوسع أمين الطريف أن يرفع إليه عزيزاً ويسبغ عليه من النعمة ما يبيت به فى مستوانا !

فلمست الأم فى . ابنتها مبلغ الشوق إلى العازف الأعمى . وتمثلت سلطان الحب وارتعدت . إنه ليهدم النهى والطبقات ، فيصبح سافلها عاليها . وخافت منه على ابنتها وقالت تجاهد فى انتشالها من مخالبه الرهاف : أرأيت أنك لا تملكين هداك ؟... أنى يرفع أبوك إليه ذلك الكفيف وليس له رجلان يهدأ عليهما وقد أمسى فى منزلتنا ؟... فلا علمه ، ولا شكله ، ولا أصله ،

تشفع فيه ؟ ... وهل يروقك أن يتزوجك من تمسين له عصاً ترشده إلى الطريق ، ويداً فى إطعامه وإلباسه وإعالته ؟ ... وكيف تطيقين أن يقال فيك إنك زوجة ناقر عود ؟ ... فهل للبيئة الراقية فى قومنا أن تفسح لك إليها وزوجك بعوضة فى لجة ؟... ما أنت فى سوى نشوة غابت بها عنك الحقيقة الراهنة. فابذلى وسعك فى استعادة يقظتك فيتفتح قلبك وذهنك للمحسوس وتجرى قدمك فى النهج الرشيد !

فزفرت فادية وقالت بلهفة الحسير : ما توانيت فى مجهود لإقصاء هذا الممسك بنهيتى وجنانى عنى . وكنت أحس ، أنى اتجهت ، بأنى أسعى فى الباطل . فالحب مستحكم من لبى . أما عرفت الحب يا أمى ؟

فتمالكت الأم على دبيب الحنان وقالت : بلى ، عرفته يا فادية ، وشعرت بوقعه . إلا أنى تحاميت فيه الإسفاف . فما بحثت عنه فى المزالق والدمن ، بل فى الأعالى . فأنفت من النظر إلى الأرض وأنا أبتغيه ، وشخصت ببصرى إلى السماء وما همت بسوى الدرارى . فاقتدى بى فى منازعى وكونى لحاتم منظوز وهو السنايا ، ومايقل عن أبيك علواً وشأواً . فما ولدناك للهوان يا ابنتى . وهل لى أن أصدق أن فادية ، عنوان الحصافة والرصانة تزل بها القدم فتهوى خادماً من خدمنا ؟ ... يا ويلى ! ... ليس

لمزيز عدوان الأعمى غير سائل نجود عليه بفضالاتنا . فاستيقظى
ن غباوتك !

فأعلنت بذل الاستجداء : هلا حسبتمانى من هذه الفضالات
يا أمى ؟

فاستعظمت الأم البلاء ونخعتها الطلبة المسترحمة ، الملتاعة ،
كأن حشاشة ابنتها باتت وقفاً على العازف الأعمى . وهتفت
نقمة وارتياع : أأنت من يبدى هذا الاستعطاف يا فادية ،
نت ابنة أمين الطريف ؟ ... إنى لأشك فى كون هذه الذلة
بدر منك ، وإلا فلست حيال ابنتى . لا ، ما أنت فادية الطريف.
إنى لأجهلك . ابنتنا لا تتدحرج إلى هذا الحضيض . فن قادك
لينا ؟ ... أتوافقين على أن تكونى من فضالاتنا كى نجود بك
على أعمى حقير ولا يلم بك خجل ؟ ... أصحيح أنك منا وأنى
ولدتك ؟... محال . سأسأل أباك عمن أودعك دارنا . فيا لرزاية
عيشنا وقد ساعدناك على النماء . فأين عقلك ؟ ... هل خسرت
الحجاك ؟

ونتأت عينا الأم حافلتين بالتوبيخ القاسى ، ناضحتين بالرهبة.
أهل ضاعت ابنتها عن نفسها فذهبت بعيداً فى جموح مهجتها ؟ ...
وشعرت فادية بانهيار حظوتها لدى أبيها وأمها ، فقالت بصوت
ضعيف ، يتهالك على الاستجارة : لا تلومى يا أمى . عاهدته

على الوفاء ولن أتقهقر عن الحفاظ . وإن يكن عزيز ذلك الأعمى فسأهب له من حنانى ما تنجلى له به كوى الضياء . وإن يكن حقيراً فسأنفحه بنقاوة مغرسى ، فيزكو ويطيب مهدا لى إليه أو فاقتلانى . أصبحت بينكما وبينه فى حيرة من أمرى !

فصرخت الأم مرعوبة : وأى وفاء يحفزك إلى التماس البلية ؟ ... ليس عزيز عدوان غير مصيبة حلت بنا فادفعى عنا شرها إذا كنت تبتغين لنا الحياة . وبم ستنفحينه منك كى يسمو ؟ ... أبوك سينكرك ، بل سيقتلك . وهل للنتن أن يعدل العطر مهما سكبت عليه من طيوب ؟ ... سيظل نتناً تشيح عنه الأنوف بلا رجعة . ومن للبومة يحملها على التغريد وهى المفطورة على النعيق ؟ ... هل استوليت على سر الإبداع ودان لك الخلق ؟ ... لن تكونى لسوى حاتم منظور . وهو من اصطفينا لك . وستقعين بجانبه على خيرك وسعدك ، وكل عناد يعود بالوبال عليك !

فهتفت من كبد صاح فيها اليأس الفاحم : إذن فاقتلانى أقتلانى !

فثبرت الأم بمتفاقم الغيظ : وهو ما سنفعل . فلا خير منك يرتجى وأنت فى هذه السورة من الحمق . ولو كنت على نزر

من وفاء ، كما يشوقك أن تزعمى ، لذكرت فضل أبيك عليك . فهل لك بمثل هذه الإساءة الكافرة أن تكافئى الحسنى وتظاهرى الجميل ؟ ... ألا ماذا تبقين من شموخ أمين الطريف وأنت تتزوجين العازف الأعمى ؟ ... أما تغيبين بيديك وجه أبيك فى التراب وقد مرغت جبينه فى العار ؟... زغرتنا لم تعلم حتى الساعة ما كان منك . ويا لذلنا حين تدرى . فاتئدى فى غلوائك ولا تنزلى أباك عن عليائه . فلا يجزى بمثل هذا العقوق أمين الطريف !

فما فتئت تصيح : أقتلانى وانقذانى من نفسى ، واستريحا من بلائى !

فأبدت الأم بشدة : أبوك كاد يرديك لو لم نقف به عنك . ولن يصعب عليه أن يعيد الكرة إذا امتد بك هوسك . فمن ينزع إلى الغض من أمين الطريف لم تنتفض به رحم . فتفادى من الإمعان فى الإيلام وإلا فأنت فى مبلغ العدم . عزيز عدوان ليس خليقاً بنا ولا بك . فلا تلتفتى إلى سوى حاتم منظور وهو من أندادنا ومن أكفائك !

— وعهدى ؟ ... وحبى ؟

فضحكت الأم ضحكة متوترة تموج بالتهكم وقالت بازدراء: لا تركنى إلى هذه السفاسف وهى حجة عليك فى

كلال بصيرتك . فهل لمثلك أن تذكر أعمى ممتهناً فى معرض الهيام ؟ ... ماذا فتنك فى ناقر العود الأعمى فاجتذبك إليه وهو الشبيه بالسائل ، فيحمل عوده كجراب المستعطى يلتمس به عطف الكرام عليه ؟ ... أغرك شبابه ، أم استهواك بجاهه ، أم طمعت فى ماله ؟ ... خير لنا جميعاً أن نبصرك فى حفرة جثة خرساء من أن نبيحك لذلك الوضيع . والله ، ثلاثاً ، لن أكلف أباك القضاء عليك وسأودى بك بيدى !

والمرأة فى زغرتا فى مضاء الرجل . لها عزمه وجرأته . فتشاطره الكر والفر . وتقف من الموت موقف الساخر على أن يسلم الشرف وترضى البطولة . ولم تكن والدة فادية فى تهويل. فإذا توعدت ابنتها بالموت فستنجز وعيدها . ومضت تقول والكلام الصاخب الغضبان على احتدام فيها : أتجسرين على التلفظ بالعهد والحب وأنت تذكرين الأعمى الطريد ؟ ... إنك لطائشة : فالجهالة مستحكمة منك . على أن الزمن كفيل بأن يزيح عن عينيك الغشاوة الطامسة إنسانيهما ويجتاحك الندم الأكول . ولكن من لك وقد تخاذلت أن يلتفت إليك ؟ ... فكونى ذات إدراك ولتنفذ عينك إلى صميم غدك . عليك أن تتحامى الشماتة ، والكبوة ، والقهر ، وكلها بانتظارك وأنت تلتوين عن محجتك . أأخاطب ذات خفة وبله فلا تفهمنى ؟

فلم تخرج عن صيحتها الحاطمة : أقتلانى . أقتلانى .
من عارى . قلبى لا يطيعنى فى نبذ هواى !

فنفد صبر الأم وهتفت بمستطير الحنق : وسنقتلك .
دمك حلال لنا . لن يضم هذا البيت من يشوقه تقويض مكانتنا
وإذلالنا . فاستعدى للفظ روحك !

وانفتلت إلى زوجها زاعقة : أقتلها . هذا هو الدواء الحاسم .
فكل إقناع نبا عنها . أقتلها بلا إبطاء وما ترمى إلى سوى تحقيرنا .
فإنها لفى صمم الحجر . كل نصح يضيع فيها . وكل جهد فى
النهوض بها من الحمأة يطير كالهباء . ليت أبقينا لك مداك
فى استلال أيامها . فاقتلها ، وقد طاشت عن مستواها ، لئلا
تكون خشبة فى نعشنا !

غير أن الأب كان قد سكن بعد فورة . فالعاصفة هدأت
لتفسح إلى الروية والتأنى وما تزال فادية ابنته الفضلى . وأجمع
على مداواتها بدائها . فيلوذ بمن تهوى كى يقف بها عن جماحها .
نظام الطبقات لا يخرج عن كونه المنهاج الأمثل فى عرف
أمين الطريف . أما خلجات الأفئدة ، وصيحات المنازع ،
فهى لديه ترهات . كل بيئة تنهل من معينها ولا عبرة بالشاذ ،
بل لا قيام له . فما بذل أبو حميد من نفسه كى يعود القهقرى .

ونظر فى ابنته إلى منزلته كأنه يزوّج نفسه . فلا يليق بابنة

أمين الظريف سوى نظراء أبيها . وفى هذا الطريق قاد العازف الأعمى . على ناقر العود الضرير أن يسلخ منه فادية كى يرفعها إلى مستوى انحدرت عنه . كأن نبضات القلوب محدودة المرمى . فليس لها أن تتجاوز نطاقاً مضروباً عليها . وارحمتاه للكفيف الشهيد ! ...

٨

ولج عزيز عدوان حجرة فادية متوكئاً على ثلاثة لا تزيغ عنه . عوده وعصاه وعماه . وانضم إليها الرفيق الآخر وكان قد نأى عنها . فاليأس بعد جلائه عن العوّاد الضرير ارتد إليه يجهر بحرصه على منبع الولاء . ومشى عزيز إلى فادية يحييها بابتسامة هادئة . إلا أنها مشحونة بالألم ، وكأنه يدوس قلبه فى كل خطوة يخطوها . فليمت فيه هذا التياه النبضة ولا حق له بالمسرة . فما حفل به الوجود ليعلو به عن الأشواك والأطمار .

وبدا لفادية فهزها إليه متأجج الحنين . غير أنها لم تصدق ناظريها . كيف اتسع لعزيز السعى إلى غرفتها ؟ ... ألم يبصره أبوها ؟ ... كانت ترقب له الطرد والشتم ، بل القتل ، فما به يبدو إزاءها بهدوء وأمان ، كأن لم تضطرب لأجله الأرواح ، ولم تتقلقل أسرة فى موداتها ، مع مكين وئامها ووفور طمأنينتها ؟

وشخص لابنة أمين الطريف أن العازف الأعمى انسل إليها على غفلة ممن فى الدار . فهتفت له تحييه بصوت يترنح فيه شجو الأغاريد : ألا مرحباً ، مرحباً وقد جئت يا عزيز !

واعتزمت أن تخفى عنه ما دهم المنزل من تباريح . وخافت عليه من نقمة أبيها . ومالت إلى صرفه عنها لئلا يلقى مصرعه وقد درى به أهلها . وحارت بين أن تبقيه وأن تميل به إلى الرحيل . أماهو فدنا منها وقد دله عليها صوتها . وما زال يبسم لها بسمته الزاخرة بالشجن . وتعجب من نفسه وقد ملك القدرة على النطق . فقال بنأمة تغالب ما تنوء به من غصص : يدهشنى أن يلمّ بك التعب يا فادية ، مع أنى غادرتك وأنت فى خير عافية . فماذا انتاب الحسن الأنيق من وجيع ؟ ... وددت لو أن ما بك اعترانى ، ونجت الملاحة الفريدة من لؤم العناء !

فحفزها حرصها عليه إلى إبعاده عنها . وهمت بأن تعالنه ضرورة التزوح عن المغنى المنيف وهى المصابة بداء وبيل تخشى فيه العدوى . غير أنها تحامت إيلامه ، وشاقها أن تراه . وجلس عزيز بقربها وكلها قلق عليه . وتلفتت إلى جميع النواحى لترى هل من يرصده . وعقدت النية على افتدائه بحياتها إذا ناله مكروه .

وراقتها كلماته ولمست فيها وقدة الولوع . قالت والخوف عليه يستعر فيها : سلمت يا عزيز . إنى لعلى جمام اليقين بنبل روحك وإخلاصك . وما يقبل يوم إلا وينفحنى منهما بمكين التباشير !

فقال وهو ينزع عوده من مصانه : هل لك فى الإصغاء إلى رنين الوتر ؟ ... لا بد أن يخفف عنك سورة العلة ؟ ... وقعت على لحن بهيج يروقنى أن أشنف به أذنيك !

فتعاظمت هواجسها وهتفت : لا ، لا !

أتذيع أمره وتفضحه فتعرّضه للويل ؟ ... قال يستوضح متمهلا فى أداء الكلام : ولماذا لا تلقين مسمعك إلى الصفايا ، هل يؤذيك نقر العود ؟

فأجابت بشدة تفرض الإقناع : نعم ، نعم !

قال يميل إلى محادثتها فى ما جاء فيه : هو لحن سمعته ليلة أمس ، فى مجلس حاتم منظور ، زينة البلدة . دعا إليه نخبة من المغنين والعازفين وكنت فيهم ، فشجانى اللحن القسيم واجتهدت فى حفظه كى أؤديه بين يديك . أما وأنت لا تطيقين رنات العود فسأرجىء نشره ريثما تنعمين بالنشاط . وأرجو أن تدركيه فى موعد وشيك !

وما كان إلا مخترعاً . بيد أن المنهج المبيّت يقدر عليه هذا التعريج على حاتم منظور إخفاقاً لشهوة أبيها . فلم يندّ عن الهائم الضرير أن أميناً الطريف وراء الجدار مرهف السمع . فكل كلمة تلقّها فى وعيه وطيد القرار . واستفهمت فادية ببعيد الفضول : وهل أحيا حاتم منظور فى ليلة أمس مجلس طرب؟

فأذاع يتغنى بمآثر حاتم ، وفى كل لفظة يطلقها فلذة من قلبه الفتيت : لحاتم فى كلِ ليلة مجلس أنس . فأنى لاح الصفاء استهدى مراتعَ البهجة موئلَ حاتم منظور . فكأن هذا السيد المغبوط مفزع كل نسمة من مرح وبشر . ينفق عن فوران من نعمة ولا يسأل يده عما أطلقت من وفر . فتغرف وتهب . وما يشوقها إلا أن تضىء الغبطة فى القلوب ، وأن ينجلى عن الجباه العبوس. أبقى الله أباك . إن حاتماً لشبيه به فى نفحات الجود . غير أن شباب حاتم يخلع على مجالسه ناراً مشبوبة من اللهو العريض تتماسك عنه رصانة أبيك . وإن القوم ليزحفون إلى داره أسراباً تلو أسراب ، وكأنهم لديه فى عرس لا نهاية له . وددت لو شهدت محفلا من محافله ، إذاً لعرفت السيد الرحب الفناء ، المبسوط النوال . كل ما فيه على عطاء . قلبه، وفمه ، ويده . ما رأيته إلا واحة من كرم ، عنده لكل نزيل خباء !

وأفاض بما يستهويها . وأحس وكلماته تطفوعلى شفتيه بكونه ينعى نفسه . فيموت ليسخو بالحياة على سواه . وهو الفداء الأكمل . تمحى غبطة لتفسح إلى غبطة أخرى مجال الانبثاق . كأن الوجود يضيق بالبشاشات . فلا تنتعش روح بسوى هلاك روح . ولا تنقشع الغضون عن جبين إلا لتدهم جبيناً آخر . وهكذا

دواليك . هناء نفس بشقاء نفس . وما للمساواة مقام .

فأكبرت على رغمها باهر الفخفخة . والمرأة عبدة البذخ والإسراف . فما يشوقها إلا أن تحيا فى سمين الترف . واستفهمت فادية وخيال حاتم منظور ما ينفك يرسو فى ذهنها منذ حدثها عنه أبوها : وهل تتسع أموال حاتم لهذا الإنفاق كله ؟

فأبان عزيز عدوان بحماسة يزجيه إليها الواقع والميل إلى إرضاء أمين الطريف : ليس لمن ملك البحر أن يرهب الجفاف . حاتم منظور فى خضم زاخر باليسر ، فأنى يتهيب الإملاق ؟... ما اشتهيت إلا أن تكونى لهذا الواهب بلا إمساك ، المقتعد ذروة الفتوة ، القابض من السعد على الزمام !

فهتفت به مرعوبة : عزيز ، ماذا أسمع ؟ ... هل تولتك الخفة ؟ ... ما بلك تهذى ؟ ... أمجنون أنت كأنك ضعت عما بيننا ؟

فزفر وأجاب بلوعة دامية تأكل من لبه : ما عرفت نفسى مجنوناً إلا وقد جلست ، أنا الرثّ الثوب ، الحافى القدمين ، إلى مائدة الأرباب . وهل للجوع والشبع أن يلتقيا ؟ ... وهل للفقر والغنى أن يدرجا فى الأسلوب نفسه ؟ ... إن من ينظم الدرّ والخرز فى سمط واحد ليميل بالناس إلى الهزء به . وأنا ، وقد صبوت إلى إحقاق المحال ، لم أزد على إضحاك العقل منى .

فأطلب إليك إعفائى مما ندبت له وكدى ولا قبل لى به . فاغفرى لى جرأتى على التماس مودتك وليست لها أهلا . ومتى كان للسفح أن يطمع فى القمة ؟ ... وإذا دب إليه الغرور وهاجه حنين الاستعلاء فهل له أن يتبدل عن كونه سفحاً ؟... ومتى يتسع للجدول أن يمسى بحراً ، بل بحيرة ؟ ... فهل يدرك هذه الأمنية مهما أجهد جهده وأفنى ذرعه ؟ ... إن للوجود طريقاً مرسوماً يجرى فيه ، وهيهات أن ينطوى عنه . وهذا الطريق المرسوم ننتهجه جميعاً مكرهين على أمرنا . فالمعدن النبيل ، والمنجم الخبيث ، ينطلقان فيه دون أن يمتزج بعضهما ببعض فى سوى ما ندر . ومع امتزاجهما يصعب التئامهما . فتظل ثمةحوائل دون ذوبان أحدهما الآخر. وهذه هى حالى وحالك . لقد التقينا ،ولكننا لم نمتزج. ماأجد لك خيراً من حاتم منظور. فالنضار يعانق النضار ولا يخجل . والنسر يشق والنسر مسابح الأفلاك ولا يحتقر قرينه . وكم يسخر الصقر من نفسه وهو يجوب الجو فى مباراة الذبابة ، وليست جديرة بهزة ريشة فى خوافيه . وكم يزرى الذهب بالنحاس وقد مال الصائغ إلى مزج المعدنين معاً ليغض من شأن العزيز النفيس . وأنا منك ذبابة حيال صقر ، ونحاس مبتذل تجاه وضاء الذهب ، فأنى يجمع الزمن بيننا ونحن من أنفسنا على طرفى نقيض ؟ . . .

أنت للمجد ، وأنا للغضاضة ، فكيف نطمع فى اتحاد يخبو به نورك ؟

فأمعن فى تدويخها وهو يسوق إليها هذه الخواطر . وزعقت بارتعاد : هل أبصرك أمين الطريف قبل أن تبدو إزائى ؟... لا ريب أنه رآك وأملى عليك هذا المقال الزاهد ، وإلا فمن جنح بك إلى الانقلاب على الألفة ؟ ... لست صاحب هذه الآيات وما أنت فيها غير ناقل . أما دفعك أبى إلى نفثها فى وعيى كى يفسد ما تواضعنا عليه ؟ ... قل ، قل . كن جريئاً فى إعلان الحقيقة الصراح كما بدوت جريئاً فى دحض ميلك . أما حملك أبى على التقهقر عنى وإغرائى بحاتم منظور ؟

ورسخ فى خاطرها أن عزيزاً أشبه بالحاكى . فما يعالنها بما فى ضميره ، بل يردد ما لقنه أبوها من أمثولة . وتجلى لها سرّ الرضى عن دخوله عليها . فما نعم بهذه الصبوة إلا وقد عاهد على الانتحار . فينكر نفسه ، ويجحد حبه ، ويترنم بعوارف حاتم منظور . فالمكيدة مدبرة . وليس للعازف الأعمى أن يشذ عن شهوة أمين الطريف . وإلا فالرمس يرصده . ويا ويله من غضبة أبى حميد !

وعزيز ، وقد هاله أن يجهر بالعصيان ، وأن يعبث بالواقع الصراح ، فيقيم نفسه بمكانة فادية ، ما استطاع إلا أن ينفى

عنها هواجسها على فيض ما تزخر به من الصدق . قال وهو يخنق بيديه الاثنتين فؤاده : أأكون بحاجة إلى أبيك كي أدرك موقفي منك؟ . . .. إن أكن أعمى العين فلست بأعمى النهية . وما للمحبين أن يخدع بعضهم بعضاً ويجرّوا أنفسهم إلى الهلاك بدافع العناد الغبيّ . أنت برضاك عنى تفقدين جلالك وسمعتك . وكيف أطيق ، وأنا المتهالك على استبقاء مكارمك ، أن أراك منهما فى خسران ؟ ... لا ، ليس الحب فى أن أضحى بك كى أهنأ . ولن أهنأ وسأقضى على نفسى وعليك بالمحن الجرارة حتى لا تكاد تنتهى . بل الحب فى أن يلتفت الهائم إلى مصلحة من يهيم به ، فيقرّها على رغم صيحات جنانه . ولا بد فى الشوق الأسمى من فرجة للهدى ، لتنظم الأمور ووزنها بعين السداد القويم . وأنا نظرت إلى غدك فيما أخلو إلى ضميرى ، فصارحنى بكونى أجور عليك وأنا أبيح لك مرافقتى . فإن طريقى لمملوء بالحفر ، وفى كل خطوة كبوة ، وأنت ما تعوّدت إلا المسير فى السهل المطمئن . طريق عزيز عدوان تلال من شوك، وليس لقدميك البضتين ، الرخصتين ، أن تقعا على ما يدميهما ويؤلمك . فى طريقى الشقاء ، والحرمان ، والخطر ، وما كان للراتع فى الأمن أن يعرّض نفسه للمكروه . لتبقَ الدرة اليتيمة فى حرزها وليس لها أن تفقد رونقها بنزولها إلى بطن التراب .

فالفحمة المسدولة على بصر عزيز عدوان ترافقه فى عيشه كله ، فلماذا تظلمين نفسك وترتضين لها ، وأنت المتقلبة فى المناعم ، ما ارتضى لى زمنى من حيف وضيم ؟

فصاحت وهى تجتهد عفواً فى أن تخفى ما فى جيدها من آثار أصابع أبيها ، لئلا يبصرها عزيز ، مع يقينها بأنه الكفيف : ولكنى راضية لأجلك بكل ضنى ، على أن يجمع بيننا الحب الأثيل ، الركين !

فهز برأسه هزة يائسة وقال مستهيناً بالمجازفة المطبوعة على فاضح الإخفاق : موعد الهزل انقضى ، ونحن الآن فى عهد الرزانة . فلنفتح أعيننا على الحق ولنوطد عليه مصيرنا . كنا بالأمس مازحين ونحن نتعاطى أفاويق الهوى ، فلننفض منا الدعابة ولنقابل الحقيقة سافرين . لا حظّ لمنكود !

وابتسم ابتسامة مرّة كأنها عصارة قلبه المفلول . فهتفت به فادية : أتكون مفطوراً على الخيانة يا عزيز ؟... ألا أين الوفاء ، أين الحفاظ ؟

وتفجرت مدامعها تذيع يأسها . فكاد حبيبها الأعمى ينوح . إلا أن الأذن المفتوحة وراء الجدار أهابت به إلى التماسك . فاكتفى بأن يقبض على معصم فادية المختلجة فى أساها ويقول بصوت أبحّ ، مكدود : الوفاء فى أن أدرأ عنك الفاجعة .

الحفاظ فى أن أقودك إلى الغد الباسم . لا بأس على ضرير مثلى ، لا تصادفين فيه خيراً ، أن يموت وتسلم الزهرة الواعدة ، الرائعة فى أكناف العيش السعيد !

وتلاشت عزمته . وأحس بأنه يطعن كبده بنصلة ذات حدين ، لا تبقى على حشاشة . ولمست فيه ابنة أمين الطريف استرخاء الهمة ، وهو المكره على تمثيل دور مفروض عليه . لكأنه البرىء المحكوم عليه بالموت وقد جنا رأسه للشفرة الفاصلة. ومالت إلى إحياء راكد جهده صارخة به : هذا صوت الخيانة يهدر فيك . أنت سليل الغدر والمكر . ما عرفت الأمانة تهون إلاوأنت حارسها . ناديتك للصفايا تنهل من رحيقها فجبنت عن ورود الينبوع . نهضت بك إلى الذرى تستنشق فيها أعراف السمو فأبيت إلا أن تبقى زاحفاً فى الدرن . أهبت بك إلى الخمائل الأبكار تقتطف منها الجنىّ اليتيم ، ففررت من الاستمتاع بالشهى الثمين . ألا ما أوجع خيبتى فيك . كأنى وقد ارتضيتك حبيباً وقعت على خيال عابر لا أثر له !

فكادت تجهز عليه وقد عصرت لذعاتها الحداد ما تبقى من مرضوض مهجته . على أن الطائر المذبوح ما استعصى عليه البيان . فظل يجد بعض الحجة على تبرئة نفسه من لطخة الانكفاء . قال وكلماته تغص بدمه : ما جهرت . بسوى الحق

أيتها الآنسة فادية . أنا كل ما رميتنى به من نعوت . وأنى أكون لمثلك أليفاً وأنا ابن الظلمات وحليف الأسمال ؟ ... فما أدمنت شراباً تبتل به شفتاك ، ولا مأكلا يمضغه فمك ، ولا مجلساً ينيره ضياؤك . أنا ناقر عود يحمل أوتاره على كتفيه ، وكأنما يحمل أوزاره ، فى التماس الرغيف . وسأظل منك ناقر عود . فتطربك ألحانى وحسب ،وإن تكن تطلقها نفس جفاها الطرب. وهل لمن ملأت الأقدار نفسه أنات ودموعاً أن يحظى بالبسمات العذاب؟... وداعاً. لن أعدو حظى المكتوب :سأعود إليك ، ولكن كناقر عود !

وتحرك يروم النهوض . وراعه أن يستطيع الحراك وقد خيل إليه أنه لفظ روحه وقضى . على أن الألم أبى أن يفلت ضحيته . فوهب لها القدرة على الوقوف والمسير إمعاناً فى هصرها . ونادته فادية من قلب يعول : إلى أين ؟ ... إلى أين ياعزيز ؟

فأجاب وما تبرح ألفاظه مخضبة بدمه الفائر : أنا وحاتم منظور على موعد . دعانى إلى إحياء مجلس أنس !

ولم يجد غير هذه الوخزة يلسع بها لؤم القدر . هو مدعو إلى الرقص على قبره . وغادر فادية الغائرة فى لوعتها المحرقة تبكى باكورة الشغف . ولم تحقد على العازف الأعمى وما انفكت تراه يمثل دوراً مقدوراً عليه ، بل حقدت على الزمن وما

يفتأ يقود الناس أنى شاء ، لا كما شاؤوا . فهم بين يديه حجارة وهو يبنيها ويرفعها مداميك فوق مداميك . وليس لحجر منها أن يشذّ عن مدماكه ولا تبديل فى المكتوب.

وعلت شهقات فادية وضربات عصا عزيز تقرع جبهة الحضيض . ومشى الأعمى ثملاً بيأسه . ولقيه فى الرواق أمين الطريف فعانقه ، وهمس فى أذنه : أحسنت . إنى لمدين لك بالوزين . شكراً جزيلا وقد ذهبت ببلبالى !

وألقى فى يمينه صرة من الدنانير . فابتسم لها عزيز عدوان بازدراء المحتقر . وتجرأ على القول : شكراً جزيلا . إبقها لمن هو أحوج بها منى . لا تزد فى بلبالى !

فارتجف أبو حميد واتسعت عيناه هولا . أدرك مبلغ جنايته على الأرواح . إلا أنه أغضى على القذى . وللمرة الأولى تشك فى صدره النصلة فيحمتل وقعها ويغمض عنها الأجفان . عزيز عدوان لم يفتئت بحق فى ما نفث وهو المنكوب المظلوم . ولكنه نظام الطبقات ، ولكنها المداميك يعلو بعضها بعضاً ولكل حجر مكان مرسوم ...

واتسع الخاتم منظور فى دار أمين الطريف على الأنس والرحب . ودعيت فادية إلى الامتثال فأطاعت بعد صارخ العنف وفى قلبها ولولة . ليس لها أن تلجّ فى معاندة أبيها . ورغب

أبو حميد في الإسراع في عقد الزواج وما للأيام أن تتوالى في الانتظار . وحاتم أيد الأب في المطلب . عليه أن يعود إلى تجارته في العالم الجديد .

وازدانت زغرتا بأبهى مطارفها إكباراً لليوم السنيّ . واعتلى فرسانها صهوات الخيل وقد تبرقشت رماحهم بالألوان الضاحكة كأنها وجه الربيع . وركبت الزينات الهوادج على غناء وحداء . وإنهن لعلى وفرة في المضارب المنشورة في أصقاع لبنان الشمالي . وماجت فتيات زغرتا أسراباً تلو أسراب يرقصن وينشدن على ألحان الدفّ والمزمار وقصفات البارود .

وما خلا الحفل من عزيز عدوان ناقر العود ، وهو كالملح للطعام . فإذا خلت منه مجامع الصفاء فمن لها يلهب روحها بالبشر الفتيق ؟ ... وجالت أوتار الضرير جولات رحاباً كأن في كل رنة خفقة من وله ، ودفقة من خمر . وترنح سامعوها على نشوة أزرت بحميا الكؤوس . وعلت الأصوات تستزيد الناقر إبداعاً : إيه يا عزيز . هات من هذا الرحيق !

وأفاض العازف الأعمى بنجائبه . نفسه تسيل على الأوتار . فليأخذوا منه كل ما عنده . وأجاد كأن اليوم يومه . فادية تزف إليه ، لا إلى حاتم منظور . وأصغت فيه زغرتا إلى روائع الرنات فاستعبدها . وكأنها بين يديه أمة متيمة وله . هذا شجو

قلب لا شدو عود . وسعى إليه حاتم يمتدح التفوق ويسخو بالعطاء النضير . وما تجرأت فادية على الاقتراب ممن أقصته عنها أحكام البيئة ، مخافة ألا تملك نفسها فتنشر حبها الكظيم . فاكتفت بأن تنظر من بعيد إلى الحبيب المتخلف قسراً عن طيبات المنى ، وفى روحها نحيب ، وفى قلبها زفير .

وانطلقت السيارة على أجنحة بالعروسين تدفعهما إلى الشاطئ ليركبا منه البحر إلى أميركا . وظل مجلس الطرب معقوداً وأوتار عزيز عدوان تجدده كلما خبا . فليسكر بنو قومه بأنغامه ، وربما لن يتفق لهم أن يسمعوه !

وما خرس الوتر إلا والفجر يشرف على اليقظة . فانتثر الحفل يأوى إلى المضاجع مهدهداً بالروعة المسماح . وعزيز تهادى إلى مثواه ، ولكن ليعود فيثمل وحده برنات أوتاره . ففى نفسه لحن ما يزال يشتاق إطلاقه . وهو اللحن الشرود المجنّح. وما كاد ينتهى منه إلا وقد انقطع الوتر . فأكبّ عزيز عدوان على عوده الجريح يبكيه . ولكن لطف الله بعزيز . مات بطلوع الصباح ، ويده ممسكة بوتر مقطوع ، وعين قلبه جامدة على سبوح السراب .

(تمت)

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك


سندباد
تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان



لذيذة منعشة

مشروب الضيافة

اقرأ

محمد عبد الغني حسن

تيجان تهاوت

دار المعارف بمصر

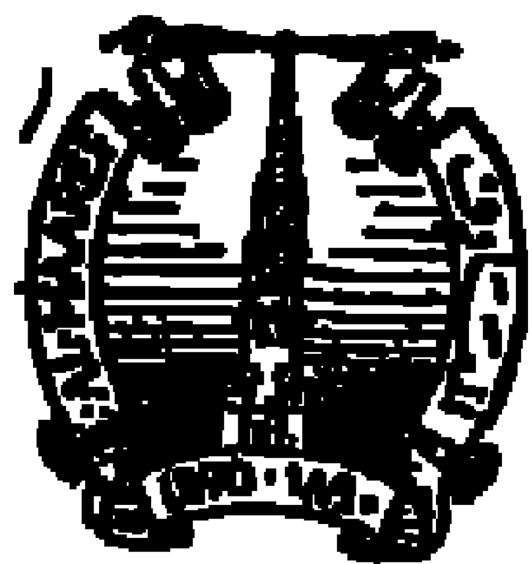
تيجان تهاوت

محمد عبد الغني حسن

تيجان بهاوت

اقرأ ١١٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٧ ــ أكتوبر سنة ١٩٥٢



استهلال

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير »

آن كريم

عرش على صنم

لم يكن البطل الفاتح «محمد بن القاسم الثقفى» هو أول جندى مسلم وطئت قدماه أرض السند فى العصر الأموى . فنى السنة الثالثة والأربعين من الهجرة غزا المسلمون السند غزوة استطلاع ، ولكنهم لم يمعنوا فى البلاد ، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فى قلبها لكثرة ما فيها من المخاضات والأوحال ومناقع المياه .

وفى زمن الحجاج بن يوسف الثقفى كان « ابن مسعر التميمى » عاملا للدولة الأموية على ثغر السند ، إلا أن العرب ظلوا على مرابطهم فى سواحل الهند وثغورها .

وكان أفراد من العرب وأهل السند يترددون على أماكن فى داخل بلاد السند ، ويجوبون أرضها طلباً للتجارة أو سعياً وراء الرزق ؛ وكانوا يحدثون الناس عند عودتهم بطرائف عن هذه البلاد ، وغرائب من أحوالها وعجائب أمورها . . . فكانت تغتلى فى نفوس القوم رغبة ملحة فى فتح هذه البلاد وضمها إلى

اللواء الإسلامى، كما انضوت تحته ألوية الفرس والروم وغيرهما من البلدان والممالك الضخام .

وكان فى الشباب العربى المسلم الناهض شاب يجتمع مع الحجاج بن يوسف الثقفى فى النسب . فهو ابن عمه ، ويلتقى معه فى « الحكم بن أبى عقيل » .

ولم يكن محمد بن القاسم — ابن عم الحجاج — قد خطا إلى العشرين بعد حين قامت فى نفسه الرغبة إلى الجهاد والفتح . لقد كان فى السابعة عشرة من عمره حين استعمله الحجاج على ثغر السند، وحين سير معه ستة آلاف مقاتل من خيرة الشباب العربى الذين تمتلىء نفوسهم حماسة وتدفقاً وتشوقاً إلى خوض الغمرات ، وعدم المبالاة بالأهوال

وجهز القائد الشاب بكل ما يحتاج إليه جيش يضرب فى سبيل الله ؛ ولم يفت إدارة التموين فى ذلك الجيش أن تمده بكل ما يخطر على البال وما لا يخطر من وسائل الإمداد والإعداد . . . حتى الخيوط والإبر والمسال التى قد يحتاج إليها الجند فى رتق ثيابهم حتى لا تتسع خروقهم على الراقع . . .

وكان الحجاج على معرفة تامة بأحوال هذه البلاد النائية ؛

وهى معرقة لم يخلقها العيان والمشاهدة، ولكن أكدتها الأخبار الوثيقة التى كان الحجاج يلتقطها من أفواه السياح والرحالة والتجار والمستطلعين .

وقد بلغ من عناية الحجاج بتموين الجيش الذاهب إلى بلاد السند أنه سمع أن الخل فى هذه البلاد شحيح غاية الشحة، وأن جنوده قد لا يستغنون عنه فى الطبخ والاصطباغ به . . . فعمد إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحاذق ، ثم جفف فى الظل. . . ثم قال : إذا صرتم إلى «السند» فانقعوا هذا القطن فى الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا . . .

وقد أغنت هذه الحيلة الطريفة هذا الجيش عن أن يحمل معه الخل فى زجاجات وأوعية قد تعطب على الطريق ، فوق أنها عبء ثقيل على ظهور الخيل والدواب ، التى يجب أن يخفف عليها وهى ذاهبة إلى ميدان القتال .

وسار محمد بن القاسم إلى «مكران» فأقام فيها أياماً ، وما زال ينتقل من بلد إلى بلد، وتسلمه أرض إلى أرض ، حتى أتى مدينة « الديبل » وكانت أهم بلد بالسند .

واستقرت النوى بالقائد الشاب فى مدينة « الديبل ». ووافته

السفن الحربية التى كانت محملة بالرجال والسلاح والأداة ، فكانت الغارة على المدينة السندية المقدسة برية بحرية .

وأخذ الجنود يتخففون من وعثاء الرحلة ، ولكنهم سرعان ما حفروا الخنادق وركزوا الرماح عليها ، ونشروا الأعلام ، وأنزل الناس على راياتهم فى منازلهم المخصصة لهم .

وكان القائد الشاب قد حمل معه فيما حمل من عدة القتال منجنيقاً عظيما يقال له « العروس » . وبلغ من ضخامة « العروس » وعظم حجمها أنها كانت تحتاج إلى خمسمائة رجل لإدارتها وإمدادها . وكانت ترمى بالحجارة الضخمة على مسافة بعيدة فتدك أقوى الحصون . . .

وكثيراً ما سمع القائد وجنده عن « البد » الهائل الذى كان فى مدينة « الديبل » بالسند . . . وهو الآن مع جيشه أمام ذلك الصنم الضخم وجهاً لوجه . . . لقد كان « البد » صنما عظيما فى بناء عظيم . . . وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة ، وفى رأس المنارة دقل عظيم . . . وكان ذلك الدقل أو ــ السارية ــ يحمل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة فى دورة واسعة فرآها القريب والبعيد .

وحاصر المسلمون المدينة السندية المقدسة ، وطال حصارها والعرب فى وفرة من الزاد والمئونة ، وأهل المدينة على شفا نفاد أقواتهم وأزوادهم .

ورمى الفاتحون العرب سارية « البد » العظيم بحجر ضخم من أحجار «العروس» فكسرت سارية الصنم، وتمزق اللواء، وبعثرت الراية الحمراء . . . فتطير أهل السند بذلك ووقع فى نفوسهم رعب شديد ، ودار بين الفريقين قتال أبلى فيه العرب بلاء حسناً ، وقاتلوا مقتلة عظيمة ، واستمرت المعركة حامية الوطيس ثلاثة أيام بلياليها ،لم يطعم الفاتحون فيها سنة من النوم إلا غراراً... واحتل محمد بن القاسم المدينة وأنزلها أربعة آلاف من جيشه البرى .

وسرت فى «السند» أنباء هذه القوة الزاحفة التى لا يقف فى سبيلها سد ولا حصن ، ولا يصدها هول ولا خوف . . . وإنما هى ماضية إلى غايتها كما يمضى السهم إلى هدفه ، فكانت كل مدينة تؤثر الطاعة والتسليم فى سلام وعافية ، وكان ابن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها وصالحه أهلها عليها .

وكان « ذاهر » ملك السند يجمع جموعه وينظم صفوفه

لكى يلقى المسلمين لقاء يحسب فيه السلامة له ولقومه . وكانت الموقعة قريبا من نهر «مهران». وكان ملك السند على فيل عظيم كعادة أهل تلك البلاد فى قتالهم ، وحوله التكاكرة — وهم قواد السند — واشتد القتال بين الفريقين إلى حد لم يسمع بمثله . ودب اليأس فى قلوب أهل السند ، على حين صابر العرب مصابرة أذهلت أعداءهم . ولم يجن المساء إلا وقد انهزم جيش « ذاهر »، وسقط ذاهر نفسه من فوق الفيل، وظل يقاتل حتى قتل

واستمر ابن القاسم ممعناً فى الفتوح حتى دانت له «السند» كلها بلداً إثر بلد، وما زال كذلك حتى بلغ مدينة «الملتان» ، وكان صنمها معظماً عندهم ، تهوى الأفئدة إليه من كل فج ، وتهدى إليه الأموال ، وتحلق عنده الرءوس واللحى . . . وتقدم له الضحايا . فحاصر المدينة ، وقطع الماء عنها كعادته فى كل حصار ، وقاتل سدنة الصنم العظيم وكان عددهم ستة آلاف . . . وأصاب المسلمون فى هذه المدينة المقدسة ذهباً عظيماً ، قيل إنه ملأ بيتاً طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية .

وكانت هدايا القائد الشاب تتوالى على كبار الأمويين

فى الشام والعراق . . . وأراد أن يطرف ابن عمه «الحجاج» بهدية غريبة، فقدم له فيلا من السند قيل إنه الفيل الذى كان يحارب عليه « ذاهر » ملك البلاد . وأجيز الفيل البطائح فى سفينة ، وأخرج فى مشرعة الماء التى كانت تدعى «مشرعة الفيل» نسبة إليه.

وقد لفتت جواميس السند نظر الفاتح الشاب فبعث بألوف منها إلى «الحجاج»، وهذا بعث منها إلى الوليد بن عبدالملك بأربعة آلاف .

وسقطت أصنام السند صنما إثر صنم ، وكان مقتل «ذاهر» ملك البلاد نهاية عرش الأصنام فى تلك الأصقاع . . .

الأموى الطريد

لم يشتف الناس وحدهم من الخليفة المصروع ، ولم تكتف الأقدار الساخرة بأن يقطع رأس الخليفة وهو يناجز أعداءه فى قلة من أصحابه الهاربين معه . . . ولكن هرة – لعلها كانت جائعة – نظرت إلى الرأس المجزوز والدم يقطر منه ، فانقضت عليه فى وسط الجماعة التى نفذت القتل ، واقتلعت لسان الخليفة المصروع من رأسه المجتث وأخذت تلوكه وتمضغه وتتلمظ ! وتخرج لسانها وتمسح به شفتيها . . . فلما تبلغت من الزاد الهنىء بلسان خليفة كانت الدنيا تأتمر بأمره ، أخذت طريقها خارج الجمع المحتشد ، ومضت إلى سبيل لها غير معلوم . . .

ليست هذه القصة وحياً من الخيال أو ضرباً من الأوهام ، ولكنها قصة الخليفة المقتول « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية . ولقد حاول هذا الخليفة المغلوب على أمره من رجال الدولة العباسية الناشئة أن يحتال على الأقدار فينجو بنفسه بعد أن فقد عرشه ، وخسر دولته ، التى كانت أول دولة عربية فى الإسلام .

ولكن هل ينفع الحذر من القدر؟ لقد ظلت رجلاه تمعنان في السير وتجدان في الهرب ، وتنتقلان من أرض إلى أرض . . . ولم يدر المسكين أن الأقدار كانت وراءه تطلبه ، وأن الدهر كان وراءه يرصده . . . والدهر لا ملجأ منه ولا هرب . . .

كان مروان بن محمد آخر خليفة أرادته الأقدار للدولة التي أنشأها معاوية الداهية . . . وكان كل شيء في عهده ينذر بأن الأمور تسير في ظلمات ليل بهيم . . . وكانت الأحوال حوله تهدد بأن التاج على مفرقه يكاد أن يتحطم ، وكانت حركات دعاة العباسيين وطلائعهم تؤذن بأن العرش الأموي تتزلزل قوائمه ، لكي ينتهي هذا العرش المزعزع إلى بيت جديد . . .

ولقد لقي مروان في أول عهده بالخلافة الأموية عنتاً كثيراً في محاربة الخارجين عليه ، المتمردين على خلافته . وكان – كما يقول السيوطي – يصل السير بالسير ، ويصبر على مكاره الحرب ، وبلغ من صبره أنهم لقبوه بالحمار ، لأنه يضرب به المثل في الصبر . . .

ولم يرق مروان إلى عرش الخلافة غفلا من التجاريب التي تصهر الملوك . . . ولكن ماذا تنفع التجارب حين تسوء البطانة ،

وتفسد الحاشية ، ويكثر الطمع ، ويتسلط الحقد . وتغلب شهوة الانتقام ؟

والحق أن الحقد الدنىء بلغ فى الخليفة مروان الحمار أدنأ مراتبه : فحين صار إليه الأمر والنهى فى الخلافة نبش قبر « يزيد الناقص » — وهو الخليفة الأسبق — وأخرج جثة المسكين وصلبه وهو عظام نخرة . . . لأنه كان قد قتل عمه الوليد .

ولعل شهوة الانتقام فى قلب رجل لم تبلغ ما بلغته فى قلب هذا الخليفة ، ومن ذلك الحين لم يهنأ ذلك المسكين بالخلافة لحظة واحدة . . .. فخرجت عليه الدنيا من كل جانب . . . واختلفت كلمة الناس فى فتنة جامحة ، فكل يرى رأياً ويذهب مذهباً .

فهذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من ولد الإمام على ، يخرج على الخليفة وينادى لنفسه ، فيبايعه قوم ويجتمع حوله خلائق .

وهذا أبو مسلم الخراسانى يظهر الدعوة لبنى العباس بعد أن كانت تدار فى الخفاء ، فيلتف الناس حوله ، ويجتمع إليه كل من له رأى من أهل خراسان . . .

ولقد شهد « نصر بن سيار » أمير خراسان وميض النار بعينيه خلال الرماد . . . فارتاع أى ارتياع ، وكتب إلى الخليفة مروان يقول :

أرى خلل الرماد وميض نار　　ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم　　يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكى　　وإن الحرب أولها كلام . . .
فقلت من التعجب : ليت شعرى　　أأيقاظ أمية أم نيام ؟

* * *

واتخذ مروان خطة ــ حسبها حاسمة ــ للقضاء على الفتنة الناجمة المنذرة بانهيار عرشه ، فقبض على «إبراهيم الإمام» الذى يدعو العباسيون له ، وحبسه فى مدينة « حران » ، ثم دس له السم وهو محبوس فمات .

ولكن الأمور لم تستقم لعرش تنذر قواعده بالزوال ، فقد التف الناس حول السفاح والمنصور ــ أخوى الإمام ــ واجتمع إليهما خلق كثير ، وقويت شوكة الدعاة إلى الدولة الجديدة .

وكان أبو مسلم الخراسانى سريعاً فى خطته لإزالة الحكم الأموى ، فدخل بجنوده الخراسانية على السفاح والمنصور ،

وسلم على الأول بالخلافة . . . فخرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وكبار الشيعة إلى المسجد الجامع ، وأبو مسلم — قائد الانقلاب — بين يديه ، فصعد السفاح المنبر ، وخطب الناس وبويع بالخلافة . . .

وما كان السفاح وحده هو خطيب ذلك اليوم التاريخى المشهود ، فقد خطب بعده عمه « داود بن على » خطبة تزين مصادر التاريخ الأدبى بقوة حجتها ، وبلاغة عبارتها وتأثيرها النفسى فى نفوس السامعين ، ومتانة استدلالها على أحقية العباسيين بالخلافة ، لأنهم « أهل نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم » .

ولم يكن بد للدولة الجديدة — بعد البيعة لها — من أن تقاتل الخليفة مروان وتقاتل أنصاره حتى يستقيم الأمر لها . وانتدب لذلك عبد الله بن على بن عباس عم السفاح . فتوجه لقتال الخليفة الأموى مروان ، وتلاقى الجمعان على « نهر الزاب » ، ومع مروان — كما يقدر المؤرخون — مائة وعشرون ألف مقاتل ، ومع قائد العباسيين أقل من ذلك ، وبعد قتال صنع الله فيه للعباسيين أنواع الصنع خذل « مروان الحمار » أشد الخذلان .

وبلغ من خذلان الخليفة الأموى وانفضاض الدنيا من حوله وتأذنها بالانقلاب عليه ، أنه هان على رجاله وحراسه وشرطته ، حتى لقد بلغ به الهوان أنه إذا أمر طائفة من جنده بشيء قالوا له : قل للطائفة الأخرى ! واشتد به الهوان إلى حد أنه قال لصاحب شرطته : انزل إلى الأرض ، فقال : لا والله ! لا ألقي نفسي إلى التهلكة . فتهدده مروان وقال له : لأفعلن بك كذا وكذا . فأجاب صاحب الشرطة : وددت أنك تقدر على ذلك !

ورأى الخليفة أن يشترى حماسة الجنود المخذولين بالذهب ، لعل صفرته تحيي النفوس فى هذا الوقت العصيب . . . فألقى ذهباً كثيراً أمام الناس ونادى فيهم : أيها الناس ! قاتلوا ! وهذا المال لكم ! فامتدت الأيدى إلى الذهب تتناول منه شيئاً شيئاً .

واصطلحت الأقدار على خذلان الخليفة أكثر مما اصطلحت عليه عوامل الضعف فى جيشه . . . فقد قال له بعض الناس إن المقاتلين يأخذون الذهب ، ولا نأمن أن يمضوا به إلى نهاية الصفوف وينصرفوا عن القتال . فأمر ابنه — وهو يحمل الراية —

أن يرجع إلى آخر الصفوف ليعرف الذين أقعدهم الذهب عن القتال فيقتلهم . . . ولكن العسكر حين رأوا ابن الخليفة يرجع ومعه الراية ظنوه يتقهقر ، وشاع الفشل فيهم ، فتنادوا : الهزيمة ! الهزيمة !

وتفرق جيش مروان فلولا هدها الخذلان . ومضى مروان مخذولا يلتمس النجاة ، فلما بلغ « الموصل » قطع أهلها الجسر ومنعوه من العبور وسدوا عليه الطريق .

ورفع أصحاب الخليفة المولى الأدبار أصواتهم قائلين : يا أهل الموصل ! هذا أميرنا وأميركم وأمير المؤمنين يريد العبور ... وسخر أهل الموصل منهم بجوابهم اللطيف . . . : كذبتم ! فإن أمير المؤمنين لا يفر !

وكان فى أهل الموصل موجدة على الدولة الأموية التى آذنت شمسها بمغيب ، فاتجهوا إلى ركب الخليفة الهارب وقالوا : الحمد لله الذى أزال سلطانكم ، وذهب بدولتكم . . . الحمد لله الذى أتانا بأهل بيت نبينا .

ولم تكن تسبيحة الحمد لله هذه غير النفثة التى يريح بها المصدور نفسه من أحمال عبء ثقيل ، وكانت المتنفس الوحيد

لقوم شهدوا فساد الأمويين وهو يهد كيان المسلمين هداً . فقد ودعوا دهاء معاوية ، وخيرة سليمان بن عبد الملك ، وتقوى عمر بن عبد العزيز ، ليستقبلوا فسق الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وخلاعة أبيه يزيد بن عبد الملك من قبله .

وكره الناس هذا العبث الرخيص الذى ظهر فى أواخر الأمويين . والذى كانت تنذر بوادره بأمر خطير ، فقد أخذ حبل الدولة يضطرب منذ عهد يزيد بن الوليد . وفى عهد أخيه إبراهيم بن الوليد لم تكن الخلافة شيئاً ذا خطر ولا طائل . فقد سلم عليه ناس بالخلافة ، وأنكرها عليه آخرون . . . إلى أن جاء صاحبنا مروان فكان من أمره ومن زوال ملكه وانهيار عرشه ما نحن ذاكروه . . . .

* * *

وهام الخليفة الأموى الطريد شريداً على وجهه ، لا يحمل من قصر الخلافة إلا ما يتبلغ به على الإمعان فى الهرب ، ولم يكن التاج يأتلق على مفرقه ، ولكنه مخبوء فى أحماله التى هرب بها ، لعله يضعه على جبينه مرة ثانية .

فعبر نهر دجلة ، وجاء «حران» ، وأسلمته «حران» إلى مدينة

دمشق ، وهى عاصمة الأمويين ومقر سلطانهم ، فأنكرته العاصمة ولفظته منها، فولى وجهه شطر «مصر» لعله يجد فيها أمناً ، أو يلتمس فيها مقاماً ، أو تقام له فيها دعوة . . .

ولم تغفل عين العباسيين وعلى رأسهم الخليفة الأول السفاح عن متابعة الخليفة الأموى الهارب ومطاردته ، وتولى هذا العمل صالح بن على العباسى . . . . فجد صالح فى طلب مروان وتعقبه ، وكان الخليفة الهارب كلما حل ببقعة أحرق علف خيله وهو يتركها ، حتى لا يدل عليه العيون .

وما زال التوجس والخوف يخلعان قلب الخليفة المهزوم ، وهو لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى بقية من أعوانه وبطانته الذين خاضوا معه كل خوض : . . وكان « أبو عون » رجلا من رجال صالح بن على المكلفين القبض على الخليفة المطرود . . . ولقى أبو عون ورجاله خيلا لمروان فأسروا رجالها ، وقتلوا بعضاً واستحيوا بعضا . . . وسألوهم عن مختبأ مروان . . .

وهنا كان الوفاء قد عيل صبره مع هؤلاء الأتباع ، وأحبوا أن يضمنوا حياتهم ويؤثروها على حياة مولاهم الهارب . . .

فدلوا رجال العباسيين على مكمنه ، وأحلوا أنفسهم من

تبعات الولاء لسيدهم القديم . . . طلباً للخلاص ، وإيثاراً للعافية . . .

وسار أبو عون إلى مخبأ الخليفة المنكود ، فألفوه نازلا فى كنيسة بقرية « بوصير » من أعمال الجيزة .

وخشى أصحاب أبو عون — وهم قلة — أن يعلم مروان وأصحابه بمجيئهم — وهم كثرة — فيقتلوهم . فلم ينم الطالبون ليلتهم وكسروا أغماد سيوفهم ، حتى لا تقر فى الأجفان إلا بعد قتال مروان . . .

وحمل رجل من المتعقبين على مروان فطعنه ، وهو لا يعرفه ، فلم تسمع إلا صيحة صائح يقول : صرع أمير المؤمنين !

وأراد كوفى أن يشفى غلته من الخليفة المطعون ، فاحتز رأسه احتزازاً ، وبقى آخر الأمويين على أرض صعيد مصر جثة بلا رأس . . .

وحمل الرأس إلى صالح بن على حيث جاءت هرة واقتلعت لسان أمير المؤمنين ، وأخذت تمضغه وتلتذ طعمه ، وهى لا تدرى أن هذا اللسان طالما نطقت به أقدار ، ودار به الأمر والنهى كل مدار . . .

وكان رأس مروان ، ودمه المطلول ، ولسانه المأكول بعض الشفاء لغيظ أبي العباس السفاح ، الذى سجد شكراً لله حين رفع إليه رأس مروان . . . فقد رفع رأسه وقال . . .

الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك . وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهمو للغيظ ترويني

عرش بغداد

لعل شهوة الغضب لم تبلغ من مخرب ظافر ما بلغته من نفس « هولاكو » سلطان التتار ، الذى صب جام غضبه على « الخليفة المستعصم » آخر خلفاء العباسيين ، فأمر بأن يقتل قتلة لم تعرفها مصارع الخلفاء ، ولا مقاتل السلاطين . . .

إن السيف لم يجتز رأس الخليفة المستعصم ، ولم تصبه وهو أسير فى يد الأعداء طعنة من رمح ، أو ضربة من خنجر ، أو رمية من سهم مريش . . .

لقد أمر طاغية التتار « هولاكو » بأن يقتل الخليفة المستسلم قتلة لا يراق فيها دم ، ولا يسيل منها نجيع . . . لقد جرد حفيد العباس عم النبى عليه السلام من ثيابه الزاهية المزركشة الموشاة بالذهب ، المرصعة باللآلىء ، كما انتزع التاج المؤتلق من فوق جبينه المهزوم ، لكى يوضع فى غرارة — أى زكيبة — ويربط عنقها على رأسه ، ويظل يركل بالأيدى ويرفس بالأرجل ، فتتلقفه أقدام الطغاة من التتار كالكرة

الصوالجة وهى تقذفها من يد إلى يد ؛ أو ككرة القدم تنتقل من رجل إلى رجل ، حتى يموت على أبشع حال . . . .

ونفذت مشيئة الطاغية الجبار « هولاكو » ، وصنع بالخليفة المخلوع المهزوم ما لا يليق بكرامة رجل كانت دنيا المسلمين تعج بذكره ، وكانت منابر المسلمين يرتفع فيها الدعاء له ، ويخطب فوقها باسمه ، وكان الوصول إليه أو الوقوف بين يديه أمراً من الأمر ، يحتاج إلى الوقوف بالأبواب ، واستئذان الحجاب . . .

إن مقتل هذا الخليفة الوديع الضعيف على هذه الصورة فى يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ ليثير فينا وفى كل إنسان أبلغ آيات السخط على التتر ، الذين لم تقف جرائمهم عند قتل النفوس وإزهاق الأرواح ، وإبادة المعالم ، وإشاعة المظالم ، ولكنهم أزالوا الخلافة العباسية كلها من الوجود ، ومحوا فى لحظات قصار حالكة السواد دولة إسلامية ، بعد أن ظلت تحكم العالم الإسلامى أكثر من خمسمائة من السنين . . .

ولكن هذا المصير المشئوم للدولة العباسية كان أمراً لا مفر منه ولا محيص عنه . . . فقد مضت الأيام الأولى بروعتها ومجدها

وانتصاراتها وعوامل الإصلاح فيها . . . وذهبت أيام المنصور، والرشيد ، والمأمون بجلال أقدارها ، وعظمة حوادثها ،وعزة الدولة فيها ، لتحل محلها أيام هزيلة ضئيلة يهون فيها السلطان ، ويتضاءل فيها الخلفاء ، وتقوم فيها الدسائس ، ويتحكم فيها الأجانب فى قصور الملوك ، ويسود فيها الرومى والزنجى والصقلبى وكل أفاق دساس . . . وتقوم فيها للجوارى والمغنيات والحظايا دولة داخل الدولة ، فإذا الخليفة مسمول ،أو معزول ،أو مقتول...

ولما هانت الخلافة هانت الوزارة تبعاً لها ، وهنا انصرف الخلفاء عن اختيار الأصلح للوزارة إلى من يغلى الثمن لهم فى طلبها... حتى لقد وصل « ظهير الدين بن العطار » إلى الوزارة للخليفة المستضىء لأنه كان تاجراً ، وكان يغدق الأموال على هذا الخليفة الذى كان يحب الذهب حباً جماً . . .

ولقد طال الزمن بالدولة العباسية خمسة قرون، إلا أن نهايتها المحزنة كانت أمراً متوقعاً ما بين يوم ويوم ، فقد اصطلحت عليها عوامل الضعف والفساد والانحلال . . . ووقف الطامعون فيها بالمرصاد ينتظرون الساعة المحتومة ، إلى أن جاءت موجة التتار تكتسح العالم غرباً ، فوجدت فى طريقها كتلة منحلة

الأجزاء . . فلم تر كبير عناء فى القضاء عليها ومحو آثارها . . . وكان التتر — على قساوتهم ووحشيتهم وتخريبهم — جماعة عسكرية منظمة محددة الأهداف ، يقول فيهم المؤرخ الموفق عبد اللطيف إنهم : (تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم . . . وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ، لأن الغريب لا يتشبه بهم . . وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ، ونهضوا دفعة واحدة ، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه ، ولا عسكر حتى يخالطوه . . . فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل ، وتضيق طرق الحرب . . . ونساؤهم يقاتلن كرجالهم . . . وليس فى قتلهم استثناء ولا إبقاء . . يقتلون الرجال والنساء والأطفال . وكان قصدهم إفناء النوع . وإبادة العالم ، لا قصد الملك والمال)

وأيا ما كان قصد التتار فقد كان شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ نذيراً لعرش العباسيين بخطر عظيم . ولكن هل تنبه الخليفة المستعصم بالله إلى هذا الخطر الذى كان يلوح كالنار بين الرماد ؟ لقد كانت الأراجيف والشائعات تسري فى أحياء بغداد بأن عسكر المغول يزحفون على عاصمة العباسيين بقيادة هولاكو . . . ولكن ذلك — كما يقول مؤرخ معاصر للحوادث —

لم يحرك من الخليفة عزماً ، ولا نبه منه همة ،ولا أحدث عندهما .

والحق أن المستعصم كان رجلا مسالماً ، غمرا ، خفيف الوطأة بعيد المستفز . . . بطيء التحرك . . . لا يستفزه نبأ ، ولا يستخفه خبر . . . وقد بلغ من غفلته عن أحوال مملكته أن المؤرخ صاحب كتاب « الفخرى » قال فيه : إنه كان قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب فى النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور . . .

لقد كانت عساكر المغول تزحف من قلب آسيا متجهة نحو الغرب كأنها ذرات من الرمل لا عدد لها . . . وكانت رسل هولاكو وعيونه يدخلون الممالك الإسلامية يستطلعون أحوالها ، ويتجسسون عليها ، ويسبرون أغوارها . وكان عيون المغول يدخلون البلاد على هيئة التجار ، حتى لا يشك فيهم أحد فيطلعون سلطان المغول على أحوال البلاد أولا بأول ... . فإذا جاء الخليفة العباسي نبأ بتقدم المغول مال إلى عدم تصديقه ، وأعرض عنه جانباً ، لأنه كان متشاغلا — فوق ضعفه وفسولة رأيه — بسماع الأغانى ورؤية المساخر والمضاحك التى تدخل السرور إلى قلبه .

ولم يدر أنه كان بهذا الضحك المجلوب يرمى بنفسه وبأسرته وبمملكته إلى أعقاب بكاء طويل مرير . . .

وتتهم بعض الروايات « مؤيد الدين بن العلقمى » وزير الخليفة المستعصم بأنه كان مخامراً مع التتار : بل يذهب بعضها إلى اتهام هذا الوزير بأنه هو الذى دعا التتار إلى بغداد لكى يخلص من العباسيين ، لأنه كان شيعياً ، والشيعيون مضطهدون من أهل السنة الذين كان العباسيون يساعدونهم . . . وهى تهمة وجدت من المؤرخ « ابن طباطبا » دفاعاً قوياً ، حيث بقى ابن العلقمى محكماً مكرماً فى عهد هولاكو وبعد سقوط بغداد ؛ فلو كان هذا الوزير خائناً أو مخامراً لقتله قائد التتار ، ولما وقع منه الوثوق به ، والاطمئنان إليه . . .

ومهما يكن من أمر فقد وصل التتار إلى بغداد أو إلى مقربة منها على الأصح . . . وانقسموا فرقتين : فرقة تدخلها من الشرق وعلى رأسها «هولاكو» ، وفرقة من الغرب وعلى رأسها «باجو». ورأى الناس التتر يطبقون عليهم ، فوقع الذعر فيهم إلى حد جعلهم يرمون بأنفسهم فى مياه النهر والنهيرات القريبة منه . وازدحم الناس على عبور النهر فراراً بأرواحهم ، حتى ضاقت بهم الزوارق

والمراكب والألواح ، وارتفع سعر العبور حتى كان الملاح يأخذ أجرته سواراً من الذهب ، أو طرازاً من الزركش ، أو عدة من الدنانير . ولم يضن الناس فى سبيل اجتياز النهر بمكنون التلاد .

وفى الجانب الغربى التقى عسكر من التتار مع عسكر الخليفة بقيادة « مجاهد الدين الدويدار » . وكان عسكر بغداد فى غاية القلة ، فشبع فيهم التتار قتلا وأسراً ، ومن نجا من هذين لم يسلم من الوحول التى كانت فى الطريق — طريق العباسيين المنهزمين .

وكان الخليفة فى خلال معركة الجانب الغربى من بغداد جالساً فى قصره يتسلى بمشاهد لهو برىء . . . كأن الجائحة بعيدة عنه . واحتل التتار الجانب الغربى من العاصمة المشرفة على السقوط بعد أن خلا من أهله ، وأخذوا يرمون بالنشاب إلى الجانب الشرقى .

وكان هدف الرماة أن يوجهوا سهامهم إلى قصر الخليفة ليثيروا الرعب فيه فيستسلم . . . وكان الخليفة — كما يروى ابن الفوطى معاصر الحادثة — جالساً فى أحد أروقة القصر ، وبين يديه جارية صغيرة من مولدات العرب تسمى « عرفة » . . . وكان فيها ظرف ودلال وطبيعة مضحكة . . . وكان الخليفة الغافل يأنس بمجلسها ومضاحكها . . . فأصابها سهم دخل من

بعض الشبابيك فقتلها ، فانزعج الخليفة لمقتلها . . . ولعله انزعج لها أكثر مما انزعج لغارات التتار ! . وأمر أن يحضر السهم النافذ المصيب بين يديه ، فإذا هو مكتوب عليه : إذا أراد الله أن ينفذ قضاءه سلب ذوى العقول عقولهم . . . وأمر الخليفة فى الحال أن تعمل ستائر وسدادات من ألواح الخشب ، لتحول بين شبابيك القصر وبين الرماة . . .

وأراد الله أن يتم مشيئته فى الخليفة وأهل بيته ، فضغط هولاكو بجيشه الجرار من ناحية الشرق ، وأعد عدة الحصار ؛ وكان الخليفة قد أمر بإقفال أبواب المدينة وإحكام الأسوار . . . ولكن ماذا ينفع هذا أمام سيل جارف من محاربين أشداء ؟

واضطر الخليفة أن يخرج من قصره المنهار ليسلم بالطاعة والتسليم لسلطان المغول ، ودخلت عساكر المغول المدينة فنهبتها نهباً ، وأشاعت الرعب فى نفوس ما بقى من أهلها ، حتى لقد قيل إن كثيراً من نفائس التراث الفكرى الإسلامى لم يسلم من الحريق أو من الغرق فى مياه دجلة .

وقيل للخليفة المهزوم إن هولاكو يرغب أن يزوج ابنته بابنك . . وأن يبقيك فى منصب الخلافة على أن تكون عليك

الطاعة له ، كما كان أجدادك من العباسيين مع سلاطين السلاجقة ... وأنزل الخليفة فى سرادق عند « باب كلواذى» من أبواب بغداد ، واستدعى القواد والعظماء والعلماء ليحضروا العقد ... فكانت كل طائفة تخرج تضرب أعناقها ... وهكذا تم للمغول التخلص من أهل السيادة والعلم والمثالة فى الدولة الزائلة . . .

وأخرج الخليفة فى ذلك اليوم العصيب أثمن ذخائر القصر وأنفس أعلاقه ، فكان من الأموال والجواهر والحلى والزركش وأوانى الذهب والفضة جملة عظيمة ، ولم يدر أنه كان يخرجها لكى يبتلعها بحر الغزاة كما ابتلعوا مملكة إسلامية بجملتها .

ولما تخلص هولاكو من رجال الدولة الفانية ، واستولى على كثير من أموالها ونفائسها ، وجرد الخليفة الضعيف من كل شىء يملكه أمر به أن يقتل ، وأن لا تراق فى قتله قطرة دم . . . فوضع فى غرارة ، وظل يركل ويرفس حتى مات .

ويقال إنهم ضنوا على جثته أن تضمها صفائح قبر ، أو تخط لها حفرة فى مضجع أبدى هادئ ، فتركوها فى العراء كهشيم تذروه الرياح . . .

ولله عاقبة الأمور

ملك ينتحر غرقاً
بعد ضياع مملكته

هناك على ضفة نهر من أنهار الأندلس وجد القوط المهزمون بعد انجلاء المعركة جواداً وثياباً وعدة من السلاح عرفوا أنها لملكهم المهزوم على يد «طارق بن زياد» . فأيقنوا أن سيدهم ورب التاج فى بلادهم قد ألقى بنفسه فى النهر المتدفق ، فراراً من عار الهزيمة التى لحقته على يد العرب الفاتحين . ولم يوقف للملك الغريق على أثر ، فقد حملته مياه النهر فى اندفاعها صوب المحيط . . .

ويقول نفر من المؤرخين إن الملك « رذريق » ملك الأندلس القديمة المدبرة ، قد لقى مصرعه بعد معركة حامية ، بضربة من سيف طارق بن زياد ، أهوى بها البطل الفاتح على رأسه فخر صريعاً .

وأياما كان الأمر فقد انتهت بانتحار « رذريق » أو بمصرعه دولة القوط فى الأندلس ، وهوى عرش قديم ، ليحل محله عرش

عربى إسلامى جديد . . .

ولقد دخلت الهزيمة على «رذريق» من ناحية نفر من أمراء القوط الذين كانوا على ولاء لمدينة « طليطلة » عاصمة ذلك الملك الغشوم . . . فأنهم خامروا عليه ، ودلوا العرب الفاتحين على عوراته ، حتى عبروا إليه البحر من شمالى أفريقية، وسدوا عليه منافذ السبل ، وقاتلوه وأصاروا عرشه إلى أسوأ مصير . . .

ولم يكن «رذزيق» غير واحد من ملوك القوط بالأندلس الذين ساموا أهلها الخسف وسوء العذاب . ولم يكن حكم القوط لتلك البلاد ثلاثة قرون — من الخامس إلى السابع المسيحى — إلا امتداداً لطغيان الحكم الرومانى الذى كان يسود البلاد قبل ذلك . . .

وأهمل ملوك القوط — فى الثلاثة القرون التى ملكوها — شئون الشعب إهمالا ليس له نظير . . . فأعادوا الظلم الرومانى على أبشع صورة ، وقسموا الناس إلى طبقات ثلاث : طبقة الرقيق الذين لم يزيدوا على أن يكونوا سوائم تمشى على اثنين . . . وقد فقدوا كل حق فى الحرية والاختيار . . . حتى لم يكن أحدهم ليستطيع الزواج إلا بأمر سيده . . . والطبقة الثانية

هى الطبقة المتوسطة . . . ولم يكونوا بأسعد حالا من إخوانهم رقيق الأرض . فقد جردهم ملوك القوط من أموالهم وقليل عقارهم . وفاء للضرائب الفادحة التى كانت تثقل ظهورهم وتعيى كواهلهم . . . وكان القليل الذى بأيديهم عرضة للمصادرة والضياع والانتهاب . . . .

أما الطبقة الثالثة فتجمع فى إطارها الظالم الغاشم رجال الكنيسة وكبار الملاك والأشراف الذين خصتهم الأقدار السعيدة بشرف المنابت . . . . وهو شرف ليس للمرء فيه خيار . . .

وظلت طريق الملوك الطغاة تسير بهم من جيل إلى جيل ؛ ولا أمل فى إصلاح ، ولا رجاء فى تحسين . . . إلى أن انتهى عرش هذه المملكة إلى الملك « غيطسة » الذى سام الشعب الأسبانى ألواناً من الخسف ، وأذاقه كئوساً من العذاب .

ولم يكن عند أهل الأندلس من القوة الروحية ما يصرفون به هذه الطاغية عن طغيانه . . . فقد قلم الظلم أظفارهم ، وأخمد البغى أنفاسهم فلم يستطيعوا حراكاً . . .

ولكن الثورة على الملك « غيطسة » لم تأته من ناحية الشعب

المحطم المقصوص الجناح . . . وإنما أتته من ناحية شريف من الأشراف اسمه « رذريق » اغتصب الملك من « غيطسة » وانتزع التاج من فوق رأسه، لكى يضعه على رأسه باسم الملك «ويتيزا» ، أو رذريق كما يسميه العرب فى تواريخهم . . .

ولم يشعر أهل الأندلس القدماء بكبير فرق بين عهد غيطسة وعهد رذريق . . . . فقد بقيت الأمور على حالها من الفساد والفوضى . . . . ولم يكن الإصلاح الذى يدعو إليه الملك المغتصب الجديد إلا ذراً للرماد فى العيون، ولم يكن اعتداله فى سيرته إلا فى الأيام الأولى من ملكه . . . ولكنه بعد ذلك انغمس فى الترف ، وأغرق نفسه فى اللذائذ ، واستسلم لصرخات الشهوة العارمة التى كانت تعتلج فى صدره . . .

وكان من عادة أشراف البلاد فى تلك الأيام أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى القصر الملكى بطليطلة ، ليتلقوا عنه أصول التربية الملكية الرفيعة ، وليعرفوا التقاليد والمراسم التى تفصل بينهم وبين أبناء الشعب بحاجز منيع . . . ولينشأوا نشأة حسنة يعودون بها إلى قصور آبائهم وقد حذقوا ثقافة البلاط ، وأتقنوا القصور . . .

وكانت للملك المعزول « غيطشة » حفيدة تدعى « فلورندة » ، فهى بنت ابنته . وأبوها « يوليان » حاكم مقاطعة كيوتا ، وكانت على جانب كبير من الجمال الفتان .

وأرسلت الفتاة الجميلة « فلورندة » إلى بلاط طليطلة على عادة ذلك الزمان . وأنبتها قصر « رذريق » نباتاً حسناً . . . وما زالت تحظى بالرضى فى البلاط حتى كانت وصيفة للملكة ؛ وهنا وقعت عين الملك عليها فوقعت من نفسه أجمل وقع . وأخذه جمالها وفتنتها . فأضمر فى نفسه أمراً . . .

ونسى الملك أن هذه الوصيفة الفاتنة ليست إلا وديعة لديه ، وأمانة فى عنقه ؛ ونسى أنها إنما جىء بها إلى القصر لتتلقى قواعد القصور على وجهها الصحيح . . . ونسى أنها لم يبعث بها أبوها الكونت يوليان لكى تكون دمية يتلهى بها الملك ، ويرضى بها أحط غرائزه . . .

وفى لحظة من لحظات الشهوة العارمة اعتدى الملك « رذريق » على الفتاة الشريفة العذراء . . . . ولم تجد تلك المخلوقة الضعيفة سبيلا إلى مقاومة ملك معتد أثيم . . .

وأخبرت «فلورندة» أباها بما حدث من اعتداء الملك عليها ؛

فأضمر فى نفسه شراً للملك ، وأعد عدته للانتقام للشرف المثلوم . . .

والتجأ «رذريق» إلى « يوليان » ليعينه على مقاتلة العرب فى شمالى أفريقية ، وأمده بالسلاح والعتاد ليقف مطامع العرب لو حدثتهم أنفسهم باجتياز البحر إلى الأندلس ، ونسى « رذريق » أنه يطلب العون من عدو موتور . . .

وأضمر يوليان فى نفسه الانتقام من الملك المعتدى على ابنته ، ورأى أن يعين العرب عليه فيما لو هموا بغزو الأندلس وأن يدلهم على مواقعه وعوراته .

فلما ودع الملك يوليان عند انصرافه من حضرته طلب منه أن يهدى إليه صقورا من التى كان يوليان يهوى تربيتها ، فأجابه يوليان : سآتيك بصقور لم ترها من قبل . . . .

* * *

لم يكن «يوليان» إلا مضمراً فى نفسه أمراً جليلا حين أجاب «رذريق» بهذا الجواب . . . ولم تكن الصقور التى يعنيها غير صقور العرب الذين نوى يوليان — إطفاء لشهوة الانتقام عنده من رذريق — أن يدلهم على منافذ الأندلس ومسالكها ،

ليذهبوا فى جموعهم من شمالى أفريقية إلى شبه الجزيرة الأندلسية وليحطموا عرش « رذريق » أعدى أعدائه . . .

وكان يوليان يرجو أن يقتل عدوه رذريق على يد العرب المتوثبين إلى الفتح . . . وأن يكتفى العرب بما تصل إليه أيديهم من أسلاب وغنائم ، ثم يعودوا إلى بلاد المغرب ، ويعود تاج الأندلس إلى أولاد الملك المخلوع « غيطسة » والد زوجته .

ونسى « يوليان » أن العرب كانوا أسمى نفساً وأكرم طبعاً وأعلى غاية من أن يكتفوا من الغارة على الأندلس بأسلاب رخيصة تافهة مهما غلت قيمتها . ونسى فوق ذلك أن العرب لم يكونوا ليجشموا أنفسهم عناء الرحلة إلى الأندلس لو كان أقصى هممهم أن يكونوا أداة لانتقام أمير من ملك فى قضية لا ناقة لهم فيها ولا جمل . . . فإن العرب كانت لهم همم لا منتهى لكبارها . . . وكانت أصغر هممهم — لولا المبالغة — أجل من الدهر كما يقول الشاعر .

نسى «يوليان» ذلك ، وظن أن العرب تهون الفتوح عندهم هذا الهوان المزرى ، الذى لم يكن يقوم إلا فى خياله المريض ، ولعله حسب أنهم خرجوا من أقصى الأرض فى شبه جزيرة

العرب ، وبلغ بهم الانسياج فى الأرض الواسعة إلى هذا الحد لكى يخرجوا مختارين من بلاد الأندلس إذا ما دخلوها فاتحين .

ومهما يكن من الأمانى العراض التى علل بها يوليان نفسه ، فقد التقى مع موسى بن نصير فى بلاد المغرب وعقد معه صلحاً ، واتفقا على العمل معاً لمقاتلة « رذريق » فى الأندلس ذاتها .

وأخذ موسى بن نصير يستطلع أحوال البلاد من هذا الشريف الموتور . . . فأطنب يوليان فى وصفها ، وعرض أمام الأمير العربى لوحة فاتنة لهذا الفردوس المطل على بحر الروم ... فوصف أنهاره الجارية ، ووديانه الفاتنة ، وأرضه الخصيبة الممرعة ، وخيراته الكثيرة ، ومدنه الجميلة ؛ وكشف له عن حالة البلاد ، وتذمر الطبقات ، وضعف الملوك ، ومنافسة الأمراء . . . وهون عليه أمر فتحها بأن ذلك مطلب يسير المنال . . . وأنه على تمام الأهبة ليمده بالسفن التى يجتاز بها البحر لنقل جنده إلى البلاد ، وأنه سيزوده بالرجال الخبراء الذين يعرفون مسالك الأرض وطرقها ، ويكشفون للجيش عن وعورها وسهولها ، حتى يستطيع جيش الفتح أن يصرف أموره ويحمى ظهوره . . .

وتحرق قلب ابن نصير شوقاً إلى هذه البقاع التى وصفها يوليان ، وكاد يطير إليها لو يطار إلى الأوطار بلا جناح . . . لولا أنه على عادته كاتب الخليفة الوليد بن عبدالملك يستشيره فيما عرضه عليه «يوليان» ويستأذنه فى الذهاب إلى هذا الهدف الجليل .

وكان الوليد بن عبد الملك أحرص من أن يندفع فى الرد بإجازة الخروج إلى الأندلس عن غير سابقة من الخبرة . . . فكتب إلى موسى بن نصير يقول : خضها بالسرايا ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . . . .

وكان البحر دائماً هو أخوف ما يخافه العرب فى غزواتهم وفتوحاتهم ؛ ألم يصفه أحد القواد للخليفة عمر قائلا : خلق كبير عليه خلق صغير . . . وهم فيه كدود على عود . . . فقال عمر : والله لا أركبت فيه مسلماً أبداً ؟

ولكن موسى بن نصير طمأن الخليفة الوليد حين كتب إليه بأن البحر الذى يجتازه العابر إلى بلاد الأندلس ليس ببحر متسع ، وإنما هو خليج يبين ما وراءه . . . فكتب إليه الخليفة : اختبرها بالسرايا ولو كان الأمر على ما حكيت . . .

فبعث موسى بن نصير رجلا من مواليه يقال له « طريف »

فى خمسمائة من الرجال ما بين راجل وفارس ، وأنزلهم فى أربع سفائن ، وأغار على الجزيرة الخضراء فأصاب منها مغانم كثيرة ، ورجع سالماً هو ورجاله فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين من الهجرة . . .

فلما رأى الناس ذلك رأى العين اطمأنت نفوسهم للغزو وخفوا إليه سراعاً . . .

ودعا موسى بن نصير مولى له من أشجع رجاله وأصبرهم على القتال ،وأجرأهم فى الميدان اسمه «طارق بن زياد» فبعثه فى سبعة آلاف مسلم أكثرهم من الموالى والبربر ، وأقلهم من العرب ، فساروا فى البحر حتى لاح لهم من بعيد جبل يطل على البحر وهو متصل بالبر ، فنزلوه وسمى جبل طارق ، ولا يزال يحمل هذا الاسم الكريم إلى اليوم .

وشاء الله أن يقترن اسم هذا الجبل باسم القائد الفاتح ابن زياد، وأن يظل على المدى يحمل أجمل تذكار لأطيب مناسبة فى تاريخ الفتوح العربية الإسلامية . وقد حاول الملك عبد المؤمن ملك الموحدين حين ملك الأندلس أن يغير اسم هذا الجبل إلى «جبل الفتح» ، وجرى الاسم الجديد على الألسنة

أياماً قصاراً ، ولكنه لم يثبت وعاد إلى الجبل اسمه الذى يخلد على الزمان ذكر ذلك القائد العظيم .

وعلم رذريق باقتحام المسلمين معقله الذى كان يظنه فى منعة العقاب ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وجمع جموعه حتى بلغت فى تقدير بعض المؤرخين مائة ألف مقاتل . . . وهى كثرة تكفى لسحق السبعة الآلاف من المسلمين الفاتحين . فكتب طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد ليستطيع أن يثبت أمام هذه الكثرة الكاثرة ، فأمده موسى بخمسة آلاف من المسلمين ، وبهذا بلغت جموع العرب اثنى عشر ألفاً .

وكان مع المسلمين «يوليان» عدو «رذريق» ، يدلهم على عورات القوط ، ويتجسس لهم الأخبار ، ويخذل عنهم فى صفوف أهل الأندلس ، والتقى الجمعان غير المتكافئين فى العدد والعدة على نهر « لكة » من أعمال مقاطعة « شذونة » ، وكان ذلك فى أخريات شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة .

ولم ينفع جيش رذريق كثرته ولا عدته ، فقد كانت عوامل الضعف تسرى فيه ، وتمشى بين صفوفه المتخاذلة . . . وكان أبناء الملوك يحاربون عن يمين رذريق ويساره فى غير همة

ولا حماسة ولا صدق فى القتال . فقد كان رذريق واتراً لأكثرهم ، أو مغتصباً لآبائهم ، أو معتدياً عليهم ، ومن هنا جاءت الهزيمة إليه ، وأسرع الخذلان إلى جيشه .

وشاء الله أن يحقق صادق وعده بأن تغلب الفئة القليلة المؤمنة الصابرة الفئة الكثيرة الباغية ، والله مع الصابرين .

وهزم « رذريق » ومن معه من الآلاف المؤلفة .

وانجلت غيابة هذه الموقعة الطحون عن هزيمة القوط هزيمة منكرة ، وانتصار العرب انتصاراً مؤزراً .

واستدار أتباع الملك المهزوم ليبحثوا عنه فى غبار المعركة ، فإذا هم يجدون جواده وبعض ثيابه على ضفة النهر ، فأيقنوا أن ملكهم قد ابتلعه اليم وأخذه التيار إلى مصب النهر فى المحيط ؛ وأشيع يومئذ أن الملك المهزوم لم يطق الهزيمة فألقى بنفسه فى أحضان النهر . وسجلت بعض الكتب هذه الرواية التى تقابلها رواية أخرى بأن «رذريق» قتل بضربة من سيف طارق بن زياد البطل المشيح . . . .

وهوى تاج دولة القوط فى الأندلس ، ليأتلق مكانه على جبين الدهر تاج من أكرم ما صاغته عزائم المسلمين الفاتحين . .

رؤيا تنذر بزوال دولة

فى السنة العاشرة من خلافة «العاضد» آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، استسلم ذلك الخليفة الشاب السخى الجواد إلى نوم عميق، فرأى فيما يراه النائم أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر يعرفه ذلك الخليفة، ولدغته . . . وقطع ذلك الحلم الرعيب على الخليفة الشاب لذاذات نومه الهنىء، فاستيقظ مذعوراً، وخشى أن يكون ذلك الحلم نذيراً بما يدبر له من حوله، وخصوصاً بعد حريق الفسطاط الهائل الذى أحدثه الوزير «شاور»، حتى لا تقع المدينة فى أيدى الصليبيين.

واستدعى الخليفة الفاطمى الشاب أكبر مفسرى الأحلام فى عصره، ليفتوه فى الرؤيا التى أقضت عليه مضاجعه، فأفتى أحدهم بأن شراً سيصل إلى الخليفة عن يد شخص بذلك المسجد.

وتساءل الخليفة الرابع عشر من خلفاء الفاطميين: من يكون ذلك الشخص المقيم بذلك المسجد المرئى فى الأحلام حتى

يصل إلى منه الأذى ؟ فلا كنت إذن وارث خلافة « المهدى » الفاطمى ، ولا حفيد الفاتح « المعز » إن لم أقبض على ذلك الشخص الشرير الذى تسول له نفسه أمراً يصل به إلى هيبة مقامى ، وجلال سلطانى !

وأصدر الخليفة العاضد — وهو فى فورة الغضب والذعر من تلك الرؤيا المفزعة — أمره إلى والى مدينة القاهرة بأن يحضر له الشرطة كل من يصادفونه فى ذلك المسجد . فأحضروا له شخصاً عليه ثياب المتصوفة ، وملامح الزهاد ، وأمارات النساك يقال له « نجم الدين الخويشانى » . فسأله الخليفة عن مقدمه ، وعن سبب مقامه بالمسجد ، واستخبره عن أمور لعلها تكشف النقاب عن حقيقة أمره ! فأخبره ذلك المتصوف بالخبر الصحيح ، لم يخرم منه حرفاً ، ولم يغير منه وصفاً . فرأى الخليفة المتوجس آيات الصدق على ملامح الرجل وأقواله ، ورآه أضعف من أن يناله بشر ، أو يمسه بسوء . . . فوصله بمال ، وصرفه ، وقال له : ادع لنا يا شيخ !

* * *

ولم يمض على تلك الرؤيا المفزعة بضعة عشر شهراً حتى

شاء الله أن يتحقق ذلك الحلم الذى رآه الخليفة . وأن تقع الحقيقة بما عبر به المفسرون لتلك الرؤيا . . . وأن يكون ذلك الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشانى » هو بعينه الذى يصل منه الأذى إلى الخليفة الفاطمى « العاضد » . . . فإن السلطان « صلاح الدين الأيوبى » الذى أزال دولة الفاطميين وقوض عرشهم كان قد استفتى جماعة من الفقهاء فى أمر مصادرة أموال الفواطم والقبض عليهم ، وإزالة الخلافة من أيديهم ، وكان الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشانى » من جملة الفقهاء الذين أخذ رأيهم . . . فبالغ فى الفتيا . . وصرح بتعديد مساوئ الفاطميين ، وأحل أهل مصر من واجب الطاعة لهم ، وأطال الكلام فى ذلك إطالة كانت من جملة الأسباب التى حملت « صلاح الدين » على التخلص منهم . وبذلك صحت تلك الرؤيا المفزعة التى رآها الخليفة « العاضد » منذ بضعة عشر شهراً . . .

* * *

وقد شاء الله أن يتهاوى التاج من فوق رأس الخليفة الفاطمى العاضد وهو مريض يعانى أوجع الآلام ، فلم يعلم بأن الخطبة على المنابر قد قطعت باسمه ، ولم يدر — وهو فى سكرات النزع

الأخير — أن الخلافة الفاطمية بجلالها وسلطانها ومظاهر الترف البالغ المحيط بها قد ذهبت عنه ، بل ذهبت عن مصر الفاطمية لتعود ثانية إلى بغداد ، وليخطب على أعواد المنابر فى الدولة الأيوبية باسم الخليفة « المستضىء بالله العباسى » فى السابع من محرم سنة ٥٦٧ هـ .

على أن المؤرخ ابن إياس يذكر بأن « العاضد » قد أعلم بخبر قطع الخطبة عن اسمه، فحصل له من ذلك « قهر عظيم »، وصار مع « صلاح الدين » كالمحجور عليه ، لا يتصرف فى أمر إلا بمشورته، ولا يبرم عملا إلا بعد عرضه عليه . فلم يطق الخليفة العاضد ذلك الحجر الثقيل الذى لم يتعوده أحد عشر عاماً ، ولم يتحمل أن يكون أداة أو لعبة فى يد البطل الفاتح صلاح الدين . . . فقيل إنه ابتلع فص ألماس ، فمات من يومه.

وهكذا يروى « ابن إياس » مصرع الخليفة الفاطمى الشاب الذى مات وهو فى الحادية والعشرين من عمره .

وأيا ما كانت الموتة التى لقى عليها « العاضد » ربه فإن من المحقق أن المرض قد أوهاه إلى حد أثار عليه إشفاق « صلاح الدين » نفسه ، حتى لقد ضعفت قواه ، وتخاذلت أعضاؤه ،

وفشت الحمى بأعضائه فشوا بالغاً . ويئس طبيبه الخاص « ابن السديد » — وهو من أعلام الطب فى العصر الفاطمى — من شفائه . فامتنع عن عيادته . . وكأنه بذلك اصطلح مع الزمان على مناوأته . . .

وفى اليوم الذى حزنت فيه قصور الفاطميين وداراتهم ومجالسهم وأعيادهم لقطع الخطبة عنهم ، وانتقالها إلى العباسيين — فى ذلك اليوم لبست مدينة بغداد أجمل حللها . وازينت وأخذت زخرفها . فقد أرسل « صلاح الدين الأيوبى » إلى البطل الملك المجاهد « نور الدين » يعلمه بقطع الخطبة عن الفاطميين فى مساجد مصر بأسرها ، وإعادتها إلى العباسيين . وملأت الفرحة قلب « نور الدين » فأرسل رسوله « ابن أبى عصرون شهاب الدين أبى المعالى » إلى الخليفةالعباسى ببغداد ليعلمه بذلك ، ويقول المؤرخ « ابن كثير » صاحب كتاب « البداية والنهاية » إن مدينة بغداد زينت ، وغلقت الأسواق ، وعملت القباب ، وفرح المسلمون فرحاً شديداً . . .

والذى ذكره المؤرخ « ابن كثير » منقول عن الذى جاء فى كتاب « المنتظم » لابن الجوزى المؤرخ ، فى حوادث

سنة ٥٦٧ هـ . وفيه من الزيادة أن السكة — أو النقود — ضربت باسم الخليفة العباسى ، بعد أن ظلت تضرب باسم الفاطميين مائتين وثمانى من السنين . ولقد كان المؤرخ ابن الجوزى نفسه ممن عاصر زوال الخلافة الفاطمية عن مصر ، وإعادة الخطبة فيها للعباسيين ، وكان هواه يميل مع العباسية ، فألف فى ذلك كتاباً أسماه « النصر على مصر » وعرضه على الإمام « المستضىء بالله » العباسى أمير المؤمنين .

واشترك الشعر فى هذه المناسبة ، بتهنئة الخليفة العباسى بالخطبة له على منابر مصر ، بعد أن قطعها الفاطميون أكثر من مائتى عام ، فأرسل البطل « العادل نور الدين » كتاباً إلى بغداد من إنشاء الكاتب الشاعر « العماد الأصفهانى » ، وفيه أبيات طويلة منها :

قد خطبنا للمستضىء بمصر　　نائب المصطفى إمام العصر
ولدينا تضاعفت نعم اللـ　　ـه وجلت عن كل عد وحصر
واستنارت عزائم الملك العا　　دل نور الدين الهمام الأغر

ولقد كان « نور الدين » يمهد لنفسه ملك مصر بعد أن سقطت الخلافة الفاطمية ، وكان يدعى على منابر مصر

للمستضىء العباسى أولا ، ولنور الدين ثانياً ، ولصلاح الدين الأيوبى من بعدهما . . . وقد حدثت النفرة فعلا بين نور الدين وصلاح الدين ، واستطاع بطل موقعة « حطين » بدهائه وحسن احتياله أن يقيم نفسه سلطاناً على مصر ، وأن يبدأ فيها دولة جديدة وعرشاً جديداً هى دولة الأيوبيين وعرش الأيوبيين .

* * *

ولما سلمت مصر لصلاح الدين الأيوبى بوفاة الخليفة الفاطمى العاضد ، جلس البطل صلاح الدين نفسه يتقبل العزاء فى الخليفة الشاب المقهور . . . بعد أن حضر جنازته ، وشهد عزاءه . وبكى عليه وتأسف . . . فقد كان الخليفة « العاضد » مطيعاً للوزير صلاح الدين الأيوبى حين وزر له ، وكان لا يعصى له أمراً ، وكثيراً ما تمنى « صلاح الدين » أن لا يفجع الخليفة فى عرشه بقطع الخطبة عنه ، وتندم على إقامة الخطبة لبنى العباس بمصر قبل وفاة « العاضد » . ولكن تمت مشيئة الله ، وعلم الخليفة المخلوع بخلعه — كما تذكر بعض المصادر — فجلب له ذلك الهم والمرض ، « والقهر » ، كما يقول المؤرخ ابن إياس . . .

وتوطدت أركان الحكم الأيوبى فى مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وانتهت من تاريخ مصر دولة جعلها الله واسطة بين دولتى الأخشيديين ، والأيوبيين . وأخذت الخلافة العباسية تتلفت إلى مصر من جديد بعد أن أزيلت عنها فى أول الحكم الفاطمى ، وأخذ الخليفة العباسى « المستضىء بالله » يرسل إلى مصر والشام الأعلام السود ، وهى شعار الدولة العباسية . وآذن ذلك كله بأن العرش الفاطمى قد هوى إلى غير رجعة . . .

فأخذ السلطان الجديد « صلاح الدين الأيوبى » يستخرج نفائس القصور الفاطمية من أماكنها ، واستعرض — كما يقول ابن كثير — حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة ، والآلات ، والملابس ، والمفارش شيئاً باهراً ، وأمراً هائلا : من ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر وسمكه نحو الإبهام ، وحبل من الياقوت ، وإبريق عظيم من الحجر المانع . . . أما القضيب الزمرد فأن صلاح الدين كسره ثلاث فلق ، فقسمه بين نسائه . . . وقسم بين الأمراء شيئاً كثيراً من قطع البلخش والياقوت والذهب والفضة والأثاث والأمتعة وغير ذلك . . ثم باع ما فضل عن ذلك ، وجمع عليه

أعيان التجار . فاستمر البيع فيما بقى هنالك من الأثاث والأمتعة نحواً من عشر سنين . . .

ولقد كان نصيب الخليفة العباسى ببغداد قدراً صالحاً من الهدايا النفيسة التى كانت تزدحم بها قصور العبيديين أبناء فاطمة . . كما كان نصيب الملك العادل نور الدين من ذلك شيئاً كثيراً .

ولكن أروع ما فى الموقف — حين اقتسمت الأسلاب ووزعت المخلفات — أن صلاح الدين الأيوبى عف عن ذلك كله : وزهد فيه لنفسه ، فلم يأخذ شيئاً له ، وإنما اكتفى من تراث الفاطميين بما كان يهديه إلى الملوك والأمراء . وهنا يذكرنا البطل العفيف صلاح الدين بعفة الشاعر الفارس الجاهلى عنترة العبسى ، الذى يفتخر بقوله :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى   أغشى الوغى ، وأعف عند المغنم

* * *

ونستطيع أن نتصور ضخامة التراث الفاطمى وروعة الكنوز الفاطمية حين نرجع إلى مصدر تاريخى وثيق ممن كتب عن دولتهم ، كالمقريزى المؤرخ ، والمؤرخ الموسوعى الشهير أبى العباس

أحمد صاحب كتاب « صبح الأعشى » ، وحسبنا أن نشير هنا — على عجل — إلى التاج الفاطمى الذى كان يركب به الخليفة فى المواكب العظام ، وكانت فيه جوهرة عظيمة تعرف « باليتيمة » زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم عليها لنفاستها ، وحولها جواهر أخرى .

وحسبنا أن نشير إلى « قضيب الملك » ، وقد كان من الذهب المرصع بالدر والجوهر ، وكان الخليفة الفاطمى يقبض عليه بيده فى المواكب والحفلات العظام .

وحسبنا أن نشير — على عجل أيضاً — إلى الدواة الذهبية المحلاة بالمرجان ، وإلى رمح الخليفة اللطيف المودع فى غلاف منظوم باللؤلؤ .

وحسبنا أن نشير إلى خزانة الكتب ، وخزائن الكسوة ، والسروج ، والفرش ، والسلاح ، والتجمل والمال . وقد كان فى هذه الأخيرة من الأموال والجواهر النفيسة ، والذخائر العظيمة ، والأقمشة الفاخرة ما لا تحصره الأقلام ، كما يقول صاحب « صبح الأعشى » .

* * *

وإذا كان صاحب « صبح الأعشى » متأخراً فى الزمن عن سقوط الدولة الفاطمية ، فأن المؤرخ الثقة « ابن الأثير » صاحب كتاب « الكامل » قد شهد كثيراً من الأعلاق النفيسة لأنه كان قريباً جداً من زمن زوال الخلافة الفاطمية ، فقد مات سنة ٦٣٠ هـ - أى بعد سقوط الملك الفاطمى بثلاثة وستين عاماً. وحين تحدث هذا المؤرخ عن حبل الياقوت الذى وزنه سبعة عشر درهماً ، أو سبعة عشر مثقالا قال : أنا لا أشك ! فأننى رأيته ووزنته . . .

* * *

وكما كان « صلاح الدين الأيوبى » عفيفاً إزاء التراث الفاطمى ، فقد كان كريماً نبيلا مع أهل الخليفة الفاطمى ، فقد نقلهم إلى موضع من القصر ، ووكل بهم من يحفظهم ويقوم بأمرهم حتى تتم فيهم إرادة الله . وبلغ من رعايته لهم أنه كان دائم التفقد لأمورهم حتى لا يتهاون الحراس فى شأن القيام عليهم . أما عبيد قصور الخلافة وإماؤها ، فقد باع صلاح الدين بعضهم ، وعتق بعضهم ، ووهب البعض الآخر . وبذلك خلت قصور الفواطم من سكانها ، كأن لم تغن بالأمس ، وأخذ

الخراب والوحشة يدبان فيها ، حتى لم يبق منها أثر ولا معلم ، إلا ما كان من المساجد التى أقاموها ، فقد بقيت إلى يومنا ، شاهدة بما كان للقوم من أثر فى حركة التشييد والتعمير لبيوت الله .

ولم تذهب دولة الفاطميين بمصر فى غمرة الجحود والنكران ، أو لم تضع فى زوايا الإهمال والنسيان . فقد بكاها المخلصون لها ممن ذاقوا الخير على يديها ، وتقلبوا فى أعطاف النعمة فيها ، كالشاعر « عمارة اليمنى » الذى لم يكن مصرياً ، ولا شيعياً ، ولا فاطمياً ، ولكنه كان فقيهاً شافعياً يمنياً ، قدم إلى مصر برسالة من أمير مكة إلى الخليفة « الفائز الفاطمى » . فأحسنوا إليه ، وبالغوا فى بره ، وتألفوا قلبه بالإحسان ، فمدحهم بخالد الشعر الذى يحتويه أغلب ديوانه . فلما كتب الله زوال دولتهم على يد « صلاح الدين » رثاهم بقصيدة مؤثرة لا بأس أن نذكر منها هنا هذه الأبيات :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... شقيت! مهلا ! أما تمشى على مهل؟
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتها فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على أملى

* * *

ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليها، لا على «صفين» و«الجمل»

وقل لأهليهما : والله ما التحمت ... فيكم جروحى، ولا قرحى بمندمل

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود، وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجه خوف منتقد ... من الأعادى، ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسفى دمعى غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على مأثرات من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهى لم تحل

ومضى الشاعر المطوق بصنائع الفاطميين يعد حسناتهم من وجهة نظره ، فقد كان الوفاء لهم يحمله على أن يقول فيهم ما قاله من الشعر المؤثر المبكى .

وعلى حين نقرأ هذا الرثاء الحزين الوفى لدولة مصرية ذاهبة فإننا نجد من المؤرخين من يطعن فى الفاطميين جملة ، ويشك فى صحة نسبهم إلى أهل البيت الكريم . بل نرى مؤرخاً « كابن كثير» يتهمهم بأنهم كانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم ، ويشير إلى البدع والمنكرات التى ظهرت فى أيامهم ، وإلى

النحل الخبيثة التى كثرت بالشام فى عهدهم .

إلا أن المؤرخ المنصف لا يسعه أن يغفل مناصرتهم للعلم ، ومساعدتهم للأدب ، وتشجيعهم للصناعة والفنون ، تلك الفنون التى تنطق بتقدم الصناعة العربية فى دولتهم تقدماً منقطع النظير.

* * *

ومنذ اللحظة التى سقطت فيها دولة الفاطميين بمصر لم ين عدة من أتباعها عن عقد الجماعات السرية لإثارة الفتن ولاضطراب الأمور على الدولة الأيوبية الجديدة . وكان « صلاح الدين » أفطن من أن تغفل عينه عن هؤلاء الداعين سراً إلى انتكاث حبل العهد الجديد. فكانت عيونه تترصدهم ، وتسد عليهم مسالك السبل ، حتى ضبطهم وهم يتفقون مع السودان ، ويكاتبون الفرنج . . . فقبض عليهم ، وكان فيهم « داعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى » ، و « عمارة اليمنى » الشاعر الذى رثى الفاطميين بحر المراثى ، وغيرهما من أتباع الدولة الذاهبة ! وكانت خاتمة المطاف لهؤلاء الدعاة للفواطم أن صلبوا بين القصرين ، على مشهد من أهل القاهرة الذين تأكدوا أن عين صلاح الدين الأيوبى — أول

ملوك الدولة الأيوبية — لا تغفل عما يدبر فى الخفاء له ولأولاده .

واستقبلت مصر فى حكم صلاح الدين الأيوبى عهداً من العدالة والاطمئنان والاستقرار لم يكن لها به عهد منذ أمد طويل .

وعلى الرغم من النفائس والكنوز التى أخرجها « صلاح الدين » من خزائن الفاطميين وقصورهم ، فأنه لما مات بعد حكم عادل صالح لمصر لم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وديناراً واحداً من الذهب . . . ولم يخلف — كما يقول المؤرخ ابن شداد — ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ، ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة . . .

وكذلك يكون الملوك حين يترفعون عن أطماع الدنيا الغرور .

جثة سلطان
على أحد أبواب القاهرة

هناك على « باب زويلة » وعلى بضع خطوات من جامع المؤيد ، شهدت هذه البوابة الضخمة العالية مصرع آخر سلطان من سلاطين المماليك فى مصر ، وبذلك طويت صفحة الحكم المملوكى ، وانقرضت الدولة الثانية من دولتى المماليك ، لترسف مصر فى أغلال عهد عثمانى بغيض .

وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء عن مصر ، دخلاء عليها ، فأنهم أوجدوا لمصر شخصية مستقلة ، فلم تكن تابعة لدولة أجنبية ، ولم تكن ولاية يحكمها وال من قبل سلطان ، لاهم له إلا ما يقدم إليه من حصيلة الأموال . . .

ولقد عرف عهد المماليك –على اختلاف دولتيهم – بالترف والبذخ ، والانتعاش الاقتصادى ، وحركة البناء والتعمير ، كما عرف بالمشاركة فى محاربة الصليبيين ، ورد التتار الذين

كانت موجتهم تهدد الشرق الأوسط بالاجتياح. بعد أن اجتاحوا عاصمة الخلافة العباسية ، وأزالوا دولة بنى العباس . كما عرف عهدهم أيضاً باحتضان الخلافة العباسية بعد أن ضاعت من بغداد . . . فمنذ عصر السلطان «الظاهر بيبرس البندقدارى» فى منتصف القرن السابع الهجرى كان يقوم بالقاهرة المعزية خليفة عباسى بجانب سلطان المماليك . . .

وظلت دولتا المماليك فى مصر قريباً من ثلاثة قرون . أو على التحديد من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ . وكانوا أخلاطاً من عناصر مختلفة وأجناس متباينة . فمنهم الجركسى ، والتترى ، والرومى ، والهندى ، واللاظ ، والكرد ، والأرمن ، والخطا وغيرهم .

وعلى الرغم من حسنات المماليك التى لا ينكرها منصف — كدفع الفرنجة والتتار عن البلاد ، وكتشجيع العلوم والتأليف — فإن سيئات كثيرة طبعت عهدهم بطابع المصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية . فقد أهملوا كل حق للشعب إلا حقهم هم ، وأثقلوا كواهل الأهلين بالضرائب ، وأسخطوا العربان من أهل البلاد الذين كانت تندلع لهم كل حين نيران ثورة حامية .

ودعك من رخيص المنافسات بينهم ، وتألب بعضهم على بعض حتى إن السلطان المملوكى «أحمد إينال» لم يحكم إلا أربعة أشهر عزل بعدها وتولى بعده السلطان « الظاهر خوش قدم » .

وفى مطلع القرن العاشر الهجرى كان الخصام بين مصر والدولة العثمانية يأخذ طريقه إلى المصالحة بين قايدباى والسلطان بايزيد العثمانى . ولكن هذا الصلح المؤقت لم يكن إلا مقدمة لحملة السلطان سليم العثمانى على مصر ، فى عهد السلطان المملوكى « قنصوه الغورى » .

وقد اتخذ السلطان سليم العثمانى من التجاء أخيه إلى سلطان مصر الغورى سبباً للغضب عليها والتطلع إليها . . .

وتلاقى الجمعان فى « مرج دابق » على مقربة من مدينة حلب ، وكانت شجاعة المصريين – على قلة عددهم – كافية لإدخال الرعب فى نفوس العثمانيين ، حتى لقد هم السلطان سليم بالفرار . . . لولا ما بدا فى صفوف المصريين من خيانة بعض النواب ، واسمه «خاير بك» فتفرقوا ، وسقط الغورى من فوق جواده فداسته سنابك الخيل ، وضاعت جثته فى غبار المعركة الحامية .

وجاءت أنباء المعركة إلى القاهرة تحمل فيما تحمل مصرع السلطان المصلح الجرىء الذى خرج ليطرد أعداء البلاد ، وليصدهم عن قصدها بسوء ، وليؤدى الأمانة الجسيمة التى ألقتها عليه البلاد . . .

ولم تستطع القاهرة أن تظل لحظة واحدة بدون تاج وبغير سلطان . . . لقد أقامت من « طومان باى» — وكان نائب غيبة عن الغورى — سلطاناً على مصر باسم «الملك الأشرف أبى النصر طومان باى» .

ولم يختم الموت مهمة السلطان الغورى فى الدفاع عن مصر الخالدة إلا ليبدأ السلطان «طومان باى» مهمته . وكان العبء عليه ثقيلا ، لأن الأمراء حوله متنافسون متنازعون ، ولأن مطامعهم سدت عليهم منافذ السبل ، فلا همة تدفعهم ، ولا غرض شريف يؤلف بينهم ، غير الدس والوقوع على بعضهم بعضاً ، وقد أنهكت الخلافات أجمل ما فيهم من قوى . فانحلت عزائمهم ، وقلت ثقتهم بأنفسهم ، وساءت ظنون بعضهم ببعض ، فتثاقلوا حين دعوا ، وتباطئوا حين نودوا ...

ولكن « طومان باى » استطاع أن يجمع بينهم فى ساعة الخطر

المحدق بالبلاد ، إلا أنه لم يعدم أن يلقى خيانة من الأميرين المصريين «خاير بلك» ، «وجان بردى الغزالى» اللذين أوقعا هزيمة بإحدى طلائعه إلى بلاد الشام .

وكانت جنود السلطان سليم تتقدم سريعاً نحو مصر ، وكلما هم «طومان باى» بالخروج مع المماليك للقائهم خارج القاهرة قعدوا به عن تنفيذ رغبته ، وأصبروه حتى يقترب العثمانيون من القاهرة . . . كأنهم يأبون إلا أن يغزوا فى عقر دارهم . . . وغفلوا عن قول الإمام على كرم الله وجهه : ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا . . .

وبعد حوار وجدال سمحوا بأن يخرجوا إلى ناحية الريدانية قرب العباسية الحالية ، وكان فى استطاعتهم وهم فى أرض الوطن ، وعلى سلامة من وعثاء السفر ، وطول الرحيل ، وخوف نفاد المئونة أن يقاتلوا العدو المغير قتالا ينقطع معه أمله فى الغزو . . ولكن روحهم كانت تتهافت ، ومعنوياتهم كانت تتداعى ، وشغلهم الحرص فى أمر أنفسهم عن التفكير فى سلامة وطنهم .

وانتهت المعركة بدخول العثمانيين مصر وامتلاكها بعد أن فعلوا بأهلها ما تندى له الوجوه . . .

ولقد أدى « طومان باى » واجبه على خير ما يؤدى الجندى الشجاع الأمين واجبه . فقد ثبت فى معركة الريدانية ثباتاً عجيباً. حتى كاد يكون وحده فى معركة شوهت جلالها خيانة الأمراء...

وألجأته فضائح الموقعة الخاسرة إلى أن يفر . . . وعبر النيل إلى الجيزة. سالكاً طريق الصحراء إلى الإسكندرية .

وفى الطريق لجأ إلى بعض أصدقائه من العربان ؛ وأقسموا له يمين الولاء والنصرة حتى يفتح الله عليه من جديد . . . ولكنهم كانوا يضمرون تسليمه إلى عدوه السلطان سليم. ليشتروا بذلك ثمناً قليلا ، هو الزلفى إلى الفاتح الجديد . . .

وجاء جنود السلطان سليم العثمانى ليسوقوا سلطان مصر الفار إليه ، وجاءوا به مكبلا فى الأصفاد إلى معسكر السلطان سليم فى القاهرة .

وكأنه استراح واستراحت ركابه من السرى والسير دفاعاً عن عرش منقوض . . . ولكنه لم يفقد عزة البطل الذى خذلته عوامل لم يكن يستطيع لها دفعاً ، ولم يطأطئ هامته أمام هامة السلطان سليم المنتصر ، وإنما علا وجهه القنوط والأسف على مصير بلاده التى حارب من أجلها وفى سبيلها .

وكان بينه وبين السلطان سليم سؤال وجواب . . . فلم يفقده رهب الموقف حصافة الرد ، ولا حسن مواقع الكلام ولا سداد الجواب : . . حتى أدهش بطانة السلطان المنتصر

واستبقاه السلطان سليم قريباً منه أياماً معدودات ، ليعرف منه أحوال البلاد ، ويستطلع أمور إدارتها ، فلما تم له ما أراد : وانتزع من جعبة معارفه بالحكم ما أحب ، أمر به أن يساق إلى «باب زويلة» ، ليعلق تحت رواق الباب بكلاب من الحديد ...

وسيق «طومان باى» فى هذا الركب وقد عضت بأطرافه الأغلال ، وأركب جواداً على غير هيئته حين كان يخرج للقاء الأعداء . . .

ومر موكبه الحزين بشوارع القاهرة ، وهو فى طريقه إلى الموت ، والناس والشعب والعامة يتزودون — فى صمت — بنظرات الوداع الأخير إلى بطلهم الأمين . . .

وصلب البطل ، وانحنت هامته على أخشاب المشنقة . . . ولكن هامة مصر المجاهدة ، المكافحة ، المناضلة فى سبيل استقلالها لم تنحن لحظة واحدة . . . لأنها مؤمنة بالله ، ومؤمنة بحقها القوى فى سبيل الحياة الحرة الكريمة . . .

ملك يبكى على عرشه المنهار فتنهره أمه . .

كان السلطان المقهور المغلوب على أمره « أبو عبد الله محمد ابن أبي الحسن بن الأحمر » آخر ملوك المسلمين بالأندلس فى طريقه إلى مدينة « البشرات » التى قضت معاهدة التسليم لفردناند ملك قشتالة بأن يمضى إليها ، بعد أن نفض يديه من غرناطة وقصر الحمراء ، وبعد أن هوى التاج الأندلسى من فوق رأسه إثر هزيمته أمام المسيحيين . . .

وخرج الملك المغلوب من قصر الحمراء بعد أن ودعه الوداع الأخير ، وبعد أن تزود منه بنظرات ملؤها الأسى والأسف على هذا العرش المزال ، والملك المدال . وفى طريقه إلى محبسه الذى فرضته عليه معاهدة التسليم أشرف فى شعب « تل البذول » على غرناطة ، واكتحلت عيناه بآخر منظر لها وهى ذاهبة عنه ، وهو ذاهب عنها إلى غير معاد . . .

وطافت برأسه ذكريات عزيزة غالية لهذه المدينة التى كانت عاصمة مملكته ، والتى شهدت ملك «بنى الأحمر» وعظمتهم لأكثر من قرنين من الزمان . . . ووقف الملك المغلوب لحظة وهو على الطريق يتملى بمنظر العاصمة الذاهبة والقصر المتروك قبل أن تحرم عيناه جمالهما إلى الأبد . . .

ولم يستطع – وهو إنسان ذو قلب – أن يحبس دموعه ، فأجهش بالبكاء ، وخانته الشجاعة التى قد تخون الرجال فى مثل هذه المواقف ، فأخذ يبكى على هذا الملك والمجد اللذين وليا الأدبار .

وكانت أمه الأميرة «عائشة» معه فى هذه اللحظة العصيبة ، فى الركب السلطانى المخذول الذى حكمت عليه الأقدار بالتجريد من السلطان ، والخروج من الأوطان .

ولم يعجب الأم المحزونة منظر ولدها السلطان المغلوب المطرود وهو يبكى ، فالتفتت إليه قائلة :

ابلك مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

* * *

لقد كانت هذه الربوة التى أشرف منها «أبو عبدالله» على

مملكته الذاهبة ، وعاصمته الضائعة . والتى تنهد فيها تنهدة حارة أسفاً على ملكه الذى كتبت الأقدار عليه الزوال . والتى احتشدت فيها ذكريات الأمس كله وازدحمت على ذاكرة السلطان المغلوب — كانت هذه الربوة مثاراً لتسمية شعرية أطلقها الأسبان على ذلك المكان : فأسموه « زفرة العربى الأخيرة » . . .

ومضى أبو عبد الله الملك المغلوب إلى سبيله الأخير . حيث سيأتى عما قليل وصف للحوادث التى أدت إلى تهاوى التاج الإسلامى من فوق مفرقه .

كان أبو عبد الله بن أبى الحسن ضحية الفتن التى حدثت بين أمراء المسلمين فى أخريات عهد الأندلس ، فلقد كان الأمراء فى شغل شاغل بمنازعاتهم عما يدبره لهم العدو الراصد المترقب .

وقد ضيق الأعداء عليهم تلك الرقعة الأندلسية الرحيبة حين كانت تقع بلادهم فى يد الأسبان بلداً إثر بلد . . . وكان سقوط هذه البلدان سبباً لانتشار لون من رثاء المدن فى الأدب العربى . . . ولا نزال نذكر القصيدة أو المرثية الشعرية

المؤثرة التى نظمها الرندى فى رثاء بعض مدن الأندلس ، والتى يقول فيها :

لكل شىء إذا ماتم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكمو ... وأنتمو يا عباد الله إخوان ؟

وقد أخذ الشاعر فى قصيدته يعدد القواعد الأندلسية الضائعة فى يد الأعداء ، والتى أخذت تتهاوى من عقد الأندلس قائلا :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وماتحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟

* * *

والحق أن بقاء المملكة الأندلسية لم يكن متوقعاً ولا مرجواً

بعد أن أخذت أركان البلاد تنهار من كل جانب . وكان ذلك منذ القرن السابع الهجرى . ولا نكاد نبلغ القرن التاسع حتى نرى الأحداث تتطلع ، وحتى نرى الانحلال يدب فى مملكة ضاقت حدودها إلى شريط ضيق من الأرض حول مدينة غرناطة ، بعد أن كان شبه الجزيرة الأندلسية كلها فى يد العرب.

والحق أن منافسات الأمراء هى التى قضت عليهم وأزالت الملك كله جملة من أيديهم ، وأصارتهم إلى المصير المحزن الذى آلت إليه الأندلس بسقوط غرناطة وضياع ذلك الفردوس الجميل .

ولم يسلم السلطان « أبو الحسن » والد السلطان المغلوب «أبي عبد الله» من شرر التنافس ، ولم يصل إلى الملك إلا بعد صراع شديد بينه وبين منافسيه . وكان له أخ اسمه « أبوعبدالله » المعروف « بالزغل » فلم يسلم الأخ من منافسته .

على أن الزغل نفسه كان منافساً لابن أخيه «أبي عبد الله» السلطان المغلوب ، ودارت بينهما من المخاصمات والمحاربات أمور أفاد العدو منها أكبر فائدة ، فكان ينصر هذا على ذاك ، ويضرب واحداً بالآخر ، حتى قضى عليهما معاً ، وقضى على

الدولة الأندلسية كلها القضاء المحتوم فى سنة ٨٩٧ هـ .

وفيما كان مسلمو الأندلس يختلفون فيما بينهم ، ويمزق الخلاف أوصالهم ، ويقطع التدابر حبالهم، كان الأسبان يبرمون أمرهم ، ويحكمون عقدهم ، وينظمون صفوفهم لكى يتم لهم بالاجتماع والاتحاد القضاء على المسلمين . وزادت قوة الأسبان باقتران فردناند وإيزابلا ، وإعلانهما ملكين لمملكة قشتالة قبل سقوط غرناطة ببضعة عشر عاماً .

وأصبحت « قشتالة » بهذا الوضع الجديد مبعث الشر ومصب البلاء على مملكة غرناطة . . . فمنها تخرج الغارات ، وفيها تدبر المؤامرات ، وإليها تعود المعاهدات والمكاتبات للتفريق بين المسلمين . . .

وليس من شك فى أن السلطان « أبا الحسن » والد السلطان المغلوب « أبى عبد الله » كان مسئولا إلى حد كبير عن الحوادث المحزنة وعن النهاية الأليمة التى انتهت إليها الأندلس ، فقد كان له ولدان من فتاة أسبانية جميلة تزوجها فأسلمت وتسمت باسم « ثريا »، على حين كان له ولدان من الأميرة العربية « عائشة »، وأحد الولدين هو « أبو عبد الله محمد » سلطاننا المغلوب . . .

وانقسمت الأندلس قسمين : ففريق يتعصب للأميرة عائشة الحرة ولابنها محمد أبي عبد الله. ويرشحه للعرش لأنه صريح النسب لم يفسده الدم الأسبانى . . . وفريق يتعصب لابن الأميرة الأسبانية ثريا ، ويتلقى من هذه الداهية كل توجيه وتشجيع . . .

واستجاب الملك الشيخ الضعيف لرغبة الأسبانية الفاتنة ثريا ، فحرم زوجته الأميرة عائشة وولديها كل عطف ورعاية ، وغضب عليهم بعد لأى ، فقذف بهم فى برج «قمارش» ، من أبراج «الحمراء» ، وشدد الحراسة عليهم ، وأسرف فى إساءة معاملتهم . . .

وأمعن الملك الشيخ الضعيف فى الغضب على زوجه وأولاده ، فنزل عن العرش لأخيه « أبى عبد الله الزغل » . وبذلك ضاع الملك من ولد الأميرتين المتنافستين : عائشة العربية ، وثريا الأسبانية . . .

وكان هذا التنازل سبباً لقيام المنافسات بين « أبى عبدالله محمد » وبين عمه « أبى عبد الله الزغل » الذى نزل له أخوه عن الملك . وقد اكتوت غرناطة فى بضع السنوات الأخيرة

قبل سقوطها بنار هذا الخلاف الذى قام بين العم وابن أخيه. . . وانقسمت العاصمة المشرفة على السقوط إلى معسكرين ، أحدهما يناصر«أبا عبد الله الزغل»،والآخر يناصر ابن «أخيه أباعبدالله» الذى هوى تاج الأندلس من فوق بجبينه . . .

ولقد وقفت الأميرة عائشة الحرة بجانب ولدها « أبى عبد الله محمد » فى أحرج ساعات الصراع والقتال بين الولد وعمه . . . وكان حى « البيازين » من أحياء غرناطة ينتصر لأبى عبد الله محمد ويتعصب له ، على حين كانت بقية المدينة تنتصر للزغل . . وفى خلال هذا الخلاف الدموى الثائر بين اثنين من بيت الملك الأندلسى كان فردناند ينتزع البقية الباقية من الأندلس بلداً تلو بلد .

واستطاع أبو عبدالله محمد أن يبعد عمه من طريق العرش ، وأن يتبوأه هو ، ولكنه لم يهنأ به ، فأن عمه «الزغل» ظل يناوئه ويستعدى عليه الأسبان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فسار إلى ملك المسيحيين وعرض عليه طاعته ، فأجابه فردناند إلى مطالبه . وكانت نتيجة ذلك أن بلغ الأسبان مدينة « وادى آش » سنة ٨٩٥ هـ ودخلوها وبسطوا سلطانهم على كثير من

الأراضى التى كانت فى حوزة «أبى عبد الله الزغل» .

والتفت « الزغل » حواليه فوجد نفسه لا يعدو أن يكون تابعاً حقيراً من أتباع الملك فردناند ، وأيقن أن تلقيبه بملك « أندرش » لا يعدو أن يكون مهزلة أتقن الداهية فردناند إخراجها . . . فنزل عن حقوقه وامتيازاته التى وهبها له الأسبان وعبر البحر إلى بلاد المغرب ، لعله ينعم فيها بهدوء يكفر فى خلاله عما أساء به إلى وطنه وقومه .

ولما غادر « الزغل » الأندلس إلى بلاد المغرب خلا الجو لابن أخيه « أبى عبد الله محمد » الذى تخلص بهذا من أكبر منافس له . ولعل « أبا عبدالله » فى غفلته قد اطمأن بهذا إلى أعدائه الأسبان وعلى رأسهم فردناند . . . ولم يدر أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ، ويتحينون الساعة الملائمة للخلاص منه ومن مملكة غرناطة الأندلسية ، ومن المسلمين جملة . . .

وحانت الساعة المرتقبة التى كان الأسبان يعدون لها اللحظات ؛ فقد أرسل فردناند إلى « أبى عبد الله محمد » يطلب منه تسليم قصور الحمراء — وهى مقر الملك والحكم فى الأندلس — على أن يبقى أبو عبدالله مقيما فى غرناطة فى طاعة الأسبان وتحت حمايتهم.

وقد كان يمكن أن يحمل الضعف والانكسار الملك «أبا عبد الله محمد» على قبول التسليم ، ولكن أهل الرأى حول الملك وكبار القواد أشاروا عليه بالرفض ، وأعلنوا — فى حماسة — استعدادهم للجهاد ، وعزمهم على القتال والدفاع عن هذا المعقل الإسلامى إلى آخر رمق من حياتهم

وعاد الرسول إلى فردناند وإيزابلا يحمل إليهما عزم المسلمين وتصميمهم على الدفاع ، مهما يكن الثمن غالياً .

وتعرض المسلمون بعد هذا الموقف لألوان من غارات المسيحيين العنية التى كان يؤججها الغيظ من هذا الإباء العربى الكريم . . . وحمل الذعر كثيراً من المسلمين على الفرار من المدن التى كانت عرضة لحملات الأسبان ، وخرج كثير منهم إلى بلاد المغرب بعد ما أيقنوا أن وطنهم الحبيب يعالج النزع الأخير . . .

* * *

وفى غمار هذه الفتن كانت « غرناطة » فى ثباتها ومنعتها تمثل الصلابة التى لا تلين أمام الأحداث . . . فقد ازدحمت بالوافدين عليها ، وأصبحت مبعثاً للثورة وإشعال الحمية فى نفوس المسلمين .

وصمم «فردناند» على أن يخمد أنفاس المسلمين بإخماد هذه المدينة المقاومة المصابرة . فضرب حولها الحصار أشهراً . وأهلها يغالبون الأهوال . ويعانون من صنوف المحن والبلايا ما لا يحتمله إلا ذوو البأس الشديد .

وبلغ الهول والضيق بالمسلمين حداً لم تعد تنفع فيه شجاعة ولا يغني فيه اصطبار . . . فقد أنهك الجوع والمرض والذعر أهل المدينة المحاصرة ، وفقد المسلمون كل أمل فى الخلاص من هذا الموقف العصيب ، فاتفقت كلمة الكبراء والقواد على التسليم ، بعد أن أدركوا أن الناس قد ضعفت أرواحهم ، وانحطت معنوياتهم ، وانهارت أعصابهم إلى حد لا تنفع معه مقاومة .

ووضعت شروط تسليم غرناطة بعد مفاوضات أحاطها الكتمان الشديد ؛ وكانت شروطاً أملتها القوة ، وقبلها الضعف الذى لا يجد سبيلا غير الإذعان . . . وقدم المسلمون رهائنهم من الرجال والفرسان توكيداً لتنفيذ معاهدة التسليم . . . وبلغ عدد الرهائن خمسمائة ، ولما دخل الأسبان المدينة الإسلامية الضائعة واطمأنوا إلى مواقفهم فيها ردوا الرهائن من الرجال .

ودخل فردناند المدينة مزهواً منتشياً بخمر الانتصار ، وظل إلى آخر النهار يتنزه فى «الحمراء» ويجيل بصره فى روائعها وآثارها . . . وكانت قد تأثرت بالأنفاط والمحرقات والمدافع وغيرها ، فأمر بترميمها فى الحال وإصلاح شأنها .

وخرج الملك المقهور « أبو عبد الله محمد » من الحمراء ، وحددت له لحظة يلتقى فيها مع غالبه فردناند ، فكان لقاء مؤثراً . . . وقدم أبو عبد الله لفردناند مفاتيح « الحمراء » قائلا : أيها السيد ؛ إن هذه المفاتيح هى الأثر الأخير لدولة العرب فى أسبانيا ، وقد قضى الله أن يصير إليك ملكها . . . فكن عادلا فى انتصارك ، رحيما فى ظفرك .

ومضى الملك المقهور فى طريقه إلى « البشرات » حيث لا تاج ولا عرش ولا سلطان . وبكى الملك وهو مشرف على «الحمراء» من ربوة عالية حين استعاد فى لحظة قصيرة ذكريات ملك مضاع ، وهنا نهرته أمه الأميرة «عائشة» لأنه يبكى كالنساء على ملك لم يصنه صيانة الرجال . . .

ولم يطق السلطان المغلوب البقاء فى الأندلس ، فخرج

بأهله وأولاده إلى بلاد المغرب ، واستقر به المقام فى مدينة « فاس » ، وبنى فيها بعض القصور على الطراز الأندلسى لا المغربى ، وقد أدركها المؤرخ «المقرى» صاحب «نفح الطيب» ، ورآها ودخلها فى القرن الحادى عشر الهجرى

وبقى السلطان المقهور فى مدينة فاس فى شبه عزلة عن العالم يعتذر عما أسلفه ، ويتلهف على ما خلفه !

ولعل الدموع لم تسعفه هنا ، ولم يسعده البكاء فى منآه عن الوطن أو منفاه . . . ولعله قد استنفد دموعه كلها يوم أن ودع « الحمراء » ، وهو فى طريقه إلى « البشرات » . . .

من الخلافة إلى الجمهورية

كان الانقلاب الذى حدث فى تركيا الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أمراً لا بد منه بعد أن أخذت أوضاع العالم تتغير ، وبعد أن أخذت شرارات وجذوات تنتقل من مكان إلى مكان .

ومنذ قام « كمال أتاتورك » بحركته النضالية فى سبيل استقلال تركيا ، وخاصة بعد أن احتل اليونان أزمير وأساءوا فيها الفعل والتصرف — منذ ذلك الحين بدأ النضال يأخذ شكلا مسلحاً ، وأخذت الانتصارات العسكرية يتلو بعضها بعضاً .

وكانت هزيمة اليونان فى أزمير سنة ١٩٢٢ مثاراً لدهشة الحلفاء من ناحية ، ونقطة تحول فى السياسة التركية من ناحية أخرى ، وكان كل شىء ينبئ بأن البلاد التى جلس على عرشها آل عثمان مقدمة على أمر خطير .

وبينما كانت حكومة الكماليين فى الأناضول تقوم بواجبها

نحو تطهير البلاد وتخليصها من براثن الأجانب، وتوجيهها نحو مستقبل يهيئ لها أن تحيا حياة كريمة، ويعوض عليها ما أضاعته منها الحروب وخاصة حرب سنة ١٩١٤ — بينما كان ذلك يجري فى أنقرة عاصمة الحكومة الجديدة كانت وزارة توفيق باشا القائمة فى القسطنطينية غافلة عن هذه الحقيقة، ومتناسية أن البلد لا يمكن أن تديره حكومتان: واحدة فى أنقرة حيث الحركة الكمالية، وأخرى فى عاصمة الخلافة وعلى شواطئ البوسفور حيث يجلس السلطان «محمد وحيد الدين» على عرش آبائه . . .

ولقد بلغت الغفلة وتجاهل الحقائق من الوزير توفيق باشا حداً جعله يبرق إلى الزعيم أتاتورك فى أنقرة يذكره بأن تركيا مقبلة على أن تقتعد مقعدها فى مؤتمر الصلح، وأنها لا بد أن تجلس فى المؤتمر وهى قوية موطدة ثابتة الدعائم . . . وأن الذى يجب أن يمثلها فى المؤتمر أعضاء من حكومة الانقلاب بأنقرة، وأعضاء من حكومة الخلافة بالقسطنطينية على السواء . . . وكأنه كان بذلك يشير من طرف خفى إلى أن مركز السلطان والخليفة محمد وحيد الدين يجب أن لا يغفل فى هذا الوضع الجديد . . .

ولم يدر هذا الوزير المتجاهل المتغافل أنه بهذه البرقية العجيبة إلى زعيم الانقلاب كان يدق ناقوس الخطر على مصير الخلافة والسلطنة . . .

ومن الضرورى أن نشير إلى أن الخلافة والسلطنة كانتا تجتمعان فى شخص الخليفة العثمانى ، وأن سلاطين آل عثمان — منذ انتقلت الخلافة إليهم من مصر — كانوا يجمعون بين السلطتين فى يد واحدة . . . ولم يسكت الوزير الغافل توفيق باشا على برقيته التى كانت موضع التندر عند الزعيم أتاتورك وأعوانه ، بل أرسل برقية مثلها إلى مجلس الأمة الكبير ، بعد أن أنذره أتاتورك بالانسحاب من هذا الطريق الوعر المحفوف بالأخطار ، وبعد أن حمله مسئولية ما يقع فى البلاد من فوضى بسبب هذا الاتجاه . . .

ورأى الزعيم أتاتورك أن يحسم الداء حسما سريعاً ، فى غير تلكؤ ولا إمهال . . . فاجتمع مجلس الأمة فى أنقرة التى كانت مركزاً للحركة الكمالية وقرر فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ مادتين اثنتين كانتا أول السطر فى كتاب الانقلاب الخطير . . .

لقد كانت المادة الأولى تنص فى صراحة وجراءة على أن

سلطة الحكم فى تركيا تتركز فى المجلس . . . وأن المجلس قائم بالفعل على مباشرة هذه السلطة . وأن الحكومة الموجودة فى الآستانة والمستندة إلى السلطنة تعتبر حكومة باطلة .

أما المادة الثانية فتنص على بقاء الخلافة فى الأسرة العثمانية بعد أن نزعت منها السلطنة . . . وتركت هذه المادة لمجلس الأمة حق الاختيار لمنصب الخلافة من الأصلح والأرشد من آل عثمان . . . ولم تكن الأصلحية فى هذا الوضع الجديد لتقاس بغير معيار العلم والخلق . . .

وكانت المذكرة التفسيرية لهذا القانون الذى فصل السلطنة عن الخلافة تعتمد على اتهام السلطان بتآمره مع الأعداء ضد الحركة الكمالية التى كانت تهدف إلى النضال والاستقلال .

ولم يقنع الخليفة الذى أقصى عن السلطة والسلطنة بأن ينكمش مركزه إلى حد جعل منه صورة مجردة من كل سلطان ، فقد التفت حواليه — فى إطار هذا القانون الجديد — فوجد نفسه وقد زال عنه سلطان الحكم ، وجلال الأمر والنهى ، ووجد الأحكام الجديدة تصدر عن غير إرادته ، فلا تحمل اسمه ، ولعله أدرك أن هذه الخطوة بفصله عن السلطنة وإلغاء السلطنة

من البلاد ستعقبها — قريباً أو بعيداً — خطوة أخرى بإلغاء الخلافة نفسها من تركيا ، وذهابها إلى غير معاد . . .

ومن يدرى فلعله وصلته بإحدى طرائقه الخاصة أنباء المناقشات العنيفة فى مجلس الأمة بأنقرة ، والحملات التى حملها النضاليون على بيت الخلافة ولقبها الذى لم تربح منه البلاد ، بل كان غرماً عليها أكثر مما كان غنما لها . . .

ولم يطق الخليفة البقاء فى قصر الخلافة بلا سلطان . . . ولعله كان يمنى نفسه منذ اختير للخلافة من الكماليين بأن يشهد ألواناً من النعيم الذى شهده آباؤه من السلاطين . . .. فلماضاع أمله فى ذلك لجأ إلى إنجلترة ووضع نفسه تحت حمايتها لتعينه على أن يغادر البلاد فى ظلال الأمن والعافية . . .

وجلس الزعيم أتاتورك يوما فى دار الرياسة بأنقرة فإذا ببرقية تأتيه من « هارنجتون » القائد الأعلى للقوات الإنجليزية... وفيها أن الخليفة قد وضع نفسه تحت الحماية الإنجليزية ، بعد ما تبين له أنه رأى حريته وحياته فى خطر . . . وأنه التمس من القيادة الإنجليزية أن تعينه على مغادرة الآستانة . . . وذكرت البرقية أن القائد نفسه قد ذهب إلى قصر السلطان ورافقه إلى

سفينة حربية إنجليزية . . . وأن السلطان كان ولا يزال موضع العناية الفائقة . . . وأن رغباته تبلغ أولا بأول إلى الملك جورج الخامس . . .

ولم يكن أمام مجلس الأمة حين قرأ هذه البرقية يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٢ إلا أن يجتمع على عجل . وأن يقرر خلع محمد وحيد الدين من الخلافة. لأنه لم يعد صالحاً لها بعد ما كان من تصرفه الأخير . . .

وما كان ليصدر قرار خلع وحيد الدين بغير أسباب قوية تسوغ موقف الكماليين أمام عواطف الملايين من المسلمين . . . وكان أقوى الأسباب التى انصبت على رأس الخليفة المخلوع أنه خان الأمانة التى ألقاها الله عليه بوصفه إماماً للمسلمين . . . فقد انضم علانية إلى أعداء الدين . . . وناوأ حركات المجاهدين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والوطن . . . وكان قرار الخلع مدعماً بفتوى دينية استصدرها الزعيم أتاتورك من بعض رجال الدين ليوهن بها موقف الخليفة المعزول .

وكأن أتاتورك كان يثأر بهذه الفتوى لنفسه . . . فقد أصدر الخليفة قبل ذلك فتوى ضد الزعيم المجاهد بأنه خلع طاعته

من السلطان الذى أمر الله بطاعته ، وأنه لذلك يحق حكم الله فيه بالبغى والفساد . . .

وحملت البارجة الإنجليزية السلطان المعزول ، ومضت به على أمواج البحر المتوسط – أو بحر الروم – تاركاً البلاد وراءه تغلى وتناضل فى سبيل استكمال سيادتها واستقلالها .

* * *

ولم يكن عزل وحيد الدين ليحسم مشكلة الخلافة على أحسن الوجوه وأضمنها لسلامة البلاد وهى فى مهب الرياح العاتية . . . فقد كانت العيون متفتحة على كل ما يجرى فى الدولة الجديدة المنتصرة ، وكان الحساد يبغون لتركيا عثرة تنتكس بها حركتها المباركة ، ورأى بعض أعضاء مجلس الأمة أن ينتهزوها فرصة للتخلص من الخلافة العثمانية جملة ومن الخلفاء . . . ورأى الآخرون أن الساعة لم تحن بعد ولم تحل أشراطها . . . فقرر المجلس تنصيب خليفة جديد بدلا من الخليفة الخائن المعزول ... ووقع الاختيار على عبد المجيد – ابن عم وحيد الدين – ليكون خليفة على المسلمين .

ولم يكن نصيب «عبد المجيد» فى تمثيلية الخلافة بأسعد من

نصيب ابن عمه المعزول . . . فقد وضعه أتاتورك على عرش آل عثمان ذراً للرماد فى العيون . . والواقع أن الزعيم كان يعتقد عبث هذا المنصب الذى أصبح سخرية الساخرين . . . وكان أكثر أعوانه وأنصاره فى النضال يرون هذا الرأى . ولكنه لم يجد الوقت مناسباً بعد للتخلص من منصب الخلافة كما تخلص سنة ١٩٢٢ من منصب السلطان . . .

وجاء إعلان الجمهورية التركية فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ خطوة تمهيدية فسيحة لإلغاء الخلافة وتحقيق الأمنية التى كانت تجيش بها صدور أعضاء الانقلاب وأعوان الزعيم . .

وجاءت المادة الأولى من الدستور التركى الجديد تعلن أن شكل الدولة جمهورى . . . وأن رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ، وبالطبع كان أتاتورك أول رئيس للجمهورية فى عهدها الجديد .

* * *

وبينما كانت أنقرة تعج بنشاط الحكومة ، وتتقرر فيها مصاير الأمور على النحو الذى يحقق آمال البلاد ، كانت الآستانة — فى بعدها عن أنقرة — تشهد نشاطاً من نوع جديد . . . فقد كان قصر «الخليفة عبد المجيد» يموج بالزوار الذين تهاووا إلى

العاصمة الإسلامية القديمة من كل حدب لكى يقدموا إلى خليفة المسلمين ولاءهم ، ويؤكدوا له حبهم ، وينفحوه بالهدايا الثمينة . . . بل بالغ بعضهم فى المصانعة والمداهنة، حتى أن الخليفة ورم أنفه — أو كاد — من كثرة ما كان يسمع من عبارات التمجيد والدعاء والرجاء إلى الله أن يبقى الخليفة ، وأن لا يمس منصبه الجليل بسوء . . . .

وزادت الحركة بما كان يمدها به أنصار الخلافة والعاطفون عليها من مختلف أمم الإسلام ، حتى كان للخليفة عبد المجيد حزب كبير ، وكان له أنصار فى تركيا ذاتها وفى غيرها من الأقطار . . .

وأخذ الخليفة الطموح يصطنع لنفسه عظمة فى الخلافة ، ويصنع الأسباب لتفخيم منصبه وإعلاء شأنه . . . فزاد من صلاته مع الهيئات والشخصيات الإسلامية العالمية ، وفتح قصره الرحيب الفخم لكل وافد ، وكان بريده اليومى طافحاً بآلاف الرسائل التى تحمل العطف والتشجيع . . .

ولم يحبس نفسه فى زوايا القصر كما صنع «وحيد الدين» من قبله . . . ولكنه كان يخرج فى مواكبه إلى الصلاة الجامعة فى

ذلك الركب التقليدى الرائع . . . وكانت تقام له مراسم البلاط كما كانت تقام فى عهد السلاطين ذوى النفوذ . . . واستقبل ممثلى الدول كما كان يستقبلهم آل عثمان فى عهود الازدهار . . . وأبقى العادة من رسم «الأعطيات السنية» . وإصدار الإرادات «الخليفية التشريفية» . . .

وأمعن الخليفة الطموح فى إيهام العالم الخارجى بسلطته وتأثيره وقوة نفوذه وسلامة مركزه ؛ فخلع على نفسه بمرسوم «خلافى شريف» لقب «خليفة رسول رب العالمين : وخادم الحرمين الشريفين عبد المجيد بن عبد العزيز خان» . . . وتوج هذه المظاهر والمراسم كلها بأنه اتخذ لنفسه لباساً خاصاً على هيئة السلطان محمد الفاتح . . . عملا بقول الشاعر : فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم . . . وأحفظت هذه المهازل التمثيلية رجال الانقلاب وعلى رأسهم الزعيم أتاتورك الذى وجدها فرصة مواتية للقضاء على هذا المنصب . . . وذكرت هذه المهازل رجال الانقلاب بالدور الذى لعبته الخلافة ، فكانت تطعن الحركة الكمالية من ظهرها ، وكانت تصدر الفتاوى الشرعية ضد رجالها . . . واجتمع قديم السخط على الخلافة مع حديث السخرية منها ، فوطد الزعيم العزم

على إلغائها ، واعتمد فى ذلك على نصيريه : عصمت ، وفوزى .

وأخذ الزعيم قبيل انعقاد مجلس الأمة فى أوائل سنة ١٩٢٤ يمهد السبيل لإلغاء الخلافة ، ويلقى بذور الفكرة فى كل كلمة يقولها ، تهييئاً للجو . وفى إحدى خطبه بالمجلس أشار من طرف خفى إلى ذلك بمناداته بضرورة تدعيم الجمهورية مهما يكن السبيل إلى ذلك ، وبسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها خطر على البلاد . . . فكانت تلك الإشارة نذيراً بالصيحة التى دوت فى جلسة ٣ مارس ١٩٢٤

ففى ذلك اليوم التاريخى كانت قاعة المجلس الوطنى تنبىء بأن حدثاً خطيراً سيحدث . . . وحينما أخذ الأعضاء يناقشون سياسة الميزانية العامة للدولة ، ويبحثون مخصصات الخليفة والخلافة بما تحمله من تكاليف باهظة ، وينقبون عن خبايا الأمور الشرعية والأوقاف ـــ تقدم خمسون نائباً من نواب المجلس بمشروع قانون ينص على إلغاء الخلافة وإخراج الأسرة العثمانية من البلاد ، وكان أحد النواب من علماء الدين من الخمسين الموقعين على المشروع . . وبذلك انتفى القول بأن هذه الحركة مدنية محض ، فهذا عالم بالدين ومطلع على مسألة الخلافة من ناحيتها الدينية ،

وعارف بأقوال إخوانه العلماء والفقهاء فيها. يقرر إلغاء هذا المنصب مع إخوانه النواب . . .

وأقر مجلس الأمة القانون المقترح. وكانت مواده تنص على خلع الخليفة . وإلغاء الخلافة . وحرمان الخليفة المخلوع وأفراد الأسرة العثمانية ذكوراً وإناثا هم وأصهارهم من الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية إلى الأبد . وإجبار هؤلاء جميعاً على مغادرة البلاد فى ظرف عشرة أيام . وهى المدة التى حددها القرار لتسوية أمورهم وتصفية أموالهم . وحرمان هؤلاء من التمتع بالجنسية التركية التى زالت عنهم ، ونقل ممتلكات الخلافة والخلفاء إلى الأمة . ونقل مفروشات قصور الخلافة . ورياشها ، ولوحاتها ، وتحفها ، وألطافها إلى ملكية الأمة . . .

* * *

وفى اليوم المحدود لإبعاد الخليفة وأبناء الخلفاء عن بلدهم كانت وسائل النقل تزدحم بهؤلاء الذين تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، لكى يخرجوا من الأرض التى أنبتتهم ، حيث يستقبلهم التشتيت وجهالة المصير فى بلاد غريبة عنهم .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لآل عثمان ذكر ولا خبر إلا فى أسفار التاريخ .

ملك يتهم بالخيانة
فيقطع رأسه

كانت التهمة التى وجهها الشعب إلى الملك «شارل الأول» ملك إنجلترة هى تهمة الخيانة . . . وكان الحكم الذى صدر عليه لهذه التهمة الخطيرة هو الإعدام . . .

ولم يستطع شارل أن يدفع عن نفسه ، على الرغم من المحاولات العديدة التى بذلها ؛ فقد كان إعدامه أمراً محتوماً لا مفر منه ، وقد سبقت بذلك كلمة الشعب التى تجمعت فى قرار الثوار ؛ وعلى رأسهم « أوليڤر كرومويل » .

ولقد كان فى مكنة شارل الأول أن يكون ملكاً محبوباً ، وخاصة بعد غطرسة « جيمس الأول » الذى كان يؤمن بنظرية الحق الإلاهى المقدس للملوك . . . فليس لأحد من الشعب حق معارضة الملك أو مناقشته الحساب عما يصدره من أعمال ... ولكن الولد سر أبيه . . . فقد نشأ شارل الأول ورأيه كرأى أبيه

من ناحية الحق المقدس للملوك .

وبدأ الصراع بين الملك شارل والشعب منذ أن نوقشت ميزانية الدولة فى البرلمان ؛ فكان الملك يرى أن من حقه تقرير الضرائب التى يراها بغير رجوع إلى البرلمان أو موافقة منه ، بينما البرلمان يرى أنه صاحب الحق الأول فى تقرير الضرائب ؛ وأنه لا يجوز للملك أن يقرر ضريبة من غير موافقته .

وتجاوز هذا الصدام إلى مسألة أخرى تتصل بالحرية الدينية التى يكره الناس أن تمسها القيود... فقد تزوج شارل بالأميرة الفرنسية « هنريتا مارى » أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ، وتعاهد الملكان على أن يكون ملك فرنسا حامياً للكاثوليك فى إنجلترة . . . وهنا دخلت الريبة فى قلوب الإنجليز وظنوا أن ملكهم شارل الأول يخفى فى نفسه شيئاً ، ويضمر سوءاً للمذهب البروتستانتى .

وأخذ شارل الأول يتحدى البرلمان ، ويعرض به فى كل مناسبة ؛ ولا يرى فى أعضائه الذين اختارتهم الأمة غير جماعة من الثرثارين المتشدقين ، الذين يعطلون بثرثرتهم دولاب العمل ، ويقيمون المشاكل والصعوبات ، ويخلقون العوائق خلقاً بما

يلابسون به المسائل من تصعيب وتعقيد . . .

وقد أثار تندر الملك بالبرلمان ورجاله حفيظتهم ، فوقفوا حائلا بينه وبين رغباته التى يرون من حقهم أن يقروها نواباً عن الشعب الذى انتخبهم ... فلما طالبهم يوما ببعض الاعتمادات المالية التى كان فى حاجة إليها رفضوا أن يجيبوا مطلبه . . . فقابل هذا الرفض منهم بحل مجلس العموم .

وظن الملك أن حل المجلس قد يكون درساً قاسياً لمن تأتى بهم الانتخابات المقبلة فى المجلس الجديد . . . ولكن الأعضاء الجدد لم يكونوا ألين عوداً ولا أسهل عريكة من النواب السابقين ، فاصطدموا برغبات الملك ، ورفضوا الاعتمادات المالية التى طلبها منهم ، وأبانوا له أنهم إنما يفعلون ذلك تمسكاً بحق يؤمنون أنهم أصحابه نيابة عن الأمة التى انتخبتهم ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون إيماناً بمبدأ ودفاعاً عن فكرة . . . وأن ذلك الإيمان بحقوقهم الشرعية لا يتعارض مع ولائهم للعرش . . . فإن من الخير أن يعرف كل ذى حق حدود حقه فلا يتجاوزه ، ولا يتعداه بحال من الأحوال ، وإلا كان فى ذلك طغيان من جانب على جانب . . .

ولم تعجب هذه النغمة الجريئة الواعية كبرياء الملك الشاب ، ولم ترض نفسه التى ورثت الغطرسة والعجرفة وحب الحكم المطلق عن أبيه « جايمس الأول » ... فذهب الملك المغرور بنفسه إلى مجلس العموم وألقى على النواب خطاباً خرج فيه عن التقاليد الرصينة النبيلة ... ونسى وهو يؤيد حقه فى الحكم المطلق أنه استفز النواب بعبارات شديدة ، تحمل التهديد والسخرية والغرور ، وتدل فى مجموعها على الحمق الذى قاده بعد ذلك إلى سوء المصير . . .

لقد خاطب الملك نواب الأمة قائلا : « إنكم حين حاولتم أن تمنحوا أنفسكم من الحقوق ما ليس لكم قد أسأتم فهم المهمة التى تقومون بها ، وليس من العقل أنكم ستدركون هذه الحقوق المزعومة فى يوم من الأيام . . . وحين تعللون أنفسكم بإدراك ما تزعمون من حقوق فإنما تعللونها بالسراب الذى يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . . . ومن تكونون أنتم ، وما يكون مجلسكم الذى هو قبسة من النور الذى أنا مبعثه ؟! وما تكون السلطة التى تزعمون أنها لكم وما هى إلا منحة

من السلطة التي أنا مصدرها . . . والتي خولنيها الله بحق السيادة عليكم . فكيف تقلبون الأوضاع رأساً على عقب ؟ وكيف تجرءون على أن تمسخوا الحق ، فتحيلوا الأخذ عطاء ؟ وتجعلوا الكثافة ضياء ؟

ولقد كان مسلككم معي منذ البداية مما لا يليق أن يوجه إلى ملك يستمد سلطانه من الله لا منكم . . . فجئت الآن أنذر ، وغداً لن تأخذني في واحد منكم شفقة ولا رحمة .

وأود قبل أن أبرح المنبر أن أقول لكم إن هذا المجلس النيابي وكل مجلس يأتي بعده هو من صنع يدي ومحض مشيئتي . . . فإذا شئت أبقيتها ، وإذا شئت حللتها . . . واعلموا أن بقاءها وزوالها مرتبط بما يبدو لي من نتائج عملها . . . » .

وأراد شارل أن يبرهن على صدق تهديده ووعيده ، وأن يثبت أن البرلمانات ما هي إلا لعبة في يديه ، فحل المجلس مرة ثانية . . وثالثة ، وألقى بالظاهرين المناوئين من أعضائه في غيابات السجون ، ونكل بالآخرين أشد تنكيل .

وذاق شارل حلاوة الحكم المطلق حيث لا معقب لحكمه ، ولا راد لإرادته ، ولا مناقش لتصرفاته ، فحكم البلاد حكماً

استبدادياً لمدة أحد عشر عاماً . . . لا ينازعه فيها سلطان ؛ ولا يحاسبه فيها برلمان . . .

وفى خلال هذه الفترة الظالمة المظلمة أطلق الملك الاستبدادى لنفسه العنان . . . فأثقل كاهل الشعب بالضرائب . واستخرج الأموال من خزائن الأغنياء وجيوب الناس بألوان من الحيل . وصنوف من المخادعات . . . وكانت كلها تنفق على شهواته ؛ وتصرف على مخصصات عرشه . وأباح لنفسه أن يجيز من التشريعات الاستبدادية ما تصادر به الأموال . ويعتقل به الأفراد بغير حساب ؛ حتى لم يعد الفرد يأمن على نفسه السجن ، أو على ماله المصادرة .

ووجد الملك فى القوانين الاستثنائية التى أصدرها وسيلة إلى إثارة الرعب فى النفوس ، وإذاعة الهلع بين الناس ، وتسليط سيف الإرهاب فوق الرقاب ، وظن وهو منتش بخمر هذه الكبرياء الزائفة الزائلة أنه يستطيع أن يخمد الأنفاس ؛ أو يلجم الألسنة ، أو يكسر شوكة الساخطين عليه .

واضطر الملك سنة ١٦٤٠ أمام سخط الأمة وحنقها ، والأزمة المالية التى أحاطت به ، والعواصف السياسية التى

اكتنفته من كل جانب ، والحرب التى قامت بينه وبين اسكتلاندة — اضطر الملك أمام ذلك كله أن يتزل لنواب الأمة فى البرلمان الجديد عن بعض حقوقه وامتيازاته ، وكانت الأمة ساخطة أشد السخط على وزيره « سترافورد » الذى كان يعده الشعب أصل الداء ومصدر البلاء ، فوقع الملك بيده أمر محاكمته وصادق على الحكم بإعدامه .... فسكنت ثائرة الشعب بعض السكون ، وهدأت العواصف التى كانت تغتلى بالسخط على الوزير الفاسد المفسد ، واستمر الهدوء يعاود النفوس حتى سنة ١٦٤٢ .

ولم يكن هذا الهدوء إلا هدنة على دخن ... فقد عاد الملك الاستبدادى إلى قديم سيرته ، ورجع إلى طغيانه بأشد مما كان عليه قبل مقتل وزيره ، وأخذ يناوئ البرلمان مناوأة حملت النواب على أن يكتبوا إليه يلزمونه الحدود التى رسموها له أو رسمها هو لنفسه منذ عامين .... ويذكرونه بالوعود التى بذلها ، ويؤاخذونه على السقطات التى ارتكبها ... فغضب الملك من هذه اللهجة التى لم يتعودها من قبل ، ورأى فيها إهانة لذاته التى لا تمس ... وأضمر للنواب شراً ؛ ودبر

خطة للقبض على خمسة من زعماء المعارضة ، ولكن أمرها اكتشف . فلم يذهب النواب إلى المجلس فى الجلسة المتفق على تنفيذ الخطة فيها . . .

وأفضت سياسة شارل الغشوم إلى نشوب الحرب الأهلية فى إنجلترة . وإلى قيام ثورة جامحة بزعامة كرمويل . فلم يعد فى قوس الصبر منزع عند الثوار ، واضطر الجيش نفسه أن يتدخل ليضع للأمور حداً يحسن الوقوف عنده ، بدلا من هذه الفوضى التى طال أمدها .

وصحا الملك الغشوم النؤوم ذات يوم من نومه على صوت يقرع الباب . . . فإذا أربعة من ضباط الجيش وخلفهم بضعة منهم يقتحمون الباب على الملك من غير تحية ، ويخاطبه كبيرهم « الكولونيل كوبت » قائلا :

البس ثيابك وتعال معنا فنحن مكلفون باقتيادك . . .

وسألهم الملك فى دهشة : من الذى كلفكم ؟ فأجابه الضابط : الجيش هو الذى كلفنا القيام بهذه المهمة . . .

وسيق الملك فى حراسة شديدة إلى قلعة « هرست » القائمة على صخرة عالية ناتئة فى البحر ، وبقى الملك فى هذا القصر الكئيب المظلم ينتظر مصيره الذى كتبته له الأقدار .

واستصدر الثائر الزعيم كرمويل قراراً من مجلس النواب بمحاكمة الملك شارل أمام البرلمان بتهمة الخيانة العظمى للوطن ... ولما آنس كرمويل من بعض النواب تردداً فى قرار المحاكمة خشية أن يثور الشعب لفكرة محاكمة ملكه قال لهم : « لا تخشوا شيئاً ! فلن يأتى أحد بحركة ، ولن تهمس شفة باعتراض . . . وسنحز رأس الملك ، والتاج على مفرقه ، والناس صموت » .

* * *

وفعلا أعدم الملك شارل الأول والناس صموت . . . ولم يرتفع صوت إلا صوت مساعد الجلاد الذى أخذ الرأس المقطوع وهو يقطر دماً وصاح : هذا رأس ملك خان وطنه . . .

١٠١

إمبراطورة

تؤثر الموت على الفرار من الثوار

حقاً إن الشجاعة التى أبدتها الإمبراطورة « أوجينى » حين الثورة عليها وعلى زوجها «نابليون الثالث» كانت مضرب الأمثال..

لقد كان الثوار يحيطون بقصر « التويلرى » وهم فى هياج شديد لأنباء الهزيمة التى منيت بها فرنسا فى حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠ .

وكانت أنباء القتال ترد إلى باريس أولا بأول ، ولم تكن تحمل الأخبار فى جعبتها ما يسر الفرنسيين أو يطمئنهم على مصير جيوشهم المحاربة فى جبهة الألزاس واللورين . وقد كانت الأيام الأولى من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٠ حبلى بكل عجيب من الأخبار ، فكل يوم يحمل نبأ عن تقهقر ، وكل ساعة تحمل خبراً عن ارتداد . . . إلى أن كانت النكبة الكبرى

فى معركة « سيدان » التى وقع فيها الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً فى قبضة الأعداء .

والجماهير لا ترحم فى غضبها وفى انفعالها ، فقد نسيت لنابليون الثالث كل حسنة ، وعزت إليه نكبة الوطن الفرنسى ، واتهمته بالجبن والخور وسوء القيادة . . . ولو أنه انتصر للقبته بالبطل المغوار ، وخلعت عليه أكاليل الغار . وكذلك الناس دائماً ، من يلق خيراً فأنهم يقولون له ما يشتهى ، ويسمعونه من المدح والثناء ما يريد وفوق ما يريد ؛ أما المخطىء فلأمه الهبل ...

وقد أصاب الإمبراطورة الفاتنة الجميلة « أوجينى » شواظ من نار الغضب والسخط لا يقل عما أصاب زوجها . . . فقد ألقى عليها الرأى العام الفرنسى مشاركة التبعة فى هزيمة فرنسا ... واتهمها بسوء السياسة ، وفساد الحاشية ، وقلة المبالاة بمصير فرنسا ، لأنها ملكة غريبة عن البلاد ، لم تنبتها أرض فرنسا ، ولا أظلتها سماؤها ، ولا اغتذت بعناصرها ، ولا صبغت بشرتها ولا كيانها من ثراها . . . وإنما هى أسبانية ولدت فى غرناطة ، وقضت صباها فى مدريد . . .

وامتلأت شوارع باريس العديدة ، وساحاتها الرحيبة ،

وطرقاتها المنتشرة هنا وهناك بالجماهير الحاشدة ، وقد ضغطها الزحام ضغطاً . وهى تنصب فى تكتلها واندفاعها كأمواج بحر متلاطم ، وقد ارتفع الصياح من كل حنجرة ، وعلا الهتاف من كل شفة ، بسقوط الإمبراطور الخائر الجبان ، وسقوط الإمبراطورة الأسبانية الخبيثة . . .

وكان الهتاف المدوى يبلغ عنان السماء فتهتز له جنبات الأثير ، كأنما هناك زلزلة فى الفضاء ... ولكن «أوجينى» لم تهتز لهذه الحمم التى تقذفها أفواه ثائرة ، فكانت هادئة البال رابطة الجأش ، كأن هذه الصيحات ليست نذيراً لها بأهوال عواصف شداد . واعتقدت أنها بهدوئها وضبط نفسها ستتغلب حتما على العاصفة ، وستجتاز هذه الأزمة الطاحنة بسلام . . .

ومرت أيام ونار الغضب والسخط تسرى بين الجماهير كما تسرى النار فعلا فى الهشيم ، وزاد الهياج إلى حد خشى معه العقلاء أن ينقلب إلى جحيم يأتى على مدينة العلم والنور ؛ ويأتى على الاستقرار الذى تحتاج إليه فرنسا وهى فى أعقاب الهزيمة التى حاقت بها فى معركة « سيدان » .

وكانت الإمبراطورة أوجينى قائمة مقام زوجها فى أثناء

حربه ضد الألمان ، وألقيت عليها أعماله كلها ، حتى رياسة مجلس الوزراء .

وانعقد المجلس برياسة الإمبراطورة فى قصر التويلرى لاتخاذ التدابير لمواجهة الحالة التى نجمت عن هزيمة فرنسا ؛ ولم تكد أوجينى تخرج من المجلس — بعد انفضاضه — حتى جاء إليها وفد من أعضاء مجلس النواب يشرحون لها الحالة فى المدينة وفى سائر أنحاء فرنسا بالتفصيل ، ويبينون لها الأخطار التى تستهدف لها فرنسا لو استمر الحال على هذا المنوال ، وينصحونها أو يدعونها إلى النزول عن العرش ، تهدئة للخواطر الثائرة ، وتسكيناً للنفوس المهتاجة ، وحقنا للدماء التى ستحمل الإمبراطورة وزر سفكها فيما لو أصرت على البقاء . . . .

ورفضت أوجينى النصيحة التى أسداها إليها النواب ، معلنة أنها لا تستطيع أن تبرح مكانها فى القصر مهما أحاط بها من أهوال ، وأنها لا تتمسك بالعرش حباً فيه ولا احتفاظاً لزوجها به . . . ولكنها تسلمت أمانة الملك من زوجها الأسير فى يد الألمان ، فكيف تتخلى عن الأمانة التى ألقيت إليها ؟ وكيف تعتزل الحكم بمثل هذه السهولة التى يقترحها عليها

النواب ؟ إنها باقية على عرش فرنسا حتى يقضى الله أمره ؛ فأذا رأت الأمة — ممثلة فى نوابها — أن فى بقائها أو بقاء النظام الإمبراطورى ما لا يحقق أهداف الوطن أو يضمن مصالحه فى هذه الظروف الحرجة . فأنها لن تستطيع حينئذ إلا أن تخضع لقرار الأمة بعزلها أو بألغاء نظام الحكم كله . . . أما أن تنزل عن العرش طائعة مختارة فذلك ما لا سبيل إليه . . .

ذلك كان القرار الذى اتخذته الإمبراطورة الفاتنة ، وصممت عليه أمام النواب الذين جاءوا يطالبونها بالتنازل .

وبدأت الأمور تتحرج أمام المرأة المصممة . . . فقد كانت التقارير ترد إليها كل لحظة بأخبار المظاهرات العنيفة التى تزلزل البلاد ، وكانت الأنباء تحمل رغبات الشعب وتصميمه على القبض عليها ووضعها رهينة لديه حتى يعتزل زوجها العرش ويعلن رسمياً هذا الاعتزال .

إن الشعب الثائر الغاضب لهزيمته لم يستطع أن يصل إلى إمبراطوره وهو فى أسره ليرغمه على التنازل ، فاتجه إلى الإمبراطورة فى قصرها ليجعلها رهينة عنده حتى يتم تنازل الإمبراطور المغضوب عليه .

ولم تمنع صرخات الجماهير واحتشادها حول القصر الإمبراطورى من أن تجتمع «أوجينى» مع المخلصين من الرجال والمستشارين ليعالجوا المسألة علاجاً يحفظ على فرنسا كرامتها، ويحفظ على القصر كيانه ، ويحفظ على الملكة الشابة حياتها ...

وفى يوم مشمس من أيام سبتمبر كانت الجموع تنساب فى غزارة وتتدفق إلى ميدان «الكونكورد» ، وتتجمع حول القصر الإمبراطورى .

وكانت الإمبراطورة داخل القصر وقد أذهلتها الأحداث، وتمثل لها المصير الذى ستؤول إليه لو أوقعتها الأقدار فى يد الثوار . . . وكان كثير من رجال القصر يروحون ويجيئون فى حيرة من أمرهم لا يدرون ما يصنعون ، وجاء رئيس حراس القصر وهو مقطوع الأنفاس ، يعلن الإمبراطورة أن الثوار قد حطموا بمعاولهم أسوار القصر الخارجية ، وأنهم يحيطون بجدرانه الداخلية إحاطة السوار بالمعصم .

ودنا الخطر على خطوات من سمع أوجينى وبصرها ، وغدا الهتاف المدوى من بعيد جلجلة راعدة فى آذان الإمبراطورة ورجال القصر المحيطين بها ، وخيف على السيدة الأولى فى فرنسا

أن تهجم عليها الجماهير الثائرة وهى فى سورة الغضب فتفتك بها فتكاً .

وانفلت زمام الأمر فى العاصمة الفرنسية الجميلة ، حتى عجز رجال الشرطة عن أن يضعوا للأمر حداً يقف عنده ، وزادت حماسة الثوار حينما علموا أن الجنرال « تروشوه » حاكم باريس العسكرى قد انضم إليهم ، وأعلن قبوله تأليف حكومة مؤقتة .

واهتم السفراء والوزراء المفوضون ورجال الهيئات السياسية بمتابعة الحوادث والتنبه لها ، حتى يكونوا من الأمور على أهبة...

وكان السياسى الداهية «مترنيخ » سفيراً للنمسا فى باريس فى ذلك الوقت ، فهرع مع سفير إيطاليا إلى قصر التويلرى لعله يستطيع أن يسدى إلى الإمبراطورة صنيعاً فى هذا الوقت العصيب . . .

واقترح عليها السفيران فى إلحاح أن تخرج من القصر هاربة ، خشية أن تظفر بها الجماهير الثائرة فتفتك بها .

ولم يثن كل ذلك الإمبراطورة العنيدة عن تصميمها على البقاء لتؤدى واجبها المقدس إمبراطورة ونائبة عن زوجها

الإمبراطور . . . وليكن من الأمر ما يكون . . . فأنها آثرت أن تقع فى براثن خطر محقق على أن تهرب مما كانت تعتقده واجبها المقدس . . .

وألح عليها الداهية « مترنيخ » أن تهرب ، لأن الجماهير فى انفعالها لا ترحم ولا تعقل ولا تقدر الأمور . . . ولأن الثائرين — وهم فى حدة ثورتهم — لن يرحموا فيها ضعف المرأة ، ولن يوقروا فيها جلال الملكة والإمبراطورة . . .

وتوسل إليها مدير الأمن العام فى فرنسا أن ترحل فى غير تسويف لأن الأمر لم يعد يطيق تسويفاً . . . . فلم تجد المسكينة بداً من أن تذعن لهذه الرغبات التى تلتقى جميعاً فى هروبها من القصر . . .

وصافحت الإمبراطورة أصحابها من رجال الحكم وبطانة القصر ، وأعضاء الهيئة السياسية ، ولم تنس أن تعبر لهم عن شكرها لمجاملتهم إياها ساعة المحنة . . . وتمنت أن تلقاهم فى أسعد الأوقات . . .

وبينما كان سفير إيطاليا يدفعها بلطف نحو الباب ، جذبها مترنيخ سفير النمسا جذبة قوية عصبية ، لأنه لم يعد هناك

موضع للإبطاء فى الخروج . . . ومشت أوجينى تجر ساقيها فى تثاقل وبطء كأنها مئودة بحمل لا طاقة لها به ، وودعت قاعة العرش التى كانت فيها والألم الممض يكاد يقتلها ، وما زالت تنتقل فى أبهاء القصر وطرقاته ومسالكه السرية حتى انتهت إلى المدخل السرى لباب القصر ، فتسللت منه إلى الخارج وهى معتمدة على ذراع وصيفتها .

ولم يشأ « مترنيخ » أن يتركها فى شوارع باريس خشية أن تقع عليها العيون المتربصة ، فاستدعى لها مركبة مقفلة وودعها فى حذر وحيطة ، مخافة أن يعرفها أحد من هذه الجموع التى تنتظرها . . .

وسارت المركبة بالإمبراطورة ووصيفتها على غير هدى فى شوارع باريس التى تعج بالثائرين ؛ ولو فطن أحد إليها لفتكوا بها فتكاً ، وقد أذهلت الحيرة أوجينى عن مكان تأوى إليه وتعتصم به ، وتذكرت صديقها المستشار « بيسون » ... فلما ذهبت إلى بيته وجدته خالياً من كل نسمة ، فتركت المركبة وسارت فى طريق طويل لا تعرف إلى أين تمضى . . . وكادت تعود ثانية إلى قصر «التويلرى» تلتمس فيه راحة من تعب ،

وسكوناً من اضطراب . . . ولتحكم عليها الأقدار بعد ذلك بما تشاء . . . . ولكن وصيفتها صرفتها عن هذه المجازفة التى لا تؤمن عواقبها .

وفكرت فى أن تلجأ إلى المستر « واشبورن » سفير أمريكا فى فرنسا ، لعلها تجد الأمن والعافية فى حمايته . . . أو فى حماية الراية الأمريكية . . . ولكنها خشيت على صديقها الإحراج والحرج . . . فعدلت عن هذه الفكرة الخاسرة .

ولم تجد فى قائمة أصدقائها العديدين غير الدكتور «إيڤانس» الطبيب الأمريكى ، فقصدت إليه بعد مغامرات ومعاكسات من الأقدار التى يحلو لها أن تعبث بالناس فى أمثال هذه الساعات . . .

ودبر الجميع خطة للهرب من فرنسا ، ولكن أين السبيل بهم إلى ميناء قريب يبحرون منه إلى حيث تريد لهم الأقدار ؟

لقد اجتازوا مدن سان جرمان ، وبواسى ، وتريبل ، وفو ، ومولان من غير أن يحطوا الرحال فى واحدة منها ، فقد كان الهرب السريع يعجلهم عن التلكؤ فى المسير . . . وبلغوا

ثغر دوڤيل ، وأخذ الدكتور إيڤانس يبحث عن سفينة تهم بالرحيل ، أو عن مركب يستأجرونه . . . . وأتاح القدر السعيد لهم أن يجدوا « يختاً » راسياً فى الميناء يملكه « السير جون بارجوين » وكان صديقاً للدكتور إيڤانس . . . . فحملهم بعد ليلة قضوها فى الثغر الجميل .

وأقلع اليخت فصادفته رياح عاتية،وأمواج عالية ، كأن الأقدار تضن على الملكة الهاربة حتى بعبور هادئ . . . ووصل اليخت إلى الشاطئ الإنجليزى ، فأطمأنت أوجينى حينما وضعت قدميها على أرض إنجلترة . . . تلك الأرض التى استقبلت من قبل ملكين فرنسيين طريدين . . . هما لويس الثامن عشر ، وشارل العاشر .

* * *

وأمضيت معاهدة الصلح بين فرنسا وألمانيا ، وأطلق سراح الإمبراطور الأسير . . . ولكنه خرج من أسر الأعداء ليجد نفسه رجلا عادياً بغير تاج ولا عرش . . . فلم يجد غير إنجلترة ليلحق هناك بزوجه الطريدة . . .

ولم يستطع الإمبراطور الطريد نابليون الثالث أن يقاوم

آلام الهم والشيخوخة والمرض التى اصطلحت عليه بعد ضياع ملكه والتجائه إلى إنجلترة، التى كانت أعدى أعداء عمه نابليون بونابارت . . . فمات من علة جسدية سنة ١٨٧٣ — أى بعد ثلاثة أعوام فقط من معركة سيدان . . .

أما الإمبراطورة فقد أرخت لها الأيام فى الأجل إرخاء طويلا ، فعاشت حتى سنة ١٩٢٠ . . . وبذلك ظلت أرملة لمدة سبعة وأربعين عاماً . . . ، وماتت فى سن الرابعة والتسعين . . .

وقد شاءت الأقدار أن تعيش أوجينى لترى انتصار فرنسا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ بعد أن شهدت انكسارها فى حرب سنة ١٨٧٠ التى أدت إلى سقوطها وسقوط زوجها ... ولعلها ماتت قريرة العين حين رأت أن القدر انتقم لها ولفرنسا من عار حرب السبعين .

وظلت الإمبراطورة العجوز فى عزلتها ووحشتها الطويلة فى إنجلترة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فأستأذنت حكومتها فى العودة إلى وطنها فرنسا ، وإلى العاصمة الجميلة التى كانت مقر قصرها الأمبراطورى . فأذنت لها

الحكومة ؛ فاستأجرت بيتاً يطل على قصر التويلرى ، وهو القصر الذى جلست فيه على عرش فرنسا يوماً من الأيام .

وكانت نظراتها العميقة الحالمة إلى القصر تستعيد لها ذكريات ماضٍ جميل .

مصرع القيصرية
فى غرفة بالدور الأرضى

لقد شهدت مدينة «كاترينبرج» الروسية أفظع مصارع الملوك منذ أن كان للملوك مصارع . . . فقد فاق مقتل القيصر « نيقولا الثانى» وأسرته أى مشهد يتصوره الخيال ، فى مصارع الرجال .

ولم يكن القيصر نيقولا بأول حاكم قتل ، ولا سلطان صرع . . . ولن يكون . . . فقد حفلت البشرية بتواريخ مصارع الحكام ، كما حفلت بسقوط دول وقيام دول ، وسيظل ذلك الحال حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان القيصر نيقولا يتربع على العرش ويتمتع بالحكم فى دولة يقارب عدد سكانها مائتى مليون نسمة . . . وكانت هذه الملايين الكادحة تشقى لكى ينحدر الذهب اللامع الرنان إلى جيوب القياصرة وأبنائهم وأعوانهم . . . فتتخم القصور بألوان من السعادة والترف والرفاهية التى كانت تضن بها الأيام على

الشعب المسكين ، حتى فى عالم الأحلام . . .

ولقد كان غليان الأفكار فى مطالع القرن العشرين نذيراً بأن عاصفة ستهب على العالم لا تبقى ولا تذر ، وجاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فأججت النفوس وأعدتها للانفجار عند أول لمسة للتيار . . .

وبينما كانت الحرب العالمية الأولى مندلعة اللهيب فى كل ميدان كانت روسيا تعج بالثورة الكبرى التى قامت فيها فى مارس سنة ١٩١٧ — أى قبل أن تقر سيوف الحرب العالمية فى الأغماد . . . وقامت الثورة على القيصرية لأنها كانت عش الفساد فى البلاد . . . وكانت أناشيد الثوار تنتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية فتربط البلاد كلها بصيحة واحدة هى النذير لعهد القياصرة بالزوال . . .

وانصبت جموع الثوار كالسيل المنهمر على قصر نيقولا الثانى ، وقر قرارهم على أن ينفى هو وعائلته إلى مدينة « تويلسك » .

وكان القيصر الوديع الواجم مهموماً بأمر زوجته القيصرة وولى عهده الذى كان غلاماً لم يخط بعد إلى مرحلة الشباب ،

وبناته الأربع اللائى كانت تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين .

وبينما كان القيصر فى هموم أسره مع أسرته ، لم تشأ الأقدار أن ترحمه فى هذه الساعات الكئيبة أو تتركه ينعم ببعض الراحة والهدوء . . . فقد كان ابنه وولى عهده مريضاً ، وكانت مضايقات الأسر وملابساته القاسية لا تساعده – وهو يافع – على احتمال الآلام .

ولم يستطع الغلام المريض أن يرحل مع أسرته من توبلسك إلى «كاترينبرج» ، فبقى وبقى معه ثلاث من أخواته حتى يتم له الشفاء فيلحق بوالده الحزين المتضعضع ، وبوالدته التى هدتها الهموم هداً .

وكان انتقال القيصر وأسرته من بلد إلى بلد يتم فى هدوء وعدم اكتراث ، بعد أن كانت الدنيا تقوم وتقعد لتنقلاته . . . وبعد أن كانت القطارات القيصرية الفخمة تطوى بهم الأرض طيا فى بقاع وضياع لا يدرك الطرف مداها . . .

وكانت الحاشية القليلة العدد التى سمح رجال الثورة بذهابها مع القيصر فى أسره حاشية محطمة الآمال ، مهيضة

الجناح . . . وزالت عنها كل مظاهر النفوذ التى كان يتمتع بها المتصلون بالقصور . . . وأيقنت الحاشية الأخيرة للقيصر الأسير أنها تقضى أياماً معدودات قبل أن تفعل الأيام فعلتها لتقرير مصير القيصر الكسير . . . .

ولم تعد مراكب القيصر تهز جنبات الأرض حين يتحرك . . . فقد كان الثوار ينقلونه من مدينة إلى مدينة ، وهو يجر وراءه أسرته الطريدة ، فلا تهتف باسمهم شفة ، ولا يهتم بهم إنسان ، بل كثيراً ما كان الأميرات الناعمات بالأمس يحملن متاعهن من قطار إلى قطار ، ويخضن الأوحال فى الأيام المطيرة ، كأنهن بالأمس القريب لم تستبق الرجال إلى خدمتهن والتماس الرضا منهن . . .

وانتهى بالقيصر وأسرته المطاف إلى مدينة كاترينبرج التى شهدت مصرعه ومصرع أسرته ، ولم يكن القيصر يعلم أنه مسوق إلى هذه القرية ليلقى فيها موتة تشمئز منها النفوس . . .

وقد اختار رجال الثورة بيتاً للقيصر يتحقق فيه ما يرمون إليه من سجنه وعزله عن العالم الخارجى إلى أن يتقرر مصيره كما تقضى به تعاليم الثوار .

وكانت غرف البيت أقل من أن تأذن لأسرة مالكة بأن تجد فيها بسطة الراحة، واتساع المغدى والمراح . . . حتى لقد كاد الجميع يحشرون حشراً فى هذا السجن المقصود .

وفى الطبقة العليا من هذا البيت ثلاث غرف . . . وضع القيصر والقيصرة وولى العهد فى واحدة منها ، ووضع البنات الأربع فى غرفة أخرى . ووضعت إحدى الوصيفات فى غرفة ثالثة . . . أما بقية غرف البيت فقد أعدت للحراس الذين عهد إليهم القيام على حراسة هؤلاء الأشراف الذين كانت تأتمر الدنيا بأمر والدهم المنكود .

وكأنما لوحظ فى اختيار هؤلاء الحراس أن يذلوا معانى العزة والكرامة والوقار فى القيصر المعزول . . . وفى أفراد أسرته . فقد كانوا جفاة غلاظاً فى المعاملة وفى القلوب . . . وكانت بوادر الصرامة والجفاء على وجوههم وفى حركاتهم تكفى لأن تذل كل جبار ، بله هؤلاء الحور اللائى كن كأمثال اللؤلؤ المكنون .

وقد قصد الحراس إلى استفزاز القيصر وأسرته بكل شائن من السلوك مما لا يتفق مع كرامة ، ولا يستقيم مع آداب . . .

وما ظنك بحارس عملاق يندفع إلى حجرة الأميرات بلا استئذان ؟ حتى لقد كان هؤلاء الناعمات الناعسات الطرف يتعرضن لدخول الحراس عليهن فى أى وقت من ليل أو نهار . . .

وكان القيصر على جلاله المسلوب يتلطف مع هؤلاء الغلاظ الشرسى الأخلاق ، فيأذن لهم بالطعام على المائدة مع أسرته . . . حتى لقد أخجلهم بتواضعه ولطفه ودماثة خلقه ، كما أخجلتهم القيصرة والأميرات بالصبر الجميل فاستعبدوا قلوبهم ، وكسروا من حدتهم . وألقى ذلك التصرف النبيل من الأسرة المالكة شيئاً من الرحمة والعطف فى قلوب هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد .

* * *

وكانت السلطة فى مدينة كاترينبرج فى يد مجلس إقليم أورال ، وهو مكون من ثلاثين عضواً ، وقد لاحظ المجلس بعد استبدال الحراس القدماء بأن عطف الحراس الجدد على القيصر وأسرته لا يمكن أن يفسر إلا بالضعف والاستخذاء .

واتصل مجلس أورال بمجلس موسكو لاتخاذ قرار فى هذا الموضوع الذى يتوقف عليه مصير القيصرية فى البلاد . . .

فقرر المجلس أن يعين « يورفسكى » رئيساً للحراسة على القيصر وأن يختار هو لمعاونته فى مهمته الصارمة من يشاء من الحراس . . .

وكان يورفسكى يهودياً من المتعصبين المتطرفين ضد القيصر ، وكانت فظاظته وغلظته السبب فى وقوع الاختيار عليه ، فاختار عشرة من أسرى النمسويين الألمان يعاونوه فى الحراسة ، ولم يكونوا أرحم منه قلباً ، ولا أكرم نفساً ، فقد أغلظ الزمان أكبادهم إلى حد جعل أيام القيصر وأسرته فى بيت كاترينبرج جحيما لا يطاق .

وهنا قرر المجلس التنفيذى لمدينة كاترينبرج وعلى رأسه يورفسكى أن تنهى حياة القيصر وأسرته فى أمد قريب .

وفى مساء الأحد ١٤ يوليو دخل كاهن إلى البيت الذى يقيم فيه القيصر وأسرته لإقامة بعض الصلوات والطقوس الدينية ، وكان غرض يورفسكى من ذلك أن يبرر موقفه أمام الروس المتدينين فى ذلك الوقت ، حتى لا يقولوا إن قيصرهم قد قتل من غير أن يزود بخدمة دينية . . .

وفى الليلة التالية كان يورفسكى قد اجتلب سراً اثنى عشر

مسلساً من محلة الحرس بالمدينة ، وأسرّ إلى من جلبها له بأنه قد حكم على الأسرة القيصرية بالإعدام ، وأن إعدامها سيتم فى تلك الليلة . . .

وفى الساعة الأولى بعد منتصف الليل دخل يورفسكى غرفة القيصر وأيقظه وقال له : إن جنود الأعداء ستصل إلى المدينة قبيل الفجر . . . وقد يقع الصدام بينها وبين خصومها فى الشوارع ، فخير لك ولأسرتك أن تنزلوا إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، حتى تكونوا بمأمن من طلقات الرصاص ، الذى يحتمل أن ينفذ من منافذ البيت وشبابيكه . . .

وتساءل القيصر إذا كان من الأفضل أن يأخذوا معهم إلى « بلدروم » المنزل بعض متاعهم ، فأجاب يورفسكى بأن الأليق أن يأخذوا الوسائد فقط ليضعوا عليها رءوسهم إذا ما استسلموا إلى بعض الكرى .

ودخل يورفسكى غرفة الأميرات وأبلغهن ما أبلغ به أباهن ، واستعد الجميع للنزول إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، إيثاراً للخلاص من مناوشات قد تقع فى شوارع المدينة كما أفهمهم الجلاد يورفسكى . . . ولم يكونوا يعلمون أنهم سائرون لملاقاة

قضاءهم المحتوم . . .

ونزل القيصر وزوجته وأولاده وبطانته وطبيبه الدكتور بوتكن ، وكان عددهم جميعاً أحد عشر نفساً ، وقد أعياه النحول الذى أصابهم فى مكان أسرهم البئيس ، حتى أن بزة القيصر العسكرية ، وثيابه الحربية ،وبنطلونه الأزرق الذى يشبه لباس الفرسان لم تكن لتخفى شيئاً من الشحوب البادى على وجهه . . . نزلوا جميعاً إلى الدور الأرضى فى تلك الساعة الباكرة من الصباح ، وكان الظلام الدامس يجلل سلم « البدروم » ويسود ذلك الطبق الأسفل الشبيه بغيابات السجون ... وأضاء أحد الحراس مصباحاً ضئيلا لينير السلم الموحش المظلم المفضى إلى أسفل الدار . . . وكان القيصر يخطو فى وقار وذهول ، وتتبعه زوجته المرتجفة ، أما ولى العهد فقد كان ثقيل الخطى لأن المرض المصاب به كان نوعاً من الكساح .

وكانت الأميرة تاتيانا — وهى ثانية الأميرات الأربع — تمشى شاردة اللب ،وعلى وجهها مسحة من جمال أذبلته الأيام ، ولعلها كانت ساخطة على الأقدار التى جلبت بها إلى هذه النهاية الكئيبة ، بعد أن كانت الأقدار نفسها تعد لها تاجاً آخر

بخطبتها إلى ولى عهد إنجلترة . . .

وكان طباخ الأسرة المالكة آخر من نزل السلم إلى «البدروم» فقد كان نزول الجميع إلى هذه الهاوية مطابقاً لمراسم القصور وقواعد « البروتوكول » . . .

واجتمع أعضاء الأسرة القيصرية مع طائفة من الجلادين والرماة العتاة فى غرفة واحدة فى قرارة المنزل . . . وكان كل جلاد مزوداً بالبنادق والمسدسات ، وقيل للمساكين : لا تجزعوا فإن سيارات ستحضر لنقلكم من هذا المكان ، ولكنها كانت إحدى كذبات « يورفسكى » البلقاء المشهورة . . .

ولم يكن فى الغرفة كرسى واحد أو قطعة من أثاث غير الموقد المستند إلى الحائط ، فطلب القيصر بعض الكراسى لأنه كان يحمل على كتفه ولى عهده الكسيح . . .

وجاءت الكراسى . . . ولم تكن كافية لأحد عشر شخصاً يتوقعون مصيرهم ، فاستند بعض الأميرات إلى الحائط برءوس قد أمالها الهم ، والنصب ، والذعر الشديد . . .

وهنا أخرج يورفسكى ورقة من جيبه وتلاها فى سرعة واضطراب ، وكانت أمراً من حكومة الثوار بإعدام القيصر

نيقولا الثانى وأفراد أسرته .

وأراد القيصر أن يعترض على الحكم بقتل زوجته وأولاده ، فأنهم لا ذنب لهم ، وخشى يوروفسكى أن يؤثر كلامه فى الجند المكلفين إعدامهم فتقعد الرحمة بهم عن تنفيذ عملهم . . وبدأ هو بإطلاق الرصاص على القيصر ، فأصاب منه مقتلا فى مخه ، وخر على الأرض لا يبدى حراكاً . .

وهنا بدأ الجنود يطلقون الرصاص فى شهوة من الجنون على أفراد الأسرة التاعسة . . واختلط صراخ الصارخين بدوى الرصاص المنهمر فى غرفة محدودة الجهات . .

ولم يكتف الجنود بالرصاص ، ولكنهم استعملوا حرابهم فى شج الرءوس وفضخ الجماجم .

وكأنما انتزعت الرحمة من الجنود انتزاعاً ، فراحوا فى ثورة من الغضب والجنون يطربون لرؤية الدم القانى المتدفق

وفى وسط هذه المجزرة البشعة اضطربت المصابيح البترولية فى أيدى حامليها من الحراس فسقطت على أرض المكان ملتهبة تنذر بحريق هائل ، وتكاثف الدخان فى الطبقة السفلى من البيت الذى كان يدخر لأبناء القياصرة هذا المصير المشئوم .

وجاءت مركبات لتحمل جثث القتلى وأشلاءهم إلى مكان بعيد خارج المدينة ، فألقاها أعوان يورفسكى فى غابة كثيفة ، ومنعوا الناس أن يصلوا إليها ، وسدوا الطرق المؤدية لها .

وكأنما ضن يورفسكى على جثث القيصر وأسرته أن يحتويها قبر ، فأمر بأحراقها بعد أن وضعوها فى أكوام من الحطب ، وصبوا عليها كميات هائلة من البترول وحامض الكبريتيك .

وأثار الهواء ذرات هذه الأجسام التى تمتعت بلذة الحكم ونشوة السلطان . . .

وذاب عرش القياصرة بما يحمله من الجواهر وكريم الأحجار ، كما ذابت أجسام القيصر وأسرته فى لفح النار .

والملك لله الواحد القهار

إمبراطور
يحمل وزر حرب طحون

تكاد تجمع أكثر مصادر التاريخ المعاصر أن الإمبراطور غليوم الثانى إمبراطور المانيا السابق وخاتمة العصر الملكى فيها يحمل إثم الحرب العالمية الأولى، ويعد مسئولا عن الضحايا الذين استشهدوا فيها ، وأن كل قطرة دم سفكت فى تلك المجزرة العالمية البشعة تصرخ بأن ذنبها يقع على كاهل الإمبراطور العنيد . . .

ولقد كان فى النية — بعد أن تنازل غليوم الثانى عن عرشه فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ — أن يحاكم الإمبراطور أمام محكمة دولية باعتباره مجرم حرب ، ومسئولا عن المحنة الكبرى التى هزت كيان العالم منذ أن اندلعت شرارة الحرب الأولى فى سنة ١٩١٤ . ولم يخف الحلفاء نيتهم هذه ، بل عالنوا بها ووضعوها فى شروط الصلح التى وافقت عليها ألمانيا المغلوبة .

وكثيراً ما حاول الإمبراطور المحارب أن ينفى عن نفسه تهمة

احتمال المسئولية فى حرب سنة ١٩١٤ ، وكثيراً ما ألقى التهم على الحلفاء الذين استفزوه بسلسلة من تصرفاتهم التى لم يكن محيص من أن تحمله على إعلان الحرب حملا . . . ولكن الحلفاء يردون عليه بأنه فى الساعة التى كان يتشدق فيها بالسلم، ويثرثر فى أحاديثه المموهة بضرورة إشاعة السلام فى عالم يرقص على بركان ـ فى تلك الساعة بالذات كان يعمل الأعمال التى أدت إلى الحرب . . . حتى انكشف ما فى قرارة نفسه ، وظهر فى خطبه المثيرة المهيجة التى كان يقذف بها هناوهناك...

وعلى حين وجهت الاتهامات إلى الإمبراطور غليوم الثانى بتحميله إصر الفظائع التى ارتكبت فى الحرب العالمية الأولى ، فإن الحلفاء قد أنصفوا الشعب الألمانى نفسه ، فبرأوه من حمل التبعة الخطيرة التى ألقيت على ضمير عاهله . . . لأن نظام القيصرية الألمانية وروحها كانت تجعل الإمبراطور هو المسئول الوحيد عن كل شىء فى بلاده ، فهو حاكم مطلق لا معقب لحكمه ، وهو فى نظر الشعب حارسه وحاميه ، فليس للشعب الخيرة فى أمر نفسه ، وليس عليه إلا الطاعة لسيده . . .

وهذه العقلية التى سرت فى دماء الشعب الألمانى هى امتداد للفكرة القديمة فكرة القرون الوسطى ، التى كانت تجعل الملك فوق كل اعتبار ، وتضفى على حقه القداسة والتنزيه لأنه ظل الله فى الأرض . . .

وفى ظل هذه العقلية التقليدية البالية جرت ألمانيا إلى الحرب الأولى وانجرت إليها ، ولم يكن لها بد من أن تجيب نداء عاهلها حين دعا إلى قتال الحلفاء . . .

وكثيراً ما عقدت الموازنات بين موقف نابليون بونابرت ، وموقف غليوم الثانى ، فإن نابليون إمبراطور فرنسا لم يحاكم حقاً ، ولكن أجمع الرأى العالمى المتألب ضده على أنه كان مجرماً يستحق العقاب . ومهما يكن من أمر فهل كان نفى نابليون إلى جزيرة «سانت هيلين» جزاء يتكافأ مع عظم الجرم الذى ارتكبه فى نظر خصومه وأعدائه ؟

ويرى بعض المؤرخين الإنجليز أن القسوة الشديدة فى معاملة نابليون ، وأن إبعاده إلى جزيرة مهجورة نائية فى المحيط ، وأن شدة الحراسة له وتشديد الرقابة عليه ، ومتابعة خطواته القصيرة المحدودة فى منفاه — كل ذلك يقابله لطف

ومجاملة كثيرة فى معاملة الإمبراطور الألمانى غليوم الثانى وهو فى معزلة بمدينة « دورن » بهولندة . ويعلل هذا النفر من الكتاب ذلك بأن غليوم الثانى لم يكن يخشى منه أن يعود إلى العرش ثانية بعد ما أنزل منه أو تنازل عنه . . . فقد كان الشعب الألمانى عقب الحرب والهزيمة التى حلت به ، ينساق انسياقاً نحو الحكم الجمهورى ليتخلص من استبداد الحكم المطلق . . . كما أن غليوم الثانى كان له من سلسلة النسب الشريف ، والأبوة العظام ما يجعل له مركزاً خاصاً يختلف عن مركز نابليون ... ألم يكن غليوم سليل بيت « هوهنزلرن » العريق؟ ألم يكن من أجداده فردريك وليم ، وفردريك الثانى ، وفردريك الكبير الذى ترك أنصع الصفحات فى تاريخ الملوك ؟

ويقول المنادون باتهام غليوم الثانى وتحميله مسئولية الحرب بأنه كان يعمل لها منذ زمن طويل ، وكان حزب الحرب الذى غذى الإمبراطور أفكاره وآراءه يعتقد أن ألمانيا تستطيع أن تقف وحدها فى حرب ضد أوربا كلها . . . وكان فى استطاعتهم أن يعجلوا قيام الحرب قبل سنة ١٩١٤ لولا أنهم لم يشاءوا أن يعرضوا ألمانيا للحرب من غير أن تقف النمسا

بجانبها . . . وما أسرع ما وافقت ألمانيا — قبل الحرب — على ضم ولايتي البوسنة والهرسك إلى النمسا ، لتكسب بذلك عواطف النمسويين وشعورهم ، ولتضمن محالفة النمسا لها فيما إذا اشتعلت نار الحرب التي كانت تتوقعها . . .

وقد شاءت الحدود العواثر للإنسانية المتألمة أن يكون مقتل الأرشيدوق « فرنسيس فردناند » ولي عهد النمسا ، ومقتل الأميرة زوجته في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ سبباً لإعلان الحرب .

ويؤكد بعض المؤرخين أنه لو فرض أن النمسا تنازلت عن القصاص من الصرب لقتل ولي عهدها ، فإن الأمبراطور الألماني نفسه لم يكن ليحجم عن القصاص من القتلة ، لا حباً في إشعال جذوة الحرب التي كان يتحرق إليها وحسب ، ولكن دفاعاً عن حق كان يرى أنه هو الولي له والمطالب به . . . فقد كان يعتقد أنه يمثل النظام الملكي المقدس في العالم كله ، وأنه هو حامي الملكية ، كما كانت تعلن أمريكا — في ذلك الزمان — أنها حامية الديموقراطية . . .

ولهذا اعتقد غليوم الثاني — وهو في إطار هذه الفكرة الغالبة عليه — أن كل طعنة توجه إلى عرش من العروش فإنها في الحق

موجهة إلى شخصه . . .

والحق أن غليوم الثانى كان يمثل فكرة الملوك الاستبداديين أصدق تمثيل . . . وكان يحرص على تجسيم هذه الفكرة وتهويلها . . . فقد كان يتحدث مرة مع طبيب أسنانه الخاص الدكتور « أرثر دايفز » الأمريكى عقب انتخاب « ولسن » رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٩١٢ ، فقال لطبيبه فى لهجة ساخرة : وماذا عسى أمريكا أن تصنع وعلى رأسها أستاذ ؟ اعلم يا دايفز أن بلادكم لن تصير عظيمة فعلا حتى ينقلب النظام الجمهورى فيها إلى نظام ملكى . . .

وتشاء الأقدار الساخرة أن لا يمر من الزمان أمد طويل حتى تصبح ألمانيا جمهورية فى سنة ١٩١٨ ، وحتى يذهب النظام الملكى أو الإمبراطورى منها إلى غير عودة ، وأن غليوم الثانى نفسه وهو المتشبث بالملكية ، المؤمن بها ، الممثل لها ينقلب بين عشية وضحاها إلى فرد عادى ، ويلتفت حوله ، فإذا التاج يهوى من فوق رأسه الذى كانت تملؤه آراء عتيقة ، وإذا السلطة المطلقة تضيع من يديه ، فلا أمر ولا نهى ، ولا قوة ولا سلطان ، ولا إرادات إمبراطورية سامية تهتز لها

الأرض ، وقد تهتز لها الأفلاك . . . !

ولكن الإمبراطور الطريد فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ظل يتشبث وهو فى منعزله الهادئ بهولندة بأذيال مجد قديم ، فقد أمر خدمه وهو مجرد من جلالة الملك وأبهته أن يقوموا بالمراسم التى كانوا يقومون بها والتاج على مفرقه فى « بوتسدام » .

وبقيت التشريفات على حالها كأنه لا يزال قابضاً على الصولجان ، وفى يده السلطان . . . فلا يزوره زائر فى مهجره الجميل الأنيق إلا بعد أن يلتمس الإذن بوساطة كبير أمنائه . . .

وإذا دعا أحداً من العظماء أو العلماء أو صحافيي العالم الذين كانوا ينزلون بمدينة « دورن » فلا بد أن تكون الدعوة مكتوبة وموقعاً عليها من رئيس التشريفات باسم « صاحب الجلالة الإمبراطورية » . . . الزائلة . . . ولا بد لزائر الإمبراطور الطريد أن يمر على مكتب رئيس القصر لكى يعرف القواعد التقليدية للمثول فى حضرة الإمبراطور الطريد وتحيته . . .

وقد أبقى غليوم الثانى فى معزله بهولندة حفنة من الخدم الخصوصيين الذين كانوا يظهرون فى ثياب خاصة مذهبة ،

والذين كانوا ينحنون للضيوف ، ويضربون كعوب الأقدام على نحو ما كانوا يصنعون فى قصر بوتسدام . . . عليهالسلام ! !

ويبدو أن الإمبراطور الطريد كان لا يزال يحلم بأنه السيد الملك ، ولم تقنعه مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة بأن العرش الألمانى قد هوى من تحته . . . ولم يقنعه ذلك القصر الهولندى العتيق فى تلك المدينة الهولندية بأنه أصبح الآن « إمبراطوراً سابقاً » لألمانيا المهزومة المغلوبة على أمرها فى حرب سنة ١٩١٤ . . . وأن لقب الإمبراطور لا يخلع عليه إلا إبراء لذمة التاريخ . . .

لا ! لم يقتنع الإمبراطور الطريد بذلك . . . فقد ظل بضع سنين بعد تنازله عن العرش وهو يجلس على مائدة العشاء لابسا ملابس القائد العام . . . ! ولم يتخل عن هذه العادة إلا بعد أن أيقن حقيقة أن الدهر قد عصف بعرشه وتاجه وسلطانه ، وأن الأحلام مهما كانت لذيذة فإنها سيعقبها صحو أليم . . .

وعلى الرغم من أن غليوم الثانى كان يظهر حبه لأمريكا فأنه يعتقد أن دخولها الحرب العالمية فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧

هو الذى أصار تاجه وعرشه ، بل أصار ألمانيا إلى ذلك المصير المشئوم . . .

وقد أخذت جيوش أمريكا تتدفق على فرنسا بعد إعلان دخولها الحرب بأشهر قليلة ، ويقدر بعض المؤرخين أن عددهم بلغ ستمائة ألف مقاتل، وهذه رواية المؤرخ الإنجليزى «هربرت فيشر». ومهما يكن من عدد الأمريكيين المحاربين فإنهم بقيادة الجنرال «برشنج» قد ساعدوا أكبر مساعدة على تعجيل النهاية . . .

وعلى الرغم من نكبة الجيش البريطانى الخامس تحت قيادة القائد الإنجليزى «جوف» فإن الحلفاء تعلموا كثيراً من الدروس التى عرفوها من أخطائهم . . . وأسندت القيادة العليا لقوات الحلفاء إلى القائد الفرنسى «فوش» الذى قيل عنه إنه أعظم قائد أنجبته أعظم حرب . واختار «فوش» لمعاونته القائد «فيجان» الذى امتاز فوق الحنكة العسكرية والمعرفة الواسعة بالهدوء وبعد النظر . . .

وجاء يوم موقعة «إميان» نذيراً لألمانيا بأن كفة الحلفاء ستكون الراجحة فى الحرب، وهو يوم ٨ أغسطس من سنة

١٩١٨ ، ولقد سماه « لودندورف » القائد الألمانى باليوم الأسود ، فقد أسر فيه عشرون ألفا من الألمان ، وفقد جيش الإمبراطور أثبت مراكزه وأكثرها أمناً . . .

وأدرك لودندورف — وهو رئيس أركان حرب القيادة الألمانية — أن مواصلة ألمانيا للقتال هو نوع من التغرير الذى يلقى بها إلى التهلكة . . . فطلب من حكومته أن تسعى إلى عقد صلح تخرج منه ألمانيا ببعض الكسب ، قبل أن تلجئها الظروف العصيبة إلى هزيمة منكرة تملى عليها فيها الشروط إملاء ... وأدرك لودندورف — فوق ذلك — بفطنته وبعد نظره أن سوء الحالة فى الجيش الألمانى سيفضى بالبلاد إلى ثورة لا مفر منها . . . ولكن الإمبراطور لم يستمع ، ولم يستمع كذلك حزب الحرب الذى أصر على مواصلة القتال . . .

وقد سبقت بلغاريا وتركيا والنمسا إلى طلب الصلح من الحلفاء بعد أن حل بجيوشها وشعوبها من الإعياء والفاقة ما لا قبل لهم باحتمال أكثر منه . . . ولكن ألمانيا ظلت على إصرارها وعنادها تحارب فى أشهر الخريف من سنة ١٩١٨ .

وكان الجنود الألمان يحاربون فى النهاية بروح فاترة ، وخاصة

بعد ما تقدم أحلافهم بطلب الصلح . . . فسرت فيهم روح من التذمر الذى كان نذيراً بأن العاصفة آتية عما قريب .

وتسلل التذمر فى صفوف الجيش إلى الشعب الذى أنهكه الجوع والحرمان . وأضناه الشقاء الذى ظل يعانيه أربعة أعوام كانت كأنها الدهر كله . . . ونادى الشعب مطالباً بالصلح العاجل السريع إنقاذاً للبلاد من خطر الهاوية المشرفة عليها ، وابتدأت المنشورات توزع فى أنحاء ألمانيا تدعو إلى طلب الصلح وإنهاء الحرب التى كلفت الناس أكثر مما فى طاقة البشر أن يحملوه . . .

ورفضت أمريكا — وعلى رأسها الرئيس ولسن — أن تدخل فى صلح مع ألمانيا ما دام على رأسها «غليوم الثانى» الذى عده الحلفاء المسئول الأول عن الحرب .

وأدرك الشعب الألمانى أن رغبته الملحة فى الصلح لن تتحقق ما دام الإمبراطور يجلس على العرش ، فابتدأ ينادى بأن يعتزل غليوم عرشه إنقاذاً للبلاد من محنتها . . .

واستحال تذمر الجيش إلى تمرد سافر صريح جرىء . . . لم تعرفه العسكرية البروسية فى نظامها الدقيق وفى طاعتها العمياء ،

فقد رفض جنود البحرية أن يطيعوا أمراً صدر لهم بالخروج من ميناء « كييل » إلى مياه البحر ، لملاقاة أسطول للحلفاء . . .

وكانت هذه الحادثة هي الصيحة التي أنذرت الناس بأن الثورة الألمانية صائرة إلى أبعد الغايات . . . .

وأكرهت الجموع الثائرة من الشعب الألماني ، وهي في فورة غضبها وسخطها على الذين ساقوهم إلى هذا البلاء والكرب العظيم — أكرهت الإمبراطور العنيد على أن يفوز من الثورة بالسلامة ويهرب خارج البلاد . . .

وفي الصباح المبكر من يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفي الساعة الخامسة بالضبط ، خرج الإمبراطور غليوم الثاني ومعه ولده وبعض من حراسه وبطانته، وركبوا سيارتين بلغتا بهم الحدود الهولندية في سرعة جنونية . . . فقد وصلوا إلى تلك الجارة المحايدة بعد سفر ثلاث ساعات .

ودهش رجال الحدود وحراسها لهذه المفاجأة المباغتة على بكرة الصباح . . . .

ونزل الإمبراطور الطريد الهارب من سيارته وهو في ثيابه الإمبراطورية الرائعة الجليلة ؛ وتقدم إلى الحراس الهولنديين

يعرفهم بنفسه . . . ومد سيفه إلى ضباط الحدود ، وهى علامة من ميراث القرون الوسطى على التأمين والسلام . . . .

واضطرب الضباط أكثر مما اضطرب حراس الحدود من الجنود ، واتصلوا على عجل بالحكومة التى اتصلت بالملكة « ولهلمين » ملكة هولندة .

وقد أدركت الملكة المسالمة المحايدة دقة الظروف وحرج الموقف الذى صارت إليه هولندة بهذا الضيف البغيض من الحلفاء ومن شعبه الذى ألح فى المطالبة بنزوله عن العرش .

ولقد قامت هولندة بالحيدة التامة فى خلال سنوات الحرب الأربع ، فماذا هى صانعة اليوم حتى تظل محترمة لهذا الحياد ؟؟

لقد قررت الحكومة الهولندية أن يحجز الإمبراطور الطريد الهارب فى قصر مريح ، حتى تحل المشكلة على وجه صحيح ...

وسيق الإمبراطور اللاجىء فى حراسة شديدة إلى قلعة « أمرنجن » الهولندية حيث قدمت إليه وثيقة التنازل عن العرش فأمضاها فى يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

ونقل بعد ذلك إلى قصر من القصور القديمة الجميلة فى مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة الهادئة .

وظل الملك الطريد بعد ذلك فى عزلته الوادعة يقطع الوقت بالقراءة وكتابة المذكرات ، وتأليف بعض الكتب التى كان منها كتاب « آبائى » وسلسلة من يومياته .

ولم تفته بعض « الهوايات » الجميلة ، كالموسيقى وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار التى كانت تظفر فى المعارض الهولندية العالمية بأسنى الجوائز .

ولعل أعجب « هوايات » الإمبراطور غليوم الثانى هى الحفر على الخشب ، فقد كان يقضى فيها أكثر ساعات الصباح .

ولما زاره الكاتب الأمريكى المؤرخ « بولتنى بجلوف » ليكتب سيرته ، أخذ الاثنان يخوضان فى أحاديث السياسة على أصوات منشارين دقيقين ، يقطعان فى خشب رقيق . . .

* * *

وكثيراً ما كان الإمبراطور الطريد يتمنى أن يسمح له بالعودة إلى وطنه حيا ، فأن لم يظفر بذلك فلا أقل من أن يؤذن بدفنه — حين يحين أجله — فى ثرى الأرض التى حارب من أجلها . . . .

فهرس

صفحة

عرش على صنم	٦
الأموى الطريد	١٣
عرش بغداد	٢٤
ملك ينتحر غرقاً	٣٣
رؤيا تنذر بزوال دولة.	٤٥
جثة سلطان على أحد أبواب القاهرة . .	٦٠
ملك يبكى على عرشه المنهار فتنهره أمه . .	٦٧
من الخلافة إلى الجمهورية	٨٠
ملك يتهم بالخيانة فيقطع رأسه	٩٢
إمبراطورة تؤثر الموت على الفرار . . .	١٠١
مصرع القيصرية فى الدور الأرضى . . .	١١٤
إمبراطور يحمل وزر حرب طحون . . .	١٢٦

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

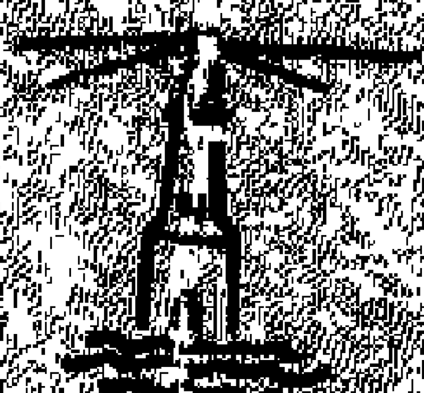
تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك


بيبسى كولا
PEPSI-COLA
لذيذة
فوارة
بيبسى كولا
يفضلها الجميع..!

اقرأ

طه حسين

المعذّبون فى الأرض



دار المعارف بمصر

طه حسين

المعذبون في الأرض

اقرأ ١١٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ١١٨ — سنة ١٩٥٥
سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ،
وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ،
إلى أولئك وهؤلاء جميعـــا ،
أسوق هذا الحديث

* * *

إلى الذين يجدون ما لا ينفقون ،
وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون ،
يساق هذا الحديث

لا أجد لتصوير الحياة فى مصر أثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضى أدق من هذين الإهدائين اللذين يقرؤهما كل من تناول هذا الكتاب ؛ فقد كان المصريون فى تلك الأعوام القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقاً إلى العدل مصبحة وممسية وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التى تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العدل حين تجنها ظلمة الليل ؛ وكان فريق الكثرة ذاك لا يجد ما ينفق فى رزق نفسه وفى رزق من يعول ، فيشقى بما يجد من الحرمان ، ويشقى أشد الشقاء وأعظمه نكراً بما يجد عياله من الحرمان ؛ كانت عينه بصيرة إلى أبعد ما يبلغ البصر ؛ وكانت يده

قصيرة إلى أدنى ما يكون القصر ؛ كان يرى الطيبات بين يديه فتتوق إليها نفسه ، وتتوق إليها نفوس بنيه وبناته ؛ فإذا أراد أن يمد إليها يده أبت أن تمتد كأنما أصابها شلل ، أو كأنها شدت إلى سائر جسمه بأثقل الأغلال ؛ فكان يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ؛ وينتظر العدل الذى يبطئ عليه فيغلو فى الإبطاء .

وكان يرى الآفات المختلفة تصطلح على جسمه ونفسه ، وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ، ويقعد به عزمه ، ويضطر إلى أن يسلم نفسه وأهله لهذه الآفات تعبث بهم كما تريد ، قد وطن نفسه على الجهل لأن أباه لم يستطع تعليمه ، وهم أن يخرج عياله من الجهل الذى اضطر هو إليه ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، فرضى الجهل لبنيه كما رضيه لنفسه ، وانتظر العدل الذى يُتيح لبنيه من المعرفة ما لم يُتح له فى صباه ، ولكن العدل يبطئ عليه وعلى بنيه فيغلو فى الإبطاء .

وكان يرى البؤس له خليطاً بغيضاً ، يصحبه إذا سعى فى الأرض ، ويصحبه إذا راح إلى داره ، ويسكن معه ومع أسرته فى تلك الدار إن أتيحت له ولأسرته دار يأوون إليها ؛ فيصبر نفسه على هذا الخليط البغيض ، ويصبر أهله عليه ، واثقاً بأنه لن يستطيع منه فراراً ، لأنه لن يستطيع أن يتخذ

نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء؛ فينتظر العدل الذى سيخلصه ويخلص أهله من خليطه ذاك البغيض ، ولكن العدل يبطئ عليه فيغلو فى الإبطاء .

ولم يكن البؤس يرضى أن يصحب هذا الفريق إلا إذا تبعه أصحابه من الجوع والعرى والعلل والذل والهوان ، والكد الذى يضنى ولا يُغنى ، والهم الذى يسوء وينوء ؛ وكان الناس من ذلك الفريق يبغضون أولئك الضيف أشد البغض ، ويضيقون بهم أشد الضيق ، ولكنهم لا يجدون إلى الخلاص من ضيفهم الثقلاء سبيلا إلا أن يأتى العدل فيلقى بينهم وبين ضيفهم ستاراً ؛ ولكن العدل كان بطيئاً مسرفاً فى البطء ، كأنه كان يمشى فى القيد ، لا يكاد يخطو خطوات قصاراً حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده إلى مكانه الذى استقر فيه بعيداً كل البعد عن الناس الذين يحبهم ويحبونه ، ويشتاق إليهم ويشتاقون إليه . كذلك كان ذلك الفريق طامحاً إلى العدل ، يحرقه طموحه دون أن يُبلغه شيئاً ، وما أكثر ما مضت الأجيال وليس لها من العدل حظ إلا انتظارها له ، وتحرقها شوقاً إليه .

فأما الفريق الثانى ، فريق تلك القلة القليلة ، فقد كان يرى بؤس الفريق الأول وشقاءه وعناءه ، وخضوعه للمحن والخطوب ، وإذعانه للكوارث والنائبات ؛ فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت إليه ؛ ولعله لم يكن يرى شيئاً ولا يحس شيئاً ؛ كان

مشغولا بيسره عن عسر الناس من حوله ، وكان مشغولا بترفه عن شظف الناس من حوله ، وكان مثقلا بالغنى فلا يعنيه أن يثقل الناس بالفقر . كان نظره قصيراً كأدنى ما يكون القصر ، وكانت يده طويلة كأبعد ما يكون الطول ؛ كان يشتهى فيبلغ ما يشتهى حتى سئم شهواته ، وكان يريد فيبلغ ما يريد حتى ملّ إرادته ، وكان قلبه قد قسا فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ؛ وكان عقله قد حُجب عما حوله أو حجب عنه ما حوله ، فهو لا يرى ما كان يملأ البيئة التى يعيش فيها من النُّذر ، فإن رأى منها شيئاً أعرض ونأى بجانبه وأمعن فى الحمق والغرور ، فلم يفكر فيما كان ، ولم يفكر فيما يمكن أن يكون ، وإنما عاش للساعة التى هو فيها كأن كل يوم من أيامه قد اقتطع من الزمان اقتطاعاً فليس له أمس وليس له غد ، والبعد يشتد بينه وبين ذلك الفريق من البائسين المعذبين ، فهو لا يحسبهم إلا أن يحتاج إليهم ، وهو إذا احتاج إليهم لم يرفق بهم ولم يعطف عليهم ، وإنما ينزل إليهم الأمر تنزيلا أن يشتقّوا له من شقائهم سعادة ، ومن عنائهم راحة ، ومن بؤسهم نعيما ؛ وكانت الحكومات تقوم على إرضاء هذا الفريق المترف طوعاً أو كرهاً ، وربما حاول بعضها أن يختلس شيئاً من الإصلاح اختلاساً

فنظر إلى هذا الفريق من المعذبين فى الأرض نظرة فيها شيء من إشفاق وهمّ أن يمسهم بجناح من رحمة ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى تزلزل به الأرض ويحاول بينه وبين الحكم ، وتلقى عليه الدروس فى أثر الدروس لعله يفهم أن غاية الحكم إنما هى أن يزداد المترف ترفاً ويمعن البائس فى البؤس والشقاء .

فى بعض ذلك العهد نُشرت هذه الأحاديث متفرقة ، فلم تحفل بها الحكومة القائمة إذ ذاك ولم تلتفت إليها ، ولكنها جُمعت ذات يوم فى كتاب وأرادت أن تصل إلى أيدى القراء مجتمعة لتعظ المسرف وتعزى المحروم ، وهنالك حفلت بها تلك الحكومة والتفتت إليها ووقفت عندها وقفة لم تطل ، وإنما صدر فيها الأمر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخة من المطبعة إلى حيث يصنع بها السلطان ما يشاء، يحرقها أو يخرقها أو يغرقها أو ما شاء الله من ألوان العبث ما دامت لا تصل إلى أيدى القراء !

وكذلك صودر هذا الكتاب فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم ، وأن تعظ منهم الطغاة والبغاة ، وتعزى منهم البائسين واليائسين ؛ ونظرت مصر التى كانت ترى أنها ملجأ الحرية فى الشرق الأدنى ، وأنها قائدة الشعوب العربية إلى الكرامة والعزة والاستقلال ، وأنها آمنت من بغى الدولة التركية القديمة وطغيانها أحرار

سوريا ولبنان والعراق ؛ نظرت مصر هذه فإذا كتاب قد كتبه أحد أبنائها يحال بينه وبين المواطنين ، وإذا هو يسلك طريقه إلى لبنان فيطبع فيه وينشر ، ويذاع فى أقطار البلاد العربية ، ثم يعود إلى مصر فيدخلها خائفاً يترقب ويستخفى به قراؤه استخفاء ؛ ثم يعاد طبعه ونشره فى لبنان ، والقراء من المصريين يسمعون بذلك فينكرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذا النكير . . .

عادت مصر إذن إلى مثل ما كانت عليه فرنسا أثناء القرن السابع عشر ، حين كان بعض كتابها يفزون بكتبهم لينشروها فى هولندة مخافة البأس والبطش وطغيان الرقيب . وأحاول أن أفهم مصدر هذا الخوف الذى أغرى تلك الحكومة بهذا الكتاب فحرمت عليه الحياة فى مصر ، فلا أجد إلى فهمه سبيلا ؛ فليس فى الكتاب سياسة أو شىء يشبه السياسة ، وليس فى الكتاب تحريض على النظام الاجتماعى ينكره القانون ، وليس فيه إغراء بتلك المبادئ الهدامة كما كان يقال فى ذلك الوقت ، وليس من فصوله فصل إلا وقد نشر فى مجلة أو صحيفة سيارة فلم تنكره الحكومة ولم تضق به النيابة ولم يقدم كاتبه وناشره إلى القضاء .

وإذن فهو الخوف الذى يورط فى البغى ، وهو الذعر الذى يدفع إلى الطغيان ، وهو التنكيل بالكاتب من طريق

التنكيل بكتابه ، وهو الاستجابة للهوى والانقياد للشهوة والحكم فى الناس بالحب والبغض لا بالحق والعدل . ولست أعرف أشد حمقاً ولا أجهل جهلا ولا أغبى غباء من الذين يصدرون فى حكمهم عن الخوف والذعر ، وعن الشهوة والهوى ، وعن الحب والبغض ؛ فهم يورطون أنفسهم فى ألوان من السخف لا تكاد تنقضى ، يحسبون أن قدرتهم تبلغ كل شىء ، مع أنها قدرة إنسانية محدودة لها مدى لا تستطيع أن تتجاوزه ؛ فهى تصادر كتاباً فى مصر وتظن أنها حالت بينه وبين المصريين ؛ ثم لا تلبث أن تراه قد نشر فى لبنان وعاد إلى مصر فقرأه الناس فيها ، وانتقض عليها كل ما أبرمت ، وفسد عليها كل ما دبرت ، واستبق الناس إلى هذا الكتاب وتنافسوا فى الظفر به ؛ ولو قد خلَّت الحكومة بينهم وبينه لكان منهم القارئ له والمعرض عنه ؛ ويحسبون أنهم يفهمون كل شىء ، وأن عقولهم تنفذ إلى ما لا تنفذ إليه عقول غيرهم من الناس ، وعقولهم مع ذلك عقول إنسانية تفهم من الأمر قليلا وتعيا عن فهم الكثير ، ولو قد فطنت عقولهم لكل ما كانت الصحف تنشر من الفصول ، ولكل ما كانت المطابع تذيع من الكتب ، لعطلوا الصحف كلها تعطيلا ، ولأغلقوا المطابع كلها إغلاقاً . وأى شىء أدل على ذلك من هذا الأدب الجديد الذى أنشأته حكومات الطغيان إنشاء حين اضطرت الكتاب إلى العدول

عن الصراحة إلى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الإشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس القراء فيه تنافساً شديداً ، وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضاً فى التأويل والتحليل ، واستخراج المعانى الواضحة من الإشارات الغامضة . وانظر إلى ما نشر صاحب هذا الكتاب من «جنة الشوك» و «جنة الحيوان» و «مرآة الضمير الحديث» و «أحلام شهر زاد» ؛ فلن ترى فيها إلا رمزاً لمظاهر كنا نبغضها ولا نستطيع أن نتحدث عنها فى صراحة أثناء تلك الأيام السود ؛ فكنا نؤثر الغموض على الوضوح ، والرمز والإلغاز على التصريح ، والإشارة والتلميح على تسمية الأشياء بأسمائها ؛ وكانت حكومات ذلك العهد ورقابتها تقرأ فلا تفهم ، فتخلى بين الكتاب وما يكتبون ، وتخلى بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الأدب الجديد .

وكذلك قهر الأدب بغى البغاة ، وأفلت من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين إفسادهم ، وأنشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الأدباء وقراؤهم ، وفناً جديداً يذوقه القراء ويحبونه ويؤثرون على فنون التصريح والوضوح.

والأدب أشبه شىء بالنهر العظيم القوى الذى يندفع من ينابيعه فيشق مجراه حتى يصل إلى البحر ، قاهراً ما يلقاه من المصاعب ، مقتحماً ما يعترضه من العقاب ، محتالا فى شق

طريقه ألواناً من الحيل تنتهي به كلها إلى غايته ؛ فظلم الظالمين وبطش أصحاب الطغيان وتحكم الرقباء ، كل أولئك أضعف من أن يقوم فى سبيل الأدب والفن أو يحول بينهما وبين القراء .

يا لها ليالى قاتمة مظلمة كثيفة الإظلام ، لم يتح فيها للنجوم أن ترسل سهامها المشرقة ، ولم يتح فيها للقمر أن ينشر ضوءه الهادئ الجميل ، وإنما ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها بعضاً ، وقد احتملنا أثقالها ونهضنا بأعبائها نكاد نختنق ، ولكننا مع ذلك نرسل أنفاسنا حارة محرقة كأنها شعل من نار تضيء لقرائنا الطريق وتهديهم إلى قصد السبيل .

وها هو الفجر الصادق قد أخذ يشير إلى الظلمات المتراكبة المتراكمة بأصبعه الوردية التى ذكرها الشعراء ، فتنهزم متفرقة كأنها لم تزدحم ولم يركب بعضها بعضاً ؛ وما هى إلا أيام وأسابيع ، وإذا الفجر الضئيل يمتد ويتسع ويملأ الأرض نوراً وجمالا وبراً وإنصافاً ؛ وهنالك لا يحتاج الأديب إلى حيلة ليعرب عن ذات نفسه ، ولا إلى رمز يخفى به سر ضميره على الرقباء ؛ وإنما يتحدث إلى قرائه فى صراحة ووضوح ويسر ورضى ، يصور لهم حياة ناعمة وعيشاً رغداً وعدلا واسعاً ، بعد أن صور لهم جحيم البؤس والجور والشقاء .

صدق الله الظنون ، وحقق الآمال ، وجعل ثورتنا الموفقة عضداً للحق وسنداً للعدل وأداة للإنصاف وسبيلا إلى المساواة ؛ وبدّل المعذبين فى الأرض من عذابهم رحمة ، ومن شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيما .

١
صالح

« إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئى ؛ فإن فعلت ذلك فأنت ابنى حقاً » . قال الصبى وهو يبتسم لأمه التى كانت تحدثه هذا الحديث وهى تداعب خده : « فإن لم أفعل فابن من أكون ؟ » .

هنالك وجمت أم الصبى شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبى لطمة خفيفة ظريفة وهى تقول : « إنك لطويل اللسان كثير الخصام » ثم دست فى يد الصبى قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : « إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبيرة الأخيرة فأنبئى ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام » . قال الصبى وهو يقضم السكر قضما : « أما الآن فنعم » . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة فى ذلك المساء ؛ فقد ألمّ بها ضيف لهم خطر ومكانة فى الإقليم ، وهم لم يُقبلوا أصفار الأيدى ، وإنما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة فى ذلك المساء بالتكبيرة الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته

ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهيأة تنتظر أن تُحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الأصناف قد هيئ ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقد فت الخبز فى طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقطع الثوم قطعاً توشك أن تشبه الذرّات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا فى اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والخل فى الجو ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما ألقى عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يتسمع الصبى لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبيرة الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هى إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والخل والأرز فجمعتها فى هذا الطبق الكبير الذى كان ينتظرها منذ حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس فى الإبطاء بها بأس ولا جناح ، ولكن الصبى لم ينبئ أمه بشىء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شُغل عن التكبيرة الأولى وعن التكبيرة الأخيرة بأمر ذى بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلم به الضيف . وقد همّ غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن

الضيف ينتظرون ، ولكنه استحيا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يُظَنّ بأهل الدار غفلة أو إهمال ، فمضى فى حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث . وأسرعت إلى أمها فأنبأتها بما لم ينبئها به الصبى ، وما هى إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغطون .

وقد كان الصبى خالص النية صادق الرأى ، قد اتخذ مرقبه فى زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كنزه ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات فى جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد فى ذلك تسلية ولهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى ؛ وقد جلس فى زاويته تلك أمام حديده ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعبث بها فى رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسل إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فمضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر فى زاويته ويمضى فى قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح ماثل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقول يقدمها إليه باسماً . وقد نظر الصبى إلى صالح

فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغى ، وقد انشق عن كتفه فظهرتا منه نابيتين ، والثوب على ذلك رث قذر يظهر من جسم الصبى أكثر مما يخفى ، كأنه أسمال قد وصل بعضها ببعض وصلاً ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع ، وليقال إن صاحبه لا يمضى به متجرداً عرياناً . ثم رفع الصبى رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران إلى ما حولهما ، تنخفضان حيناً إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر فى يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التى تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيدان التى نصبت لتحملها .

والصبى على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الخشنة من زهر الحقول يقول له : « لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمر بك وأحمل إليك هذه الأكمام التى لم تتفتح بعد . خذها إليك وضعها فى إناء فيه شىء من ماء وانتظر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فستراها متفتحة عن زهر جميل طيب الرائحة » . لم يقل الصبى لصالح شيئاً ، وإنما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقى فى يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال

النظر إليها ، والتحديق فيها ، وقربها من فمه ثم أبعدها عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها فى فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب فى رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأنسى الصبى بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذى كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من بنيها وبناتها إلى طعامهم ، وافتقدت صاحبنا ذاك المهذار فأرسلت أخته تلتمسه فى مظانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ فى الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه ، أو لم يكن يحب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له فى صوت خافت حزين : « أجب ، إنك تدعى إلى العشاء » . قال الصبى لصالح : « وأنت هل تعشيت ؟ » قال صالح : « سأتعشى حين أبلغ الدار » . ونهض متثاقلا وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبى إلى أمه وفى يده تلك الزهرات ،

فلما رأته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه . قال الصبي وفى صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلىّ صالح بن الحاج على . قالت أمه : « ولم تعطه شيئاً » ؟ قال الصبي : « أعطيته ما بقى لى من قطعة السكر » . قالت أمه : « وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ » قال الصبي مضطرباً : « هممت ولكنى لم أجرؤ » . قالت أمه : « فامض فى أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه » . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكد يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتج إلى أن يعدو ، ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجليه وأخر الأخرى يريد أن يمضى وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخذياً : «ها أنذا ، ماذا تريد ؟ » قال الصبي : « أريد أن تبقى لنتعشى معاً . » ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى فى أثره هادئاً مطرقاً كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكد الصبي يغلق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت فى زاويته تلك كرسيًّا مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التى قدمت للضيف . وأبت أخت الصبي

أن تشارك الأسرة فى عشائها وآثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي إلى أمه راضياً . فقالت له وهى تمسح رأسه : « إذا زارك رفيق لك فى وقت العشاء فلا ينبغى أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك فى الطعام» . ثم قالت له بعد صمت قصير : « هل تعلم أن صالحاً إنما حمل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ » قال الصبي : « لا أعلم » . قالت أمه : « لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حملوا من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون فى الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً . واتخذ أزهاره هذه تعلّة يلم بها فى الدار ليقدمها إليك » . قال الصبي : « لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! » قالت أمه : « إذا خرجت من الكتاب غداً فاحمله على أن يصحبك ، فإن عندى من ثيابك ما يكسوه » .

ثم انصرفت إلى بنيها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها نسيت أن تحرك الأرز حين ألقته فى الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتثنى على تلك لأنها رفقت بالفالوذج فلم تتركه سائلا تفيض به الملاعق كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعق

قطعاً ولم تهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التى لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وإنما صنعته سواء سهلا لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلوق ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنها لتتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التى كانت تعلمهن بها فنون الطهى والتى كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون فى ضحك متصل ، وإذا الصبى يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش فى داره ؟ أجابت أمه : « ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ؟ » قال الصبى : « فإنى أرى الأضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابى من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم » . قالت : « لأنك لست فى حاجة إلى ذلك فلست محروماً » . قال الصبى : « فصالح محروم إذن ؟ » قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه : « لأن أباك ميسر عليه فى الرزق ، وقد قتر فى الرزق على أبى صالح » . قال الصبى : « ولماذا ؟ » قالت أمه : « إنك لمكثار » . ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهى تقول : « خذيه إلى مضجعه ، فقد تقدم الليل وآن له أن ينام » .

وأصبح الصبى فغدا على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام فى الأسبوع . وقد يخطر للقارئ أن يسألنى عن هذا الصبى ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيئته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن

يكون ؟ ولكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي « ديديرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه — أجيب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلى بهذه الأسئلة التى قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة منسقة حسنة البناء ملتئمة الأجزاء يأخذ بعضها برقاب بعض ، كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكنى لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، الذين تعرض لهم الخطوب . أو الذين يبتكرون هذه الخطوب

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لى فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ؛ ومن شاء أن يرضى عنه بعد فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لى الكلام وأن أمليه وأن

أذيعه ، وأن يجد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وأن تصده عنها ، وأن يشعر القارئ أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف فى الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب أو يرفض ؛ وليس هذا كله بالشىء القليل . وما أحب أن يظن القارئ أنى أتحكم فيه أو أتجنى عليه ، فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم فى التجنى ، وأشدهم للقارئ حبًّا وإكباراً . ولكنى لا أحب أن يتحكم القارئ فىّ ولا أن يتجنى علىّ ولا أن يخضعنى لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقى . ويجب أن تكون الحرية هى الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينى حين أكتب أنا ويقرأ هو . ولو أنى استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبى وبيئته وعرفت أسرته إلى القراء لطال بى الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس فى الحديث صبى واحد ، بل فيه صبيّان ؛ أحدهما صالح هذا الذى يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبى الذى وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من حق القارئ أن أسمى له هذا الصبى الثانى ما دمت قد سميت له الصبى الأول ، ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبى يعرف اسمه واسم أبيه وصبى آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت فى إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبى الثانى اسماً . وما زلت أجهل اسمه إلى

الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح يعنيني ، وإنما كانت الأحداث التي حدثت للصبيين هي التي تعنيني . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ويوجد في المدن ويوجد في كل مكان ، يملأ مصر نعمة وخيراً ، وهو مع ذلك يُشعر الناس بأن مصر هي بلد البؤس والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضي يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحاً هذا الذي لا يجد ما ينفق ، والذي يود أن تتاح له الوسيلة ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذي لم نجد له اسماً إلى الآن . فلنتفق على أن اسمه أمين ، وعلى أنه كان يختلف إلى الكتاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون في شيء من اليسر ، وكثير جداً من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف الجميل ، ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف الشيء في الوجود فهو غير موجود ، سواء أرضيت الفلسفة عن هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فموجود من غير شك ، لأننا نراه ولا نكاد نرى غيره ، لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي الذي لا ينام جائعاً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة

أو على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغي أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام فى إبانه ، وأن يأخذ قسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يحصى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً فى كل قرية وفى كل مدينة ؛ وهو من أجل ذلك موجود ، لأن عدده محدود، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارئ وقد ظهرت على وجهه ابتسامةساخرة وبرقت عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألنى فى صوت فاتر ساحر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن فى الإطالة بهذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ولا يفيد ! معذرة يا سيدى القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يغنى كل الغناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلقى فى كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً . قد كثر لقاؤك لهم واتصلت معاشرتك إياهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية، ولا تلتفت إليه كما

أنك لا تلتفت إلى الهواء الذى تتنفسه والنور الذى تهتدى به . وترى أميناً أو أمينين أو أمناء بين حين وحين فيملأ كل واحد منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير : أن ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذى ملأ مصر نعمة وخيراً وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين وموطنه وبيئته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة لأصول الفن التى رسمها النقاد ؟ أما أنا فأوثر أن أتحدث إلى قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور ، على أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران فى نفسك من تهالك على النقد وحب للاستطلاع .

أوثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذى وجد وأسرف فى الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير موجود . ومن يدرى ! لعلى حينما ألفتك إلى صالح إنما ألفتك إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ، فما أردت ، وما ينبغى أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت فى يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن فى حياة كل واحد منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ، فصالح صورة البؤس والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً ولا شقاء ولا حرماناً ! وليس البؤس مقصوراً على هذه الصفة التى

أتى من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذى يمزق البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياها الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شراً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإنى لأعرف قوماً كثيرين تمتلئ أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجدون بؤساً أى بؤس وشقاء ، أى شقاء ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنفه أيدى الحسان تصنيفاً فى الحواضر والمدن وسيلة إلى شيء يصيبونه عند من يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

مهما يكن من شيء فقد غدا الصبى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين على كتابه كما تعود أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فانصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللدات والأتراب . وكان قد أنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطر حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً فى كثير جداً من القلق والخوف ، ثم فى كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جداً من الألم والحزن ، فقد سمع سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير : هل تفقدت الأختام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك

كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح بن الحاج على فإنه قد ضاع ، وما أشد حاجة هذا الفتى إلى التأديب ، فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع العصر إلا لينغمس فى الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألنى القراء كما كانوا يسألون الكاتب الفرنسى الذى ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الأختام ما هى ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ، فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد بعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من خطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل فى الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشتد القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يتبردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء. وكانوا يسرعون إلى نسيان القيظ والتبرد متى انغمسوا فى الماء وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق فى العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى سيدنا أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة الخطرة . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كان الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التى كانت تسمى

الختم وغمسها فى مادة حمراء وختم بها أفخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة فى ماء النهر أو ماء القناة . وكان زوال الآية التى يتركها الخاتم فى فخذ الصبى أو الفتى دليلا على أنه قد خالف الأمر وقارب هذا الإثم العظيم . فلم يكن بد إذن من تفقد هذه الأختام فى كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبى أو الفتى إذا محيت آية الختم عن فخذه قبل الأوان . ولست أدرى أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف فى الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن سيدنا قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقترفون إثمهم هذا العظيم فى غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون إليه من هذه الطرف اليسيرة التى يحملونها من بيوتهم ، يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف ، وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة ، ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤدبه فأفشى أمره لسيدنا ؛ ولو آثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه ، ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة حباً لصالح وعطفاً عليه ورحمة له .

فلم يكد يسمع العريف البصير يغرى به سيدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذى فقد ختمه ، وإنما فقده الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أديرت الفلقة على ساقى صالح وعمل السوط فى رجليه حتى دميتا ، ثم أديرت الفلقة على ساق أمين ومس السوط رجليه مساً خفيفاً لم يدمهما ، ولكنه علم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن فى جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوهما عدوا ، وجعلوا يكيدون لهما ويمكرون بهما ويذيقونهما من العنت فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجليه ، ولكنه وجد عند رفيقه تسلية وتعزية . ولم تكد أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكد صالح يراه حتى جن جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى الفلقة التى دارت على ساقيه والسوط الذى مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء ويغسلن نفسه فيه ، وليضيعن آية الختم الجديدة ، وليتعرضن لوشاية العريف ،

وغضب سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالى القذر . قالت له أم أمين : لا بأس عليك ؛ فسأطلب من سيدنا أن يعفيك، من الفلقة والسوط غداً . وانصرف الصبي فرحاً مرحاً محبوراً . وقال أمين لأمه : ألا تنبئينى الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجليه، ولم يضربنى أنا إلا عابثاً ؟ قالت : لأن صالحاً أضاع الختم وخالف الأمر وانغمس فى الماء فكان ذنبه عظيماً يستحق عقاباً عظيماً . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت فى العريف ، فكنت خليقاً أن تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبي : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق . قالت أمه وهى تضحك : فإن الحق لا يقال فى جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التى يقال فيها الحق والمواطن التى يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهى تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذى فى زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديده فلعب به ، وتحدث إليه وأحدث من الضجيج والعجيج ما شاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديده وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والهدايا ؟

قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلا عن أن يجد ما يهدى إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل على . ولكن الصبى لم يمض لشأنه وإنما مضى فى الأثقال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرته إنذاراً كاد يبكى له ، ثم رحمته فوضعت فى يده قطعة من النقد وهى تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبى مبتهجاً : سأشترى بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ؛ لأن صالحاً لم يذهب إلى الكتاب من غده . وقد وقع فى نفس الصبى شىء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكد يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش هذا السخف الذى

يحبه الصبية، وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك عريفه فى أنه قد شهد الصلاة.

وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل ذات صباح كئيباً محزوناً لا يكاد قده يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو فى ثوبه ذلك البالى القذر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسماً به حفياً به مستنبئاً عن غيبته تلك التى طالت . وهم صالح أن يجيب، ولكن صوته احتبس فى حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يبكوا دون أن يمسهم سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبوهم بالأيدى حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذى أهدته أمه لرفيقه مصدر شقاء عظيم وضر مُلح لهذا الرفيق البائس .

خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً محبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح عدواً، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يُسكت الطير التى كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر فى الجو ألحانها العذاب، وانغمس فى القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام فى القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبتهجاً مغتبطاً ، وقد

امتلأت نفسه رضاً وامتلأ قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الرضية وقلبه السعيدة على جسمه جمال غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ؛ وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل فى ثوبه الجديد، وكاد السرور أن يدفعه إلى شيء من الغرور ، ولكن الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه فى بعض الاعتدال ، فرضى عن نفسه فى دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر فى ثوبه الجديد وقد طوى ثوبه البالى القذر وحمله بين زراعيه وجنبه متأذياً متكرهاً لاحتماله ، ولو استطاع لتركه فى بعض الطريق ، ولكنه كان أذكى من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل ثوبه ذلك البالى إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .

وما أشك فى أن القارئ سيقف عند هذا الموضع من الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألنى أنا : ألم يكن من الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان يعيش يتيماً ينعم بما يختلس من حب أبيه سرًّا ويشقى بجهرة بما يصب عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام أمه فى البيت ؟

ولست أشك فى أن القارئ سيضيف إلى هذا السؤال

ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ فيقول في نفسه : لو أن الكاتب سلك في قصته هذه الطرق الممهدة والسبل المعبدة التي رسمها النقاد للقصة لعرّف إلينا صالحاً في أول حديثه ولأنبأنا بموت أمه وتزوّج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التي لم نكن في حاجة إليها . ولكني أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أني لا أضع قصة ؛ وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التي يبيتون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا الكلام الكثير الفارغ الذي يلهج به النقاد ، ولو أني بدأت هذا الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد الضيق ولقال بعضهم : تجاوز حديث الطوفان وصل إلى غايتك فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحاً يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟ الشيء الذي لا أشك فيه ولا ينبغي أن يشك فيه القارئ هو أن صالحاً لم يكن يتيما ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت حية أكثر مما ينبغي أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة وتقل . وسواء رضي القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح حية من غير شك ، لأني أنا أريد ذلك ، وليس يعنيني ما يريد غيري من الناس ، فأنا الذي اخترع صالحاً من لا شيء ، أو

أخذ صالحاً من عرض الطريق، لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود ؛ موجود فى حقيقة الأمر ، لأننا نراه فى كل ساعة وفى كل مكان ، وغير موجود فى حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس فى الوجود . والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال ؛ فأنا إذن وحدى — كما كان يقال أيضاً — أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيرى من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن أدعها مطلقة تعمل خادماً فى بعض الدور ، وأستطيع أن أجد لها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التى يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز فى بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب فى هذه البيوت ، وقد أجد لها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ، لأنى حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ؛ ولأن القارئ مضطر إلى أن يتلقى حديثى كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك فى أن يقبله أو يرفضه ، وفى أن يرضى عنه أو يسخط عليه .

والواقع من الأمر أنى لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التى ذكرتها ، ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التى

رسمتها ، لأنى على حريتى فى أن أصنع بها ما أشاء ، أوثر الأمانة فى رواية التاريخ ، وقد حدثنى التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أبا صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحاً بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكرة الخلق بغيضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالح فى كنفه ، وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع ، لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه ، وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع إلا أن يعيش كما يعيش الناس ، فاضطر إذن أن يتخذ لنفسه امرأة تربى له صالحاً وتمنحه غيره من الولد ؛ واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذى احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجرى على هذا النحو فى ذلك العهد القديم .

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته ، من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثانى إلى أن يطلقها

بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لتلك الأسباب التى فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغيضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصياح لا ترضى بشىء ولا ترضى عن شىء . ولكن حظها فى هذا الطلاق الثانى كان حسناً أو سيئاً لا أدرى ! فما أكثر ما تختلط أمور الناس على الأذكياء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلى قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشىء المحقق هو أن خديجة لم تكد تطلق حتى مات زوجها وترك لها سعيداً تربيه كما تشاء أو كما تستطيع ؛ ولم تربه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحبت . وقد زهد الأزواج فى هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعت الفجل حيناً والترمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنت جنوناً هادئاً رفيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت «خديجة المعفرتة» وعاشت من إحسان المحسنين.

وبينما كان ابنها سعيد ينمو فى ظل هذا الجنون الهادئ المخيف ، كان ابنها صالح ينشأ فى ظل هذه الضرة التى أظهرت حبًّا له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين فى حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر فى رعاية الحب المجنون .

حدثنى أيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله ، فى أول هذا الحديث فتضيق بى وبصالح وبأمين وبالسفر الذى يحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذى اخترته، وأن أحدثك بكل شىء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ، وستذهب فى عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذى اخترته ، وحدثتك بالأمر على النحو الذى آثرته ، وانتهيت منذ حين إلى أن صالحاً قد استحم فى القناة ودخل فى ثوبه الجديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذى لبسه مهدياً ثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه ، فرأت ثوبه الجديد ورضيت عنه، ورأت ثوبه القديم وضاقت به ، ثم أدارت بصرها فى الحجرة ، فرأت ابنها وبنتها قد اتخذا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم ، يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح فى ثوبه الجديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنيها فى ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت فى نفسها الخطة واضحة جلية ولكنها بشعة بغيضة ؛ فإن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد

لقى من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً . فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً، وجرد من ثوبه الجديد الجميل ورد إلى ثوبه القديم البالى، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتاب من غده، وأقام فى الدار ملقى فى زاوية من زواياها يهمل فى ازدراء ويمرض فى عنف، حتى إذا استطاع أن يمشى على قدميه سعى إلى الكتاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس، فلم يدر عقله الناشئ كيف يقضى فى هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالى الذى كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الجديد، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادئ المطرد . فهو إذن قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه فى ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرها، وإنما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجرى دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير؛ فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعة والقواعد المرسومة والخطط المدبرة، وإنما الحياة تمضى كما تريد هى لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتاب مساء ذلك

اليوم . فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضها بعضاً ، ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر فى الفضاء ضحكاً عريضاً ؛ فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار ، كما كان يقال فى تلك الأيام ؛ وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك ؛ وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهم أن يقف ولكنه آثر أن يمضى مع رفيقه كأنه لم ير شيئاً . ولست أدرى ما صنع الرفيقان ، ولكنى أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القُطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنيها فى يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أميناً مذعوراً يكاد ينقد من البكاء ، فمسح على رأسه وقبل بين عينيه وقال له فى صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلا ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكنى أنظر

إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ، ومع ذلك فلم أر صالحاً حين أكله القطار .

٢

قاسم

كان يسعى فى ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق ، ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضي أمامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان أشبه شيء بقطعة من الجماد قد صورت فى صورة إنسان ، ولو قد عدا أو أسرع الخطو لجاز أن يشبه بسهم حتى يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو ، كان يسعى هادئاً مطمئناً ، يتردد فى سعيه كأنما تدفعه إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شيء وإنما يمضي إلى غايته كما يمضي الزمان إلى غايته ، فى أناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية

للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التى تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلى ، أو لتصور سهماً ضئيلا من الفضة النقية يمضى فى هذه الظلمات المتكاثفة ، فتنهزم أمامه هذه الظلمات متهالكة وتساقط أمامه نجوم السماء فى الأفق الغربى كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار ، ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه فى الجو ضئيلا نحيلا ماضياً أمامه إلى الشرق ، كأنما يريد أن يلقى بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولا وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلئ نوراً وغناء؛ فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبهها بمطلع الفجر ، وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ، ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ؛ لأنه لم يكن من هذا كله فى شيء ، ولم يكن يقدر أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال ، وكل ما فى الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى فى ظلمة الليل فتطيل السعى ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها فى قلبك أو فى لسانك ؛ فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم قرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن

القلوب » . فكان لايخرج من بيته الحقير المتضائل ساعياً إلى النهر فى ظلمة الليل ؛ إلا ترددت هذه الآية فى صدره تردداً متصلا ، فملأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً ؛ فإذا أحس نبأة من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجنب كل مكروه .

وكان فى تلك الليلة يمضى أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التى تتردد فيه. فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة وسأل نفسه مسرعاً : أيمضى إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما يسوقه الله إليه من رزق ؟ ولم يشك طويلا حين ألقى على نفسه هذا السؤال ، وإنما استدار إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه أحد، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئناً وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر فى شىء ، وإنما هو قطعة جامدة قد صورت فى صورة إنسان تمضى أمامها فى أناة ومهل ، لا تنظر فى السماء ولا تنظر فى الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ؛ وإنما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت إلى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق ؛ فلم يكن قاسم

شاعراً ولا راوية شعر ، ولا محبًّا لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن لليل جلالا وأن للنهار جمالا ؛ فلم يكن قاسم إلا رجلا جاهلا بائساً مريضاً ، يلتمس فى النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته أمونة ، وابنته سكينة فى بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسماً كان يردد فى صدره هذه الآية ، ويؤدى صلاة الفجر إن أدركته وهو فى طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه فى بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئاً غريزيًّا خالصاً يشبه سعي النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد نهكه المرض ، وكاد يسل جسمه سلاً ، ومن أجل ذلك لم يكن يجد ولا يكد ولا يضطرب فى شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه فى غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى فى كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدى أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلا متهالكاً إلى حصير بال رث قد ألقى فى ناحية من نواحى البيت ، فيمتد عليه ضئيلا نحيلا يكاد السقم يفنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق

كلمة ولا يفكر فى شىء حتى تهيئ امرأته ما يمكن أن تهيئ من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون. وما أكثر الليالى التى لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر فى مكانه مثبتاً لا يأتى حركه ولا ينطق بكلمة ، وفى نفسه ما فيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألماً ؛ وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمل جسمه أكثر مما يحتمل ؛ ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعى ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئاً.

هنالك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ، وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .

فى ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة ، فسعى إلى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة والرضا فلا تستطيع أن تصور إلا حزناً هادئاً فيه شىء من أمل يسير . وقد صادف

النهر كريماً فى ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب فى قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التى كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع فى عينيه الصغيرتين نور متهالك ضئيل ؛ ثم أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ، وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت العمدة ؛ فقد استقر فى نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغى أن يباع فى السوق ، وإنما ينبغى أن يحمل إلى بيت العمدة ، هذا الرجل الموسر الذى يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم وأخذت تكنس فناء الدار وترده إلى هيئته التى ينبغى أن يكون عليها ، فتصفف الكراسى فى أماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التى كانت تمتد فى صدر الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين

يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفى ذلك وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً ، فإذا فتحته رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل ، ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على هذه الدكة فى صدر الفناء . وقال قاسم فى صوته الخافت المريض : ما أشك فى أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحبه أن ينصرف ، ولكن الفتاة ألقت فى يده شيئاً فقبله راضياً وولى مجبوراً . وهم قاسم أن ينصرف ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو فى ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل فى كل صباح متكلفاً شيئاً من العنف فى دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبئ الأسرة بمقدمه ، حتى إذا أغلق الباب وراءه فى غير رفق سعى إلى دكته فى صدر الفناء ، ولكنه لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعاً وجلا ، قد تملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا فى أى عضو من أعضائه يظهر ؛ فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان فى الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة وصوته يتردد فى حشرجة بين جوفه وشفتيه .

ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر ، فيدفعان إلى ضحك عال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له الكيد ؛ حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهيئ له كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة فى غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيئ له مجلسه ، تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسى وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغنى عن قهوته تلك التى تعود أن يشربها متى فرغ من الترتيل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتما منى وأضحكتمانى من نفسى ، ولكن الله قد أراد بى خيراً ؛ فلن أتكلف لأهلى طعاماً منذ اليوم ؛ أنبئى السيدة يا ابنتى بأن هذه السمكة قد ملأت قلبى رعباً ، وبأنى أنتظر منها نصيبى حين يتقدم النهار ، وما أشك فى أنكم ستتخذون منها ألواناً مختلفة ، وما أرضى أن ترسلوا لى لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذى يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى

تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله ، يعمل بعضها و يكسل بعضها ، والصائد فى مكانه لا يبرحه لعله نسى نفسه ، أو لعله ينتظر ثمن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسناً ووضع فى يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارئ يستطيع أن يلاحظ أننا قد انتهينا إلى مفرق من مفارق الطرق فى هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التى ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التى يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقى فيه من أقداح القهوة المرة ؛ ثم أذهب معه إلى الكتاب الذى سينتهى إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشترى فى السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهى إلى الكتاب ، وأن أقيم فى الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفناء واستقرت فى مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التى تختلف

سعة وضيقاً وارتفاعاً وانخفاضاً، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولكنى لن أقيم فى الدار ، ولن أتبع قاسما ، ولن أتبع سيدنا ، وإنما سأخرج من الدار ، وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى فأسعى قليلا ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجد فى أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين ، لا من الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين الذى سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شىء من القش والتبن ، ورص بعضها إلى بعض حتى ارتفعت فى الجو ارتفاعاً ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ، ثم ألقى عليها شىء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب فى فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها باباً ، فهذا البيت هو الذى أوثره على السوق وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حديث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لأنى أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار بائستين كما استقبلتا الليل بائستين ؛ أحستا قاسماً وهو ينهض متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل

من ورائه ، وينغمس انغماساً رفيقاً مستأنياً فى ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما ، أحستا نهوضه فى جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئاً . ولم تنهضان؟ وما عسى أن تفعلا ؟ ولم تقولان ؟ وما عسى أن تقولا ؟ مضى قاسم وأقامتا ، واشتملهما الليل ساكنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصباح لهما ساكنتين قائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس : فجلست كل واحدة منهما فى مكانها واجمة لا تدرى ما تصنع ولا تعرف ما تقول ، وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفى جسمها تناسق وفى قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن يتكلف التماساً ، فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومهما فى ذلك الصباح لم يتصل إلا قليلا . وقد

قالت أمونة لابنتها فجاءة فى صوت فاتر منكسر : ألم تنهضى وتتركى البيت بعد أن خرج أبوك إلى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكنى عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فإنى قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج فى التماسك ولكنى أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن إلينا الجيران ، وما زلت أنتظرك وأنتظرك حتى أسفر الصبح ، وإذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك حريصة على ألا أحس مقدمك كما كنت حريصة على ألا أحس انسلالك من البيت ، فإلى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعصلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكباباً ؛ ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئاً ، جامدة لا تأتى حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث. هنالك تنمرت أمونة وظهر فى وجهها شىء من الجد لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف ، وقالت لابنتها فى صوت مكظوم : ستنبئينى إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف

النخيل كانت تصطنعه فى تقليب الخبز وإنضاجه، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس، وهى تقول لها فى صوتها المكظوم: ستنبئينى أين كنت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع ما بين كتفيها فى عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب فى الأرض ، أو جذبها إلى الوقوف سبب فى السقف ؛ على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، وإذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها إلى وجهها وهى تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ؛ فإذا هى لم تبق امرأة، وإنما استحالت إلى جنية ثائرة، وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها فى غير رفق وتدفع بقدميها وجهها فى غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقى أمونة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها فى صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ولم تضبط نفسها ، ولم تنبئها فى هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت حين انسلت من البيت فى ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ولهذا

الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر فى وجهها هدوء حازم عنيد ، ودفعت يد أمها عن فمها وقالت فى صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدى والعناد : تريدين أن تعلمى إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت فى ظلمة الليل ؟ فاعلمى إذن أنى لقيت زوج عمتى غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ، ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت ؟

وجمت أمونة شيئاً ثم قالت مستخذية : ومتى لقى الفتيات أزواج عماتهن فى جنح الليل ؟ إنك لتلقينه متى شئت فى وضح النهار . قالت الفتاة : ألقاه فى وضح النهار وألقاه فى ظلمة الليل ؛ ذلك شأنه وشأنى ، وما أنت وذاك ؟ فإنه لا يعنيك من قريب ولا من بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها بصوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عنى أو أستغيث بالجيران ! . قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران؟ يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب ؛ وظلت الفتاة فى مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فأنهل على وجهها دمع غزير !

وفى القارئ حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضى فى كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذى يعرضه أو يقول فيه . والقارئ لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاة قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها فى ظلمة الليل، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ما ذاقت من عذاب بأنها خرجت لغىٍّ لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها إثم بغيض .

القارئ لا يكتفى بهذا ، وإنما يحب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمتها . ولولا أنى أرفق بالقارئ ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أرده خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت فى الحديث كما بدأته، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض ؛ ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب فى كتابته، ولكن من حق القارئ أيضاً أن يفهم فى وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارئ أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغى

أن يعرف القارئ الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ وابتسمت لها الدنيا واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب جسمها ذبول ، وألم بجمالها ذواء حين دخلت فى الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير ، لولا أنها صادفت الحاج محموداً ، وكان رجلا يقيم فى طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها فى استنبات البقول ؛ وقد لعبت الأيام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شىء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر فى حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكأن غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشى فى المدينة زائغ الطرف يدير عينه يميناً وشمالا ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شىء فى تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن فى نفسه طموحاً إلى الشر

ونزوعاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته، يرمقه فى ازدراء ويتحدث عنه فى استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء ؛ ولكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة فى قوة وجمال وفى بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتهى جمالها وطمع فى محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يبهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون فى المدن والقرى يحملون هذه السخافات التى تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى ، يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذى يمضغ فى الأفواه ويسميه أهل القرى « لباناً » ويسميه المترفون من أهل المدن « لادناً » ، ويحملون حقيبة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفهن بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه فى أفواههن ويحدثن فى مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشىء من هذه

السخافات بين يدى رجل من هؤلاء الباعة قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه سخفه الرخيص ويدفعن إليه نقدهن القليل . وسكينة تنظر وتشتهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئاً ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئاً ؛ فرق الحاج محمود لهذه الفتاة، أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئاً قليلا أدى له ثمناً ضئيلا وملأ قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادتها حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع فى قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة ، بدأ بالحديث الرفيق، وثنى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محموداً كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد فى تردد بين ما يحمل إليهما من خير وما يثير فى نفسيهما بعض الشك ؛ ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة ؛ والشىء الذى ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة ؛ فأكثرت التردد على دار عمها ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذى كانت تسميه عمها .

وهنا ليس يحتاج القارئ فيما أظن إلى أن أمضى به فى هذا الحديث البغيض إلى غايته ، فهو يستطيع أن يبلغها وحده . وأحسبه قد أطال الانتظار لقاسم هذا الذى ذهب إلى السوق وفى يده أو فى جيبه قروش العمدة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقير متباطئاً ثقيل الخطو ، وفى نفسه شيء من رضا ، فسيطعم امرأته وابنته ما لم تتعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ، ومهما يسيء إليهم الضيق ، فإن فى فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه ؛ فقد كان قاسم فى تلك الساعة يشعر بشيء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشد بؤساً وتضاؤلا وإذعاناً للعلة من هذا الاعتداد ؛ وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً ثقيل الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظ الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا فى أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع

كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله فى لحظ العيون واضطراب الوجوه ، ويكاد قاسم يجد فى نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود ؛ ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصّاعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفرجان ، وهم صوته الخافت أن يصبّح أهله بالخير ، وهمت يداه المتهالكتان أن تضعا بين يدى زوجه ما حملا إليها من طعام ، وهم أن يداعبها فى بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تساقط دموعها غزاراً وهى جامدة هامدة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقاً لا تحب أن يسمع ؛ وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر المسألة ، وإذا امرأته ترد عليه فى صوت مختنق منقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يداه تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذى كان يحمله حفيّاً به حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض فى غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفتاه تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهالكاً ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتى من بعيد جداً ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاماً لم نتعرض لهذا الخزى ، ثم يعيد : لهذا الخزى . ثم ينقطع الصوت حيناً ثم يعود أشد خفوتاً وأعظم بعداً وهو يقول :

ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات ! ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار، ليس هو نائماً وليس يقظان، وإنما هو شيء بين ذلك . وقد همت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل فى مكانها هامدة جامدة، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها من البكاء . والفتاة ملقاة فى مكانها لا هى بالحية ولا بالميتة ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والجمود . ولم ير الجيران فى ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران فى ذلك اليوم دخاناً من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران فى ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلا مرهقاً ؛ فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتشرت فى السماء نقطة ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحاً، فانسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد، وغمس نفسه فى ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئاً وإن أراد

الإسراع ، متثاقلا وإن كان فى نفسه خفيفاً . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، فقد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر فى الوقت نفسه بشىء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد فى طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء ، وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة ؛ ولكن قاسما لم ير ضياءً ولم يسمع غناءً ، قد أظلمت عيناه وسدت أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضى أمامه ويمضى مترفقاً ، حتى أحس أنه يخطو فى فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحسه شىء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضى فى كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك فى أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور

ربها ، وفى أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفى أن الناس اضطربوا فى أعمالهم بما يضطرب فى قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفى أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل ؛ ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشىء .

وقد يحب القارىء أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ،وكيف لعبت بهما صروف الأيام؛ ولكن القارىء ليس فى حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ؛ فأيسر شىء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله، فسيرى فيها « أمونات وسكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالألوف ، وإنما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين، تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل إليهن رضاً ولا غبطة ولا أملا فى الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر فى أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التى تنتثر فى السماء؛ولكنه لا يحمل إليهن راحة ولا أملا فى الراحة ، وإنما يدفعهن إلى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به فى النهار من حياة بغيضة ، لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ، ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من

الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضى الليل والنهار إلى غايتهما ، لا يحفلون بأمونة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل إنسان .

٣

خديجة

لم تنزل من السماء كما تنزل الملائكة رحمة وروحاً على الأرض ، ولم تخرج من النهر كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن فى الزمان القديم من الجداول والأنهار ومن العيون والينابيع ، ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم ؛ وإنما نشأت فى القرية ، وفى أسرة بائسة شقية من أسرها كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن وألوفهن فى المدن والقرى دائماً ؛ ولكنها امتازت من أترابها بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد . ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقى ؛ فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتفاراً ، وفعل به البؤس والشقاء وشظف العيش

الأفاعيل ؛ وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة؛ وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التى تدفع البائسين من العمل إلى ما لا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون — كان هذا كله قد غشّى وجهى هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة والغباء .

ولم تكن تمتاز بإشراق الوجه ونقائه فحسب ، وإنما كان لإشراق وجهها ونقائه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن، قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونوراً .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشاط قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه

الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيقى وتأهبى ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافى يلائم وجهها المشرق النقى ، وخلقها الرائع السوى ؛ فكان شخصها أشبه شىء بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وإنما تلذ كل ما فى الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التى استأثرت بأرق الحسن وأنقاه ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس فى التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكراً عليهم تساؤلهم وإلحاحهم فيه : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح وهو يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ! أنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن يهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ؛ فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة ولأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نصفاً ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبر ،وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح ؛ فكنت تراها فى آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك تهيئ العجين ؛ وكنت تراها فى أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها فى سرعة مدهشة على الشكل الذى ينبغى أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رفيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذى يجعلها سائغة فى الأفواه والحلوق والبطون ؛ وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، ويقنعون بهذا الخبز فى كثير من الأيام، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشىء من طعام ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شىء مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدى القصار من البصل والفجل وهذه الأعشاب التى لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقتَّراً عليه فى الرزق ، قد ورث عن

أبيه مهنة لا تغنى من جوع ؛ كان بناء متواضعاً ، لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شىء من سعف النخل فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيهم أيسر ماينبغى أن يتقوا من عاديات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلا أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات ، فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً، تعمل فى دار من دور أهل اليسار، تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط فى خدمة أهل الدار، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه. وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شىء من حزن كان يستقر فى قلبها ويتغلغل فى ضميرها، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال. كانت تفكر من غير شك فى بؤس أبويها وإخوتها الصغار، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة بلفظ أو لحظ أو حركة، إنما كانت تخفى حزنها كما يخفى البخيل كنزه؛ وربما نمت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة، تغمر هذا الصوت الممتلئ العذب فتترك فى نفوس السامعين أثراً غريباً؛ وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل، مرًّا سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلاً عن أن يسألوا عنها. كانت حياتها فى تلك الدار بهجة متصلة ورضاً مقيما، تقطعها بين حين وحين وفى لحظات قصار جدًّا هذه النميمة التى تهم أن تنبئ بالحزن، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما همت أن تنبه إليه.

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها، عطوفاً على أهلها، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة، وتحسن إليهم كلما أتيح لها الإحسان؛ وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها

بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ العنيف، تأجرها على ذلك لا بالقروش التى تضعها فى يدها، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هى الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيها ، وبالطرف تطرفها بها فى أيام الأعياد وفى أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء ؛ ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلا .

وفى ذات يوم سمعت ربة الدار فى فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكى ، وصوت عصاً تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ، فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه بإحدى يديها جذباً عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التى تتخذ لإدارة الخبز فى النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، فى حين تمعن يدها فى جذب الشعر ، وتمعن الأخرى فى رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى وماذا أسمع ! ثم

أسرعت إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا، وإلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها ؛ ولكن محبوبة أمعنت فى بكاء متصل فيه شهيق وزفير ، ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التى تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن فى الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشيء من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة إلى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزاراً : سمعت منها أنها وجدت فى زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتخون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شيء من نعمة ورضاً ! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء ؛ من أجل هذه السرقة التى استكشفتها قُتّر عليهم فى الرزق ، فردت هى عن بعض الدور التى كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن ؛ إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع !

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها : على رسلك أيتها

المرأة ! فإن ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، وإنما كلفتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما شيء من طعام ، كدأبي معها دائماً ؛ وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فإنها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحيي أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحيي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها ، تهديه إلى الفقراء إن وجدت في طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلاباً ؛ ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولا تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها في غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما ، ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها بإحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعنت الفتاة في النحيب أمعنت أمها في الصياح.

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ؛ فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يُقص عليهم من أحاديث الحداث . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذى يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب . وفتيان القرية يسرون فى أنفسهم حباً لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها ، والأمانى تلعب بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام ، لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ،عظيم النشاط جميل المنظر ، منطلق اللسان ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه فى ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذى يحيي النفوس، والخوف الذى يميت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد فى هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها لأسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح فى صدقه وحبه ؛ وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهى صادقة ملحة فى صدقها ، تبتغى الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى نفس خديجة ، فهى تمتنع على هذا الزواج وتلح فى الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادماً على تلك الحياة التى تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع حتى تثير الريبة فى نفس أبويها ؛ فما ينبغى أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضى بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة فى صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع ؛ ولكن سيدة خديجة تردها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتخاشنها حيناً آخر ، حتى تختلس منها الرضا اختلاساً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفى ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما يتردد فى حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شىء فإنما يدل على خوفها وهلعها مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى فى أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد فى حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من

النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزًّا عنيفاً وتزجرها زجراً مخيفاً، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : أفيقى ! ثوبى إلى نفسك ؛ ما تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملا وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراهاً ؛ تسمع منهن كل شىء ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول ان تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا .

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن : ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا تظهر عليه ؛ وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن

جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتها لاخترعن الجواب عن تساؤلهن اختراعاً . وأى شىء أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأين الفتاة أمس تزف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون زائغة البصر لا تمسك نفسها إلا فى جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهى تنظر إليه ، ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان ؛ أليس فى كل هذا وفى بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترتفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضى ولا تذهب بشىء ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضى كما تعودت أن تمضى فى أعقاب الأعراس ؛ فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حباً ويزيد موقعها فى القلوب

حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافى الممتلئ ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألذ موقعاً فى السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية لليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التى تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتى كان صوت خديجة يحضرها فى النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة ؛ وفى هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات بجمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن فى آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذ الهم يستيقظ فى قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفى مكان بعيد

من حيث تعوّد النساء أن يملأن جرارهن جرةٌ مملوءةٌ وإلى جانبها بعض الحلى . والتُمِستْ خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون .

قالت سيدتها وهي تكفكف دموعها تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراها على الزواج ، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس ، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ؛ فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

٤

المعتزلة

لا أريد تلك الفرقة الإسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذى ألم بمصر، فذكرتها ذكراً متصلا ملحًّا ، وحاولت أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميرى الخاص إلى الضمير العام ، فيكون فى ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما فى النفس . والهموم الثقال

تخف إذا شاركت فى حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيداً قويًّا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدى حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين فى الأرض ؛ لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه فى قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعاً ؛ فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له، وإسباغ نعمته عليه ، ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير فى أن أزهد المترفين فى ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ؛ لأنى أعلم من جهة أنى لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، ومهما أبرع فى تدبيج القول وتنميق الحديث ؛ ولأنى أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر أو إلغاء سنة الله فى الناس ؛ فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف ، وينعم حتى

يبطره النعيم ؛ ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمجه الشقاء . . . ؛ ولأنى أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض !

وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو أم تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ، فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهدى حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وأخواتهم وعائليهم وتركهم نهباً للشقاء لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه ؛ لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغى أن تبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاءه ، وإنما ينبغى أن تحبب إليه البؤس ، ليتحمله وليزيد منه إن استطاع ، وأن تزين فى قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه إن وجد إلى الإمعان فيه سبيلا ؛ فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين ؛ والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليق أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر

غير ساخط عليه ؛ ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه فلنصدق على أقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء إلى الموطن الذى لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذى لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذى لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذى تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شىء فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة ، وأم تمام ؛ كما ترددت فى إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخير القارئ بين العنوانين ، وأن أهدى الحديث إلى الفريقين ؛ فى حديث هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمعذبين جميعاً . وأى مطمع للكاتب أجل شأناً وأعظم خطراً من أن يرضى قراءه على ما يكون بينهم من اختلاف ؛ وفى حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائماً أن أكون كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بى أشد الكلف ، وأغيظهم حتى

يمقتونى أعظم المقت؛ وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة ما يحبب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ، ويرضون عنى كل الرضا ؛ وبأن أصور لهم هذا الترف منكراً بشعاً ، ومذمماً بغيضاً ، فيسخطون علىّ أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى . ، وما يلقى فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمساً، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ؛ فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف ؛ فأنا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه ؛ وما الذى يعنينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعنينى من ذلك شيء ؛ لأنى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه ، وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس ؛ فأنا رجل أثر لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها ؛ وأنا رجل كاتب لا يعنينى إلا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير فى قلوبهم من رضاً وسخط ، وبما أشيع فى ضمائرهم من حب وبغض ولست أزدرى شيئاً كما أزدرى إلقاء الدروس فى الأخلاق ، ولست أنفر من شيء كما أنفر من ترغيب الأغنياء فى العطف على

الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ؟ إن الناس من حولى لا يذوقون للتضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم فى بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فما لى أحمل نفسى من الأعباء ما لا يريد الناس من حولى أن يحتملوا ؟ وما لى أدفع نفسى إلى هذا الشذوذ الذى لا خير فيه ولا خير لأحد فيه ؟ وما لى لا أسير سيرة الجيل ولا أعيش عيشة المعاصرين ولا أنتفع بقول أبى العلا :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً　　تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

الأثرة ، يا سيدى ، هى الأساس المتين الذى يقوم عليه نظامنا الاجتماعى البديع ، الذى نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد ؛ فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من أن يعبث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا نحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محبًّا لنفسه إلى أقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلّغونه من الآراب ؛ فإذا بعد الأمل بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التى تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراء ، ويمضى فى طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالا إلى ما

يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش ، وعن هذا النظام من نظم الحياة ، خليق أن يجشمنا أهوالا ، ويحملنا هموماً ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا إذا عنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة التي تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يجمعوا إلى سخف الحديث حين يرتفع الضحى ، وإلى سخف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالإشراق؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكداً كدراً منغصاً ، لا صفو فيه ولا عفو ولا جمال . حسب الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتنأى عنهم قلوبنا ، وأن نرثى لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرعهم الآلام غصصاً ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساغة الشر الذى لا يساغ . وأقول هذا كله جاداً لا عابثاً ،

فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم ؛ والله قادر على أن يمس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب ؛ وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذى نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نريح أنفسنا ، وأن يريح بعضنا بعضاً من اللوم والنكير والتثريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله فى الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقى إرادة الله فيغرق فى الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء !

وقد يظن القارئ أنى قد أسرفت فى البعد عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أم تمام ؛ ولكنه يخطئ أشد الخطأ إن ظن بى هذا الإسراف ؛ وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بى هذا الإسراف ، فليس يعنينى من خطئه أو صوابه شىء ، وإنما الذى يعنينى هو أنى أنا لا أعتقد أنى أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث ، فقد قلت إن هذا الوباء الذى ألم بمصر أذكرنى من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسياً ، ثم ألح علىّ ذكرها إلحاحاً شديداً . وأكبر الظن أنى لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكراً متصلا ملحا ، ليقف منها عقلى

وقلبي موقف الناظر لما المحدق فيها ، دون أن يثير ذلك فى العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك فى القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك فى الضمير بعض الحزن . والكتاب البارعون فى الفن يؤخرون خواطرهم عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ ؛ فيجعلون من أنفسهم أساتذة فى الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارئ أشد منهم مكراً وأبلغ منهم دهاء ؛ وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والإرشاد والإصلاح أشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم فى حديثهم كله منذ يبدأونه إلى حيث يفرغون منه ، يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً ، فلا يكاد الأذكياء منهم يقرأون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرأون على كره أو يزورون عن القراء ازوراراً ؛ فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أعلم جاهلا ، ولا أريد أن أعظ غافلا ولا أن أنبه ذاهلا ؛

فلست من هذا كله فى شىء ، لأنى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكياء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول ؛ وقلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأنى لا أسىء الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكراهته ؛ فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأنى لست طبيباً ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأنى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الإعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلا ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ؛ وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أم تمام وأسرتها المعتزلة ، لأن أم تمام كانت تصور المحافظة الميامنة أبرع تصوير وأصدقه وأقواه ؛ فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى ، وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن فى الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن فى السماء عدلا يجب أن يهبط إلى

الأرض يملأها أمناً ودعة ورضا ؛ وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألفوا هؤلاء، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما استأنفوا من لعب، فإن مسهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وإن مسهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلا ، ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعاً؛ ولولا أن أم تمام كانت غارقة فى البؤس والشقاء ، ومسرفة فى الدمامة والقبح ، لقلت إنى اقتطعتها من نفسى اقتطاعاً ؛ ولكنى لست غارقاً فى البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال ؛ وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست منى فى شىء ، فيدله ذلك من غير شك على أنى لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له فى حياتها ولا فى حياة أسرتها أثر ما، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء.

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى أنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت

الضئيل الحقير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شىء بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى ؛ كان ضيقاً فى الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشىء من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه فى مصر الوسطى « بالطوف » ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها فى الجو شيئاً ، ويمدونها فى الفضاء شيئاً ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخيل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء ، إن كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل أن يقى الذين يأوون إليه برداً أو حرًّا أو مطراً . وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين ، وفى كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث همّ كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التى يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين ، وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم

عن مقدم أم تمام وبنيها إلى القرية وإقامتها فى هذا البيت، فلم أجد عند أحد منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية، دعتهم إليها الدائرة السنية ؛ ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان، أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلا أو أقل من القليل. وكانت سيرة أم تمام وبنيها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً من أمرها ، فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد ؛ فقد ينبغى أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ، فصورتها خليقة أن ترسم : كانت أم تمام قصيرة مسرفة فى القصر، منحنية مسرفة فى الانحناء، همت قامتها أن ترتفع فى الجو فلم تستطع أن تستقيم ، وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالإنسان ذى القامة المعتدلة والقد المستقيم ؛ وكانت من أجل هذا إذا مشت خيلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة، وكان مشيها بطيئاً رفيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عند ما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون ؛ وكان صوت أم تمام نحيلا ضئيلا ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا

في مشقة وجهد . وكان يعيش معها فى بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين ، وهو تمام ؛ وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلا ، وهو أبو العلاء . وكان تمام وأخوه يعملان فى البناء ؛ يحاول تمام أن يكون بناء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التى تتصل بعمل البنائين ، ويصيب الغلامان من هذا العمل الذى يتصل أحياناً وينقطع أحياناً أخرى ما يتيح لأسرتهما قوتاً يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهى سعدى التى كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها وجسمها كله اختصاماً شديداً ؛ يريد الجمال أن يستخلصها لنفسه مستعيناً بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها نفسه مستعيناً بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان ؛ وكانت الصبية بين هذين الخصمين أشبه شيء بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيما ، بل لم يعرف أحد كيف هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى مصر الوسطى ؛ وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيدة تنشىء بنيها الثلاثة وقد لقيت فى ذلك جهداً جهيداً وعناء شديداً ؛ لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى إلى قريتنا تلك إلا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم فى هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم فى هذه القرية أشهراً ، وفى هذه

القرية أسابيع ، وفى هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ؛ فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن أقل من جسمها ؛ فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به فى القرية قلت : ست آبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت : سيدة أبيها ، أو ست أبيها ، كما كان الناس ينطقون فى بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ، وكنا ننطق به على أنه لَيّ كلمة واحدة لا كلمتان ؛ وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنيها قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم إلى ذلك اضطراراً ؛ فقد كانوا يحتاجون إلى أن يشتروا الطعام ليقيموا أودهم ، وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تبيع ؛ فقد كان يعرض لها فى بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تلتقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس ، تقطعه قطعاً متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقروش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها ، ولم يخطر فيما أعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين

اللتين كانتا تكتنفان بيتها أن يبروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ، لا لأن الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة ، بل لأنهم فى أكثر الظن قد هموا أن يبروا هؤلاء الناس فردوا برهم عليهم فى شىء من التعفف الذى لا يُحَبُّ من الفقراء ، فكف الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم فى الرزق .

وأمثال أم تمام فى القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل فى دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلا من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة ؛ ولكن أم تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد حرجت على ابنيها أن يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة ؛ فلم يكن الغلامان يشاركان فى لعب ولا فى جد . وربما رآهما الراعون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان فى الأرض أو يلعبان لعبة « الطاب » ؛ وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها فى كل شىء وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس فى إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الإشفاق قاسياً — فيشتمل على شىء من شماتة . كانوا

يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة فى بعض الأيام، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل؛ وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع ؛ وكانوا يرون الصبية سعدى فى أسمالها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر فى هذا الغشاء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض : لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين ليناً .

أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة فى شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث ؛ وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظراً بشعاً وشكلاً مخيفاً.

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى ، ويفجع الناس فى أنفسهم وأبنائهم وذوى قرابتهم ومحبتهم ؛ وتكون أم تمام فى طليعة الذين يفجعهم الوباء ، فهو يختطف ابنيها فى أقل من خمسة أيام ، وهى مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالإعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ؛ وإنما هى مقيمة فى بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما

تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين .

ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه ، فإذا طال انتظار أم تمام له فى غير طائل ، نظر الناس فإذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت تبديلا ، فهى لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما تمسك فيه الصبية وتحرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هى مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملففة فى شقتها السوداء مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها فى تكلف شديد إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ، ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال تجذب الهواء بأنفها جذباً ، كأنما تحاول أن تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت تندفع إلى يمين أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا فى دار من هذه الدور التى ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين ؛ وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ولا تلقى إلى أحد سمعاً ، وإنما تقصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهى بها المجلس ، لا ترفع صوتاً بإعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها

ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت فى غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التى يتفجر عنها الصخر فى الجبال ؛ حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء فى هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ، ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار ، لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكى ابنيها ؟ أم كانت تبكى أبناء تلك الأسرة التى كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكى صرعى الوباء جميعاً ؟ أم كانت تبكى نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ؟ وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلا ولا كثيراً ، لم يحاول أحد أن يعينها ، ولم تحاول هى أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها فى منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلى غمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياماً ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت .

ويراها بعض أهل القرية ذات يوم قد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخذت بيد ابنتها ، وجعلتاتسعيان فى بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتى نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعاً ، قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها فى القناة الإبراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما ، ولكن الموت سبقهم إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية ؛ وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، فى هذه الدار أياماً وفى تلك الدار أياماً ؛ ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ، فهى ثقيلة على الذين يؤوونها ، بغيضة إلى الذين يضيفونها ؛ وما هى إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هى مشردة تسعى ما استطاعت السعى ، وتسكن حين تضطر إلى السكون ، تراها فى هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة ، وفى هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك فى الطريق العامة تسعى سعياً رفيقاً كأنها السلحفاة ، أو تعدو عدواً سريعاً كأنها الأرنب . وقد تراها أحياناً جالسة على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ، أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترقى إليها . وعرف الناس سعدى .

البلهاء ، ونسي الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها : يعطفون عليها حيناً ويضحكون منها أحياناً ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة من جمال ، وهي على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ، ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر في مكان ، وإنما هي متنقلة بين القرى ، تُرَى في هذه القرية يوماً وفي تلك القرية يوماً آخر ، وقد تُرَى في هذه القرية مصبحة وفي القرية المجاورة من قرب أو من بعد ممسية ؛ ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظراً عجباً من شأنه أن يمزق القلوب حزناً ويفرق النفوس حسرة وأذى ، يرون هذا المنظر المؤذي البشع البغيض ، فلا يثير في نفوسهم رحمة ولا يجري ألسنتهم بكلمة رثاء ، وإنما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التي تصور سخرية أهل الريف ؛ لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع في أحشائها جنيناً ، وهي بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها ؟ أ أتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه؟

ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشيء لأني لم أعرف من أمرهما شيئاً ، وإنما حدثتك بما وقف عنده علمي ، فقد ارتحلتُ عن القرية قبل أن تبلغني أنباء الجنين وأمه البلهاء ، ثم شُغِلتُ عن الجنين وعن أمه البلهاء، وأنسيت أم تمام وابنيها ، وتقلبت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شؤون الحياة خمسة وأربعين عاماً . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هي إلا أن أذكر أم تمام وابنتها سعدى البلهاء ، وما هي إلا أن أسأل نفسي أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم تمام وأشباه أم تمام ؟

يقال إن شؤون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن ؛ ولكن شؤون مصر التي تغيرت ، وحياة مصر التي صلحت ، لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر ؛ فمن يدري ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورقي النظام الاجتماعي والسياسي ، لا يمنع من أن توجد في قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جداً من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة تمام .

٥

رفيق

١

كان ذلك فى ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يجب أن يبطىء فى سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتاب ، ويمسكهم فى حياتهم تلك التى كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التى يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، والتى كانوا ينتظرونها متشوقين إليها ، لا ليرضوا حاجاتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجاتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجىء ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدى التى تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتاب فى ذلك الوقت أشبه شىء بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يُسمع من بعيد جداً ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التى لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التى أخذت تمتلىء لأن أصحابها

قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التى كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفى حظها من الامتلاء؛ وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة فى وقت واحد : تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها فى طبيعة الجرس ، وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملأ النفس روعة وطرباً .

فى هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفى ساعة أخرى من ساعات النهار حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها ؛ ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت دون أن يصفق تصفيقاً قوياً ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس ، فيعقد الألسنة عن النطق ، ويكف الأيدى عن الحركة ، ويعقل التلاميذ فى صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

فى ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقَّى الباب رجل تجاوز الشباب ولكنه لم يمعن فى الشيخوخة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذى تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة ، مهيب الطلعة ، ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه

راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ولا يشك فى شىء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب ؛ وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ؛ وإنما كان تركياً تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل فى وجهه وفى شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير فى نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه إكبار له وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رفيقاً ، فأما أحدهما عن يمينه فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن ، وأما ثانيهما عن شماله فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً ؛ فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط فى قريتهم ، صوتاً ضخماً عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعقلهم فى هذا السكوت الأبله ، وفى هذا

السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ، فإذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعود أن يفعل فى مهل وأناة، وقد رد التحية على صاحبها فى شىء من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه فى صدر المكان؛ وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل وأبى أن يجلس، وقال فى صوته ذاك المهيب المخيف : « إنى حديث عهد بهذه المدينة، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنىَّ هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما؛ فأما أحدهما فهو هذا — وقدم الصبى الذى كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فإنى قد وهبته للأزهر ؛ وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه فى الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم، وأحفظه شيئاً من القرآن، وخذه بشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً فى الكتاب كما هو عفريت فى البيت . » ثم دفع من فمه ضحكاً عريضاً ما أظن إلا أنه روع بعض القلوب فى صدور أولئك الصبية الصغار ؛ ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى » . ثم رفع يد سيدنا عن كتف ذلك الصبى ووضعها على كتف الصبى الآخر وهو يقول

متضاحكاً : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « أما الأزهرى فاسمه عثمان، وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتاب إذا كان الغد ؟» وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد ؛ ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فإنهما غريبان لا يعرفان طريق المدينة بعد وليست الدار قريبة من الكتاب » . ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المرعب المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن ترد عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ العشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى

عربيته التى تبرأ من الرطانة والتكسر ولكنها لا تمضى مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه ؛ بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا فى مشقة شاقة وجهد شديد ، وهى إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديداً ، وهى تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ؛ وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوروبيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له ، وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً فى الشهر أجراً لتعليم ابنيه » .

وكان فى الكتاب صبى لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء فى الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله فى صدره وحفظه فى نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صليت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمة : « إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد حتى كان الصبي قد تعرّف إلى زميليه فى الكتاب ، عرفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التى تستمتع بحظ من الامتياز ؛ ولأن هذا الصبي كان حافظاً للقرآن مجوّداً له فلم يتردد سيدنا فى أن يكلفه إقراء الصبي الأزهرى ؛ وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : « لقد وكلت إليك ذقنى ، فأحفظ هذا الصبي ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديد الكبير ؛ وقدر أنى وكلت إليك عملا كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبي فى نفسه شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئاً ، ووجد فى نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربى ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التى كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تركية ولا ينحدران من هذه الأسر التى تأتلف

من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبي على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن فى القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة فى تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التى يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهالكاً عليها ، يكاد ينسى فى سبيلها ما وكل إليه من إقراء هذا التلميذ ، لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة فى اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو أو أن يكله إلى العريف ؛ فكان ذلك يرده إلى القصد ويحمله على أداء الواجب. وكان النهار يمضى ساعة للقراءة وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميله متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبي قليلا وإلى بيت الزميلين غالباً ؛ وكان البيت أنيقاً مترفاً فى نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التى يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذى تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية

الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع فى السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد فى الفضاء وتكثر فيها الحجرات ، وكان الذى يفجأ الصبى من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضاً وإعجاباً ، أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذى ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما يمشى على أرض قد بسط فيها البلاط ؛ وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبى رضاً وإعجاباً أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لا يسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لهما يلعبان فيها ، وجمعت لهما فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسى ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق ؛ فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان فى الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغلين من الأطفال فيه ، كان لعباً مترفاً فى حجرة مترفة ليس للصبى بمثله عهد ؛ وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون فى حجرتهم تلك حتى تلم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة

العذبة ، ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث فى لهجة عربية غريبة ، ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء ؛ وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطئ يسحر نفس الصبى ويملأ قلبه فتوناً ؛ فأما الآنستان فقد كانت كبراهما تفيدة رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط ؛ وكانت أختها الصغرى إقبال جذوة من نشاط لا تنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها فى فمها ، وهى على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت فى لعبهم ؛ ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبى بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر ، ولكنه يرى ذات يوم فى الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن فى الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ، فقد خطبت تفيدة ، وما هى إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام فى الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا وقد استصحبوا

تقيدة ، ففقدت الدار من جمالها وبهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبى ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه فى اللعب ، ويخوض معه فى فنون الحديث ؛ ولكن محموداً يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبى إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه ، ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا بالصبى ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث ، ويقرأون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا أرب لهم فى قراءتها ؛ والصبى مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حيناً وفى دارهما حيناً آخر ؛ ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان فى شىء من الحزن وفى شىء من السخرية أيضاً بأن الضابط التركى القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع ، وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلط على الضابط الشيخ عظيم ، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقراً للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء.

الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتواصل واعتكافها في حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ؛ كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط وزوجته الشابة في طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة ، ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد ؛ وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذي أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا في اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفي هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفي خفوت تلك الأصوات التي كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفي سكون تلك الحركات التي كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا في هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لهما من سعادة ، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدي ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كانا يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة في القحة ؛ لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشيء وقاراً ؛ فالقبل تختلس في هذه الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة المحزونة ؛ ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب ، فينتهزان الفرص ليظهرا لها

سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها ، ثم يأتى النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت فى قلب أبنائها سعيراً أى سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة فى قبرها المتواضع من وراء النهر ، وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا ؛ وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر : أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن ، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر ، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون فى مختلف الأحاديث ، وإنهم لفى ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو ، سافرة لم تلق على وجهها نقاباً ، وقد اتخذت فى إحدى يديها حقيبة صغيرة ؛ فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته فى مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئاً رزيناً ، فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا هى تقول : « من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل

عزاء وإنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ، ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وإنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها فى الجهر ما لا يناله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرًّا ؛ وكنت فى القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت ، فأنكرت أذناى ولم يصدق قلبى ؛ ولكنى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى ، وفيهم كاعب وصبيَّان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض اليوم ؛ فإن رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين » .

ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وإنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة .

ولست أدرى ماذا كان من أمر الجمع المحتشدين بعد هذه الفضيحة ؛ ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة فى طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها، ويعفّى ما يقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبى من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أسرة بنفسها عن غيرها ، وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه ؛ ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبى طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه، وصوتاً يمس أذنه ، وتقع فى نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرنى ! لقد كنت معك فى الكتاب أنسيت العفريت ! » .

بلى ، لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه ، وقد استأثر من قلبى ذاك الناشىء بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبى أولئك الذين عرفتهم فى الكتاب أو عرفتهم خارج الكتاب ، أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا فكانت عشرتى لهم طويلة أو قصيرة .

بلى لم أنس العفريت ، وقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة لأطلب العلم فى الأزهر الشريف ، بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رث ، وأصل منها ما انقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وأنميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير ؛ ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ ، دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيراً ؛ ولم أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما ، ولو قد سألت لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسى أن أسأل ، وما أقل ما كنت أبيح لنفسى السؤال ! وما أكثر ما صرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ، ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى هذا السؤال ، فحفظت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسى حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل علىّ العفريت ذات مساء فست يده

كتنى ، ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسى ؛ واستأنفنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة ، يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار ، لا فى داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب ؛ ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ، ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار ؛ ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر ؛ فأحسست أنه يستحى من أسرته ، فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادة الثانوية والتحق بالجامعة ؛ وكنت أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علىّ بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكننى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين ، وقصة « كانديد » . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد

أن نفرغ مما أردنا إليه ؛ ولست أعرف ما هذا الذى أردنا إليه، ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه ، وأنا كنا بعيدين عن دارى قريبين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود إلى دارك فى ضحى الغد . » وقد أجبته إلى ما أراد ، فدرنا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ؛ فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيما من « كانديد » ، ولم نم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه، فلما كان ضحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار ، وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلىّ من أمر أسرته بشىء .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً ؛ فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار . وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا ، وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن تتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع ؛ ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حمى

التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارئ ما وقع فى نفسى من حزن ولوعة ؛ فإنى لم أكتب هذا الحديث لشيء من هذا ، وإنما أذكر أنى سعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لى إنه دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقى وقتاً طويلا وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدى إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ؛ فلم نهتد إلى هذا القبر ؛ فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين ؛ وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقى يهون على وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البكا
رفيقى لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قـــبر رأيته
لقـــبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى
فدعنى فهذا كله قبر مالك

٦

صفاء

« كان ذلك ممكناً فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الأمور ،وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء، إلى نور النعيم والرخاء ، فلست أحب أن أخوض ، ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفاً أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، وأشعل سيجارته فى شىء من أنفة ، ونهض فى شىء من كبرياء ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيهما أحداً . وظلت حنينة صامتة مبهوتة ، ثم كفكفت دموعاً كانت تريد أن تسيل : ثم حزمت أمرها وقدرت فى نفسها أنها ستراجع ابنها فى هذا الحديث، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شىء .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغى أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت إلى القراء هذه الجملة الغامضة التى لا يُذكر فيها الفاعل ولا المبتدأ إلا متأخراً ، لأثير فى نفوسهم هذه الغرابة التى تدعو إلى الاستطلاع ؛ ثم ذكرت بعد هذه الجملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد

حاجة القراء إلى هذا الاستطلاع ؛ ثم فرقت بين الأم وابنها على هذا النحو الغريب المريب ، فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يتصل وتحرص الأم على أن يتصل ، وهذا الحديث يمس الماضى المنكر الذى خرجت منه الأسرة ، ويريد الفتى أن تنساه ، وتريد الأم أن تفى له وتحرص عليه ، وآية ذلك أنها تكفكف الدمع وتقدر فى نفسها أنها ستعود إلى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، أو حين يسفر الصباح ، وأكبر الظن أنها تؤثر أن تتحدث إلى ابنها فى أول النهار حين يجلس إلى فطوره هادئ النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من أعمال يومه الجديد شيئاً ، ولم يتح له بعد أن يذكر من أعمال أمسه القديمة شيئاً ؛ ذلك خير من التحدث إليه فى المساء ؛ فهى قلما تخلو إليه فى المساء لأنه يروح إلى داره عجلا ، فيصيب شيئاً من طعام مع الأسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عجلا ليلقى أترابه وأصحابه ، فيسمر معهم شطراً من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحيه على الأسرة كلها فأغرقها فى سبات عميق .

ومن حق القارئ بعد هذا كله أن يعرف حنينة ونصيفاً ، وأسرة حنينة ونصيف ، وهذا الماضى القاتم الذى يكره الفتى أن يستبقى منه شيئاً ، وتحرص الأم على أن تستبقى منه بعض الأشياء .

ولست أكره أن أؤدى للقارئ حقه فى هذا إن قبل أن ينتقل معى فى الزمان والمكان جميعاً ؛ وما أطلب إليه أن ينتقل معى إلى زمان مسرف فى القدم ، أو إلى مكان مسرف فى البعد ، وإنما نريد أن نعود إلى أول هذا القرن ، وأن نترك القاهرة إلى مدينة من مدن الأقاليم فى مصر الوسطى . فقد ينبغى لكل قصة أن يكون لأحداثها زمان ومكان يختارهما الكاتب أو تختارهما الأحداث نفسها . والشىء الذى أؤكده للقارئ هو أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما أنى لم أختر ولم أكن أستطيع أن أختار أشخاص هذه القصة وأحداثها ؛ وإنما اختارت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص ، وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجرت من الأحداث ، وأرادت أن يكون هذا فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ، وأن أشهد القصة وأتأثر بها أشد التأثر وأعمقه ، وأن أدخرها فى نفسى لشىء لم أكن أعرفه حين شهدت القصة وادخرتها ، وقد أخذت أعرفه الآن حين بدأت أملى هذا الحديث ؛ فأنا إنما شهدت القصة وادخرتها لأتحدث بها إلى قراء هذا السفر ، بعد أن مضى على أحداثها ؛ ما يقرب من نصف قرن .

بل أكاد أقطع بأنى لم أختر ، ولم أكن أستطيع أن أختار ، أن أتخذ هذه القصة موضوعاً لهذا الحديث ، وإنما هى التى اختارتنى لتصل من طريقى إلى القراء ؛ ولست أستطيع أن أبين

لذلك سبباً ؛ لأنى لا أستطيع ، والقارئ نفسه لا يستطيع ، أن أسأل القصة عن السبب الذى من أجله اختارت أن تذاع فى هذه الأيام ، والذى من أجله اختارت أن تذاع من طريقى أنا ، ومن طريق هذه المجلة التى أكتب فيها .

وإنما أرى أنى قد فرغت أياماً وأياماً ، لموضوع من موضوعات الأدب الفرنسى ، وجعلت أدرسه وأستقصيه لأتخذه موضوعاً لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك أكثر ما كنت أريد ، إن لم أكن بلغت كل ما كنت أريد ، وجلست إلى صاحبى لأملى عليه ما قدرت إملاءه ؛ ولكن صاحبى لا يسمع منى حديثاً عن شىء يتصل بالأدب الإفرنسى من قريب أو بعيد ، وإنما يسمع منى بدء هذا الحديث ، ويهم أن يراجعنى ، كما همت حنينة أن تراجع نصيفاً . ولكنى أعرض عنه بوجهى ، وأنأى عنه بجانبى ، أشعل سيجارتى فى شىء من حزم ، وأمضى فى الإملاء ، فيمضى هو فى الكتابة ؛ ويظهر أمامى أشخاص هذه القصة مزدحمين أشد الازدحام ، ملحين أعظم الإلحاح ، كلهم يريد أن يسبق إلى مكانه من هذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموه ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا به ؛ فهم يريدون أن يستيقظوا ، وهم يريدون أن أذكرهم أنا ، وأن يذكرهم القراء . وأن يستردوا بذلك شيئاً من حياة ، وإن كانت حياتهم تلك الأولى لأهون وأشق من أن يفكر فيها أصحابها ، ومن أن

يحرصوا على أن يستردوا منها نصيباً قليلا أو كثيراً .

وهؤلاء الأشخاص كثيرون بعض الكثرة ؛ فلا بد من أن أصطنع شيئاً من النظام الحازم لأردهم إلى بعض القصد ، ولأظهرهم فى أماكنهم المقسومة لهم من هذا الحديث. وأماكنهم هذه لم أقسمها أنا لهم، وإنما قسمتها لهم حياتهم الأولى نفسها؛ فهم يؤلفون أسرتين قبطيتين من أسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين قد أنشأ الجوار بينهما ما ينشئ عادة بين الجيران من المودة والألفة ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم فى غير تكليف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك فى لذات الحياة وآلامها ، وفى مسرات الحياة ومساءاتها ، وفى هذه الأحداث التى تحدث ، والخطوب التى تلم ، والنوائب التى تنوب .

وكانت أسرة المقدس ميخائيل تادرس فى دار ليست بالمسرفة فى السعة ، وليست بالمسرفة فى الضيق ، وإنما هى دار متوسطة ، تألفت من حجرات قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الضر ، ولا يظهر عليها ما يلفت إليها أحداً . كانت داراً متواضعة وإن لم تكن حقيرة ، وكانت تقوم فى أول الشارع مما يلى القناة على منحدر يسير يكلف الساعى إليها قليلا من الجهد ، فينحدر إليها إن جاء من هذه الناحية ، ويصعد إليها إن جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى إليها سعياً هيناً على كل حال؛ وكان المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ،

قد اتخذ له حانوتاً يبعد عن داره بعض البعد ، يبيع فيه سقط المتاع من هذا الخرز الذى يتخذ الفقراء منه عقوداً يتحلى بها النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون الذى يتخذ النساء منه أساور أو دوائر مفرغة يدخلن فيها سواعدهن ، أو يدخلنها فى سواعدهن ، ويبهرن أنفسهن كما يبهرن الرجال بألوانها الزاهية ورنينها الحلو ، وشيئاً من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن حين يتفضلن، وزينتهن حين يتبرجن .

وكانت لحانوته شهرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التى كان النساء يدرنها حول رؤوسهن ، فيفتنّ بها الرجال ويسحرن بها عيون الشباب ؛ وكان المقدس ميخائيل يفيد من تجارته هذه اليسيرة ما يتيح له أن يكفل لأهله حياة إن لم تكن رخية كل الرخاء فلم تكن ضيقة كل الضيق ، وإنما كانت شيئاً بين ذلك، يسمح لهذه الأسرة أن ترى نفسها من الطبقة المتوسطة وأن تطمح إلى ماتطمح إليه هذه الطبقة من الآمال التى كانت فى ذلك الوقت متواضعة أشد التواضع .

ولم تكن هذه الأسرة ضخمة ولا كثيرة العدد ، وإنما كانت تأتلف من ميخائيل ، وزوجه حنينه، وابنهما نصيف ، وابنتهما صفاء ؛ وواضح أن هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا النحو الفصيح ، وإنما كان ينطق به مقصور الألف لا ممدودها ، وكان النطق به يثير فى نفوس السامعين أنه مستعار من تلك

الغدائر المعدنية التى كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويُسمع لها حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الآذان .

وقد طمع ميخائيل أن يرفع ابنه عن المنزلة التى كتبت له هو فى الحياة ، فلم ينشئه فى التجارة ليخلفه فى الحانوت حين تقعد به السن ، وإنما أرسله إلى المدرسة المدنية ، بعد أن اختلف إلى الكتاب القبطى عاماً وبعض عام ، وأضمر فيما بينه وبين نفسه ألا يكتفى بالمدرسة الابتدائية ، وأنه يرسله إذا استطاع إلى القاهرة ليتعلم فى بعض مدارسها ، وليكون موظفاً من موظفى الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقاً جديدة غير الطريق التى سلكها هو وسلكها أبوه من قبله .

وطمعت حنينة فى أن ترفع ابنتها عن المنزلة التى قسمت لها هى فى الحياة ، فأرسلتها إلى « المعلمة » كما كانت الأمهات فى الطبقة المتوسطة يرسلن إليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنوناً من التطريز والتدبيج ، والتأنق فى التفصيل وصناعة الأزياء .

وقد اختلف الصبى إلى المدرسة ، واختلفت الصبية إلى المعلمة ، ورضيت الأسرة عن نفسها وعن تربيتها لابنيها أعواماً . وظفر الصبى بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، وأخذت الصبية من فنون المعلمة ما استطاعت أن تأخذ ؛ ونظرت الأسرة فإذا هى مضطرة أن ترسل الصبى إلى القاهرة ، وإلى أن تمسك الصبية

فى الدار . والله يعلم ما تكلف المقدس ميخائيل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى إليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد . وقد ألحق الفتى بمدرسة ثانوية ، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، عاماً وعاماً وعاماً دون أن يصيب فيها نجحاً ، وإنما هى السنة الأولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة إلى فصله لكثرة ما أخفق ، فيلحق بالمدرسة القبطية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تتلقى من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المخفقين ، أو من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، أو من تقصر أيدى آبائهم عن أجور التعلم فى مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون ألا أن يتعلم أبناؤهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم أن يجدوا لأنفسهم مكاناً فى مدرسة من المدارس العالية ، أو عملا فى ديوان من الدواوين. وقد أقام نصيف فى المدرسة الحرة عاماً وعاماً ولكنه لم يصب فيها نجحاً كما لم يصب فى المدرسة الحكومية نجحاً ، وثقلت النفقة على أبيه ، وثقل الحزن على أمه ، وضاق الفتى بأبيه وأمه ونفسه أيضاً ، وإذا هو يقترح على أبويه ذات عام أن يتحول عن التعلم الثانوى الذى لم يخلق له ، إلى تعلم آخر يسير قريب ، لا يحتاج إلى كثير من ثقافة ، ولا إلى إلحاح فى عمل ، ولا إلى فضل من جهد ، ولا إلى طويل من وقت . وإنما هو عام أو بعض عام ، ثم يتقدم الطالب

إلى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصباً من مناصب الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف، وما هى إلا أن ينفق فيها الفتى عاماً أو أقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب ما أراد من نجح ، ويعود إلى أهله ومعه الدبلوم قد لفه لفاً أنيقاً ، ووضعه فى حرز أنيق اتخذ من الصفيح . وجعل الأب ينظر إلى الدبلوم يحاول أن يقرأ ما فيه ، وجعلت الأم تنظر إلى الدبلوم تعجب بزينته، واختصم الأبوان بعض الاختصام أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ، أتدسها الأم بين ثيابها ، أم يخفيها الأب فى درج من أدراج مكتبه القديم؛ ولكن المهم هو أن المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه، فأنفق أكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة أكثر مما كانت سنه تستطيع أن تحتمل، وباع فى سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحلى المتواضع ، واضطر الأسرة إلى شىء من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذى لا يطاق ، لولا شىء من فسحة الأمل . ولم يدرك الفتى ما أدرك من نجح حتى كان المقدس الشيخ مضطراً إلى أن يقعد فى داره ، وينتظر الرزق من هذا المرتب الضئيل الذى كانت الدولة تجريه حينئذ على الموظفين فى البرق أول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الدولة بخيلة حقاً فى تلك الأيام؛ فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة

والتمرين ، ويؤجر فى أثناء ذلك ثلاثة جنيهات فى الشهر ، لا تحسب له جملة ، وإنما تحسب له مياومة أثناء التمرين، عشرة قروش فى اليوم لاتزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حرًّا فى اختيار مكتب البرق الذى يعمل فيه ؛ ومتى كان عمال الدولة وموظفوها أحراراً فى اختيار المكاتب التى يعملون فيها ؟ إنما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضى النظام أن يرسلوا ، فأرسل الفتى إلى أقصى الصعيد ، وأقامت أسرته فى أدناه ، وجعل الفتى يقبض أجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه إلى أسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت أسرته أن الآمال لا تصدق أصحابها دائماً ، وإنما تكذبهم فى كثير من الأحيان ؛ فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصباً من مناصب الدولة ، وأصبح فرداً ممتازاً من هذه الطبقة الممتازة، طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيراً بائساً محتاجاً ، وما زالت أسرته متوسطة ترد إلى الفقر يوماً بعد يوم ، وتدفع إلى الضيق عاماً بعد عام ؛ والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة، والامتياز يكلف أصحابه كثيراً من المال ؛ فلا بد من أن يعيش الفتى بين أترابه عيشة ملائمة ، ومن أن يتخذ من الزينة ما يلائم طبقته ، ومن أن يحيا حياة لا ينظر إليها أترابه فى شىء من الاستخفاف به أو الاشفاق عليه ؛ وكان هذا كله يرهق الفتى من أمره عسراً ، وربما اضطره بين حين وحين إلى ألا

يرسل إلى أبويه ما تعود أن يرسل إليهما من النقد ، أو أن يرسله إليهما منقوصاً ؛ فكان هذا يحفظ الأسرة ويغيظها ويضنيها ؛ فلم تكن حاجتها إلى الحياة الملائمة بأقل من حاجة الفتى ، والفتى وحيد ، وهى أسرة مؤلفة من أشخاص ثلاثة ، فحقها أن يرسل إليها أكثر المرتب ، وأن يكتفى الفتى بأقله ؛ فكيف إذا لم يرسل إليها إلا أقله ! وكيف إذا لم يرسل إليها شيئاً ! وهى بعد ذلك قد أفنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت فى سبيل هذا الفتى ؛ فانظر إلى الأبناء كيف يجحدون حقوق الآباء ، وانظر إلى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ ، وانظر إلى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرون أنفسهم بالخير ويختصونها باللذات ويتركون آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم يشقون بالنقص فى الأموال والثمرات ، بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك أنفقت الأسرة بعد نجح ابنها فى الامتحان وظفره بالمنصب أعواماً ، ذاقت فيها من البؤس المادى والمعنوى ما لم تذقه حين كان الفتى صبياً يختلف إلى المدرسة الابتدائية ، أو غلاماً يختلف إلى المدارس فى القاهرة .

أما الأسرة الأخرى فأسرة المعلم يونان . كان زعيمها كاتباً متواضعاً فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً على دفاتره ، أو محاسباً للناظر ، أو مراقباً للمعاون ؛ ويعود إلى أهله آخر النهار راضياً عن نفسه ولكنه متعب مكدود ، فلا يكاد يصيب معهم

شيئاً من الطعام ويسمر مع جاره شيئاً من سمر ، حتى يأوى إلى مضجعه وقد بلغ الإعياء به أقصاه ؛ ثم لا يكاد الصبح يتنفس حتى يراه فى الطريق العامة غادياً على عمله فى الدائرة أو فى الحقول . وكان الأجرِ الذى يصيبه من هذا العناء قليلا ضئيلا لا يكاد يقيم الأود لأسرة تألفت من ثلاثة أشخاص ، هم المعلم يونان ، وزوجته مرجانة ، وابنهما عبد السيد .

وكان المعلم يونان رجلا متواضعاً ، لا يرفع نفسه عن طبقته ، ولا يحاول أن يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وإنما حاول أن يعلم ابنه مهنته هو ، ليكون كاتباً فى الدائرة ، كما كان هو كاتباً فى الدائرة ، وكما كان أبوه من قبله كاتباً فيها أيضاً . وكان أقصى همه أن يحسن الصبى الأخذ عنه والاقتداء به ، حتى إذا أدرك أول الشباب استطاع أن يعينه على عمله ، وأن يلتفت إليه المأمور لعله أن يرضى عنه ويعطف عليه ؛ فيأجره قرشين أو قروشاً فى اليوم تعين الأسرة على احتمال أعباء الحياة . ولكن الصبى لم يكن ذكى القلب ، ولا محبًّا للعمل ، وإنما كان كلاًّ خامداً ، يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فإن لم تسنح له آثر حياة هادئة هى إلى الذهول أقرب منها إلى أى شىء آخر ؛ وكان ذلك يغيظ أباه ويحفظه ويدفعه أن يقسو عليه أحياناً ؛ ولكنه كان وحيد أبويه ، فكان المعلم لا يعنف به إلا ليرق له ، ولا يشق عليه إلا ليرفق به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض بأعبائه ، والفتى يتقدم فى العلم بمهنة أبيه متباطئاً متثاقلا ؛ حتى إذا اضطر الشيخ إلى القعود فى داره كان الفتى أجهل وأكسل من أن يقوم مقامه ، فلم تستبقه الدائرة إلا رعاية لحق أبيه ورفقاً بأسرته ، ولم تمنحه من أجل ذلك إلا نصف ما كانت تمنح أباه من الأجر .

واضطرت مرجانة أن تبرح الدار ، وتسعى بعض السعى على شيخها القاعد لترزقه ، وعلى ابنها الخامد لتعينه ؛ فجعلت تسعى إلى القرى القريبة تشترى من أهلها ما يريدون أن يبيعوا من جبنهم وزبدهم ، تحمل فى ذلك قصعة ضخمة ، وتغطيه بشىء من العشب الأخضر الرطب يحفظ عليه رطوبته ويجذب إليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما يتيح لها شيئاً من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان إليه .

وقد سعت الأسرتان المتجاورتان فى طريق واحدة إلى الضيق ، ثم إلى الضيق الشديد ؛ ثم إلى الإعدام والحرمان ، فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعدان للبطالة والحديث . وجعلت مرجانة وحنينة تلتقيان حين يسفر الصبح وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على أثقال الحياة ، وتتجاذبان أطراف الحديث كما يقال ، وجعلت صفاء (بألفها الممدود أو المقصورة) تلقى عبد السيد يغدو إلى عمله فى الدائرة ،

وحين يروح من عمله إلى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هذه الأحاديث الفارغة ، التي لا تؤدى شيئاً ولا تدل على شىء ، وإنما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم.

ولكن الشاب ماكر ماهر ، ينتهز الفرص ، ويختلس الوسائل اختلاساً ، فهو يشيع فى هذه الأحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريد أن يملأها ، فيعجزه ذلك فى أول الأمر ، ولكنه لا يعرف العجز ، ولا اليأس ولا الإخفاق ، وإنما هو ملح دءوب ، يخطئه النجح هذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة ، وهو يسلك إلى غايته طرقاً مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها إلا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان الفارون من تمحيص الحياة وتعليم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فإذا الشباب يجرى فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من أذن عبد السيد وقلبه موقعاً غير مألوف ؛ وحركة يأتى بها عبد السيد ، فإذا الشباب يجرى فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعاً غير مألوف ؛ وإذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها ، وإذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها . وإذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلقاه ، ومشغول بصاحبه حين ينأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر

النهار ؛ وإذا اللقاء الذى كاد يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئاً تدبر له الخطط وتبتغى إليه الوسائل ؛ وإذا الحديث الذى كاد يكون بينهما فارغاً ليس وراءه شيء ، قد جعل يصبح مليئاً وراءه كثير من الأشياء ، وإذا الأسرتان تلحظان أن لهذين الفتيين شأناً ، فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، ثم تبتسم قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين ، ثم يتحدث المقدس مبخائيل إلى حنينة ، ويتحدث المعلم يونان إلى مرجانة ، ولا تقول إحدى الأسرتين للأخرى شيئاً ، وإنما تنتظر كلتاهما أن تكون الأخرى هى التى تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يثور فى نفوس الشيوخ من خواطر ، ولا بما يضطرب فى عقولهم من تفكير ، وإنما هو ماض لغايته لا ينظر إلى وراء ، وإنما ينظر إلى أمام ، وإلى أمام دائماً ، حتى لا يلفت الأسرتين وحدهما إلى نفسه وإلى ما أحدث من صلات ، وإنما يلفت أسراً أخرى من الجيران . وهناك يتنبه الشيوخ ؛ فتتحدث مرجانة إلى حنينة ، ويتحدث المعلم إلى المقدس ، وتصبح الخطبة شيئاً مقرراً متفقاً عليه .

ونصيف مقيم فى غربته تتقاذفه المدن فى أعلى الأرض وفى أسفلها ، وقد ثبت فى منصبه فلم يقبض أجره مياومة ، وإنما أصبح موظفاً بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه

حتى بلغ أربعة جنيهات ونصف جنيه، يحسم منها المعاش آخر الشهر، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال، إلا أنه لم يزد وحده، وإنما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفاً مثبتاً . زاد مرتب الفتى ، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد وإنما ظل كما كان : يصل إليهما أحياناً كاملا ، وأحياناً منقوصاً ، ويتخلف عنهما بين حين وحين .

ويقبل الفتى ذات يوم فى إجازة من إجازات الموظفين ليرى أسرته، فترى المدينة منه شاباً رشيقاً أنيقاً لم تعرفه من قبل ، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين أبناء الزراع والتجار ؛ ويرتفع رأس المقدس حين يرى إعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به ، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع أو ذاك ، وبهذه الحارة أو تلك ؛ ويمتلئ الفتى بنفسه تيهاً وإعجاباً حين يرى تهافت الناس عليه وسعيهم إليه ، يحييه بعضهم من قريب ، ويحييه بعضهم من بعيد ، ويعجب به أولئك وهؤلاء، ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئاً من الكبرياء ، فينكره بعض الناس فى قلوبهم ، وينكره بعض الناس بألسنتهم . ويشفق الأب والأم على ابنهما من حسد الحاسدين ، ويتمنى الأب والأم أن يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به وليتنعما بمحضره ، ويتمنيان مع ذلك أن يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد

الحاسدين . ويعود الفتى بعد أيام إلى عمله ، وقد رضى عن نفسه ورضى عنه أبواه ، ورضى عنه أكثر أهل المدينة وضاق به أقلهم . وكأنما ألم الفتى بهذه المدينة إلمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه للمرة الأخيرة ؛ فما يكاد الفتى يسافر وتمضى على سفره أيام حتى يحس المقدس من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت إليه ؛ ولكن الضعف يزداد ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر إلى لزوم داره ، ثم إلى لزوم فراشه ، ثم إلى فراق هذه الدنيا . ويعود الفتى مرة أخرى إلى المدينة حزيناً كئيباً ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيداه إلا رشاقة وأناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلاباً لحبهم له وعطفهم عليه ؛ فقد ذهبا بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، ورداه إلى شيء من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شيء فقد ألقى فى روع الفتى أنه أصبح بعد موت أبيه رجلا يحتمل التبعات وينهض بأعمال الأسرة . وقد واجه التبعات والأعباء مواجهة حسنة ، فشمل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره فى السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التى كان يعمل فيها ، إلى مدينته هذه التى تقيم فيها أسرته ؛ وإذا هو موظف فى مكتب البرق بالمدينة يقيم فى أسرته ويرعاها ،

ويقوم منها مقام أبيه .

وتمضى أمور الأسرة كما تستطيع ، أو على خير ما تستطيع ، فقد أقام الفتى فى داره وعاش مع أهله ، ودبر أمره خيراً مما كان يدبره أثناء الغربة ، فاستقامت له ولأهله حياة لم تكن تستقيم لهم من قبل . وكم تمنت حنينة — لو كان ينفع التمنى — أن يعود المقدس فيشارك فى هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد برؤية ابنه غادياً على العمل أو رائحاً إلى الدار ، فى زيه ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذى يملأ القلوب روعة ورضاً .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه فى مكتب البرق ، وبزملاء آخرين يعملون فى المحطة ، وبجماعات أخرى من الموظفين يعملون فى المحكمة أو فى مكتب البريد ؛ وإذا هو يرقى بأسرته حقاً إلى هذه الطبقة الممتازة التى طالما ود أبوه لو يرقى بها إليها ؛ وإذا هو ممتاز بين هؤلاء الموظفين الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل فى قهوة ذلك الرومى التى كانت تقوم على شاطئ القناة قريباً من المحطة ، والتى كان الموظفون ، ولا سيما الشباب منهم ، يسعون إليها حين يدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين لاعبين مداعبين حتى يتقدم الليل .

وفى ذات صباح يجلس الفتى إلى فطوره وأمه إلى جانبه

تنظر إليه وتعجب به ، وأخته صفاء قائمة بين يديه تخدمه ، تذهب وتجيء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الإناء ، وإذا الفتى يحتال حتى يبعد أخته ، ويخلو إلى أمه فيلقي إليها فى همس سريع أو سرعة هامسة ، أن زميله فلاناً يخطب إليه أخته ، وأنه سعيد بهذه الخطبة ، يرى فيها مزيداً من رقى وفضلا من رخاء ؛ فهذا الزميل فتى كريم من أسرة كريمة ، قد فقد أبويه ، فهو إذن سيد نفسه ، وهو يقبض فى آخر الشهر مرتباً كالذى يقبضه هو ، وهو يريد أن يكون له أخاً ؛ وإذا قبلت خطبته وتم زواجه فسيعيش فى الدار ، وسيكون لأمه ابناً ثانياً ، وسيجتمع المرتبان ، وستغرق الأسرة فى نعيم ورخاء لم تكن لترجوهما أو تفكر فيهما . وتسمع الأم هذا الحديث فيقع من قلبها موقعاً غريباً فيه كثير من الإغراء ، ولكنه يثير كثيراً من الحزن والخوف والأسى ؛ فابنتها مخطوبة أو كالمخطوبة لجارها الفتى ؛ قد ذهب زوجها إلى الدار الآخرة وهو مقرٌّ لهذه الخطبة راض عنها مغتبط بها ، وفى نفس ابنتها شيء من هذا الفتى الجار ، ليس فى ذلك شك . ثم تثوب الشيخة إلى نفسها بعد أن شكت غير طويل ، وتقول لابنها فى صوت هادئ رزين : وددت لو كان ذلك يابنى ، ولكن أختك مخطوبة أو كالمخطوبة ، قد أحبها جارنا عبد السيد ، وكأنها تحبه ، وقد تحدثنا فى خطبتهما وقبلها أبوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث أمه حتى تأخذه

الكبرياء ، ويعاوده الاعتداد بالنفس ، ويقول لأمه فى صوت المغضب الذى كادت تخرجه الموجدة عن طوره : « كان هذا فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فما أحب أن أخوض ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » ثم يشعل سيجارته فى أنفة وينهض فى كبرياء متثاقلة ، وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فيهما أحداً .

وقد صبرت حنينة نفسها عن هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه إلى ابنتها ، وأزمعت أن تراجع فيه ابنها ؛ وراجعته مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشيء ولم تلق منه إلا ازوراراً وإعراضاً ، حتى أنذرها ذات يوم بأنها إن لم تذعن له فسينتقل من هذه المدينة كما انتقل إليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة المشردة ، وسيتركها تعيش مع ابنتها فى ظل هذا الفتى الغافل الذى لاغناء فيه ، وسيرسل إليها ما يستطيع أن يرسل إليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل فى حياة أبيه .

ولم تتعود الأمهات فى مثل هذه البيئة مقاومة أبنائهن ، وإنما تعودن الإذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون . والفتى يقوم مقام أبيه ، فهو سيد الأسرة وصاحب الأمر والنهى فيها ، لا ينبغى أن يلقى منها مقاومة ولا اعتراضاً ؛ فما أيسر ما تذعن حنينة لابنها ، وما أسرع ما تحاول أن تحمل صفاء على الإذعان ؛ وصفاء ليست فى حاجة إلى أن تحمل على

الإذعان ، فهى مذعنة بطبعها لما يريد أخوها ولما تحب أمها . ومتى استطاعت الفتيات أن يخالفهن عن أمر الإخوة والأمهات !

هى إذن مذعنة الإرادة ، ولكنها ثائرة القلب ؛ وقد بذلت حنينة جهداً غير قليل لتغرى ابنتها بمثل ما أغراها به ابنها من الرخاء والنعيم، وارتفاع المنزلة ، وامتياز الطبقة ، وبما سيتاح لها من زينة وترف لم تكن لتظفر بهما لو اقترنت إلى هذا الفتى المتواضع الفقير الذى لا يكسب قوته إلا بالجهد والمشقة ، وسعى أمه لتعينه على تحصيل ما تحتاج الأسرة إليه؛ وكانت صفاء تسمع لهذه الأحاديث ، فتذعن إرادتها ويثور قلبها ، وتحاول أن تظهر الرضا فلا تجد إلى إظهاره سبيلا .

ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنينة إلى دار مرجانة ، ثم إلى غيرها من الدور ، ويصبح حديث أهل الشوارع ، ثم حديث من يعرف الأسرة من الناس ؛ فأما مرجانة فتسمع ولا تقول شيئاً، وأما المعلم يونان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على أن يقول : وأين يكون ابننا من هذا الفتى ، وابننا كاتب لا يكاد يكسب قوته، وهذا الفتى موظف ممتاز ! وأما الناس فأقلهم يغبط صفاء وأكثرهم يحسدها ؛ وأما عبد السيد فيثور ويثور وينذر مرة باقتراف الجريمة ، ومرة أخرى بقتل نفسه ، ثم يرد إلى هدوء منكر من ورائه شر عظيم .

فهو يغدو ويروح بين أهله وعمله قد انطوى على نفسه ،

وأنطوت نفسه على ما فيها ، فهو لا يتحدث إلى احد فى هذه الخطبة المعلنة ، وفى هذا الزواج المنتظر ، ولا يحب أن يتحدث إليه أحد فيهما ، وإذا تحدث الناس إليه فى شىء من ذلك أعرض عن الحديث ولم يلق إليه بالا ، كأنه غريب عن هذه البيئة التى يعيش فيها ، لا يعنيه شىء مما يفعل الناس حوله أو يقولون .

وقد كانت مرجانة تهيء نفسها لتفيض على ابنها شيئاً من عطف ، وفضلا من حنان تريد أن تعزيه عن محنته ، وتواسيه فى هذه الملمة التى نزلت به فبغضت إليه الحياة وألقت بينه وبين الأمل حجباً صفاقاً وأستاراً كثافاً ، ولكنها لم تر من ابنها حزناً ، ولم تسمع منه شكاة ؛ وحاولت أن تنفذ إلى ذات نفسه فلم تبلغ مما حاولت شيئاً ، وظنت آخر الأمر أنها أكبرت من هذا الأمر صغيراً ، وعظمت منه حقيراً ، وأسرفت فى حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يحب ويسعد بالحب ، وأن هذه الخطبة قد ردته من الكآبة والحزن واليأس إلى ما لا يطاق ؛ ولكنها تنظر فترى ابنها ساهياً لاهياً ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشىء ، ولا يظهر عليه ما يدل أنه حزين أو يائس أو كئيب ؛ فقد كان الفتى عابثاً فى حبه إذن ، وهو الآن غافل بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع

فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك فى أن مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها ولهوه وغفلته ، وإنما آذاها ذلك فى نفسها ، وأضاف إلى حزنها القديم حزناً جديداً ، وإلى ما ألفت من خيبة الأمل فى فتاها الذى لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديد فى فتاها الذى لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به أسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى ؛ وهى ترد عطفها وحنانها ورحمتها وإشفاقها إلى نفسها البائسة الكئيبة التى كانت تريد أن تجد شيئاً من الرّوح فى إظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والإشفاق . ولست أدرى بأى الأمرين كانت مرجانة أشد تأذياً : بخيبة أملها المجددة فى ابنها الوحيد، أم بما اضطرت إليه من كبت عواطفهما ورد نفسها إلى الإجداب بعد أن كادت تخصب ، وإلى الفقر بعد أن كادت تغنى ، وإلى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شىء أدفع لنفوس الأمهات إلى اليأس القاتل من هذا الحرمان الذى تُرد إليه رداً وتكره عليه إكراها ؛ فما نفس الأم إذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للألم ؟ وما نفس الأم إذا لم تجد الرضا والغبطة والإعجاب حين يأتى ابنها بما يدعو إلى الرضا والغبطة والإعجاب؟ وهذه مرجانة قد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به

منذ وقت طويل ، وهى ترى جارتها حنينة ترضى على ابنها نصيف كل الرضا وتعجب به كل الإعجاب ، ويزيد رضاها وإعجابها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويثنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون فى بعض مامضى من الوقت ، ولا يدعونها بأم نصيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولد ابنها ، وحين كان صبيا أو شابا يختلف إلى المدارس ، وحين كان موظفاً غائباً لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والاناقة وجمال الزى وروعة المنظر ، وإنما يدعونها أم الأفندى . يلغون الهمزة ، ويلقون فتحها على اللام فيقولون « أم لفندى » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به منذ تبينت أنه خامل خامد ، لا يغنى غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقى لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان حين يلم به الخطب أو يلح عليه الهم أو ينزل به المكروه ؛ فابنها لا يحس خطباً ولا هماً ولا مكروهاً ، ولا يجد حاجة إلى عطف أو رحمة أو حنان ، ولو قد شملته أمه بشىء من ذلك لما أحسه ولا ذاقه ولا التفت إليه . هى إذن شقية بخيبة الأمل ، شقية بكبت العاطفة ؛ وهى تحاول أن تتحدث إلى زوجها الشيخ فى بعض ذلك ، فلا تسمع منه إلا هذا الجواب يرده عليها فى ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابننا الخامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذى تبتسم له الحياة !

وهمت مرجانة أن تتحدث ذات يوم إلى ابنها فى بعض ذلك ، فقال لها متضاحكاً : « ما نحن وذاك ! إن المال أقوى قوة ، وأعظم بأساً ، وأوسع سلطاناً ، وأشد إغراء من الحب ؛ وما ينبغى للفقراء أن يحبوا . » وهمت أن تمضى فى حديثها فكفها عن ذلك بإغراقه فى ضحك طويل ، وبانتقاله إلى أحاديث الحقل والعاملين فيه ، وإلى أحاديث الدائرة وموظفيها ، حتى قال أبوه الشيخ: « دعى هذا الفتى ؛ فإنه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل . » وسمع الفتى مقالة أبيه ، فازداد إغراقاً فى الضحك ، ثم انصرف عن الدار كأنه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طياً ، وهو أن المال أقوى من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ، ممهدة كل التمهيد ؛ فليس بينه وبين صفاء إلا جدار واحد يفصل بينهما ؛ فإذا ارتقى إلى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق أو صفيق ؛ فالأسوار بينه وبين الخطبة ، والأسوار بينه وبين الزواج ، كثيفة منيعة لا سبيل إلى اقتحامها ولا إلى النفوذ منها ؛ ومتى استطاع الفقير المعدم أن ينفذ من أسوار المال والثراء ! ولكن الأسوار بينه وبين الحب لا وجود لها ، وإنما هى حيلة واسعة أولا ، وجراءة جريئة ثانياً ، وصبر للنفس على ما تكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى ضمير الفتى يقظان ، ويتردد فى

أحلامه نائماً ؛ والفتى يملك أمره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئاً ولا يقول شيئاً ولا يخلى بين الناس وبين ما أخفى في ضميره من هذا السر المكتوم . ولم تكن حال صفاء خيراً من حاله ، ولكنها كانت أدنى منه إلى الصراحة ، وأسرع منه إلى الإذعان . لم تكن نفسها عسيرة ولا مقعدة ، ولم يكن لها حظ من مهارة أو مكر ، وإنما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقداً ولا كيداً ولا استخفاء ؛ وهي من أجل ذلك لم تنطو على نفسها ولم تستخف بما في ضميرها ، وإنما أذعنت خاضعة الإرادة ثائرة القلب كما قلت ؛ فلما اشتد عليها الإلحاح وكثر حولها الإغراء ، وجعلت ألوان الطرف وفنون الهدايا تستبق إلى الدار ، رضيت بنصف نفسها وسخطت بنصفها الآخر ؛ فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتساماً ظاهراً ورضاً يكاد يشرق له وجهها أحياناً ، وكانت تمنح الحب حزناً دخيلا وأملا دفيناً ، ودموعاً لعلها أن تنهل حين تخلو إلى نفسها في ساعة من ساعات النهار أو في ساعة من ساعات الليل ؛ وهي بعد لم تر خطبها ولم تسمع له ، وإنما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الأحاديث ؛ فكان خطبها ظلاً يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاؤون ؛ وكان حبها شخصاً رأته من قرب ، واستمعت له وتحدثت إليه ، وتمثلته في نفسها ، واستحضرته في ضميرها ؛ وقد جعلت منذ حين لا تراه إلا مخالسة ، ولكنها تراه

على كل حال ، وهى تستطيع إن شاءت أن تبتغى الوسائل للقائه ، ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء ، ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له ، ولمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل ، ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل. خواطر تتردد فى نفس الفتاة ،وهى مشبهة شبهاً قوياً أو ضعيفاً لخواطر تتردد فى نفس الفتى ، وربما خطر لصفاء أن لو كان جارها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع أحد أن يصدها عنه أو يردها عن حبه ؛ ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم أوده وأود أبويه ؛ فما اجتماع الفقر إلى الفقر ، وما اقتران البؤس إلى البؤس ، وما التباس الإعدام بالإعدام ! أحق إذن أن الحب لم يخلق للفقراء ، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا ، وإنما خلقوا ليكدوا ويجدوا ويعملوا ويكسبوا القوت ، فإن بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وإن لم يبلغوه فإن فى الشقاء لهم سعة ، وفى الموت لهم راحة وروحاً ؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الألم والحزن واليأس ، وكان قلب الفتاة يجد ما كان قلب الفتى يجد من اللوعة والحسرة والأسى ؛ وكان أحب شىء إليها أن تفضى إلى الفتى بذات نفسها ، وأحب شىء إلى الفتى أن يفضى إليها بذات نفسه ؛ ولم يكن إلى ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم ؛ فقد حيل بينهما وبين

اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك إلا حائط واحد رقيق ، ولو قد صعد كلاهما إلى سقف داره مخالسة لأتيح لهما اللقاء والحديث .

والأيام تمضى على ذلك وتتبعها الليالى ، فازداد المعلم يونان اتصالا بمصطبته ولزوماً لها ، وازدادت مرجانة تطويفاً فى الأرض بقصعتها تلك التى تغطيها الأعشاب ، ومضى الفتى فى حياته الكسلة العاملة ويقظته الغافلة الذاهلة ، واتصل النشاط واشتدت الحركة فى دار صفاء ، وأحس الناس أن يوم الزواج يدنو قليلا قليلا . وقد أطل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمة الثغر ، عابسة النفس ، تظهر الرضا وتضمر السخط ؛ وأقبل القسس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسس مراسمهم فرتلوا وكللوا وقرعوا الأجراس والنواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التى لا يفصمها إلا الموت . وكان المعلم يونان مستلقياً على مصطبته فى الجانب الأيمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيدة واجمة ساهمة ، تجرى على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم : « أين ابنك يا مرجانه ؟ » فتقول مرجانة بصوت مبتل : « لعلك كنت تريد أن يشارك فى هذا الفرح ! »

فيعود الشيخ إلى صمته ، وتمضى الشيخة فى وجومها الباكى أو بكائها الواجم . ولم تشعل فى دار مرجانة لذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة فى تلك الليلة نوراً ، وإنما كانت النار ذاكية والنور متألقاً فى دار حنينة . ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم

يتقدم حتّى يوشك أن يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون فى فرحهم ومرحهم ، قد أخذوا يتشوفون ويتشوقون إلى مثل ما تعودوا أن يشهدوا فى تلك الليالى ، ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئاً ، ولم يسمعوا شيئاً ، وقد شملهم فتور غريب بغيض . وترى أعقاب الليل المنهزم فتى ينسل من دار حنينة مستخفياً فيما بقى من ظلام ، ويسفر الصبح شاحباً كئيباً ، وتشرق الشمس بنور ربها ، ولكنها ترسل على ذلك الشعاع أشعة فاترة خائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه إلى الحركة ، ولا تكاد تخرج أهله من صمتهم إلى الكلام ؛ وهؤلاء نفر من الناس قد أقبلوا يسايرون شاطئ القناة ، حتّى إذا بلغوا المنحدر هبطوا إلى دار مرجانة فأدخلوا فيها جثة قد احتز القطار رأسها احتزازاً ؛ ويرتفع صوت مرجانة مولولا ، فلا يكاد يتجاوز دارها حتّى يجيبه من دار حنينة صوت آخر مولول قد ارتفع بالإعوال . ويعلم الناس قبل أن ينتصف النهار أن الفتى قد نام ينتظر الموت حتّى جاءه به قطار الصعيد ، وأن صفاء قد أصبحت مزوّجة كالمطلقة ، ففصمت تلك العقدة التى عقدها القسس والتى لا يفصمها إلا الموت .

تقول حنينة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف المال ! » وتقول مرجانة فى نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف الحب . » ويقول المعلم يونان فى صوته الهادئ المتقطع : « قد عرفنا الموت الذى هو أقوى قوة من المال والحب جميعاً » .

٧
خطر

لست أبغض شيئاً كما أبغض إلقاء الدروس فى الوعظ والإرشاد وتنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وتحذير الذين لا يغنى فيهم التحذير ولا النذير ، وأنا مع ذلك مضطر إلى هذا أشد الاضطرار ، أراه واجباً تفرضه الوطنية الصادقة ، وتفرضه الكرامة الإنسانية ، ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها ، وعلى أن يسلك هذا الوطن البائس طريقه إلى التطور فى أناة ورفق وهدوء ، لا تعصف به العواصف ، ولا يجرى عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التى لا تبقى على شىء .

وقد يذعر القارئ حين يقرأ هذا الكلام ؛ وكم أتمنى أن يكون ذعره صادقاً يبلغ القلب ، ويصل إلى أعماق الضمير ، ويدفع إلى العمل الذى يعصم مصر من هذه الأهوال التى تنتظرها فى طريقها إلى التطور والرقى .

موظف من موظفى الدولة ، ليس بالعامل الذى يحسب له أجره مياومة ، وإنما هو من الموظفين الدائمين — أو المثبتين — كما يقول الحكوميون . هذا الموظف فى الدرجة السابعة ، يبلغ

مرتبه اثنى عشر جنيهاً أو أقل من ذلك قليلا ، له زوجة وخمسة من الولد ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يعول بنى أخته وهم ستة ، وأن يعول عمة له تقطعت بها أسباب الرزق ؛ فهم إذن أربعة عشر شخصاً ، يعيشون أو يراد منهم أن يعيشوا على هذا المرتب الضئيل . والعيش طعام وشراب ولباس ، والتجاء إلى دار يظلهم سقفها ، وتحميهم جدرانها من أن تأخذهم الشرطة ، كما تأخذ المتشردين . وطبيعى ألا ينهض هذا المرتب الضئيل بحاجة هذه الأسرة الضخمة ، فيكون الاقتراض ، ثم يكون العجز عن أداء الدين ، ثم يكون امتناع القادرين عن الإقراض ما داموا لا يستردون ما يقرضون ، ثم يكون الحرمان ، لا أقول من طيبات الحياة ، فليس لمثل هذه الأسرة أمل فى طيبات الحياة ، وإنما أقول مما يقيم الأود ويرد ألم الجوع . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الثياب التى تقى حر الصيف وبرد الشتاء ، فليس لهذه الأسرة فى هذه الثياب أمل ، وإنما أقول من الثياب التى تستر ما يجب أن يُستر من الأجسام . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الفُرش الوثيرة ، فليس لهذه الأسرة فى الفُرش الوثيرة أمل ، وإنما أقول من الحصير الذى يحول بين أجسامها وبين الأرض ، ومن الغطاء الذى يخيل إليها أنها تحاول أن تتقى به البرد . ثم يكون الضيق بالحياة ، ثم يكون الالتجاء إلى الأغنياء بطلب المعونة ، ثم يكون إعراض

الأغنياء عن هؤلاء اللاجئين البائسين ، إما لأن قلوب الأغنياء قاسية ، وإما لأن هؤلاء اللاجئين ليسوا وحدهم طلاب العون وإنما لهم شركاء فى الالتجاء والتماس البر ، وإما لأن الأغنياء يرون أن من الحق عليهم أن يحسنوا ولكنهم يرون أن من الحق أن ينظم الإحسان حتى لا ينتشر الأمر ، وحتى لا يلجأ إليهم البائس ومتكلف البؤس ، وحتى لا يُتخذ التسول صناعة وحرفة ، وحتى لا يُتخذ البر وسيلة إلى طمع الناس فيما ليس فى أيديهم من يسر الموسرين ؛ وإما لهذه العلل كلها مجتمعة ولعلل أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليها وليس فى إحصائها نفع لأحد .
ولكن الشيء الذى ليس فيه شك هو أن هذا الموظف من موظفى الدولة عاجز عن أن يجد فى مرتبه الضئيل ما يرضى أيسر ما تحتاج إليه أسرته لتعيش ، فهو يستدين من جهة حتى لا يجد إلى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتمس الإحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الإحسان ، فليس أمامه إلا أن يقترف الإثم ليعيش ويتيح لأسرته أن تعيش ؛ وقد يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الإثم ، وقد تكون الحاجة إلى الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه ، فيقترف الإثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو إن فعل تعرض للعقوبة ، وتعرضت أسرته لبؤس تضاعفه الظروف أضعافاً ؛ وإذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ، ولا يكسو العارى ، ولا يُسكت الصبى

الذى يصبح ملتمساً طعامه حين يعضه الجوع ، ولا يداوى المريض ، ولا يغنى عن الذين انتهوا إلى الدرك الأسفل من الحرمان شيئاً .

والشىء الذى ليس فيه شك ، أن هذا الموظف ليس وحيداً فى بؤسه هذا المنكر ، وفى عبئه هذا الثقيل ، وإنما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وإنما يحصون بالألوف وأخشى أن يحصوا بعشرات الألوف ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالاستدانة والعجز عن أداء الدين أو الالتواء بالدين ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والإحسان ، فإن التصدق والإحسان قد يعينان على تفريج أزمة عارضة ، وعلى إطعام العيال يوماً أو أياماً ، وعلى كسوة العيال فى فصل من الفصول ، ولكنهما لن يستطيعا أن يكفلا لهؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع .

وأنا لم أذكر إلى الآن حق هؤلاء الصبية فى أن يتعلموا ، وفى أن يستمتعوا بصحة لا تجعلهم عرضة للأدواء المهلكة والأمراض المعدية ، ولا تجعلهم مصدر خطر على من يتصل بهم من الناس .

هذه مشكلة لو كانت طارئة لظننت أن الحديث عنها قد يلفت إليها ويدعو إلى التفكير فيها والاجتهاد فى حلها ،

ولكنها لم تطرأ اليوم، ولم تطرأ أمس ، وإنما عهدهابنا بعيد ، وإهمالنا لها متصل ؛ وهى من أجل ذلك تنتج نتائجها المنكرة المخزية ؛ فانتشار الوباء فى غير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقى، وانتشار الرشوة ، وانتشار السرقة ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة فى الضمائر والقلوب ، وانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان . وانتشار الإذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد بالحرية والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً ، فضلا عن الازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً متحضراً ممتازاً — كل هذه الآفات والمخازى ليس لها مصدر إلا هذا الشقاء .

ولأعد إلى هذا الموظف من موظفى الدولة ؛ إنه كغيره من الموظفين : يغدو إلى مكتبه مع الصباح ، ويروح إلى داره مع المساء ، قد اتخذ ثياباً تلائم عمله ، ولو بليت ثيابه فلم يجد ما يشترى به ثياباً أخرى لعوقب على ذلك ، فالدولة حريصة على أن يكون موظفوها كراماً فى مظاهرهم على أقل تقدير . هو إذن يغدو ويروح فى ثيابه تلك الملائمة ، وعلى رأسه طربوشه ، وفى رجليه حذاؤه الذى لا ينبغى أن يبلى ، وهو يستقبل أصحاب الحاجات من الشعب ، يبسم لهم أو يعبس فى وجوههم ، يخدمهم ناصحاً أو يخدمهم متكرهاً ، وهو يتحدث إلى زملائه فيبادلهم الدعابة حيناً ويبادلهم الشكوى

أحياناً ، وهو على كل حال قبر متحرك ، يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت ، قد أماته البؤس والشقاء والهم ، وأكثر زملائه يشبهونه ؛ فأعجب لدولة يخدمها موظفون تحيا أجسامهم وتموت نفوسهم ، وانتظر بعد ذلك من هذه الدولة أن تسلك بالشعب طريقه إلى العزة والكرامة والاستقلال الناقص أو التام ؛ والمهم هو أننا عشنا حتى رأينا موظفى الدولة يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان : يطلبون ذلك بألسنتهم ويطلبون ذلك بأقلامهم . جاهدوا ما وسعهم الجهاد حتى أرغمتهم الحاجة على أن يتخففوا من هذه الكرامة التى منحها الله للإنسان ، والتى تمنع الإنسان من أن يسأل ويلتمس الإحسان !

موظفو الدولة إذن يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان ؛ وأغرب ما فى الأمر أن عامة الشعب يحسدون الموظفين على مرتباتهم هذه المقررة المنظمة التى تصرف لهم فى أول الشهر ، لا تتخلف عنهم ولا تبطىء عليهم ؛ وإذا كانت هذه حال المحسودين فكيف تكون حال الحاسدين ؟ أظن أنك قد رأيت الخطر الذى يسعى إلينا مسرعاً ، أو الذى نسعى إليه مسرعين ؛ وأظنك توافقنى على أننا بين اثنتين : إما أن نترك الأمور تجرى على سجيتها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويجرى علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، وإما أن نستقبل من أمرنا ما استدبرنا ، وأن نحاول الإصلاح لنعصم موظفى الدولة من

طلب الصدقة والتماس الإحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الإحسان ؛ وليس إلى ذلك إلا سبيل واحدة ، هى أن نعيد النظر فى نظامنا الاجتماعى كله ، فيما تجبى الدولة من الضرائب ، وفيما تمنح الدولة من المرتبات .

الضرائب قليلة جداً ، أقل مما ينبغى ، والمرتبات قليلة جداً ، أقل مما ينبغى ؛ والعدل يقتضى أن تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وأن تكف الدولة عن الإسراف فى الأموال العامة ، وأن يكف الأغنياء عن الإسراف فى أموالهم الخاصة . وليس إلى الإصلاح الاجتماعى من سبيل إلا إذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التى تستطيع أن تنهض بعبئه وتنقذه من مشكلاته ؛ فهل ترى أن مصر تملك فى هذه الأيام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الإصلاح ؟ هذا سؤال لست فى حاجة إلى أن أجيب عليه !

٨

تضامن

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله ، يقدر حين صدر بالمسلمين من الحج سنة ثمانى عشرة للهجرة ، أنه يستقبل بالمسلمين من أهل بلاد العرب ، ومن أهل الحجاز ونجد

وتهامة خاصة ، عاماً أسود قاتماً يمتحن المسلمون به فى أنفسهم وأموالهم وأخلاقهم ، وفيما أتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للمكروه والنفوذ من الخطوب ، وفيما أتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذى يجعل الإنسان إنساناً ويرقى به إلى المنزلة العليا من منازل الكرامة ، وهو شعور التعاطف والتآلف ، والتضامن الاجتماعي الذى يلقى فى روع كل فرد مهما تكن منزلته ، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها ، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء ، وما ينوبها من السراء والضراء .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر أن الغيب قد أضمر له وللمسلمين من أهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية ، يمحص بها قلوبهم ، ويصفى بها نفوسهم ، ويعلمهم بها أن الحياة ليست نعيماً متصلا ، ولا رضاء مقيماً ، ولا خصباً يتجدد كلما تجددت الفصول ؛ وإنما هى مزاج من النعيم والبؤس ، ومن اللذة والألم ، ومن السعادة والشقاء ؛ وأن سبيل المؤمن الذى مس الإيمان قلبه حقاً ، هو ألا يطغى إذا استغنى ، ولا يبطر إذا نعم ، ولا ييأس إذا امتحن بالبؤس والشقاء ؛ وألا يؤثر نفسه بالخير إن أتيح له الخير من دون الناس ، وألا يترك نظراءه نهباً للنوازل حين تنزل ، وللخطوب حين تلم ، وإنما يعطى الناس مما عنده حتى يشاركوه فى نعمائه ، ويأخذ من الناس

بعض ما عندهم حتى يشاركهم فى بأسائهم ؛ فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يُجر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظمأ إليها جماعات أخرى ، والله كذلك لم يخرج النبات من الأرض ليشبع منه قوم ويجوع آخرون .

وإنما أسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعاً ، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع ، ولكن لا ينبغى أن يفرض الحرمان على أحد منهم ، مهما يكن شخصه ، ومهما تكن طبقته ، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم فى ذلك العام أن الله سيرسل إلى المسلمين عاماً جديداً يمتحنهم فيه بالجوع والظمأ والعرى امتحاناً لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد ؛ وكيف كان عمر يستطيع أن يقدر ذلك وأمور الدولة الناشئة تجرى على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعد الصيت ، وانتشار الفتح وكثرة الفىء وغزارة الرخاء ؟ ولكن العام الجديد يقبل ، وإذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الأرض ظمأ إلى هذا الماء ، وحتى تسودّ كأنها الرماد ، وحتى يضطر المسلمون إلى أن يسموا هذا العام عام الرمادة . بخلت السماء بالماء ، وجادت الشمس بالحر ، وعجزت الأرض عن

أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ما كانوا يسومون من الثاغية والراغية . وينظر عمر بعد أن استقر فى المدينة . فإذا الأزمة تسعى متمهلة مستأنية ، ولكنها مستوثقة من نفسها ملحة فى سعيها ، وإذا أهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم الجدب فلم يفكروا إلا فى أن يهرعوا إلى خليفتهم . يلتمسون عنده ما يطعمهم من جوع ، ويسقيهم من ظمأ . ويكسوهم من عرى ؛ وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وكاسبيهم وعائليهم ، فرمى بهم تلك الثغور ، ودفع بهم إلى حروب يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها ! وما لهم لا يهرعون إليه وهم كانوا يشعرون بحبه لهم ، وعطفه عليهم ، وبره بهم ، يسعى إلى أقصاهم كما يسعى إلى أدناهم ، لا يقصر عن السعى إليهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار . ثم ينظر عمر فإذا جزيرة العرب كلها ترسل إليه من بقى فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرون على شىء ، والقادرين الذين لا يجدون شيئاً يقدرون عليه . . . هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذى يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده ، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده . ويواجه الخطب مصمماً على أن ينفذ منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذاك كنزاً من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يدركه الفناء : يجد المسلمون

فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة ، ما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رفق ولين ، إلا أن يكون من تلك القلوب التي وصفها الله عز وجل ، بأنها قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه في مقاومة هذا الخطب ، فأبى إلا أن يكون رجلا من المسلمين : يشقى كما يشقون ، ويجوع كما يجوعون، ويظمأ كما يظمأون، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقراً وبؤساً ؛ يفعل ذلك لأنه مؤمن قبل كل شيء بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك ، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه أن يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف ، حين تنزل المحن وتلم الخطوب ، فيأبى إلا أن يعيش كما يعيش أفقر الناس !

رأى المسلمين لا يجدون السمن إلا في مشقة وجهد ، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف ؛ فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه إن طُبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالا ، فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخاً فكان أوجع له وأعسر هضماً ، حتى تغير لونه واسود وجهه، وكان شديد البياض ؛ ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم إلى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه . ثم أمر المنادين أن ينادوا في

لناس : من يشاء أن يقبل على هذه الموائد فلأكل منها فليفعل ، بن شاء أن يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة هله ليأكل معهم فليفعل ! وكان يشرف بنفسه على إعداد لطعام ، وربما علم الطباخين كيف يطبخون . ولكن الأزمة نشتد وتشتد ، وأهل البادية يهرعون إلى المدينة ، وكثير منهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من أماكنهم ، قد هلك الزرع ، وجف الضرع ، ونفقت الماشية ، وأصبح من الحق على الخليفة أن يدرك هؤلاء الناس فى مواطنهم ، ويحمل إليهم أرزاقهم ما داموا عاجزين عن السعى إلى هذه الأرزاق ؛ هنالك يكتب عمر إلى عماله فى الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا إليه الأمداد . واقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذى كتبه عمر إلى عامله على مصر عمرو بن العاص رحمه الله ، وانظر إلى ما فى هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف ملؤه الرحمة الرحيمة ، والرفق الذى ليس بعده رفق : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى . سلام عليك . أما بعد أفتراني هالكاً ومن قِبلي ، وتعيش أنت ومن قِبلك؟ فيا غوثاه ... يا غوثاه . . . يا غوثاه ! »

فلم يكد عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذى يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر ، حتى كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من

عمرو بن العاص . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد أتاك الغوث فلبّث فلبّث ؛ لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى . »

ثم نهض عمرو فى إرسال هذا الغوث برًّا وبحراً . وكتب عمر إلى عماله الآخرين فى الشام والعراق ، فكلهم صنع صنيع عامل مصر ، ثم أرسل عمر رسله إلى حدود بلاد العرب مما يلى الشام والعراق ومصر ، وأمرهم أن يتلقوا هذه المعونات ، فيميلوا بها إلى أهل البادية فى أماكنهم وأحيائهم ليطعموهم ، ويكسوهم ، ويسقوهم ، وعزم على رسله هؤلاء ألا يضعفوا ولا يلينوا ولا يفرقوا ما فى أيديهم من الطعام دون أن يتبينوا أنه صائر إلى بطون الجائعين ، لا إلى خزائن المختزنين ؛ وأشد من هذا روعة وأعظم من هذا إثارة للعبرة ، أن عمر رحمه الله كان يقول : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت ممن يجد ، عدّتهم ممن لا يجد ، إلى أن يأتى الله بالحيا . »

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه ، وأزمع أن يرزق الناس منه ؛ حتى إذا لم يجد فيه شيئاً كلف كل أسرة غنية أن تطعم مثل عددها من الفقراء ، يأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين ، حتى يأتى الله بالفرج .

وما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارعة من سيرة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ؛ فلسنا فى وقت ترفيه ولا إطراف ولا ترويح ، وإنما نحن نحيا فى أيام سود ، ليست أقل نكراً . ولعلها أن تكون أشد نكراً ، من عام الرمادة ذاك .

فقد كان المسلمون فى أيام عمر ، وفى ذلك العام ، يجدون الجوع والظمأ والعرى ؛ فأما المصريون فى هذا العام فإنهم يجدون الموت ويجدون المرض ، ويجدون بعد الموت والمرض ما كان يجد العرب فى عام الرمادة من الجوع والظمأ والعرى ؛ ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء أن يدفع عنهم هذا الوباء ، وأن ترد عنهم آثاره ؛ فلا يكون منهم من يشكو الجوع والظمأ والعرى ؛ وهذا الحق واجب على الدولة ما وجدت فى خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك ، لا ينبغى أن تفكر فى شىء حتى تفرغ من هذه المحنة ؛ فإن لم تسعفها خزائنها فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التى أراد عمر أن يسلكها ، وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتى الله بالفرج.

يجب أن تعلم الدولة، ويجب أن يعلم الموسرون، أن التصدق بالمال خير فى أوقات الرخاء والدعة واللين ؛ فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألم الوباء ، فالتصدق واجب يفرضه العدل ؛ فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة أن تأخذهم به أخذاً . يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر أئمة المسلمين فى أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء

ويردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع او محروم ، فإذا جد الجد وألمت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظامئون ويكتسى العارون من المعسرين ؛ وعلى الدولة أن تقوم على هذا كله بسلطان القانون ؛ فإن لم تفعل فهى آثمة أشنع الإثم فى ذات الله ، وفى ذات الوطن ، وفى ذات المواطنين !

هذه دروس ألقاها عمر بن الخطاب على الحاكمين والمحكومين فى التضامن الاجتماعى الذى لا يقوم على الاشتراكية ولا على الشيوعية ، وإنما يقوم على قول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . »

فهل نطمع فى أن تسمع الدولة ، وفى أن يسمع الموسرون؟ وهل نطمع فى أن تتذكر الدولة ويتذكر الموسرون ؟ وهل نطمع فى أن نعفى وتعفى الكرامة الإنسانية من طلب الصدقات فى الصحف إلى قوم يؤثرون الأموال على الوطن وعلى المواطنين ؟

إن من الحق على الدولة أن تعلّم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون ، إذ لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس . . .

٩

ثقل الغنى

كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء فى جاهليته ، وقد أسرع إلى الإسلام حين ظهرت الدعوة إليه فيمن أسرع إليه من السابقين الأولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الأغنياء المترفون من قريش ما كان الإسلام يدعو إليه من التسوية بين الأغنياء والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء وبين الأحرار والعبيد ، وإنما شرح الله صدره للإسلام ، فأقبل عليه مشغوفاً به مضحياً فى سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة وما اكتسب من سؤدد ، مستعداً لمشاركة أصحابه فى التعرض للأذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من أصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء فى أن يفر بدينه إلى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركاً وراءه ماله الكثير وثراءه العريض ومكانه الرفيع ، وقوماً من أهله وذوى قرابته كان يحبهم أشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً ،

ثم هاجر إلى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام داراً ، فانتهى إليها وهو لا يملك إلا قلبه الذكى وضميره النقى وأنفه الحمى وإيمانه الذى ملأ نفسه ثقة ويقيناً ؛ وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من أغنياء الأنصار هو سعد بن الربيع الخزرجى رحمه الله ، فقال له سعد : انظر إلى مالى وخذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك أيتهما أعجب إليك فتتخذها لنفسك زوجاً ! قال عبدالرحمن : بارك الله لك ، ولكن إذا أصبحت فدلُّونى على سوقكم . فلما أصبح ذهب إلى السوق فأنفق فيها وجه النهار ، ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب ما يقيم به الأود ثم أقبل بعد حين على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس الجديد واتخذ من الزينة ما كان يباح للمسلمين فى ذلك الوقت . فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك أنبأه بأنه قد اتخذ لنفسه زوجاً من نساء المدينة ، وبأنه قد أمهر زوجه وزن نواة من ذهب ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يولم لأصحابه ، ففعل .

ولم تمض أعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء المدينة قد اكتسب ثروة مكان ثروة ، وكنز مالا مكان مال ، واستطاع أن يتزوج فيمهر امرأته ثلاثين ألفاً ؛ وكان يقول : لقد رأيتنى وما أرفع حجراً إلا ظننت أنى سأجد تحته ذهباً أو فضة !

كان عبد الرحمن إذن من كبار الأغنياء قبل أن تفتح مكة ، فلما تم فتح مكة ضم إلى ثرائه الجديد ثراءه التليد ، ثم استثمر هذا كله كأحسن ما يستثمر المال ، وكأحسن ما كانت قريش تستثمر المال ، حتى أصبح ذات يوم وإنه لمن أغنياء العرب كافة ، ولعله أن يكون أغناهم كافة ، لا يستثنى منهم إلا عثمان بن عفان رحمه الله . وربما كان من الممكن أن يقال إن عبد الرحمن بن عوف كان أغنى من بيت مال المسلمين أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيت المال فى ذلك الوقت يدخر شيئاً ، ولم تكن تجبى إليه الضرائب ، ولم يكن يحمل إليه فىء ذو خطر ، وإنما كانت تصاب الغنائم اليسيرة فى الغزوات فتقسم بين الغزاة ويحفظ خمسها للمرافق العامة ولوجوه الإحسان والبر . وكانت الصدقات تؤخذ من الأغنياء فتقسم بين الفقراء ولا يصل منها إلى المدينة إلا أقلها ، فإذا وصل حبس على المصارف التى بينها الله فى القرآن الكريم ؛ فكان بيت المال فقيراً . وليس أدل على فقر بيت المال من إلحاح النبى صلى الله عليه وسلم على الأغنياء من الناس فى أن يعينوه على بعض غزواته بأموالهم : يخرجون له عن بعض فضولها أو ينزلون له عن بعض أصولها .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يكره شيئاً كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى أصحابه من شىء

كما كان يشفق على نفسه وعلى أصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء ؛ فنظر ذات يوم إلى عبدالرحمن وقال له : « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ؛ فأقرض الله يطلق لك قدميك . » قال عبد الرحمن بن عوف : « وما الذى أقرض الله يا رسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما أمسيت فيه . » قال : « أبكلّه أجمع يا رسول الله ؟ » قال : « نعم ! » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه .

وأحب قبل كل شيء أن يقف القارئ معى عند ما فى هذا الحديث من سذاجة رائعة أو روعة ساذجة فى لفظه وفى معناه وفى قصته كلها ، فرسول الله يشفق على عبد الرحمن من غناه الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة ثقيلة باهظة يحملها صاحبها على كاهله فتمنعه من السعى وتعسر عليه الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع أن يمشى إلى الجنة مع الساعين أو يعدو إليها مع العادين . وهو لا يشير عليه بأن يتخفف من هذا الثقل يلقيه عن كاهله إلقاء ، وإنما يشير عليه بأن يثمر هذا المال ولا يضيعه ، وذلك بأن يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يضيع عليه ماله وإنما يرد عليه يوم

القيامة أضعافاً مضاعفة . وعبد الرحمن يسأل عما ينبغي أن يقرض الله من ماله ، فيقال له : ابدأ بما أمسيت فيه ، أى قم فتصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلت المساء ، واعلم أنك حين تفعل ذلك لا تزيد على أن تبتدئ ، وأنك ستمتحن فيما سيجتمع لك من المال فى مستقبل أيامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال فى أيامك الماضية .

وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي : أبكل ما اجتمع لى من المال ؟ فيجيبه النبى : نعم ! وينهض عبد الرحمن مصمماً على أن يمضى أمر الله ورسوله فى هذا المال الذى يحبه والذى أنفق فى جمعه وتثميره ما أنفق من الجهد والوقت ، واحتمل فى تثميره ما احتمل من المشقة والعناء . ولا بأس عليه من أن يحب المال ، وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يمنعه حب المال من أن ينفقه ليبر به اليتامى والمساكين وذوى القربى وأبناء السبيل . أليس الله قد بين البر للمسلمين بأنه ليس التوجه إلى المشرق أو المغرب وإنما هو الإيمان بالله وإيتاء المال على حبه للذين يحتاجون إليه .

ينهض عبد الرحمن إذن مصمماً على أن يُمضى فى ماله أمر الله ورسوله ، ولكن النبي يرسل إليه أن الله ورسوله يرفقان به بعد أن امتحناه ومحصاه ، فيأمرانه بأن يضيف

الضيف ويطعم المسكين ويعطى السائل ويبدأ بأهله وعياله ؛ فإن فعل فقد زكى نفسه تزكية ، وطهر ماله تطهيراً .

حزم فى الامتحان حتّى تستبين العزيمة الصادقة الماضية على الإذعان مهما يكن شاقًّا ، وعلى التضحية مهما تكن عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن ثقيلا ؛ فإذا استبانت العزيمة الحازمة وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضعان عنهم بعض ما يحتملون من الثقل .

وقد اختار الله نبيه لجواره ، وانقطع خبر السماء ، وحُرم المسلمون هذا الوحى الذى كان يصابحهم ويماسيهم ، وأصبح الناس ذات يوم وإذا رجّة عنيفة تتجاوب أصداؤها أرجاء المدينة كلها ؛ وتسأل عائشة أم المؤمنين رحمها الله عن هذه الرجة ، فيقال لها : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت . فتقول عائشة : أما أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتّى يفلت ولم يكد ! »

ويبلغ حديث عائشة عبد الرحمن ، وكانت هذه العير خمسمائة راحلة تحمل نفائس العروض من الشام، فإذا سمع هذا الحديث قال : هى وما تحمله صدقة ! لم يكتف ببعض ما كانت تحمل ، ولم يكتف بكل ما كانت تحمل ، ولم يكتف بها دون ما كانت تحمل ، وإنما تصدق بها وبأحمالها .

ولو قد امتدت الحياة برسول الله واتصل نزول الوحى وتنزلت أخبار السماء إلى الأرض ، لكان من الممكن أن يقبل النبى من عبد الرحمن التصدق ببعض تجارته والإبقاء على بعضها الآخر ؛ ولكن عائشة لم تزد على أن روت ما سمعت من رسول الله ، وأشفق عبد الرحمن من أن يميل به الصراط مرة ويستقيم به أخرى حتى يبلغ الجنة بعد جهد ، وحرص عبد الرحمن على أن يستقيم له الصراط فلا يكون فيه ميل ولا اضطراب حتى يبلغ الجنة فى غير تعثر ولا جهد ولا عناء .

وكان عبد الرحمن رحمه الله من أكبر المسلمين تصدقاً ، ومن أسخاهم بماله ، ومن أوصلهم للرحم ، ومن أبرهم بالناس؛ أنفق حياته كلها مستثمراً لماله متصدقاً به ، وكان تصدقه لا ينقص من ماله ، وإنما يزيد فيه ويضاعفه أضعافاً ، كأنما قضى الله ألا يجزيه عن صدقته فى الآخرة وحدها ، وألا يضاعف له قرضه فى الجنة وحدها ، وإنما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعاً .

هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التى نعيش فيها تجعله جديداً كل الجدة ؛ وأنا أسوقه إلى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن أو أكثر مما أتيح لعبد الرحمن ، وأحب أن يستقر فى قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أنه كان من السابقين الأولين ، ومع أنه جاهد بنفسه

وماله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه لم ينفق يوماً من أيامه إلا تصدق فيه بالكثير – أحب أن يستقر فى قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أن النبى قد ضمن له الجنة فى نفر من السابقين الأولين ، فهو عليهم أثقل؛ لأنهم لم يسبقوا إلى الإسلام ، ولم يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، ولم يضمن النبى لهم شيئاً إلا أنهم إن أحسنوا طاعة الله فى أنفسهم وأموالهم لم يُضيع عليهم مما قدموا شيئاً . وإذا خاف النبى على عبد الرحمن ألا يبلغ الجنة إلا زحفاً ، وألا يعبر الصراط إلا بعد جهد ، فنحن أجدر أن نخاف على أغنيائنا ألا يبلغوا الجنة زاحفين ، وألا يعبروا الصراط جاهدين أو غير جاهدين .

فلينظر أغنياؤنا إلى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا فى أن أموالهم عارية مردودة ، وفى أن الذين يقرضون الله قرضاً حسناً يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفى أن الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قد بُشروا بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون !

١٠

سخاء

لست أدرى أتصح هذه الأخبار كما أحب وكما أعتقد ، أم لا تصح كما يحب المتشككون وكما يعتقدون ؛ وهى سواء صحت أو لم تصح تثير فى نفسى كثيراً من الخواطر ، وتثير فى قلبى كثيراً من العواطف ، وتدفعنى إلى كثير من التفكير ، كما تدفعنى إلى كثير من الأحلام الحسان العذاب ، التى إن صدقت كانت أحسن المنى ، وإن لم تصدق كانت قد أتاحت لى أن أعيش ساعات حلوة كما يريد الشاعر القديم أن يقول .

وهذه الأخبار هى التى تتصل بكرم الكرماء ، وجود الأجواد ، وتبرم الأغنياء بما يتاح لهم من الغنى وما يساق إليهم من الثراء ؛ والحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على المال ، بخلاء بما يملكون ، لا ينالون من الغنى حظاً إلا ليبتغوا حظاً أوفر مما نالوا ، ولا يحرزون من الثراء نصيباً إلا ليطلبوا أكثر مما أدركوا ؛ ثم هم على كثرة ما يملكون وكثرة ما يحصلون وكثرة ما يتراكم عندهم من الغنى ، أشبه شىء بالصخرة المصمتة ، ذات القاع البعيد أو التى ليس لها قاع ، فهى

لا تجود بشيء مما يستقر فيها من الماء مهما يكثر ومهما يركب بعضه بعضاً ، وإنما هي مصمتة من جميع جوانبها ، ليس فيها أمل لمن يطيف بها إلا أن يحطمها تحطيماً.

الحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على هذا النحو من الحرص ، بخلاء إلى هذا الحد من البخل ؛ وإنما جعل منهم بين حين وحين من لا يكره الغنى ، ولكنه على ذلك لا يفنى فيه ولا يتهالك عليه ولا يتخذه غاية ، وإنما يتخذه وسيلة ينفع بها نفسه وينفع بها أهله ، وينفع بها ذوى قرابته وذوى مودته ، وينفع بها أكثر عدد ممكن من الناس ، حين يتاح له أن ينفع أكثر عدد ممكن من الناس .

هؤلاء الأجواد الأسخياء عزاء عن الحراص البخلاء ، يلقون فى روعك أن الإنسانية ليست شرّاً كلها ، وأن حياة الناس قد تكون صحراء مقفرة مجدبة شديدة العقم ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الواحة التى تقوم فيها بين حين وحين ، فتتيح للمسافر الذى عنّاه السفر وأضناه الجهد ، أن يجد فيها من الظل والماء ، ومن الراحة والروح ، ما ينسيه بعض ما احتمل من المشقة ، ويعينه على احتمال ما سيلقاه من الجهد حين يستأنف السعى فى صحرائه تلك المجدبة المقفرة ؛ ولولا هؤلاء الأجواد الأسخياء لكانت الإنسانية خليقة أن نبغضها أشد البغض وأعظمه بشاعة ونكراً .

والناس يلتمسون الراحة حيث يجدونها وكما يستطيعون أن يجدوها ، وهم لذلك يلتمسون العزاء حيث يجدونه وكما يستطيعون أن يجدوه : يلتمسونه من حولهم ، فإذا لم يظفروا به أبعدوا فى السعي والتمسوه فى الأطراف النائية والأماكن المتباعدة ، فإذا أعياهم أن يظفروا به فى المعاصرين ، من قرب منهم ومن بعد ، التمسوه فيما مضى من الأيام وفيما سلف من العصور. وقد يظن القارئ أنى أتكثر أو أتزيد ، ولكنى أؤكد له أنى لست من التكثر والتزيد فى شيء ، وإنما استقبلت هذه الأحداث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، وهذا البؤس الذى يأخذ كثرة المصريين من جميع أقطارهم ، ويسعى إليهم من كل وجه ، يُعدهم للموت حتى يسلم بعضهم إليه ، ثم يستأثر بمن بقى منهم فيمضى فى إعدادهم للموت ، متمهلا حيناً ومتعجلا حيناً ، وجعلت أنظر فيمن حولى من الأغنياء ، وأنظر فى موقفهم من هذا الشقاء الملم ، والبلاء الملظم ، والهول الهائل ، والعذاب الشديد ، فلم أر إلا حرصاً وبخلا ، وقسوة فى القلوب ، وغلظاً فى الأكباد ، وجفوة فى الطباع ، وكدراً فى الضمائر ، ووجدت قوماً ينفقون على كره للإنفاق ، وقوماً آخرين يترددون بين الكرم والبخل ثم يؤثرون البخل بعد طول التردد واتصال التفكير ، وقوماً آخرين لا ينفقون ولا يترددون ولا يفكرون ، وإنما يجهلون من حولهم من الناس ،

ويجهلون ما حولهم من البؤس والضنك والضيق والموت ، يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا ، ويجعلون على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا ، ويجعلون على قلوبهم أكنة وأقفالا حتى لا يصل إليهم ما يثير فيها شيئاً من تضامن أو تعاطف أو رحمة أو إشفاق .

أولئك وهؤلاء يُقبلون على لذاتهم ومنافعهم وآمالهم كما يتصورونها ، لا يعنيهم أن يلذوا والناس من حولهم يألمون ، ولا يسوءهم أن ينعموا والناس من حولهم يتجرعون الشقاء والبؤس والعذاب غصصاً ؛ فهم يرقصون على جثث المواطنين ، ويسعدون بشقائهم ، ولا يفرقون بين هذه الموسيقى البشعة المنكرة التى تأتى من شكاة الشاكين وبكاء الباكين وأنين المرضى وحشرجة المحتضرين ، وهذه الموسيقى الأخرى التى تصل إليهم من عزف العازفين ونفخ النافخين ورقص الراقصين ، ولا يجدون بأساً حين يقبلون على كؤوسهم المترعة المصفاة ، أن يكون مزاجها من هذه الدموع الغزار التى لا ترى ولا تحس لأنها لا تنزف من أعين الناس وإنما تنزف من أعين مصر كلها . ودموع الناس قد ترى وقد تحس فيضيق بها الذين يرونها والذين يحسونها ، ولكن دموع الأوطان والشعوب والأجيال لا يراها ولا يحسها إلا الذين أتيح لهم شىء من رقة القلوب وصفاء النفوس ونقاء الضمائر وتهذيب الطباع ؛ وهؤلاء مع الأسف

قليلون بل هم أقل من القليل .

استقبلت هذا كله ونظرت فيمن حولي من الناس ، لأرى كيف يرفق بعضهم ببعض ، وكيف يعطف بعضهم على بعض ، وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين ؟ فلم أر شيئاً ذا خطر ، وإنما رأيت كرماً قليلا وكلاماً كثيراً ، واستباقاً إلى التفاخر الكاذب ، وتهالكاً مع ذلك على اللذة الباطلة والنعيم السخيف . وما أعلم أن أغنياءنا ، على كثرة ما يملكون ، وعلى كثرة ما يغل عليهم ما يملكون ، قد استطاعوا أن يجمعوا لمعونة المنكوبين بوباء الكوليرا مئة ألف من الجنيهات ، وأحسبهم ما زالوا بعيدين عن هذا المقدار أشد البعد ، وما أرى أنهم سيبلغونه أو يقربون منه . وهم قد أخذوا ينسون الوباء ، بعد أن أمنوا على أنفسهم — إن جاز للناس أن يأمنوا على أنفسهم — وبعد أن زعمت لهم وزارة الصحة أن الوباء قد أوشك أن يزول . لم يقل أحد لنفسه — ولا يرجى أن يقول أحد منهم لنفسه — إن الوباء قد اختطف من أسر كثيرة رجالا كانوا يعولونها ، واضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى تصوره فضلا عن وصفه ، وإن من حق هذه الأسر أن تعيش أولا ، وأن تجد من عطف المواطنين عليها بعض العزاء عما ألم بها من الخطب ثانياً ، وأن تشعر بأنها أسر كريمة في وطن كريم ثالثاً .

لم يخطر لأحد منهم — ولا يرجى أن يخطر لأحد منهم — شيء من ذلك ؛ لأنهم مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال إلى المال ، وضم الثراء إلى الثراء ، وباللذات التى لا يفرغون من بعضها إلا ليقبلوا على بعضها الآخر ، ولا يستريحون منها إلا ليستأنفوا العكوف عليها والإمعان فيها ؛ ثم لم يخطر لأحد منهم — وليس يرجى أن يخطر لأحد منهم — أن بؤس البائسين وإعدام المعدمين لا يجر الخزى عليهم بمقدار ما يجر الخزى على وطنهم كله ، وعلى الذين أتاحت لهم الظروف أن يكونوا عنواناً لهذا الوطن، يلقون الأجنبي حين يفد على مصر ، ويسعون إلى الأجنبي إذا لم يفد على مصر ويسمعون منه — راضين أو كارهين — حديث الوباء والمنكوبين ، فلا يستحيون لأنفسهم ، ولا يستحيون لوطنهم ، ولا يستحيون لهذا الجيل من المصريين أن يوصم فى أعين الأجنبي بالأثرة المنكرة التى تغض من صاحبها وتجعله خليقاً أن يزدرى ويحتقر ، ولا يكرمه من يكرمه إلا بمقدار ما يتخذه وسيلة إلى تحقيق منافعه وقضاء آرابه .

أى بأس علىّ إذا رأيت هذا كله وضقت بهذا كله ، فوجدتنى بين اثنتين : إما أن أبغض الحياة والأحياء ، وأنكر الوطن والمواطنين ، وإما أن ألتمس العزاء حيث أستطيع أن ألتمسه ، وكما أستطيع أن ألتمسه ، لعل الغمرة أن تنجلى ، ولعلى

أستطيع – بعد وقت قصير أو طويل – أن أعود إلى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ، ومن أغنيائهم خاصة ، فأقول لهم ، وأسمع منهم دون أن أجد فى نفسى هذا الألم الممض ، وهذا الاشمئزاز البغيض .

إلى التاريخ إذن وإلى أحاديث القدماء ؛ فقد ملأ المعاصرون قلوبنا يأساً ونفوسنا قنوطاً . لنهجرهم ، ولنهاجر فى الزمان إذا لم تتح لنا الهجرة فى المكان ، ولننظر فى أخبار تلك العصور القديمة ، سواء أصحت أم لم تصح ؛ فهى إن صحت كانت لنا عزاء ، وهى إن لم تصح أتاحت لنا أن نحلم بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبداً للمال ولا رقيقاً للثروة ، وإنما يكون المال فيه عبداً لمالكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإنقاذ المحروم ، ثم إلى إثارة هذه العاطفة الحلوة التى يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوباً وأغاث ملهوفاً وأنقذ محروماً وبر صديقاً ، وتصرّف فى ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه .

إلى التاريخ إذن لننسى العصر الذى نعيش فيه ، وإلى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين .

وتستطيع أن تصدقنى أو لا تصدقنى ، فما يعنينى من ذلك شىء ، ولكنك تستطيع أن تقرأ – على كل حال – أنى وقفت

تروى لنا عن القدماء من أصحاب الجود والسخاء ، عند هذه القصة التى تروى عن عثمان — رحمه الله — حين أجدب أهل المدينة أيام أبى بكر حتى ارتفعت الأسعار ، ولم يجد الفقراء وأوساط الناس ما يأكلون ، وأقبلت فى أثناء ذلك عير لعثمان تحمل من الشام خيراً كثيراً ؛ فأسرع التجار إليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته ليبسروا بها على الناس ، وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنه أبى أن يبيع إلا إن استطاعوا أن يدفعوا إليه عشرة أمثال أثمانها ؛ فلما أظهروا العجز أنبأهم بأن الله قد وعده بعشرة أمثالها إن تصدق بها ، ثم أعلن إليهم أنه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ، ويؤثر ثواب الله على أموالهم ، وأن بضاعته هذه صدقة للمسلمين !

نعم ! ووقفت وقفات طويلة ، طويلة جدًّا ، عند رجل آخر من أصحاب النبى ، هو طلحة بن عبد الله رحمه الله ، وقد دخلت عليه امرأته فرأته مغتمًّا حزيناً ، فلما سألته عن ذلك رفيقة به عطوفاً عليه ، أنبأها أن قد جاءه مال كثير ، فهو مهتم لا يدرى ما يصنع به ؛ فلم تزد امرأته على أن قالت له مبتسمة : اقسمه ! قال نعم ! ثم قسم هذا المال بين ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، واستقبل بعد ذلك ليله سعيداً ، وكان هذا المال أربعمائة ألف درهم !

نعم ! وأقف وقفات طويلة ، طويلة جدًّا ، عند طلحة نفسه

حين باع أرضاً له وأدّى إليه ثمنها سبعمائة ألف درهم ، فلما حصل المال فى داره ، فكر غير طويل ثم قال : إن رجلا يمسى وعنده هذا المال لا يدرى ما ادخر له القضاء من أمر الله لمغرور! ثم أمر فقسم هذا المال على ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، ولم ينم حتى أنفقه عن آخره .

والغريب أن هذا الإنفاق على كثرته وعلى اتصاله لم ينته بطلحة إلى الفقر أو إلى شىء يشبه الفقر ؛ لأن الله قد وعد الأغنياء إذا أنفقوا فى سبيل البر مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقاً ، أن يخلف عليهم ما أنفقوا ؛ وقد قتل يوم الجمل وتعرضت ثروته بعد موته لخطوب كثيرة ، ولكن ورثته على رغم ذلك اقتسموا فيما بينهم ثلاثين مليوناً من الدراهم !

فليت أغنياءنا يفكرون فى أنهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون أن يرزأهم هذا الإنفاق شيئاً ذا خطر . وليت أغنياءنا يصدقون وعد الله أو يمتحنون هذا الوعد ، ليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ، ليتبينوا أيخلف الله عليهم ما أنفقوا ، ولكن هيهات ! ليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأن أغنياءنا لا يقرأون ، وهم إذا قرأوا لا يؤمنون ، وهم إذا آمنوا لا يغامرون ، وأهون عليهم أن يغامروا بالألوف فى ناد من أندية الميسر وميدان من ميادين

ليتبينوا أيصدقهم الله ما وعدهم أم لا . والشيء الذى يملأ القلوب غيظاً والنفوس كمداً ، هو أن الحكومات ترى من حرص الأغنياء ، وبخلهم ومن تقصيرهم ما ترى ، ثم لا تبيح لنفسها من فرض الضرائب ما يتيح لها أن تعين المنكوب ، وتغيث الملهوف ، وتنقذ المحروب ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له .

صدقنى أن الخير كل الخير للرجل الحازم الأديب ، أن يفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجيل . فإن أعجزه الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل من أن يفر إلى زمان آخر من أزمنة التاريخ .

١١

مصر المريضة

لم أكد أصعد إلى السفينة وأستقر فيها ، وأفرغ من هذه المواسم البغيضة التى لا بد منها لكل مبحر مهما يكن الثغر الذى يبحر منه ، حتى علمت بأن مصر مريضة ؛ فاستمعت للنبأ غير حافل به ولا آبه له ولا ملق إليه بالا . فالنبأ منشور فى إحدى الصحف الفرنسية التى لا تصدر فى مارسيليا ؛ وما أكثر ما ينشر عن مصر من هذه الأنباء التى لا تصور حقاً ولا تدل على شيء إلا ما يكون فى نفس الذين أبرقوا

بها من بغض لمصر أو ميل إلى الكيد لها والنعى عليها والإسراف فيما يذاع عنها من أنباء السوء !

والصحف الفرنسية فى هذه الأشهر الأخيرة قليلة العطف على مصر ، شديدة الضيق بها ، سريعة إلى التحدث عنها بما لا يحب المصريون ، تنتهز لذلك الفرص إن سنحت ، وتخلقها إذا لم تسنح ؛ وقد كان بيننا وبين فرنسا تلك الخطوب التى أحفظتنا على الفرنسيين وأغرتنا بهم ، وأحفظت علينا الفرنسيين وأغرتهم بنا ؛ فالقارئ المستبصر خليق أن يصطنع كثيراً من الحرص والأناة حين يقرأ أنباء مصر فى فرنسا ، وحين يقرأ أنباء فرنسا فى مصر ؛ ولست أخفى على القارئ أنى لم أكد أسمع ما نشر فى تلك الصحيفة من أن مصر مريضة ، ومن أن مرضها شىء يشبه أن يكون وباء الكوليرا ، ومن أن الحكومة المصرية قد أخذت تتأهب لمقاومة الوباء ، حتى رفعت كتفى وهززت رأسى وابتسمت ابتسامة ساخرة من هؤلاء الصحفيين الذين يريدون أن يكيدوا فلا يحسنون الكيد ، وأن يكذبوا فلا يحسنون تخير الأكاذيب .

ومضى يوم ويوم والسفينة تجرى إلى غايتها ، يعنف بها البحر حيناً ويرفق بها حيناً آخر ، دون أن يتحدث أحد إلى أحد بهذا النبأ السخيف الذى نشرته صحيفة سخيفة ، ومر بها

ألصق فى ذيره موضع من السفينة ، ينبه فيه المسافرون إلى أن الماء العذب سيحجز عنهم ساعات من النهار ، لتستطيع السفينة أن تبلغ بيروت دون أن تأخذ شيئاً من ماء مصر ، لأن وباء الكوليرا يمنعها من ذلك .

هنالك لم نرفع الأكتاف ولم نهز الرؤوس ، ولم نبتسم ابتسامات ساخرة ولا جادة ، وإنما نظر بعض المسافرين إلى بعض فى صمت ، ثم أقبل بعض المسافرين على بعض يتساءلون . أما أنا فأعترف بأنى لم أرفع كتفى ولم أهز رأسى ، وإنما أطرقت إلى الأرض ، وجعلت أتضاءل وأتضاءل ، وودت لو نظر إلىّ من حولى من الناس فلم يرونى ، وودت لو تحدث إلىّ من حولى من الناس فلم يسمعوا منى لحديثهم رجع جواب . فلم يكن الشعور الذى وجدته فى ذلك الوقت شعور الخوف ، ولا الشعور بالحاجة إلى الاحتياط ، وإنما كان شعوراً غريباً أستطيع الآن أن أقول إنه كان مزاجاً من الحزن والخزى جميعاً .

كان فيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه خليقاً بالسعادة ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنرقى به إلى بعض هذه السعادة التى كنا نراه لها أهلا ، ثم ها نحن أولاء نرى الشقاء يصب عليه صباً ، والبلاء يأخذه من جميع

البؤس البائس يغمر الكثرة الكثيرة من أهله ، فيلابسهم ملابسة متصله لا تقلع عنهم فى ليل ولا نهار ، فهم جائعون عراة جهال، أشقياء بهذا كله؛ ويزيدهم شقاء أن كثيراً منهم يعرفون هذا البؤس الذى هم فيه ، ويعرفون أن من حقهم أن ينعموا ، ويريدون أن يخلصوا من بؤسهم، وأن يحققوا لأنفسهم شيئاً من نعيم ، ولكنهم لا يبلغون ما يريدون ، ولا يعرون كيف يبلغون، ما يريدون ،ولا يجدون من يعينهم على أن يبلغوا ما يريدون .

وفيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للحرية والأمن ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقه من الحرية والأمن ، ثم ها نحن أولاء ننظر فنراه مغلولا لا يقدر على أن يتحرك ، معقود اللسان لا يقدر على أن ينطق ، مقفل القلب لا يقدر على أن يجد ما تجد الشعوب الحرة من الشعور بأيسر كرامة الإنسان ؛ ثم ننظر إليه فنجده من أجل ذلك خائفاً يترقب ، يخشى أن يعمل فيغضب سادته ، ويخشى أن يقول فيحفظ قادته ، ويخشى أن يسكت فيسوء به ظن المسيطرين على أمره،فهو حائر بين الحركة والسكون، وبين الكلام والصمت، وبين الشعور والجمود .

وفيه الحزن بعد ذلك على هذا البلد الذى كنا نراه أهلا للاستقلال ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له بحقه فى هذا الاستقلال ، ثم نحن ننظر فإذا هو يرد

عن حقه أعنف الرد وأقساه ، وإذا المنتصرون الذين كانوا يترضّونه ويتملقونه فى أمس القريب ، قد ائتمروا به وتنكروا له وكادوه كيداً ، إن صور شيئاً فإنما يصور الجور والغدر والظلم والجحود .

وفيه الحزن بعد هذا وذاك لهذا البلد الذى صُرفت عنه ضروب الخير فى السياسة والثقافة والاقتصاد ، ومنحه الله مع ذلك إقليماً معتدلا وأرضاً خصبة وسماء صافية ونهراً يفيض بالنعمة والنعيم ، وكان هذا كله خليقاً أن يكفل لأهله حياة مادية محتملة ، ويصرف عن أهله الآفات والعلل والأدواء ؛ ولكنا ننظر فإذا هو قد حُرم حتى هذه الحياة ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تسعى إليه من أقصى الشرق ومن أقصى الجنوب ، فلا تجد من يردها عنه أو يحميه من شرها ، وإذا الآفات والعلل والأوبئة تهبط عليه من سمائه الصافية ، وتخرج له من أرضه الخصبة ، وتسعى إليه مع نهره الفياض ؛ وإذا أهله مرتع الآفات والعلل والأوبئة ، تصيب منه ما تشاء كما تشاء ، ومتى تشاء ، وحيث تشاء ! وإذا العالم كله يتلقى الأنباء فى أقل من شهر بأن هذا البلد الذى خلق للعزة ما زال مستذلا ، وبأن هذا البلد الذى خلق للأمن ما زال خائفاً ، وبأن هذا البلد الذى خلق للحرية ما زال مستعبداً ، ثم بأن هذا البلد الذى خلق للصحة مريض يفتك وباء الكوليرا بمدنه وقراه ويمن فى مدنه وقراه كما يشاء ، ومتى يشاء ، وحيث يشاء !

ثم فى هذا الشعور الذى أطرقتُ له إلى الأرض وتضاءلت له وتضاءلت ، شىء عظيم كئيب من الخزى لهذا البلد الذى كنا نظنه قد تجاوز هذا الطور ، طور البلاد المتأخرة العتيقة الجاهلة التى تفتك بأهلها الأوبئة ، فإذا نحن نراه عرضة للوباء ، بل مرتعاً للوباء ؛ وأى وباء ؟ وباء الكوليرا الذى كنا نظن أنه لن يعود إلى مصر بعد أن فعل بها وبأهلها الأفاعيل فى أول هذا القرن .

ليت شعرى ماذا صنعت مصر ؟ وماذا صنع المصريون ؟ يقال إنهم قد أنشأوا فى هذا القرن كثيراً من المدارس ومعاهد العلم ، ومضوا فى الحضارة الحديثة إلى أبعد حد ممكن ، فلهم برلمان كما أن لغيرهم من الأمم برلمانات ، ولهم وزارات منظمة كما أن لغيرهم من الأمم المتحضرة وزارات منظمة ، ولهم وزارة قد خصصت لشؤون الصحة ، كما أن لغيرهم وزارة مخصصة لشؤون الصحة ، ولهم عاصمة تتفوق على كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس إلى عواصم الدول الكبرى ، يعجب بها أهل باريس وأهل لوندرة وأهل نيويورك إذا ألموا بها وأقاموا فيها ؛ وهم بعد هذا كله قد نالوا من الترف ما صُرف عن كثير من الأمم المتحضرة فى هذه الأيام ، حتى أصبح ثراؤهم وترفهم وإقبالهم على اللذات مضرب الأمثال فى أقطار الأرض كلها . . . كل هذا حق ، وكل هذا شىء نسمعه

حين نزور باريس وغير باريس من المدن الكبرى فى أوربا وفى أمريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق أيضاً أن العالم كله قد تلقى منذ شهر نبأ مقتضباً ولكنه على ذلك خطير أشد الخطورة ، تلقى النبأ بأن مصر التى أراد إسماعيل أن يراها جزءاً من أوربا قد ألم بها وباء الكوليرا وأقام فيها ، وأنها تريد أن ترده فلا تستطيع له رداً ، وأنها تستعين بالعالم المتحضر على وقاية أبنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكنت أظن أن هذا الشعور بالخزى مظهر من مظاهر الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكنى لم أكد أبلغ مصر حتى عرفت أنى لست مستأثراً من دون المصريين المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ؛ فكل مصرى مثقف يقدر نفسه ويقدر وطنه ، ويستحضر ما بذل المصريون من الجهود فى العصر الحديث ليرقوا بوطنهم إلى حيث ينبغى أن يكون من العزة والأمن والحرية والصحة فى الأبدان والقلوب والعقول ؛ كل مصرى مثقف يجد هذا الشعور المر الذى وجدته ، والذى هو مزاج يأتلف من الحزن الممض والخزى الذى تُطأطأ له الرؤوس .

وينظر إلىّ من كان حولى من المسافرين ، وفيهم المصرى والأجنبى ، فيروعهم ما يرون من هذا الوجوم الذى أغرق فيه إغراقاً غريباً ، فيظنون بى فى أعماق أنفسهم الظنون ، ويسألنى

بعضهم محاولا أن يهون عليّ الخطب وأن يردنى إلى شىء من الأمن : ماذا أجد ! فلا أزيد على أن أذكره بأنى أعرف وباء الكوليرا ، وبأنى قد تحدثت عنه فى بعض ما قرأ لى من كتب ، وبأنى قد رأيت هذا الوباء ولما أتجاوز العاشرة ، فكان له فى قلبى وحياتى كلها أبلغ الأثر وأعمقه وأبغضه . وتأثر الأطفال حين يكون عميقاً بغيضاً إلى هذا الحد لا يفارقهم مهما تمتد لهم أسباب الحياة .

أصدّقونى أم لم يصدقونى؟ لا أدرى ! ولكنى أنا لم أصدق نفسى ، فلم يكن بين هذا الوجوم الذى أغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ماتثير فى النفس من الحسرات ، صلة قريبة أو بعيدة فى ذلك الوقت ، وإنما نشأ هذا الوجوم عن هذا الشعور الحزين المستخذى الذى يجده المصرى المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده ، وآمال كثير من نظرائه وأعمالهم وجهودهم ، تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الأعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا إلى أنفسهم ولم يتحدث بعضهم إلى بعض بأن آمالهم التى كانت بعيدة قد أخذت تقرب وتقرب حتى توشك أن تتحقق ، وبأن أعمالهم الشاقة قد أخذت تؤتى ثمراتها ، وبأن جهودهم العنيفة قد أخذت تدنيهم من غاياتهم ، وبأنهم سيستطيعون بعد حين أن يقفوا بعد طول السعى ،

وأن ينظروا فإذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثاً ، ولم يبذلوا جهودهم في غير طائل ، وإنما تلقوا من آبائهم وطناً ضعيفاً مهيضاً عليلا ، فما زالوا به حتى ردوا إليه شيئاً من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به في طريق العزة والكرامة أشواطاً وأشواطاً ، وهم يستطيعون أن يسلموه إلى أبنائهم مطمئنين إلى أنهم قد نهضوا بالحق فأحسنوا النهوض ، وأدوا الواجب فأحسنوا الأداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضيعة العمل مصدر هذا الوجوم الذي أغرقت فيه ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتحدث بشيء من ذلك إلى من كان حولي من الناس ؛ فهم كانوا مشغولين بأنفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم وأعمالهم وجهودهم ، وعن هذه الفلسفة اليائسة التي تغمر قلوبهم في هذه الأيام السود ؛ وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغي أن يتخذوا من ضروب التحفظ وألوان الاحتياط ، وهم على كل حال قد عرفوا أني لا أحب أن أسمع لحديث الكوليرا ولا أن أشارك فيه ، فأعفوني من هذا الحديث ، ولكن الأنباء لم تعفني منه ؛ فقد كانت نشرة السفينة تعلن إلينا كل يوم عدد الإصابات وعدد الوفيات وأماكن هذه وتلك ؛ ولم نشرف على الإسكندرية حتى لم يكن لأهل السفينة كلهم حديث إلا هذا الوباء؛ وكنت أظن أني سأجد إذا بلغت مصر وجوماً شائعاً وحزناً منتشراً واستخذاءً شاملا ، كما كنت أجد في نفسي من الوجوم والحزن والاستخذاء، ولكني أبلغ الإسكندرية

وألقى من شاء الله أن ألقى من المصريين ، فإذا حياتهم تجرى على الوتيرة التى ألفناها ، وإذا الوباء يروعهم ولكنه لا يصرفهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء السياسة تحزنهم ، ولكنها لا تلهيهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ، وإذا أنباء الاقتصاد تخيفهم ، ولكنها لا تشغلهم عن أنفسهم ولا عن لذاتهم ؛ وأبلغ القاهرة فأرى فيها مثل ما رأيت فى الإسكندرية ، وإنما الذين تشغلهم أنباء الوباء والسياسة والاقتصاد عن أنفسهم وعن لذاتهم قلة ضئيلة ليس أيسر من إحصائها ؛ فأما من عدا هذه القلة فماضون فى حياتهم كما تعودوا أن يمضوا : ألسنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة ، فلا أملك نفسى أن أتلو قول الله عزّ وجل : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، ولا أملك نفسى أن أتلو قول الله عز وجل : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . »

ويقبل العيد فإذا المترفون مقبلون على عيدهم كما أقبل عليهم عيدهم ، لا يشعرون بأن مئات من الأسر فى مئات من المدن والقرى قد كانت تنتظر العيد كما كانوا ينتظرونه ، وتتشوق إليه أكثر مما كانوا يتشوقون إليه ، ولكن العيد أخلفهم موعده ، وأرسل إليهم الموت نائباً عنه ، وأرسل إليهم مع الموت حسرات وعبرات وزفرات ، وأرسل إليهم مع هذا كله شقاء ملحاً

وبؤساً مقيماً . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ، وبأن مرضها هو النزيف المهلك ، ولكنها لا تنزف دماً وإنما تنزف أبناءها وبناتها نزفاً . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به ولا يلتفتون إليه ، أو يشعرون به ويلتفون إليه ولكنهم لا يحفلون إلا بأنفسهم ولا يشفقون إلا عليها ، كأنهم يستطيعون أن يعيشوا وينعموا ويستمتعوا بالحياة إذا ضرب الحزن والبؤس والموت أطنابها على هذا البلد البائس الشقى . .

هيهات ! هيهات ! إنما ذلك تعليل النفس بالأمانى الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وإن المصريين بين اثنتين لا ثالثة لها : فإما أن يمضوا فى حياتهم كما ألفوها ، لا يحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، وإذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التى لا تبقى ولا تذر ؛ وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التى عرفوها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الأصحاء والمرضى ؛ وإذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ، وعلى الكارثة حتى تنمحى ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .

إلى أى الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا : إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة ؟ سؤال ألقيه على نفسى حين أصبح ، وألقيه على نفسى حين أمسى ، وأضرع إلى الله بين ذلك أن يجنّبنى اليأس ، ويعصمنى من القنوط ؛ فـ « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . »

اقرأ

مبارك إبراهيم

نساء شهيرات

دار المعارف بمصر

مبارك إبراهيم

نساء شهيرات

اقرأ ١١٩
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٩ — ديسمبر ٥٢



مقدمة

هذا كتاب يضم بين دفتيه ترجمة حياة ثمان من شهيرات النساء فى العالم منذ ألفين من السنين إلى يومنا هذا .

فمنهن « سكينة بنت الحسين » الشريفة الطاهرة المطهرة . والزهرة الباسمة الناضرة . بين زهرات أهل البيت . وهى التى بجدها أنبياء الله قد ختموا .

وأبوها هو مولانا عبدالله الحسين بن على الذى ورد فى حقه أن الرسول عليه صلوات الله وسلامه جاء معه على وفاطمة والحسن والحسين . ثم أخذ كل واحد منهما على فخذه . ثم لف عليهم كساء ثم تلا هذه الآية الكريمة : « وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » . وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

ومنهن « كليوباطرة » ملكة مصر التى أغرمت بالسؤدد والمجد . فبذلت فى سبيلهما ما بذلت . وعاشت ولسان حالها يقول :

« لنا الصدر دون العالمين أو القبر »

ومنهن « چان دارك » التى خيل إليها أنه قد أوحى إليها أن تخليص بلادها من براثن الغاصب قد أصبح فرضاً عليها ، فقامت بما فرض عليها فى صدق وإخلاص . وقالت — ولهيب النار التى أعدت لتحريقها يرتفع حولها — : « إن الله سبحانه هو الذى أرسلنى . وأنا الآن أعود إليه » . ثم نالت جزاءها الأوفى . جزاء الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . فاعترف الناس بقداستها . وأعلنوا ذلك بعد أربعمائة عام فاستراحت عظامها فى قبرها .

ومنهن « كريستينا ملكة السويد » . وأولى لها ثم أولى أن تسمى ملكة النقيضين . فقد خلعت نفسها عن عرش آبائها . ثم عادت تعض بنان الندم . فسعت سعيها لتكون ملكة على « پولندا » أو على « ناپولى » . وكانت تارة تبدو فى سمت الملكات وعظمتهن ، وطوراً تبدو فى ملابس المهرجين الساخرين . وكانت تركب الخيل وتقاتل كما يقاتل الفرسان . . . وكذلك كانت تقص الأقاصيص المخزية فى غير خجل أو حياء . وتجلس فى وضع هو أبعد الأوضاع عن جلسة النساء .

ومنهن « إليزابيث » باريت بروتنج» تلك الشاعرة التى أحبت شاعراً فأنتج هذا الحب — على الرغم من سخط أبيها وغضبه — أبدع مقطوعات شعرية منذ عصر شكسبير .

ومنهن « سوزان برونل أنتونى » . تلك الثائرة على العرف

والخارجة على التقاليد . والتى قال عنها عميد كلية البنات التى كانت هى ناظرة قسم البنات فيها : إن هذه المرأة هى أذكى رجل جاء إلى مدينتهم .

وهى التى كسبت لبنات جنسها حق التمتع بالحقوق المدنية . فأصبح لهن حق الامتلاك . وحق التصرف فيما يملكن . كما أصبح لهن حق التقاضى . وحق التعاقد . وحق الاحتفاظ بأموالهن . وحق مشاركة أزواجهن فى الولاية على أطفالهن .

ومنهن « فلورنس نيتنجيل » منقذة المرضى والجرحى . لا فى حرب « القرم » التى بدأت أعمال التمريض فيها . بل فى كل مستشفى أقيم ويقام للمرضى والجرحى من الجنود منذ تلك الحرب إلى يوم تقوم الساعة . وقد لقيت فى سبيل ذلك العنت كل العنت . وهى الغنية المترفة المثقفة . فقد كانت أجمل فتيات أسرة « نيتنجيل » وأكثرهن ثقافة . وقد كانت بارعة فى الرياضيات العالية . وفى الموسيقى والعلم والفن والأدب . كما كانت بارعة فى الإيطالية والألمانية والفرنسية . كما كانت تعرف اللغات القديمة.

وقد ماتت « فلورنس نيتنجيل » وهى تتساءل فى صحوة الموت : أأنا تلك التى وقفت فوق مرتفعات القرم ؟

ومنهن « سارة برنار » أبرع ممثلة ظهرت فى الوجود . وأكبر الظن أن لن يكون لها بين بنات فنها ند أو قرين .

وهى ممثلة بفطرتها بل إن كل دور من أدوار حياتها دور من

أدوار التمثيل فى مختلف أنواعه كالدرام. والكوميدى. والتراجيدى. والميلودرام . والڤودڤيل .

وكانت « سارة » تجيد تمثيل أدوار الموت . وكانت تضع نعشاً إلى جانب سريرها . حتى يكون أول شىء يقع عليه نظرها إذا صحت من نومها . وكانت هذه طريقتها فى تحدى الموت . وكانت لا ترضى بأقل من التمام . سواء أكان ذلك فى الحسن أو فى القبيح .

(وبعد) فإنى لأرجو أن أكون قد أحسنت الاختيار . . .

مبارك إبراهيم

سكينة بنت الحسين

ملامك فى أهل النبى. فإنهم أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرة وزد حبهم يارب فى حسناتى

أبوها سيدنا الإمام الحسين رضى الله عنه . وهو الحسين بن على بن أبى طالب ابن عبد المطلب بن هاشم .

وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

وكان على كرم الله وجهه قد سمى الحسين حرباً فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسين » .

تزوج الحسين « الرباب » بنت امرئ القيس بن عدى الكلبية . وهى أم سكينة . وهذا لقب لها . واسمها آمنة . وقيل « أمينة » . وقيل « أميمة » .

وهى تحسب من بنات النبى . ذلك لأنه قد قيل إن أولاد فاطمة وذريتهم يسمون أبناء النبى . وينسبون إليه نسباً صحيحاً .

ومن المأثور عنها أنها قالت :

عاتب عمى الحسن أبى فى أمى فقال :

لعمرك إننى لأحبُّ داراً تكون بها سكينة والرباب

أحبهما وأبذل جلّ مالى وليس لعاتب عندى عتاب
فلست لهم وإن غابوا مضيعاً حياتى أو يغيبنى التراب

وامرؤ القيس بن عدى جد سكينة لأمها أسلم على يد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . فما صلى صلاة حتى ولاه عمر . وما أمسى حتى خطب إليه على عليه السلام ابنته « الرباب » على ابنه « الحسين » فزوجه إياها. فولدت له « عبد الله » و« سكينة» وكانت « الرباب » من خيار النساء وأفضلهن . وخُطبت بعد قتل الحسين فقالت : ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد رثت « الرباب » زوجها الحسين حين قتل فقالت :

إن الذى كان نوراً يستضاء به بكر بلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحة عنا وجُنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن يُغنى ويأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتغى صهراً بصهركم حتى أغيب بين الرمل والطين

ويروى أن سكينة كانت فى مأتم فيه بنت لعثمان . فقالت بنت عثمان : أنا بنت الشهيد . فسكتت سكينة . فقال المؤذن : أشهد أن محمداً رسول الله . قالت سكينة : هذا أبى أو أبوك ؟ فقالت العثمانية : لا أفخر عليكم أبداً .

وكانت سكينة تجىء يوم الجمعة فتقوم بإزاء خالد بن

عبد الرحمن بن الحرث بن الحكم إذا صعد المنبر. فإذا شتم علياً شتمته هي وجواريها . فكان يأمر الحرس يضربون جواريها .

يروى أنه لما تزوج مصعب بن الزبير « سكينة » رضى الله عنهما أمهرها ألف ألف درهم وولدت له « الرباب » . وكانت تلبسها اللؤلؤ . وتقول ما ألبستها إياه إلا لتفضحه .

قال مصعب : كانت « سكينة » عفيفة سليمة برزة من النساء . تجالس الأجلة من قريش . وكانت عالمة أديبة . يجتمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها . وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم . وكانت ظريفة مزّاحة . قيل لها : أنت تمزحين كثيراً . وأختك لا تمزح . فقالت : لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة (تعنى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الإسلام (تعنى آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال مصعب : كانت « سكينة » أحسن الناس شَعراً. وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم أر أحسن منه حتى عرف ذلك . وكانت تلك الجمة تسمى السكينية. قالت « سكينة» لعائشة بنت طلحة : أنا أجمل منك . وقالت عائشة : بل أنا : فاختصمتا إلى عمر بن أبى ربيعة . فقال لأقضين بينكما . أما أنت يا سكينة فأملح . وأما أنت يا عائشة فأجمل منها . فقالت «سكينة» : قضيت لى والله .

ولما تزوج زيد بن عمرو بن عثمان « سكينة » شرطت عليه

ألا يُغيرها . ولا يمنعها شيئاً تريده . ولا يخالفها فى أمر تريده . فكانت تقول له يا عثمانى : اخرج بنا إلى مكة . فإذا خرج فسارت يوماً أو يومين قالت : ارجع بنا إلى المدينة . فإذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا إلى مكة . فقال له سليمان بن عبد الملك : اعلم أنك قد شرطت لها شروطاً إن لم تف لها فطلقها . فطلقها .

قال « سفيان بن حرب » : رأيت سكينة بنت الحسين ترمى الجمار فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها .

ومما يؤثر عنها أنها كانت تجود بكل ما تجد من مال . فإن لم يكن مال فَبدَملج تنزعه أو سوار .

وفى « سكينة » يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها :

قالت سكينة والدموع ذوارف … تجرى على الخدين والجلباب
ليت المغيرىّ الذى لم أجزه … فيما أطال تصيُّدى وطلابى
كانت ترد لنا المنى أيامنا … إذ لا نلام على هوى وتصاب .
خبرت ما قالت فبت كأنما … يرمى الحشى بنوافذ النشاب
أسكين ! ما ماء الفرات وطيبه … منى على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما … ترعى النساء أمانة الغيّاب
إن تبذلى لى نائلا أشفى به … داء الفؤاد فقد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت … بينى وبينهم عرى الأسباب

فتركتنى لا بالوصال ممتعاً   منهم ولا أسعفتنى بثواب
فقعدت كالمهريق فضلة مائه   فى حر هاجرة للمع سراب

غفر الله لعمر فقد كان لا يعنى ما يقول . وقد قال الله فى محكم آياته :

« والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

ويروى أن « سكينة » كانت من أجمل نساء زمانها وأعقلهن. وكان مصعب بن الزبير قد جمع بينها وبين عائشة بنت طلحة فلما قتل مصعب قالت سكينة :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذى   يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية   إلى القوم حتى أوردوه حماما

وكانت « سكينة » سيدة الناقدين للشعراء . وكانت تنظر فى نقدها إلى نبل الغرض . وشرف اللفظ . وجلال المعنى . فهى حكم الشعراء الذى لا يرد حكمه . ولا يضل رأيه . ولا تبدو مزلته. وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب . وكلهم قد عقد يده على خير ما قال . وليس بينهم إلا من كان حديثه طوال طريقه عما عسى السيدة أن تقوله وتحكم به . لأنه سيكون بين المتأدبين وبغاة الشعر يقيناً لا شك فيه .

اجتمع إليها ذات مرة « جرير » و « الفرزدق » و « كثير » و « جميل » و « نُصيب ». فنقدت لكل شعره ، وآخذت عليه

مأخذه . ثم أثابت كلا بألف دينار . فرجعوا بخمسة آلاف دينار.

وما كان الخليفة ليظفرهم بما دونها حتى يجمعوا فيه من الفضائل ما تفرق فى الأبرار والمقربين . والكرام الكاتبين . والقادة الفاتحين .

كذلك كانت مثوبتها للمغنين. وكان بصرها بمذاهب الغناء. وضروب الإيقاع . كبصرها بأعطاف الشعر . وقطاف الأدب .

وروى محمد بن سلام الجمحى قصة نقدها لهؤلاء الشعراء قال :

اجتمع فى ضيافة « سكينة » بنت الحسين رضى الله عنهما جرير . والفرزدق . وكثير . ونصيب . وجميل . ومكثوا فى ضيافتها أياماً . ثم أذنت لهم فدخلوا عليها . فجلست حيث تراهم. ولا يرونها . وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة قد روت الأشعار والأحاديث. فقالت أيكم الفرزدق؟ فقال هأنذا فقالت له أنت القائل :

هما دليانى من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحى فيرجى أم قتيل نحاذره

قال نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرك وسرهما . هلا سترتهما . وسترت نفسك . خذ هذه الألف درهم والحق بأهلك . ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت أيكم جرير ؟ فقال لها ها أنذا فقالت أنت القائل :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال نعم. قالت فهلا رحبت بها. خذ هذه الألف درهم وانصرف. ثم دخلت وخرجت فقالت : أيكم كثير؟ فقال ها أنذا . قالت أنت القائل :

وأعجبنى يا عزّ منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يطمع الطالب الصبا ورفعك إنسان الهوى حين يطمع
فوالله ما يدرى كريم مماطل أينساك إذ باعدت أو يتضرع

قال نعم . قالت ملحت وشكلت . خذ هذه الألف والحق بأهلك. ثم دخلت وخرجت فقالت أيكم نصيب؟ فقال ها أنذا. قالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نُصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال نعم قالت ربيتنا صغاراً . ومدحتنا كباراً . خذ هذه الأربعة آلاف درهم . والحق بأهلك . ثم دخلت وخرجت فقالت يا جميل مولاتى تقرئك السلام وتقول : والله ما زالت مشتاقة إلى رؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى إنى إذن لسعيد
فكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة . وقتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك .

ومن الروايات التى تروى عن براعتها فى النقد القصة التالية :

قيل اجتمع راوية « جرير » وراوية « كثير » وراوية « جميل » وراوية « الأحوص » وراوية « نُصيب » فافتخر كل واحد منهم بصاحبه. وقال صاحبى أشعر. فحكّموا بينهم «سكينة» لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر فاستأذنوا عليها فأذنت لهم فذكروا لها الذى كان من أمرهم. فقالت لراوية « جرير » : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

قال نعم : قالت : وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟ قبح الله صاحبك . وقبح شعره . هلا قال : فادخلى بسلام . ثم قالت لراوية « كثير » : أليس صاحبك الذى يقول :

يقرّ بعينى ما يقرّ بعينها وأحسن شىء ما به العين قرّت

قال نعم . قالت : قبح الله صاحبك . وقبح شعره .

ثم قالت لراوية « جميل » : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

قال نعم . قالت : فما أرى رأى صاحبك . قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

قال نعم . قالت : فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده .

قبحه الله وقبح شعره . ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا حتى إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال نعم . قالت : قبح الله صاحبك وقبح شعره . ألا قال تعانقا .

قال راوى القصة : إنها لم تثن على أحد منهم فى ذلك اليوم ولم تقدمه . وفى رواية أخرى أنها قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فياليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى علىّ كلامها

قال نعم . قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً .

رضى الله عن السيدة « سكينة » وأجزل ثوابها .

وقد توفيت السيدة سكينة ودفنت بالمدينة . وذلك على أرجح الروايات . . .

كليو باطرة

٦٩ ـــ ٣٠ قبل الميلاد

كان قيصر قد وصل من فوره إلى الإسكندرية وكان مزهواً بانتصاره على بومبى وقد حط رحاله فى القصر . وبدأ يقوّم ما اتآد ويصلح ما اعوج فى السياسة المصرية .

وكان أوليت قد مات . وكان اثنان من أولاده وهما بطليموس وكليوباطرة يتنازعان ارتقاء العرش .

وكانت كليوباطرة فى المنفى عند وصول قيصر . إذ كان أنصار أخيها قد نجحوا فى إبعادها إلى سوريا .

ويبدو أن بطليموس ـــ وكان صبياً فى الرابعة عشرة من عمره ـــ قد قبض مطمئناً على صولجان الملك بين يديه الصغيرتين الشرهتين .

وهذه هى الحالة التى كانت عليها مصر فى خريف العام الثامن والأربعين قبل الميلاد . وكان الوقت مساء . وكان قيصر جالساً فى بهو القصر يرقب الحركة الصاخبة فى ميناء يونوستوس (ومعناها المرفأ السعيد) وإذا بضجيج يسمع بغتة عند بوابة القصر وهرع خادم إلى قيصر وهو يقول : إن سائحاً من الشرق قد

وصل الساعة يا مولاى وإن لديه لصرة من المنسوجات النادرة يريد أن يعرضها على مولاى .

ـ وأين هو ؟

ـ إن حارس البوابة لم يسمح له بالدخول يا مولاى .

وكان قيصر وهو حامى حمى الفنون ـ شديد الرغبة فى أن يرى تلك النفائس . فقد يتخذ منها هدية يهديها إلى زوجته كالبورنيا .

فقال للخادم ـ قل للحارس أن يأذن للرجل فى المجىء إلىّ حالا .

فمثل الرجل بين يدى قيصر ومعه صرته وقال :

سأعرض على مولاى تحفة نادرة لم ير مثلها من قبل . ثم أراح حمله فى حرص وعناية على الأرض ـ وبدأ يفك عقد الأربطة . ثم ابتسم وقال ـ وهو ينظر إلى ما انتاب قيصر من ذهول ـ أكنت أنا على حق يا مولاى ؟

ولكن قيصر لم ينطق . فقد عقد الذهول لسانه . وذلك لأن من بين تلك المنسوجات البالية قامت « كليوباطرة » بنت الملك المصرى . وهى تضحك ساخرة .

وقد أوتيت كليوباطرة هبة الدقة الزمانية . فكانت طوال حياتها تلعب دورها كأنها ممثلة بلغت فى فنها حد التمام . وقد أوتيت قدرة عجيبة على التنقل بين مختلف العلوم والفنون .

فكانت تشارك علماء عصرها فى الأبحاث الخاصة بالنقش وبصناعة التماثيل وبالشعر وباللاهوت وبسياسة الدولة وبالفلسفة وبالدين .

وكأن شخصيتها العظيمة قد حيكت من خيوط متعددة الألوان فكانت تتألق ذكاء . وكانت فاتنة فى محاسنها وكانت ذات حيلة ودهاء . وكانت قاسية وكانت محبة ودودة . وكانت مستهترة وكانت بارعة فى السياسة وكانت أحياناً تعد فى الكرماء .

وفوق ذلك كله فقد كان بها دائماً ظمأ شديد إلى السلطان الذى لا يحد .

وكانت تجن غراماً بالمجد كما كانت تجن غراماً بالرجال وفى الجملة، كانت إحدى النابغات فى ذلك الفن الجميل فن الحياة ، وكانت تحارب الأقدار . ولا سلاح لها إلا جمالها وإلا ذكاءها . وقد كادت تنجح — كما سنرى — فى تحويل روما إلى إقليم من الأقاليم المصرية . وقد كانت نهاية حياتها مأساة من المآسى . وماذا كان يمكن أن تخبىء الأقدار غير هذه النهاية لهذه المخلوقة المخاطرة .

وكانت كليوباطرة تسمى معشوقة شعراء العالم كلهم . وكانت تسمى أيضاً مضيفة كل عربيد من الرجال . وفى الحق أن عصر كليوباطرة يمكن أن ينظر إليه كأيام الكرنفال فى تاريخ العالم .

وقد جاءت بنت بطليموس أوليت (ومعنى أوليت النافخ فى المزمار) يحف بها الطموح وحب المعالى . وراثة عن أسلافها القواد المقدونيين الذين هبطوا مصر مع جيش إسكندر الأكبر .

وأولئك البطالسة الذين حكموا مصر كانوا صنفاً من الناس قساة لا يعرفون الرحمة .

فبطليموس الأول المسمى سوتر Soter ومعناها « منقذ شعبه » كان اسماً على مسمى كما يقولون . وذلك بإطاحته عدداً من الرؤوس وإسالته أنهاراً من الدماء .

وبطليموس الثانى واسمه فيلادلفوس Philadelphus ومعناها « رجل الحب الأخوى » قتل اثنين من إخوته . وكان مغرماً — كما يحدثنا المؤرخون — بمن ساءت سيرتهن من النساء . وبالنبيذ الذى طال عليه القدم .

وبطليموس الرابع قتل أمه وقتل عمه .

وبطليموس السابع قتل جماعات من شعبه وذلك لكى يعلمهم كيف يحترمون مليكهم . وكأنما كانت الآلهة تسخر من هذا الرجل . فكان اسمه Euer Getes ومعناها « المحسن المتفضل » .

وأما بطليموس الثالث عشر والملقب « بالنافخ فى المزمار » وهو والد كليوباطرة فقد قتل بنته برينيس . ثم ألف مرثاة تتلى فى جنازتها .

وكان هؤلاء البطالسة يحبون سفك الدماء وكانوا كذلك أذكياء . وقد أصبحت الإسكندرية تحت حكمهم. وفى رعايتهم مركز العالم القديم فى الفنون والعلوم .

فقد ازدهرت فنون العمارة والنقش وصنع التماثيل كما سمت الموسيقى والآداب . وكما ازدهرت علوم الفلك والرياضات والفلسفة .

كل هذه الثقافات قد تلألأ نجمها فى الإسكندرية إلى جانب تلك الفنون — إن صحت التسمية — الأقل تلألؤاً وهى فنون التسميم والتقتيل .

والبطالسة — بحكم تسلطهم على أعظم عاصمة عالمية فى التاريخ القديم — قد برعوا فى اللغات . فكانوا يستطيعون أن ينقلوا ما يجول فى خواطرهم الآثمة الشريرة فى لغات متعددة .

وهكذا كان الميراث — ونصفه متحضر ونصفه متوحش — الذى ورثته تلك الأميرة المجازفة الطائشة والتى خرجت من ثنايا السجادة لتسأل قيصر معونته فى استرجاع عرشها .

وكانت تكلمه بلغة لاتينية متقنة فى نبرة إغريقية محببة . وكانت تتبل كلماتها بابتساماتها المغرية وحركاتها اللينة غير المستقرة ونكاتها البارعة . يرفرف فوق ذلك كله علم من شعرها الذهبى المتماوج .

ومن كان يستطيع أن يقاوم سحر هذه الفتاة المصرية الفاتنة

بنت العشرين ربيعاً . فأصبح قيصر ذلك الرجل العجوز الذى شهر بفرط صبوته . والذى كان معروفاً منذ سنين بأنه زوج كل امرأة . أصبح قيصر وقد وجد نفسه فى سن الثانية والخمسين وقد عاد إلى الصبا محباً . عنيف الحب مرة أخرى .

وقد أعاد قيصر كليوباطرة إلى عرشها . وأصبح واحداً من عبيدها يلبي ما يدب فى نفسها من دبيب المنى . وهو ممدوح العالم وقاهره .

وكانت البداية أن أغرت كليوباطرة قيصر بأن يتدخل بأصابعه الملطخة فى المسائل المصرية المرة المذاق . فأقنعته بأن يقتل بطليموس أخاها الصغير ومزاحمها على عرش مصر .

ثم دعته إلى نزهة نيلية فى زورقها الملوكى المذهب . فكان لقاء بين حبيبين دام من غروب الشمس إلى الفجر .

وإذ هما جالسان فى ذلك القصر العائم . الذى تدفعه مجاذيف خمسين من الأرقاء النوبيين كان يطوف حلم ذهبي من أحلام الفتح والغلبة بخاطر تلك الشابة المخاطرة الطموح وخاطر ذلك الجندى القديم .

فكان قيصر يحدوه الأمل أن يصبح — بمعاونة كليوباطرة — صاحب مصر وكانت كليوباطرة بدورها تأمل أن تصبح — بمساعدة قيصر — سيدة العالم .

ولكى يوثقا صلات حبهما . ولكى تضمن هى نجاح

مقاصدها . فقد ولدت له ولداً ووارث عرش .

وبينما هما يجتران أحلامهما الكامنة أصبح أعداء قيصر فى روما على أهبة للعمل وخلق القلاقل . فهددوا بخلعه . وبدأ أصحابه يتنكرون له ويجاهرونه بالعداوة والبغضاء . وقالوا : إنه لا يليق بقائدهم أن يعيش عيشة استرخاء فى مخدع أجنبية وأمامه فتوحاته القديمة يجب أن تدعم . وفتوحات جديدة يجب أن تصنع على عينه .

ولهذا نزع هذا العريس . عريس السّحر والسَّحر . قلبه من بين ذراعى كليوباطرة . وأقلع — على كره منه — لا إلى روما بل إلى بنطوس فى آسيا الصغرى . فقد رأى مما تقضى به الحكمة أن يرجع إلى روما قائداً منتصراً . لا محباً منتصراً . وكان عليه أن يضم إلى بلاده كهدية جديدة بلاداً جديدة خاضعة . وقد نجح فى إخضاع بنطوس وأعلن انتصاره فى ثلاث كلمات سداها ولحمتها « الكبرياء » . وهى « جئت ورأيت وانتصرت » . وقد تعلم — تحت رعاية كليوباطرة — أن يرى نفسه إلهاً وأن يفخر كما يفخر الآلهة .

وعند ما عاد إلى روما أرسل يستدعى كليوباطرة لتشاركه فخر انتصاره . وأسكنها قصراً على نهر التيبر . وبدأ — تستحثه سيدة النيل — يضع الخطط ويدبر المكائد لقلب الجمهورية الرومانية . وقطع على نفسه عهداً أنه يوم يصبح ملكاً سوف

يتزوج كليوباطرة زواجاً شرعياً ويجعلها مليكته . ثم ينقلان عاصمة إمبراطوريتهما من روما إلى الإسكندرية . وهناك من تلك المدينة التي تقع من البحر المتوسط موقع القلب سوف يحكمان العالم .

هذا هو حلم قيصر . أو إن أردت الحقيقة هذا هو حلم كليوباطرة منعكساً فى أعمال قيصر . ذلك بأن أذكى رجل فى روما قد صار آلة فى يدى أذكى امرأة فى العالم . وأصبح مثل قيصر كمثل رجل نائم يتحرك بتأثير سحر من تولى تنويمه . وبدافع من تحريض كليوباطرة تحريضاً لا هوادة فيه . مستعينة بشبابها وبما يقابل هذا الشباب من هوى عنيف يتيم قلب قيصر . بدافع من هذا كله ظل قيصر يتنقل فى خطى وئيدة متلاحقة فى طريقه إلى عرش رومانى فجعل من نفسه قنصلا لمدة عشر سنوات ثم دكتاتوراً مدى حياته وأخيراً الابن الإلهى لجوبيتر إلى الأبد .

ثم أمر أن يُبنى هيكل له ولكليوباطرة . وأقام صورته وصورتها فى المحراب للعبادة العامة .

ونظر أصحابه نظرة خوف وذعر إلى هذا التحلل الأخلاقى يصاب به رجل عظيم بين ذراعى امرأة لا مبادئ لها .

وكتب شيشرون مرة يقول : إنى أحتقر هذه المرأة وعندى ما يبرر رأيى هذا . ولا أكاد أذكر وقاحتها حتى تنتابنى غصة . ذلك لأن هذه الوقاحة تهدد حرية الجمهورية الرومانية بالدمار

والفناء . وحذر شيشرون وقادة الجمهورية الآخرون قيصر مراراً من مكائد كليوباطرة ومن أطاعه هو .

ولكن قيصر ركب رأسه وسار وراء مشورات كليوباطرة وأمر بأن يقام له سرير إلهى فى المعبد . وأن يقام له عرش ذهبى فى مجلس الشيوخ .

ولم تبق إلا خطوة ضرورية أخيرة لتبلغ كليوباطرة غاية آمالها وهى أن يتوج قيصر تتويجاً رسمياً .

ثم جاء اليوم الخامس عشر من مارس عام ٤٤ قبل الميلاد وقد بلغت الثورة النفسية عندها أقصى حدودها ذلك لأنه كان مقرراً أن يتوج قيصر رسمياً فى ذلك اليوم. وأن تصبح كليوباطرة سيدة العالم . . . وفى إحدى محاولاتها لتسكين ما بها من هياج أمرت أن يعلق أحد أرقائها فى السقف ورأسه إلى أسفل . ثم ما لبثت — وقد هدأت أعصابها إلى حد ما بهذا العبث — أن جلست والقلق يساورها وهى تنتظر الأخبار الهامة تجيئها من مجلس الشيوخ .

وفى عصر ذلك اليوم جاءتها الأخبار أن الهدية قد قُدمت إلى قيصر . ولكن الهدية لم تكن التاج الموعود بل كانت تحية قوامها ثلاث وعشرون طعنة من خنجر .

وعادت كليوباطرة إلى مصر والحزن يملأ قلبها . وقد خاطرت كليوباطرة ففشلت . وقامرت فخسرت . ولكنها لم تلبث إلا

قليلا حتى ألقت أوراق حظها إلى القدر مرة أخرى . وكان مُلاعبها هذه المرة جندياً رومانياً آخر. جندياً شاباً . أحلى قداً . وأجمل شكلا وأصلب عوداً وأكثر تدلهاً . يجمع إلى ذلك كله بنوته إلى تلك الآلهة التى لا تعرف الاستقرار وهى آلهة الطموح وحب الرفعة . ذلكم هو مارك أنطوان .

وكان مارك أنطوان من جبابرة المقاتلين . وكان له عقل طفل وشهوة مارد جبار . وكان رجلا ولد ليبهر الأنظار برهة ثم يقتله فرط حبه للمعالى .

وكانت الملح والنوادر تتسابق على خاطره فيغدقها على الشعب تفكهة وتسلية . كما كانت جعبة خواطره ملأى بالتدابير التى تؤدى إلى استعبادهم .

وكانت تنقصه سلامة الحكم على الأشياء . وكان آية فى الكرم كما كان غاية فى القسوة .

وكان الجنود الذين تحت إمرته يعبدونه . فقد كان على مثالهم رجلا مغرقاً الإغراق كله فى المحاسن والمساوئ .

وحدث يوم طُرد هو وفرقته من روما أنه كان — كما يقول بلوتارك — مثالا يحتذى . وقدوة يقتدى بها جنوده . فقال لهم : إن من فارق حياة البذخ لا يجد صعوبة فى أن يشرب الماء الآسن وأن يقتات بالأعشاب وأن تكون فاكهة الصبير حلواه .

والحياة عند أنطوان كانت نكتة لاذعة كان يلقاها دائماً

بعاصفة من الضحك . وكان لا يعبأ بالرأى العام . وكان يقول: إن فلاسفتكم ينبئونكم كيف يجب أن يحيا الرجل حياته ولكنى أنا أنبئكم كيف يجب أن لا يحيا الرجل حياته . وكان يهمل طوال حياته بدافع من الإغراء . لا من التروية والتفكير . فبدافع من الإغراء اهدى إلى طباخه مرة قطعة أرض واسعة ـ ولا تنس أن قطعة الأرض هذه كانت من أملاك رجل آخر ـ استولى عليها بقوة السلاح . وكانت هذه الهدية مكافأة لطباخه على عشاء فاخر قام بإعداده .

وبدافع من الإغراء أيضاً أمر بذبح ألفين من الرومانيين وفيهم شيشرون. ذلك لأن هؤلاء الرجال وقفوا يعارضون آراءه السياسية.

وفى وقت حدوث هذه المذبحة الرومانية (عام ٤٣ ق . م) ألف أنطوان باتفاقه مع أوكتافيان وليبيدوس حكومة دكتاتورية ثلاثية . وهى حكم مطلق يقوم به ثلاثة من رجال العصابات المستهترين الأمجاد . . . وقد أقروا فيما بينهم عهداً بالصداقة الأبدية . وكل واحد من الثلاثة أمضى فيما بينه وبين نفسه أن يطعن زميليه من الخلف فى أول فرصة تسنح .

وقد قسموا العالم فيما بينهم . ولكى يتمكنوا من جمع المال الذى يستديمون به جريمتهم . سموا العهد الذى بينهم اسماً جمع بين حلاوة النغم وبين حسن الأداء وهو : « عهد استتباب السلام الرومانى » .

وقد نُدب أنطوان ليسافر إلى ممالك الشرق . وفى هذا السفر تى كليوباطرة . وأصبح كما كان قيصر من قبل عبدها المدّله. بهذا الولد الهائل الجثة والقادر على قهر العالم وتدويخه . والعاجز عن مقاومة دواعى الهوى كان قد وصل من فوره إلى طرسوس . فدعا كليوباطرة لتجىء إلى تلك المدينة ليبحثا معاً مسائل سياسية ومالية ذات فائدة مشتركة .

فأقلعت سفينة كليوباطرة من الإسكندرية وألقت مرساها ومرسى سفن أسطولها فى مصب نهر Cydnus وجلس أنطوان على المنبر . فى ساحة السوق وانتظر وصول الجميلة الخاضعة المتوسلة . ولكن كليوباطرة لم تكن تعرف التوسل والخنوع فأرسلت إليه تقول : إذا أردت أن ترانى فيجب أن تجىء ضيفاً علىّ فى زورق .

فقبل أنطوان الدعوة وألفى نفسه فى حديقة مسحورة . فعذارى البحر ورسل الغرام والصبايا الغانيات كن يرقصن على سطح الزورق المفروش بالورد بينما كان فتيات من النافخات فى المزمار . يلعبن بالقلوب بموسيقاهن الناعمة . فى جو تغطيه سحابة من بخور عطرى يسحب على الحواس ظلا لطيفاً من النسيان .

ولما رأى أنطوان كليوباطرة فى هذا الإطار السحرى نسى كل شىء . فقد جلست تحت مظلة زينت بخيوط من حرير

وارتدت ملابس تكاد تشف عما تحتها . وحيّت أنطوان بابتسامة تشف عن وداعة ماكرة .

وبعد أن تبادلا ما تقضي به المظاهر الشكلية نزلت به إلى غرفة المائدة حيث مدت مائدة حفلت بأشهى المآكل المصرية . وكانت الصحاف من الذهب والفضة وكانت الفرش من المخمل والكؤوس مطعمة بالأحجار الكريمة .

فلما ذُهل أنطوان لفخامة الوليمة أعلنت إليه كليوباطرة أن هذا كله لم يكن إلا شيئاً تافهاً لا قيمة له . ثم أمرت — وكأن هذا من وحى الساعة — بأن يهدى إليه كل ما كان فى الوليمة من الصحاف والكؤوس والفرش والنفائس .

وردّ أنطوان هدية كليوباطرة بأحسن منها . ذلك بأن أهدى إليها قلبه وزاد فأهدى إليها آماله وحياته. وقد فعل هذا بدافع من استسلامه للدواعي الطبيعة .

ولم يكن يعرف شيئا عن آداب البلاط الملوكى فقد كان جندياً خشن الطباع . كما كان محباً غير مصقول .

وقد ذهلت كليوباطرة أول الأمر مما يصفه بلوتارك «بالخشونة القروية» ثم لم تلبث إلا قليلا — وهى الممثلة البارعة — حتى وفقت بين طباعها وطباعه .

ولما عرفت أن تهكم أنطوان وسخريته كانا بعيدين عن التورية والكناية وأنهما أقرب إلى مزاج العسكرى منهما إلى مزاج نديم

الملوك وصاحبهم استساغت — مماشاة لصاحبها — ذلك اللون من التهكم ولم تر فى ذلك غضاضة . وتتالت المآدب الملكية . وكل واحدة منها تفوق سابقتها فخامة وبذخاً . وكان أنطوان يحاول عبثاً أن يجارى كليوباطرة فى مآدبها . ولكن مآدبه كانت لا طعم لها ولا ذوق . ذلك بأنها كانت من وحى عقل رومانى جامد .

وحدث ذات ليلة أن قال لكليوباطرة — معتذراً لها — إن مأدبته الأخيرة قد كلفته ما يساوى ٢٤٠٠٠ جنيه من عملة زماننا هذا . ثم زاد فقال : ولن يستطيع أى فرد أن ينفق أكثر من هذا على مأدبة واحدة . فضحكت كليوباطرة وقالت : بل إنى لأستطيع ؛ فإن مأدبتى القادمة سوف تكلفنى ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ فقال أنطوان : إنك تمزحين يا كليوباطرة فإن ذلك غير مستطاع .

فقالت — هل تراهن ؟

قال — نعم .

فراهنته كليوباطرة على أن تكون المأدبة الموعودة فى اليوم التالى .

وفى الساعة الموعودة وصل أنطوان إلى زورق الملكة . وكانت المأدبة أقل من سابقاتها بذخاً . فقال صاحبنا مناجياً نفسه . لقد كسبت الرهان ثم رفع صوته قائلا : إننى أقدر تقديراً أولياً أن نفقات هذه المأدبة لا تتجاوز جزءاً من الخمسين مما قدرته وأنت فخورة مزهوة .

فابتسمت كليوباطرة وقالت : انتظر فإن هذا كله ليس سوى البداية . ثم صفقت بيديها وأمرت واحداً من عبيدها أن يجيئها بخوانها وعليه كأس صغيرة فيها خل .

فنظر أنطوان إليها ملياً وقال مناجياً نفسه : ما الذى هى مقدمة عليه الآن ؟

وقد زاد عجبه لما رأى . ذلك لأن الملكة قد نزعت من قرطها لؤلؤة . وقالت فى غير مبالاة وهى ترمى اللؤلؤة فى الخل . إن هذه اللؤلؤة الحقيرة يبلغ ثمنها ١٠٠,٠٠٠ جنيه .

ولما ذابت اللؤلؤة وحلت . رشفت قطراتها فى تدلل وتظرف وقالت : والآن فإنى على استعداد لأن أذيب اللؤلؤة الثانية فأمسك أنطوان بيدها وقال : كفى . . . فقد كسبت الرهان ...

ولم تكن كليوباترة بالغبية . وكان لجنونها خطة مدبرة . وكان لديها سبب عملى يبرر ظهورها بمظهر البذخ لتدل على ثرائها . ذلك بأنها كانت تواقة لأن تجعل أنطوان يحس ويلمس سعة مواردها المالية التى يستطيع أن يتخذها سنداً له فى كفاحه لبسط سيادته على روما .

وكانت رغبتها الوحيدة — وقد مات قيصر — أن توقع العداوة والبغضاء بين أنطوان وأوكتافيان . ذلك لأن لبيدوس وهو ثالث الثلاثة الدكتاتوريين لم يكن شيئاً يحسب له حساب .

وظنت أنها بجمالها وثرائها وبحسن قيادة أنطوان يمكن أن يخلع

أوكتافيان فيجلسا معاً على العرش الرومانى وتبقى كليوباطرة سيدة على العالم . . .

فلما استخفها تجدد حلمها أقلعت إلى الإسكندريةحاملة معها وعداً بزيارة قريبة من انطوان .

أما أنطوان فقد كان به ظمأ شديد لأن يرى بعينيه أموال مصر وثراء مصر . وليستمتع مرة أخرى بقبلات ساحرة النيل الصغيرة ذات الشعر الذهبى .

من أجل هذا لم ين عن اللحاق بالملكة فى الإسكندرية . واستقبل هناك استقبال الملوك وعاش عيشة كلها متعة وكلهاترف

وقال بلوتارك قد يكون من نافلة القول التى لا نهاية لها أن نعدد نزوات انطوان وكليوباطرة فى الإسكندرية فمن تمثيل هزلى إلى حفلات تنكرية إلى حفلات خمر إلى نزهات ورحلات إلى حفلات راقصة إلى سباق عربات إلى غشيان حوانيت الخمارين متخفيين فى زى الفلاحين تارة وفى زى العبيد تارة أخرى .

وطالما انسلوا إلى شوارع المدينة المظلمة يقرعون الأبواب . فإذا فتح الناس أبوابهم ألفوهما يضحكان . وقد نالا نصيبهما الوافى من الضرب مرة أو مرتين من بعض القوم الذين لا يعرفون من هما .

وكانت صحيفة كليوباطرة البيضاء النقية التى يشع منها المرح تقابلها صحيفة أنطوان التى تشع سماجة وثقل ظل .

ومن نوادر أنطوان أنه كان يصطاد السمك يوماً ما وكان حظه غير موات فاستأجر غواصاً ينزل إلى أعماق الماء ويضع سمكاً غضاً فى صنارته . وكان التصفيق يدوى فى أذنيه كلما اصطاد سمكة فى إثر أخرى وكانت كليوباطرة تبالغ فى الإعجاب بحظه . ولشد ما دهش النظارة عند ما رفع خيطه وفيه سمكة مقلوّة . وكانت هذه واحدة من لطمات كليوباطرة . . . فقد أرادت أن تكشف عن حيلته فأمرت عبداً من عبيدها أن يغوص تحت سطح الماء وأن يضع فى صنارة أنطوان تلك السمكة المقلوّة . ثم التفتت إلى صاحبها وقد امتقع لونه من أثر الفضيحة وقالت : اترك صيد السمك لنا نحن المصريين الفقراء . . . أما صيدكم أنتم معشر الأبطال فمدن وأقاليم وإمبراطوريات . . .

ولكن أنطوان كان قد تيمه الحب فنسى مدائنه وأقاليمه وإمبراطورياته فبدد ثرواته العديدة من الطموح والقوة ومن الوقت وهو أغلاها قيمة وأكثرها وزناً .

وإذ هو يعيش عيشة التسكع فى مخدع مصرية كان أوكتافيان يثبت دعائم سيطرته فى روما .

وكان أوكتافيان — وهو ابن أخى قيصر — مزاحماً سياسياً لا يمكن تجاهل أمره وكان ضعيف البنية ولكنه أوتى عقلا قوياً.

وكان محيّاه الشاحب ووجهه المرقّط بآثار الجدرى وأسنانه النخرة لا تدل أية دلالة على الوحش الذى يحتويه إهابه . وهو

يكشر عن أنيابه . وقد سمي « منفـّذ أحكام الإعدام» وذلك لكثرة من عذب وصلب من ضحاياه العديدة .

وكان قاسى القلب . يبالغ فى تقليب الأمور وكان فطناً وكان متجهم الوجه . وكان يكره أن يرى ضوء الشمس وقلما استحم أو اغتسل .

وكان مخلوقاً قمئاً يعيش فى مستنقع من القاذورات والأوحال الجسمية والعقلية .

ذلك هو الخصم الذى يكافح أنطوان ويناضله مزاحماً إياه على العرش الرومانى . وقد بدأ يتحسس طريقه إلى القمة فى مداجاة وخبث . وخطوة فى أثر خطوة .

وكان تواقاً إلى خلق أسباب العراك مع أنطوان . وقد وجد أسباب هذا العراك ناضجة معدة . فقد كانت أخته أوكتافيا زوجة لأنطوان . فوجد السبيل ميسراً أمامه باتهام أنطوان بهجره لزوجته وافتتانه بامرأة أجنبية . وأرسل أوكتافيان اخته — ولو أنه كان يعلم أن هذا عبث لا جدوى فيه ولا غناء — أرسلها لتحاج زوجها فى أن يعود إلى بيته وعائلته .

فلما عادت أوكتافيا إلى روما صفر اليدين اقتحم أخوها دار مجلس الشيوخ مشّهراً بذلك الخائن المرتد عن الدين . وذلك الوحش السكير الذى وعد تلك الفاجرة المصرية بالإمبراطورية الرومانية ثمناً لحبها .

فأقرّه الشيوخ الرومانيون على أن هذا شيئاً لا يحتمل. وأعد أسطول للاقلاع لمحاربة أنطوان . وأعد هذا بدوره – وقد ثار ثائره – اسطولا لمحاربة أوكتافيان . ثم طلق أوكتافيا وتزوج كليوباطرة . وأعلن نفسه محرراً لروما . (كلما نشبت الحرب الأهلية بين ثائرين قديمين سمى كلاهما نفسه منقذ بلاده) وكان أنطوان واثقاً كل الثقة من كسبه للحرب حتى لقد احتفل بانتصاره قبل أن يبدأ القتال .

وكان سفر أسطوله أشبه بصورة تمثيلية منه بواقعة صحيحة وبهذه الروح ذاتها . تلك الروح التمثيلية صحبت كليوباطرة – ومعها فرقة من جنودها – أنطوان إلى موقعة أكتيوم .

وكان مستقر آمالها عند النجوم . فكانا يأملان أنهما عما قريب سوف يصبحان الحاكمين المسيطرين على الدنيا بأجمعها . ولن يكلفهما هذا إلا عملية حربية قصيرة المدى . فأسطولها أكبر وأقوى وقدجهز تجهيزاً أحسن مما جهز به أسطول أوكتافيان وأعد أنطوان نفسه للقتال بسكرة طال مداها . فنى الصباح الباكر من يوم المعركة أذهلته الخمر عن أمره وفى أصيل ذلك اليوم أذهله اليأس عن أمره .

وقد حدث ما لم يكن متوقعاً . فغرقت السفن الكبرى من أسطول أنطوان – واحدة إثر أخرى – أمام السفن التى لا تدانيها مناعة من سفن أوكتافيان .

وقد خلّفته كليوباطرة يحارب وحده عند ما حمى وطيس المعركة وفى تلك اللحظة ذاتها فارقت أنطوان شجاعته . فقد سقط الجندى من عليا سمائه إلى وهدة الحب وأسفل دركاته .

ولم يلبث أن هجر رجاله الذين باعوا أرواحهم بيع السماح ذودا عن حياضه . وتبع كليوباطرة إلى الإسكندرية .

وكان فى هذا القضاء عليه . ذلك لأن العالم قد تخلى عن أنطوان وقد خلا مكانه فى مأدبة الحياة . وكان كل الناس يحتقرون ذلك البطل المنهزم « ذلك البطل الذى سار تحت راية قميص امرأة » . حتى كليوباطرة قد احتقرته . فقد كانت تعرف كيف تهتف للبطل المنتصر . ولكنها لم تكن تعرف كيف تحمس للقتال بطلا منهزماً . وقد غادرها أنطوان كما غادرها قيصر من قبل . ولم تكن هى فى حاجة إليه . فإن نجمه قد أفل .

ولكن نجمها هى لم يخبُ بعد . ومطمحها فى أن تصبح إمبراطورة روما لا يزال تحقيقه ممكناً . إن لم تكن كزوجة لقيصر أو لأنطوان فلتكن كزوجة لأوكتافيان . وقد يقتل أنطوان نفسه وهو انطلاق حسن . . . وقد يجدها أوكتافيان جميلة نادمة مستعدة لأن تكفر عن خطيئاتها . وكليوباطرة . . . ماذا يهمها من يكون ضجيعها . ما دامت تجلس هى على العرش كسيدة تسيطر على العالم .

وكان فى عمليتها الحسابية الأخيرة غلطتان — أفول نجم جمالها . وعدم استجابة قلب أوكتافيان لدواعى الحب .

أما أنطوان فقد قتل نفسه وأما أوكتافيان فقد جاء ليراها . فجاء ورأى وبقى غير مغلوب على أمره . وفى الحق لقد عرض عليها أن يعود بها إلى روما . ولكن لا كزوجته بل كأسيرته .

ولم تكن فى نظره إلا امرأة أسرت فى الحرب . لا أميرة تصلح للجلوس للحكم إلى جانبه .

فابتسمت كليوباطرة وهو يحدثها . ووعدت بأن تكون عند رغباته . وأجمعت أمرها على أن تخضع نفسها للدغة حية . ذلك أولى لها من أن تكون تحت رحمة أوكتافيان .

ولو أنها كانت أسيرة أوكتافيان فإنها قد دبرت أن تهرب إلى مخدعها حية من الحيات فى إحدى سلال الفاكهة .

وهكذا لقيت تلك الأميرة التى ألحت عليها الرغبة فى الحكم والسلطان . وهكذا لقيت تلك الفانية التى ودت أن تحكم العالم وأن تخضعه نصيبها المقسوم من المجد الفانى .

ثم أولمت تلك الجميلة الفاتنة وليمة ملوكية للديدان الجائعة...

جان دارك
١٤١٢ – ١٤٣١

حدث ذات مرة فى يوم عيد يقع فى منتصف الصيف . وجمهور الأتقياء الصالحين صائمون . وقد اقتربت مسافة البعد بين الأرض والسماء . حدث يومذاك أن فتاة فلاحة من قرية « دومريمى » سمعت صوتاً يناديها ويخرجها من صمتها . وكان هذا الصوت صوت زعيم الملائكة ميكائيل وقد قال لها : كونى فتاة صالحة يا چان . وأكثرى من ترددك إلى الكنيسة .

فذعرت الفتاة ولكنها لم تدهش . ذلك لأن أهلها قالوا لها : إن الملائكة يخاطبون الناس أحياناً . فلا غرابة فى أن يكلموها كما يكلمون الناس . وليس الملاك ميكائيل بغريب عنها . فقد عرفت قصته وهى فى حجر أمها . وطالما رأت صورته على جدار الكنيسة . فمن الطبيعى إذن – كما أنبأها قسيس القرية – أن يأمرها بالصلاح وبأن تؤدى فروض الصلاة .

وطوت الفتاة سرها بين الضلوع خوف أن يضحك الناس منها وأن يهزأ بها أهلها .

وفضلا عن ذلك فقد كانت آنئذ فتاة صغيرة لا تستطيع

فهم لغة الملائكة .

ولذلك فقد استكانت إلى الدعة وعاشت فى عالمها المتصل بعالم السماء .

وبعد زمن قصير تراءت لعينى چان صورتا القديستين مرجريت وكاترين مع صورة الملاك ميكائيل وأصبحت تلك الصور الثلاث من الصور المألوفة فى مخيلتها .

وكان عمر چان يوم لقيت الملائكة لأول مرة اثنى عشر عاماً . وكانت أطيافهم تكلمها كل يوم . وكثيراً ما تحدثوا إليها أكثر من مرة فى اليوم الواحد .

وكانت رؤياها لهم رؤيا واضحة . وكانت تسمع أصواتهم فى وضوح بالغ كلما كانت أجراس الكنيسة تدق .

وكانوا أول أمرهم يكلمونها فى مسائل عادية . ولكن الملاك ميكائيل جاءها يوماً وقال لها إنه يرثى لحال الدولة الفرنسية ثم قال لها : — أيها البنت الآلهية — وهذا هو الاسم الذى كان يطلقه عليها — لقد آن الأوان لأن تهاجرى من قريتك وأن تعاونى فرنسا على النهوض من كبوتها .

واستحال شكها الآن يقيناً . فالله سبحانه قد اختارها لإنقاذ بلادها من الغزاة الانجليز .

وكان الناس فى القرن الخامس عشر ليتن منهم إلا من كلمته الملائكة . أو رأى الذين كلمتهم الملائكة .

وكان هناك قسيس اسمه « ريشار » يترجم – كما كان يقول – الأصوات التى كانت تهبط مباشرة من السماء . وكان بذلك يحدث فى باريس موجة من الجنون بالتبشير الأسطورى . وكانَ هناك راهب من رهبان دير الكرمل اسمه « توماس كونيكتا » يقول إنه يتلقى وحيه من ملائكة السماء . وكان يلقى عظاته فى بلجيكا وفرنسا وكان مستمعوه يعدّون بالألوف فى كل مرة . وكانت هناك امرأة شابة فى بريتانى اسمها « بييريت » كانت تدهش مواطنيها بقولها إنها كانت على صلة دائمة بيسوع المسيح . وكان هناك راع من رعاة الغنم الفرنسيين قيل إنه كان يتفصد بدل العرق دماً فى أيام الأعياد المقدسة .

وكان لكل إقليم فى فرنسا رجاله الهستيريون ونساؤه الهستيريات الذين كانوا يعتقدون . ويجعلون غيرهم يعتقد أنهم رأوا . وأنهم كلموا أرواحاً سماوية .

وهذه القصص التى تقص أنباء المعجزات السماوية هى التى غذّت خيال چان دارك فى طفولتها . فهى لم تتعلم القراءة والكتابة أبداً . وكل علمها مكوّن من مجموعة من الأساطير والخرافات التى أدخل فى روعها أن تصدقها وتؤمن بها .

وقد ولدت چان – كما يقول المؤرخ الفرنسى «ميشليه» تحت جدران الكنيسة . وهدهدتها أمها على صوت أجراس الكنيسة وأرضعتها ألبان الأساطير حتى أصبحت هى أسطورة من

وكان بيت والدها يقع فى مكان قريب من غابة يسود الاعتقاد بأن الجن تسكنها .

وكانت چان ترى – بعين خيالها – فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ملائكة تحملهم مركباتهم .

وهناك فى الأفق البعيد تقوم جبال « الفوج » وهى ترتفع بقممها إلى ما فوق السحاب حتى لتكاد تعرج إلى عرش الله .

وتمنت چان لو استطاعت أن تصعد إلى تلك القمم التى تؤدى إلى السموات العلا.

وكثيراً ما جلست على عتبة بيتها تسبح فى عالم من الأحلام وهى تصغى إلى الأصوات التى تأتى من ناحية القرية . وهى تقول لنفسها : أليست هذه الأصوات الصاخبة الغامضة المضطربة هى أصوات الملائكة وهم يتحدثون إليها ؟

وكان خيالها الطفل يوحى إليها أن الحجاب الحاجز بين هذه الدنيا وبين العالم الآخر هو حجاب رقيق وأن فى قدرة الملائكة والناس أن يختلطوا . وأن يتحدث بعضهم إلى بعض كما يتحدث الجيران المتجاورون .

وعلى ذلك فلا غرابة أن تسمع ملكاً من الملائكة يناديك من عليا السماء . كما لا غرابة أن تسمع أمك تناديك من المطبخ .

ولا أثر للمعجزة فى هذا – فى رأى چان دارك – بل

المعجزة كل المعجزة أن تقول لها إن الملائكة لا يكلمون الأولاد الاتقياء ممن تحملهم هذه الأرض .

ومجمل القول أن « چان دارك » قد عاشت فى عالم كان من المستحيل عليها أن تميز بين الواقع وغير الواقع ، فالملائكة قادرون على أن يهبطوا إليها على الأرض . وهى — أحياناً — قادرة على أن تعرج إليهم فى السماء .

فوجودها كان وجوداً سماوياً فيه جمال السماء . لولا ذلك الجيش من الغزاة الإنجليز الذى يعكر صفو هذا الجمال . فقد كان الإنجليز يجتاحون البلاد الفرنسية . وكان الجنود الإنجليز يحصدون ما يزرعه الفلاحون الفرنسيون . وكانوا يحرقون ديارهم وينهبون ماشيتهم .

وكانت « چان دارك » تصحو من نومها أحياناً على صرخات الهاربين من ديارهم من أهل القرى الأخرى . وقد اضطر أهلها هى مرة أن يهربوا بأنفسهم من وجه الغزاة . فلما عادوا ألفوا قريتهم منهوبة ووجدوا بيتهم مسروقاً . ووجدوا الكنيسة وقد أحاط بها اللهب من كل مكان .

وكانت فى حياة « چان دارك » . أو « فتاة دومريمى » كما كانت تسمى حقيقتان بارزتان — تقوى القديسين فى السماء . وما أحاط بفرنسا من شر وويل . وكانت فرنسا عزيزة على القديسين — أو هكذا شاءت أمها أن تدخل ذلك فى روعها يوماً

بعد يوم ــ وأن القديسين يودون أن يفعلوا كل ما يقدرون عليه لطرد « الإنجليز الغاصبين » من أرض فرنسا المقدسة .

وكانت هناك نبوّة أن فتاة صغيرة عذراء سوف تصبح « منقذة فرنسا » فقد أنبأ بذلك الساحر « مرلين » وقد قالت ذلك المرأة الصالحة « ماري دافينيون » التي كانت تكلم الملائكة. والتي كانت تكلمها الملائكة .

وخيّل إلى چان دارك. ثم استحال ذلك الخيال إلى اقتناع كامل أنها هي الفتاة العذراء التي كتب لها أن يكون خلاص فرنسا على يديها . وأن الأوان قد آن لأن تنبئ أهلها بذلك .

وقال لها الملاك ميكائيل : يجب أن تغادري دارك وأهلك وأحبابك وأصحابك وأن ترحلي لتكوني في خدمة مليكك .

فلما أخبرت أهلها بما اعتزمته من أمر . أصر أبوها أن تبقى في بيتها . ذلك لأنه رأى في المنام رؤى مزعجة . وجاءته في تلك الرؤى نذر مشئومة بأن فتاته سوف تسير في صحبة الجنود . ومعنى هذه الصحبة في نظر عقل الرجل هو حياة الدنس والعار . ثم قال لها : إذا جرؤت على ترك هذا البيت فإني لا بد ملقيك في اليم . . .

ثم قامت في سبيل رحيلها عقبة أخرى . ذلك أن أباها قد اعتزم أن يزوجها من واحد من أهل البلدة الفلاحين . بل زاد على ذلك بأن دبر وإياه « قضية الخلف بالوعد » ترفع عليها أمام القضاء .

ولكنها تحدّت والدها وردت يد طلب زواجها . وأقنعت قضاتها بأنها لم تعد أحداً بالزواج مطلقاً . وقالت لهم : إنى قد نذرت نفسي — بوحى من السماء — لحياة الطهر ولواجب إنقاذ بلادى وتخليصها من يد الغاصب .

ولكن ما السبيل إلى القيام بهذا الواجب . وكانت فى حيرة من الأمر فلجأت إلى القديسين من حماتها وقالت : لست أنا إلا فتاة فقيرة لا أستطيع أن أركب الخيل . ولا قدرة لى على القتال . فكيف أستطيع إذن أن أعين بلادى ؟

فنصح لها القديس ميكائيل أن تذهب إلى « روبرت دى بودريكور » سيد مدينة « فوكولير » وصاحب قرية « دومريمى » وقال لها زعيم الملائكة إن هذا الرجل يستطيع أن يمدها بالرجال والعتاد لتسافر إلى « شينون » حيث يعيش ولى العهد شارل فى قصره عيشة الوجل . أو عيشة مليك غير متوج فى بلد مقهور .

وذهبت « چان دارك » إلى مدينة « فوكولير » فى رعاية ابن عم لها اسمه « دوران لاسوا » . وهو الوحيد من أهلها الذى صدّقها . أما أهلها الباقون فلم يصدقوها ذلك بأنهم كانوا منها جدّ قريبين . وكيف تصدق أنت أن ملاكاً من الملائكة يمكن أن يقشر البطاطس فى مطبخك .

ولم ير فيها أهلها وإخوتها شيئاً يدل على طبيعة آلهية : ولم تكن فى نظرهم إلا فتاة مطبخ تولّتها لوثة من حلم سخيف .

وكانت فى نظر « بودريكور » « مخاطرة صغيرة مجنونة » . ولم يكن مؤمناً برسالتها التى خصت بها نفسها .

وكيف يصدق أن فتاة ساذجة . من فتيات الريف بلهجة حديثها الريفية وملامحها التى تقرأ فيها الغلظة والخشونة يمكن أن تكون المنقذة للشعب الفرنسى ؟

ولكن عامة القوم كانوا يرون فيها غير هذا الرأى . وكانوا يرون أن لا غرابة فى أن ينبغ من بين الطبقة الدنيا نابغ يسعى فى إنقاذ بلاده .

وكان قومها من مسيحيي القرون الوسطى . فكانوا يصدقونها فيما ترويه عن الملائكة لا لسبب من الأسباب غير أن الرواية لا تقبل التصديق . . .

ثم اشتروا لها حصاناً . وملابس جندى . وأعدوا لها حرساً من الرجال المسلحين . ثم أهدى إليها « بودريكور » — مدفوعاً بحماسة القوم — سيفاً .

وهكذا سارت « چان دارك » فى ربيع عام ١٤٢٩ وكانت فى السابعة عشرة من عمرها . مصحوبة بحرسها من الرجال . وهى فى ملابس الرجال . وهكذا بدأت مهمتها لتشفى فرنسا من جراحها وآلامها .

وكان هدفها الأول أن تصل إلى قصر ولى العهد فى « شينون » وكان ولى العهد شارل رجلا متذبذباً منهوك القوى . غريراً ساذجاً .

وكان مهرجاً غبياً يؤمن بالخرافات .

ولما أذن لها فى الدخول إلى حضرته . ألفته محاطاً بجماعة من حاشيته . ولم تلق صعوبة فى تمييزه ذلك بأنه كان أقبح من كان فى القصر وجهاً . وتقدمت إليه فى خشوع يليق بمكانته ومكانتها . وقالت له : إنى يا مولاى اللطيف يا ولى العهد فتاة اسمها چان الطاهرة . وقد أراد الله جلت قدرته — موحياً إلىّ بذلك — أن تتوج ملكاً على فرنسا .

فلقيت كلمات چان دارك من ولى العهد أذناً صاغية . ذلك لأنه كان يؤمن الإيمان كله بالمعجزات وبالسحر الذى كان شائعاً فى القرن الخامس عشر . وقد أخبره بذلك أيضاً الساحران « ميرلن » و « مارى دافينون » إذ قالا له إن فتاة عذراء ستنقذ فرنسا .

وها هى المنقذة الموعودة تقف إلى جانبه . تقوده إلى النصر وإلى التاج وسلاحها وصية من وصايا الله .

وقد أعلنت چان دارك أنه اتباعاً لأوامر الملائكة . فإن عليها الآن أن تقوم بواجبين مقدسين : أولهما تخليص مدينة « أورليانس » من الإنجليز الغاصبين . وأن تقود ولى العهد إلى مدينة « ريمس » فتمسحه بالزيت المقدس الذى استعمل فى تتويج « الملك كلوفس » وهو الملك المسيحى المؤسس للعائلة المالكة فى فرنسا .

فصادف هذا قبولا عند ولى العهد . وأقامها قائداً عاماً

للجيش الصغير الذى استطاع أن يجمعه تحت رايته .

ولم يكن بالشيء الغريب فى تلك الأيام أن تحارب النساء إلى جانب الرجال فقد كان عدد الجريحات من النساء فى معركة « أمينس » ثلاثين : وقلما خلا حصار فى القرون الوسطى من نبوغ امرأة فى أعمال البطولة . ولذلك كان من الطبيعى أن يقبل « شارل » خدمات « چان دارك » . وتذكّر بطلات « العهد القديم » وهن « دبورة . وهوديت . وياعيل » اللائى قهرن — بعون الله — أعداء إسرائيل .

وها هى بنيّة جديدة . أوحى إليها من السماء أن تقهر أعداء فرنسا . وكان يتقدمها الملاك ميكائيل وكان على جانبيها القديستان « كاترين ومرجريت » .

وولى العهد اليوم قادر — بمعاونة تلك الفتاة الملهمة — على أن يطرد الغاصبين من بلاده .

ثم أعد لها جيشاً قوامه ٨٠٠٠ جندى وهو جيش كثير العدد فى حساب تلك الأيام . فخرجت تناوئ الإنجليز الذين كانوا يحاصرون مدينة « أورليانس » .

وانظر الآن إلى تلك الفتاة الريفية الأمية الملهمة . وهى قائمة تؤدى فروض مخاطرتها المقدسة فى عدة من سلاحها الأبيض ، وهى تسير على رأس فرقتها ممتطية حصاناً أسود . وهى تحمل فى يديها علماً أبيض رسمت فى رقعته صور الملائكة والقديسين .

ونقشت على حواشيه « زهرة الزنبق » وهى شعار فرنسا القديم .

وقال أحد معاصريها . إن الشعب والجنود بل الحيوانات قد عرفوا رسولا من رسل الله .

وكتب « جى دى لافال » يقول: رأيتها تركب حصانها الأسود الكبير . وهو يصهل صهيلا مزعجاً ويستعصى عليها . فقالت: سيروا به إلى الصليب فى الكنيسة القريبة . وسرعان ما هدأت ثائرة الحصان فامتطته وسار بها دون أن يتحرك وكأنه قد سحر . . .

وكانت « چان دارك » معوّذة بتعويذة من ملاك محارب هبط من السماء ومع ذلك فلم تكن هى بطبيعتها محاربة . وكانت تفضل ــ وكان ذلك ممكناً ــ أن تطرد الإنكليز من فرنسا . بلا حرب ولا قتال . وقد نذرت أن لا تقتل بسيفها أحداً .

فلما وصلت إلى « أورليانس » أملت خطاباً وجهته إلى الإنجليز تطلب فيه إليهم فى كلمات بسيطة جريئة أن يخرجوا . وقالت لهم: إنى أسألكم باسم ملك السموات أن تخرجوا . . .

والإنجليز لم يصغوا ــ بالطبع ــ إلى بلاغها النهائى . وأعدوا أنفسهم ليلاقوا هجومها الذى سجله التاريخ باسم موقعة «أورليانس».

ولم يكن انتصار « چان دارك » على الإنجليز شيئاً خارقاً للطبيعة إذ كان قوام جيشهم ألفين من الجنود تحت قيادة القائد تاليوت . وقد كان غبياً على الرغم من شجاعته . وكان هذا

الجيش يضم عدداً قليلا من الجنود الفرنسيين .

وكان هذا الجيش الصغير موزعاً على القلاع العديدة التى تحيط بالمدينة . ولم تكن بين تلك القوات المبعثرة التى تحاصر المدينة أية وسيلة من وسائل الاتصال . فكان أمراً سهلا على چان دارك » أن تدخل المدينة « بجيش المنقذين » . . .

وكان الإنجليز والفرنسيون ينظرون إلى هذا الجيش كأنه جيش أرسل من السماء . ولم تكن « چان دارك » قائدة ذلك الجيش . بل كان قائده زعيم الملائكة ميكائيل .

وكانت نتيجة لازمة متوقعة أن ينهزم الإنجليز قبل حدوث المذبحة على يد تلك المحاربة الهائلة التى هبطت من السموات العلا لتخرجهم من أرض فرنسا .

وكان الجنود الفرنسيون كما كان الجنود الإنجليز أقواماً من الأوغاد ذلك لأن الجندية فى القرن الخامس عشر لم تكن صناعة الأقوام المهذبين .

وجنود ذلك الزمن لم يكونوا يعرفون فى الحرب معنى المجد . وكانوا ينظرون إلى الحرب كأنها عمل من أعمال المتعة والكسب . حكمها فى ذلك حكم القرصنة وقطع الطريق .

وكانت وحشيتهم وحشية سافرة . وكانوا يقولون: إنه من المستحيل على جندى أن يكون رجلا يعرف التهذيب والاحتشام.

ولكن وجود «چان دارك» مصحوبة بقديسيها غيرالمنظورين.

قد أحال الجنود الفرنسيين إلى عصابات مقدسة نذرت نفسها للقتال .

وكان كل جندى فى الجيش الفرنسى يعتقد اعتقاداً ملؤه التقوى أن فرقاً من الملائكة تحارب معهم .

وكان الإنجليز يشاركونهم هذا الاعتقاد . وإن كان بعضهم يظن أن هؤلاء الجنود السماويين إنما هم شياطين لا ملائكة.

وسواء أكانوا ملائكة أم شياطين . فإن الإنجليز كانوا على يقين أنهم يحاربون جنوداً لا قبل لهم بها .

وكانوا يقولون: إنهم لقادرون على منازلة جنود من سكان هذه الأرض . أما منازلة قوات السماء أو قوات الجحيم فهذا ما لا يقدرون عليه أبداً .

ومجمل القول أن الجنود الإنجليز قد طردوا من « أورليانس» وذلك بفضل خوفهم من منازلة قوات لا قبل لهم بها . قد جاءتهم من السماء . وبفضل تفوق الجنود الفرنسيين عليهم فى العدد .

وكتب « دوق بدفورد » يقول: لقد نزلت بنا ضربة قاصمة كان الله منزلها .

وانتهت معركة أورليانس . وجرحت چان دارك فى آخر يوم من أيام المعركة . ولكن الجرح لم يكن خطيراً . إنما كان طعنة فى الكتف كما سمتها هى فى غير مبالاة . وكان عمقها ست بوصات .

ثم بطل الضجيج . وخمد اللهيب . واستغرق الجنود الإنجليز والفرنسيون فى نوم عميق بعد تلك المحنة القاسية . ولكن چان دارك لم تذق للنوم طعماً . وضمد جرحها . وكانت ترفه عن نفسها بكسرة خبز مغموسة فى نبيذ خالطه الماء الكثير . وهى كل ما أكلته من زاد فى ذلك اليوم . ثم رقدت على محفتها مفتوحة العينين . مستيقظة ترسم الخطوة التالية لرحلتها التى أوحت إليها بها السماء .

وكانت خطوتها التالية أن عادت إلى ولى العهد شارل . وقد زاد جيشها الآن إلى ١٢٠٠٠ .

وكان ينظر إليها فى كل مكان إما كقديسة أو كساحرة . فمن كان يؤيد قضية الفرنسيين سماها قديسة ومن كان يؤيد قضية الإنجليز سماها ساحرة .

والتقت بولى العهد فى مدينة « تور » وسارا على ضفاف نهر اللوار إلى مدينة « ريمس » .

وكان كلاهما يكاد يقتله الشوق . هو إلى أن يضع التاج فوق مفرقه وهى إلى وضع التاج فوق ذلك المفرق .

وقالت له « چان دارك » . يا ولى العهد أرجو أن لا تعقد تلك المجالس مجالس الثرثرة والجدل الطويل وأسرع إلى مدينة «ريمس» حيث تتوج . وقد قالت لى أصوات من السماء : أيتها الفتاة الصالحة اذهبى ثم اذهبى ثم اذهبى . . .

وكأن چان دارك قد عرفت أن أيامها قد أصبحت معدودة. فرأت أن الواجب يقضي عليها أن تؤدى مهمتها قبل فوات الأوان، ولذلك فقد سارت إلى « ريمس » فى سرعة لا تدانيها سرعة. وفر أمامها الجيش الإنجليزى وقد تملكه الرعب القاتل.

والمؤرخون لا ينكرون أن الإنجليز كانوا يبدون بين حين وآخر مقاومة فاترة كما حدث فى « جارجو » وفى « باتاى » وفى « تروى ». ولكن الرجال الملهمين من جنود چان دارك كانوا يخرجونهم من معاقلهم.

وكانت « چان دارك » تحاول ما وسعها المحاولة تجنب القتال. وكانت ترغب فى رحيل الإنجليز عن فرنسا ولكنها لم تكن تكرههم. وكانت تجيش نفسها لمنظر الدم.

وكان يتولاها الحزن لما يصيب أعداءها من آلام وكأنهم من صميم قومها وكانت ترى فى الجريح سواء أكان إنجليزياً أو فرنسياً أخاً لها فى المسيحية قد أصابته محنة وألمت به ملمة.

وبعد معركة « باتاى » بكت أشد بكاء لما رأت الجرحى الكثيرين من جنود أعاديها تمتلىء بهم ساحة القتال.

وحدث ذات مرة أن قتل واحد من أقرب الرجال إليها أحد الأسرى الإنجليز. فنزلت عن جوادها وجثت إلى جانب القتيل وأمسكت برأسه بين يديها وحدثته حديثاً عذباً وهو يلفظ آخر أنفاسه. ولكن رجال عصاباتها المخلصين وهم الذين كانوا

يبيعون أرواحهم بيع السماح ذوداً عن قضيتها ودفاعاً عنها . لم يكونوا قادرين على أن يفهموا ما فى نفسها من عواطف الرحمة والحنان . فعلى الرغم من احتجاجاتها فإنهم قتلوا معظم أسراهم من الإنجليز .

وبلغ الجيش الفرنسى الظافر مدينة ريمس فى ١٥ من يوليو عام ١٤٢٩ . وبعد يومين من ذلك التاريخ توج رئيس الأساقفة « شارل السابع » ملكاً فى الكنيسة الفخمة وحضر هذا التتويج ندماؤه من صنفى الرجال والنساء . ولكن مليكته « مارى دانجو » تركت فى مدينة « شينون » اقتصاداً فى نفقات السفر . فقد جمع « شارل » بين الإفلاس الشديد والشح الشديد . حتى لقد قالوا إنه كان أكثر الناس شحاً .

وبتتويج « شارل » أتمت چان دارك مهمتها الأولى . فقد رفعت الحصار عن « أورليانس » وقد توجت الملك « شارل » ثم ناجت نفسها بقولها : إنى لأتمنى أن لو أذنت السماء بأن أعود الآن راعية . أرعى الغنم كما كنت . . .

ولكن السماء لم تسمح بأن يجاب هذا التمنى . وقد أنبأتها الأصوات السماوية أن تكمل ما بدأته . فقد وصلت إلى قمة نصرها والآن يجب عليها أن تحمل صليبها وقالت « چان دارك » للقوم المصفقين لها فى ريمس : إذا كتب علىّ أن أموت فإنى أتمنى أن أدفن فى هذه البقعة .

ولكن عملا آخر يجب أن يعمل — قبل أن تستعد هى للموت —
يزال أمامها. ذلك العمل هو طرد الإنجليز طرداً كاملا من
بض فرنسا وهو عمل لا أمل فيه .

وعلى الرغم من انتصارها فإن حب الجماهير لها قد بدأ
يضمحل . فقد أصبح جنودها الآن — كما كان أهلها من قبل —
ريبين منها جداً . فامتنع الدافع للعبادة . وقد قيل . « إذا اقترب
لآلهة زالت الهالة التى تحيط بهم » .

وكذلك إخوان « چان دارك » فى السلاح أصبح بريق
معجزاتها لا يبهرهم . ذلك لأنهم قد اعتادوا اتصالها اليومى
الملائكة .

وكذلك عظمة الرؤى السماوية قد استحالت إلى ضوء
النهار العادى .

وكلما طال بقاؤها مع جنودها قل صبرهم واشتد قلقهم .
فقد حرمت عليهم السلب والنهب . ومنعتهم من ارتكاب الدنايا
وأمرتهم بأن يلبسوا لباس التقوى وهم لم يتعودوه .

وقالوا : من أى نوع من القواد تكون هذه الفتاة ؟ تلك
التى تأمرنا بالذهاب إلى الكنائس فى الوقت الذى نريد أن
نقضيه فى المواخير والحانات . وكأنها تريد أن تجعل منا نساء
لا رجالا .

فتمرد عليها الكثير من جنودها وهجرها كثيرون . وكان

أعداؤها فى ذلك الحين يرسمون الخطط التى تودى بها . وكان أعداؤها صنوفاً أربعة . الغزاة الإنجليز وأنصار هؤلاء الغزاة من الفرنسيين وندماء الملك شارل الذين كانوا يتمنون أن يخلو الجو لهم . ثم الغلاة من القسيسين المتعصبين الذين نقموا منها حبها للملائكة وحب الملائكة لها .

وكان الإنجليز على أثر معركة « أجنكور » (١٤١٥) يملكون أكثر الأقاليم الفرنسية شمالى نهر اللوار . وكانت بهم رغبة شديدة فى أن يمتد سلطانهم على مملكة فرنسا بأكملها .

ولكن « چان دارك » تلك الساحرة التى ينفث الشيطان فى روحها لم تكن تصد تقدمهم وحسب بل كانت تهدد بأن تنزع منهم الأقاليم التى ربحوها بثمن غال من التعب والدم . فأجمعوا أمرهم على أن يقفوها عند حدها بأى ثمن .

وكان يناصرهم فى هذا بعض النبلاء الفرنسيين الذين كانوا يأملون أن تكون لهم الغلبة على الملك شارل بفضل انتصار الإنجليز وكان زعيم هؤلاء المناصرين هو دوق برجندى « فيليب الطيب » وحقيقة اسمه يجب أن تكون « فيليب الذى لا يعرف الطيبة أبداً » (وقد كان هذا الرجل أباً لثمانية عشر طفلا غير شرعى) .

وكان تتويج شارل السابع ضربة قاضية على آمال فيليب الذى كان أغنى وأكفأ وأقدر من ولى العهد . وكان فيليب يأمل أن يصبح — وإنجلترا تحميه وتذود عنه — سيد فرنسا .

ولكن ظهور « چان دارك » قد قتل آماله فى مهدها . فأجمع أمره أن يضع يده فى يد الإنجليز للاقتصاص منها عقاباً لها على فضولها وكان أصحابها فى العلن أشد خطراً عليها من غلاة أعاديها . وكان ندماء شارل السابع غير المخلصين وخاصة مستشاره وحاجبه « جورج دى لاترموى » يخشون « چان دارك » لصراحتها وصدق إخلاصها .

وكان هذا الرجل صاحب سلطان وكان خائناً . فقد هجر زوجته الأولى وتزوج بأخرى كان هو قد قتل زوجها . وتقرب إلى الملك بأكاذيبه وملقه. وكان منافقاً من الطراز الأول فى السوء. وكان على تمام الأهبة فى كل وقت أن يخون مليكه . ذلك لأنه كان حليف الإنجليز فى السر . فعمل ما فى وسعه للتخلص من الفتاة القروية التى كانت تستطيع أن تستشف نواياه ومقاصده . والتى تستطيع أن تفتح عيون الملك على خيانته .

وهو لذلك — ووفاء منه لما ركّب فيه من خبث ودهاء — كان يبدى لچان دارك كل توقير واحترام — وهو فى السر — يتآمر على إسقاطها .

ولكن أخطر أعدائها كان أولئك القسيسون المتعصبون من رجال الكنيسة الفرنسية .

فعقد العهد على التمهيد لقتلها بين رئيس أساقفة ريمس وبين أسقف « بوڤيه » وبين رجال الكنيسة فى جامعة باريس .

وحجتهم فى ذلك أنها اجترأت — بغير إذن من الكنيسة — أن تتناول ما راق لها أن تسميه «خطط الآلهة» . مدعية أنها تخاطب الملائكة بالطريق المباشر . وهى بذلك قد انتهكت حرمة الكهنوت ، ذلك لأن الكهنة وحدهم هم الذين يسمح لهم — بفضل مكانتهم — أن يفسروا إرادة الخالق . وأن الكنيسة هى الواسطة بين السماء والأرض . وكانوا يعتقدون أن رؤى چان دارك يمكن أن تجىء من الشيطان . ما دامت تلك الرؤى لا تجيئها عن طريق الكنيسة. وكانت زنديقة « ضالة » . خائنة لرسالة السماء وكانت مصدر خطر لرجال الكهنوت . وعلى ذلك يجب أن تلقى حتفها .

وفى معركة « كمبيين » وقعت فى الفخ الذى صنعه لها قومها وقد باعها آسروها الفرنسيون إلى الإنجليز بتحريض من «ترموى» بعشرة آلاف جنيه من الذهب .

وأسلمها الإنجليز بدورهم إلى محكمة التفتيش ليستوثقوا من موتها . وهكذا حوكمت چان دارك — ولو أنها أسيرة حرب — وحكم عليها كزنديقة .

وكان رئيس قضاتها « بيير كوشون » أسقف « بوفيه » وهو من غلاة المتعصبين . وكان لحم الزنادقة المحترق طيب الرائحة فى معاطسه . وكان للأسقف فى محاكمة چان دارك صالح شخصى وصالح كهنوتى . فقد خسر مركزه كأسقف « بوفيه » بتأييده قضية الإنجليز فى غزوهم لفرنسا . وذلك نتيجة لانتصار چان دارك الحربى .

ولذلك فقد قبل — إرضاء لعاطفة الانتقام عنده — هذه
همة . مهمة محاكمة هذه الزنديقة . عدو الكنيسة المبين .

والإنجليز بتسليمهم چان دارك إلى المحاكمة على يدى هذا
سقف قد أمضوا فعلا وثيقة موتها . وكانوا قد بيتوا نيتهم أن
يدعوها تخرج حية .

وكان من المتفق عليه قبل المحاكمة أنه إذا برأتها محكمة
تفتيش من تهمة الزندقة فعلى المحاكم المدنية أن تحكم بإدانتها
كخائنة .

وإذا نجت من براثن الفرنسيين فيجب أن تقع بين براثن
لإنجليز .

وفى بدء المحاكمة أعلن قسيسان من الذين جلسوا لمحاكمتها أن
لقضية كلها قضية باطلة . فسجن أحد هذين القسيسين وهرب
لآخر قبل أن يقبض عليه .

وكان بالإنجليز ظمأ شديد إلى تعذيبها . ولكن ما شأن
كنيستها المحبوبة فى هذا التعذيب ؟ ألم يكلمها الله عن طريق
الملائكة وعن طريق قديسى الكنيسة ؟

وقالت لقضاتها . « إنى مبعوثة الله . ولا شأن لى هنا . فابعثوا
فى إلى خالقى الذى أرسلنى » .

وحاول قضاتها أن يقنعوها — كما كانوا هم أنفسهم مقتنعين —
بنها مبعوثة الشيطان .

وكان قضاتها ثلاثة وستون يترأسهم « كوشون » وقد قضو حوالى أربعة أشهر فى محاولتهم الفاشلة ليبرهنوا لها أنها كانت ساحرة . وكان جوابها دائماً واحداً لا يتغير وهو : إن الأصوات التى سمعتها كانت من السماء وليست من الأرض . وأخيراً بدأت تستيقن أن الحكم بإدانتها قد أمضى . ومع هذا فلقد بقيت ثابتة وظلت روح الفكاهة غالبة عندها إلى النهاية .

ومن فكاهاتها أنها قالت لقضاتها فى إحدى جلسات المحاكمة وقد ظلوا يتكلمون فى صوت واحد وهم يرمونها بكلمات التعنيف والتعزير . أرجو أيها الآباء الصالحون أن تتكلموا فرادى لا مجتمعين لئلا تختلط أصواتكم عليكم .

وتمت فصول الرواية التى جمعت بين « الملهاة والمأساة » فى نهاية شهر مايو عام ١٤٣٠ . وثبت لدى قضاتها أنها مذنبة .وأن جريمتها هى « المتاجرة مع الشيطان » . وتقبل « بيير كوشون » التهانى من جامعة باريس على روح القداسة والعدل التى سادت المحاكمة .

وحكم عليها قضاة الكنيسة بالموت حرقاً وطبقاً للنظام الكنسى السائد يومذاك فقد أسلموها لجلادى الحكومة لإحراقها .

وهكذا نفض أسقف « بوفيه » يده من الوجهة القضائية . إن لم يكن من الوجهة الأخلاقية من التبعة كلها .

ولكن « چان دارك » كانت أعلم منه وأعرف بالحقائق فقد

صرخت فى وجهه وقد بدأ اللهب يحيط بها وقالت : أيها الأسقف إنى أموت على يديك . . .

ثم لما ارتفع اللهب همست قائلة . إن الله سبحانه هو الذى أرسلنى وأنا الآن أعود إليه .

هذا والسماء ترسل بين حين وحين ملكاً من الملائكة لتعليمنا ، فإذا جاءنا جهلنا ما جاء لأجله وأنكرنا رسالته وطردناه من بيننا .

فى عام ١٤٣١ نفذ الحكم رسمياً فى « چان دارك » كساحرة وفى عام ١٩٢٠ اعترف الناس رسمياً بقداستها . وأعلنوا ذلك فاستراحت فى قبرها . . . »

كريستينا ملكة السويد
١٦٢٦ – ١٦٨٩

كان الطفلان الأولان اللذان أنجبهما الملك « جوستاف أدولف » بنتين وماتت كلتاهما فى طفولتهما .

وتنبأ المنجمون أن الولد الثالث سيكون غلاماً . لا ريب عندهم فى ذلك ولا شك . فإنهم يقرأون هذا واضحاً فى النجوم .

وقد ثبت أن المنجمين كانوا نصف صادقين . فقد كانت كريستينا يوم ولدت ذات بشرة دكناء وجلد أشعر وكان صوتها خشناً حتى لحسبها الناس أنها صبى لا صبية . ثم بدت على حقيقتها صبية غريبة الأطوار .

ثم ظلت طوال حياتها تغلب عليها خصائص الذكورة . فكانت تركب الخيل وتقاتل كما يقاتل الفرسان . وكانت تقص الأقاصيص المخزية فى غير خجل ولا حياء . وكانت تجلس فى وضع هو أبعد الأوضاع عن جلسة النساء وساقاها مرفوعتان فوق مسند الكرسى .

وكانت تفضل الأقمصة القصيرة . أو قل إنها كانت تفضل السراويل القصيرة .

وكانت تقول : إن ملابس النساء وأساليب النساء لا تروقنى لست أطيقها .

وكانت فى الصبر والجلد رجلا من الرجال . فيكفيها من النوم أربع ساعات أو خمس . وتعمل عملا متواصلا مضنياً فى الحر اللافح والبرد القارس على السواء . وتبز مرافقيها من الرجال والنساء فى السير الطويل على الأقدام .

وكانت تبدو لهم كحبة من زئبق فى انزلاقها إلى مخاطرات تتجدد أبداً . فى غير كلال أو ملل . وكانوا لا يعرفون فى صحبتها طعم الراحة لا فى الليل ولا فى النهار .

وكانوا لذلك يأبون أن ينادوها بلقب المؤنث . ويفضلون أن ينادوها بالأمير كريستينا . لا الأميرة كريستينا .

ومختصر القول أن هذا الأمير كريستينا كان يبدو فى طباع الرجال إلا فى خلة واحدة وهى خلة التقلب وعدم الاستقرار . فكانت بذلك بنت جوستاف أدولف امرأة قبل كل شىء وبعد كل شىء .

وولدت وحرب الثلاثين قد انتصفت . وتلك الحرب فى أصلها حرب ألمانية . فكانت كريستينا طوال حياتها تكره الحرب وتلعن الألمان . وسمعت فى طفولتها أقاصيص مفزعة عن سلب الجنود ونهبهم وعن عذاب المدنيين وآلامهم . أو على حد تعبيرها : سمعت كثيراً عن الكلاب الجائعة التى تأكل الرجال وعن الرجال

الجائعين الذين يأكلون الكلاب .

وكانت تسأل قومها كل يوم : لماذا هم يحاربون ؟ فيجيبونها جواباً واحداً لا يتغير — « الله أعلم » .

ومع فرط إعجابها بالشجاعة فقد كانت تكره الوحشية . وخصوصاً تلك الوحشية التى خلت من كل عاطفة وتجردت من كل حس .

فهى لم تنس بشاعة ذلك اليوم النحس الذى تركها فيه أبوها إلى غير رجعة . وكان عمرها يومئذ أربع سنوات . وقد أمسكت بلحيته لتجعله يصغى إلى خطبة وداعها . ومربياتها هن اللائى علمنها تلك الخطبة .

وفى روايتها عن تلك الحادثة تقول : فلما شاهد الملك ذلك أخذنى بين ذراعيه وقبّلنى ولم يستطع لدموعه حبساً . وكأنه كان يحس إحساس الملهمين أنه ملاق الموت عما قريب فى ميدان القتال .

وكانت كريستينا تعجب بأبيها ولا تعبأ بأمها إلا قليلا . وكانت تصفها بأنها امرأة تغلب عليها العاطفة كثيرة التنهدات . بليدة الحس .

ولقد سرت كريستينا السرور كله يوم أخذت من أحضان أمها وهى فى السادسة من عمرها . ليتولى تعليمها وتثقيفها وزير المملكة أوكسنسترن Oxenstiern .

وكان تعليمها تعليم رجل يقوم به رجال . وما كانت تستريح إلى مجالس النساء وما كانت تستريح إلى طرقهن الملتوية ، ولا إلى دراساتهن التي تدعو إلى الدهشة . كدروس التطريز وكتثقيفهن في آداب الدلال والغزل .

ولم تكن كريستينا في حاجة إلى أن تحذق فنون التزيين والتجميل وتكلف الابتسام لتظفر بالإعجاب الأخرق لدى طائفة ممن نالوا ألقاب المجد لأسباب لا تمت إلى المجد بسبب .

وكانت تركب حصانها كما يركب الفتيان لا كما تركب الفتيات . وكانت تطلب أن تقدم لها أطعمة الرجال وكتب الرجال . فمن مقالات في الفلسفة إلى أبحاث في السياسة واللاهوت والفنون واللغات المختلفة . وكانت تقول إن الأمير من الأمراء يجب أن يتعلم كيف يتحدث بمختلف اللغات إلى مختلف الأقوام .

وكانت تلميذة آية في الذكاء مع بعدها عن سهولة التسليم بكل ما يلقى إليها . وكادت تحسب في عداد العبقريات ومع هذا فقد أجبرت بحكم مولدها أن تكون ملكة .

وكانت ترى أنها — كملكة — قد حرمت من أن تسعى في مناكب الأرض تذوق لذة الأمل في النصر كما تذوق لذة الخوف من الهزيمة .

وكانت كريستينا — كما سنرى — قد أوتيت الشجاعة

الكافية لتخرج بنفسها من ذلك المهد المذهب . فأجمعت أمرها على وضع حد لحرب الثلاثين سنة . وكان اتخاذها لهذه الخطوة فضيحة وثورة .

وقد قيل لها فى ذلك فلم تصغ إلى نصائح مشيريها ومضت قدماً فأمضت صلح « وستفاليا » . وكانت يومئذ فى الثانية والعشرين من عمرها . ثم توالت فضائحها . فرفضت أن تتزوج ، وقالت فى ذلك : إن طموحى وكبريائى لا يسمحان لى بإخضاع إرادتى لإرادة رجل آخر . ومن أعمالها التى لا تتفق وجلال الملك تعيينها « سالفيوس » — وهو رجل من الأذكياء ولكن فى حسبه ضعة — عضواً فى مجلس الشيوخ . فلما كلمها وزير مملكتها فى عدم مبالاتها هذه وفى تلويثها دم أصحاب الحسب العالى بدم واحد من أصحاب النسب الوضيع قالت وعلى فمها ابتسامة : إن الكفاءة الشخصية أغلى قيمة وأعلى قدراً من كفاءة الميلاد .

وإذا فكر المرء فى كريستينا بدا له أنها لم تخلق وعليها سمت الملوك وهيئتهم . فهى جسم ضخم قد بنى على ارتفاع قليل من الأرض . وقليلا ما كانت تمشط شعرها بل كانت تربطه فى غير عناية . وكان لها وجه قد لوحته الشمس وكأنه وجه امرأة تعمل فى الحقول . وكان لها أنف طويل وكانت شفتها السفلى متدلية وكان صوتها صوت رجل . فإذا رأيتها حسبتها فتاة من فتيات المطبخ قد ضلت طريقها فدخلت غرفة الجلوس .

ولم يكن بين مرافقيها من جرى فى عروقه دم النبلاء الذين كانوا يمضون أيامهم فى الصيد ويقضون لياليهم فى اللعب ومغازلة النساء . بل كانوا كلهم من الرعاع والسوقة الذين يضيعون وقتهم ووقت الملكة فى أبحاث عقيمة عن الموسيقى والنقش والكتب . ومن أمثلتهم ذلك الأديب«سالفاتيوس » ذلك الرجل الذى كان يتحدث باللغة اللاتينية القديمة بدلا من اللغة السويدية الحديثة .

وذلك العالم « ستيرنهلم » الذى حاول أن يدخل إلى بلاد السويد زجاجة سحرية حارقة اسمها « الميكروسكوب » . والذى بحيلة من حيله قد أشاط لحية واحد من الفلاحين . وكبّر حجم ذبابة بحضور واحد من القساوسة . فألقى الفلاح والقسيس القبض عليه بوصفه ساحراً ومنكراً لوجود الله سبحانه .

وذلك الفيلسوف « ديكارت » الفرنسى الذى حاول أن يعلّم كريستينا أسرار السماء وهى فى حاجة إلى أن تأخذ نصيبها من متع الدنيا وملاهيها .

وقد أحسنت كريستينا صنعاً بإصرارها على أن تتلقى دروسها منه فى الساعة الخامسة صباحاً . وقد سبّب له هذا الصحو المبكر فى طقس السويد أن يصاب بالسل ثم يموت .

وقال رجال حاشيتها . ومع هذا كله فقد ظلت كريستينا معنية كل العناية بأدبائها وكتبها . وقالوا : ما حاجة كريستينا بهذه الكتب ؟ إن واجبها أن تحكم وتملك . لا أن تفكر .

وبالرغم من هذا العذل كله فقد دأبت كريستينا فى تفكيرها وجاءت يوماً فأذهلت رجال حاشيتها وأجمعت أمرها على التخلى عن الحكم وقالت لهم : إنى اعتزمت أن أتخلى عن العرش وأن أبدل ديناً مكان دين. فكان قولها هذا صاعقة ذات شعبتين، فذهل الشعب السويدى وصعق . وقالوا : إن هذه المرأة قد قلبت أوضاع الطبيعة . فإن معظم الناس يودون لو فقدوا حياتهم فى سبيل الوصول إلى العرش . وكريستينا تفقد عرشها لتكسب حياة.

وكان عمرها يومذاك ثمانى وعشرين سنة . ومنذ ذلك الحين لم تصبح شخصاً من الأشخاص العظماء بل أصبحت شخصاً من الأشخاص العاديين .

وقالت كريستينا فى الترجمة التى وضعتها لحياتها إنها تنازلت عن التاج لكى تظفر بالسلام .

وإذا أردنا أن نحكم عليها من أفعالها المقبلة فإنها تبدو لنا كأنها تخلت عن تاجها لتظفر بالتصفيق . فقد برمت بتمثيل دورها كمليكة للسويديين فأرادت أن تمثل للعالم كله دور الرعناء الطائشة . بل أرادت أن تمثل الدور الأول فى رواية من وضعها وتأليفها .

وقد كتبت بعد أيام قلائل من تنازلها تقول : إنى أعرف أن الرواية التى مثلت فيها لم تراع فيها قواعد المسرح .

وهذه الكلمات القليلة الجريئة تبين لنا الهدف الأول لحياة

كريستينا وقوام هذا الهدف أن تذهل الناس بمخالفتها للقوانين . وكانت ترى أن تمثيل أدوارها يجب أن يختلف عن تمثيل أى امرأة أخرى . وكان تنازلها عن العرش أكثر إثارة للعواطف من الانتصار فى الحرب . ورفضت — بعد أن تخلت عن تاجها — أن تخرج من بلادها فى موكب متواضع . وأبت إلا أن تسير فى موكب هو بمواكب الغزاة المنتصرين أشبه .

ثم نهبت ما فى القصر من صحاف فضية وذهبية ومن أثاث ومن تحف غالية وطنافس نفيسة . ثم زادت بأن نهبت جواهر التاج ولآلئه . حتى لقد قيل إن « شارل جوستاف » الذى خلفها على العرش لم يجد فى القصر غير سجادتين وغير سرير قديم .

ولو أنها تخلت عن اسمها الملوكى إلا أنها استبقت حاشيتها الملوكية وهى فى تنقلها من بلد إلى بلد قد جعلت أوربا كلها فى هرج ومرج بمفاجآتها المدوية .

فيوماً يقال للناس إنها قصت شعرها . واتخذت ملابس الرجال وأمسكت ببندقية فى يدها . ووضعت اسمها فى قائمة المحاربين فى فلاندرز تحت إمرة « كونديه » .

ويوماً يقال إنها رغبت فى اعتزال العالم . ثم لا تلبث أن تظهر مرة أخرى فى موكب حافل .

ويوما أعدوا لها أسطولا فى إحدى الموانئ وإذا بها تبحر — عامدة — من إحدى الموانئ الأخرى .

وكانت إذا دخلت قرية ذكّرت أهلها بالملاعب المتنقلة . فتجمّع أهل القرى من كل مكان لكي يهتفوا لأكبر أعجوبة ظهرت فى البلاد المسيحية .

وكانت تارة تبدو فى سمت الملكات وعظمتهن . وطوراً تبدو فى ملابس المهرجين الساخرة .

وكان غرامها أن تفجأ الناس بما يثير دهشتهم . فقبلت مرة — وهى فى مدينة هامبورج — ضيافة صيرفى يهودى . فلما أعلن رجال الدين استنكارهم لهذه الفعلة من فوق المنابر . كان ردها أن المسيح كان يهودياً وأنه استمتع طوال حياته بضيافة اليهود .

وهكذا كانت تسير بروايتها التمثيلية المدهشة . ناقلة مناظرها من «هامبورج» إلى «بروكسل» إلى «أنتورب» ثم إلى «انسبروك» . وكانت تلقى فى كل مكان هتاف الجماهير وتحيات الجنود وأجراساً تدق وألعاباً نارية تنطلق فى الجو .

وفى «أنسبروك» اعتنقت المذهب الكاثوليكى . وكانت تتخذ مذهبها الدينى — ككل شىء آخر عندها — وسيلة للمباهاة .

وقد قيل فى أسباب تحولها إنها الرغبة الصادقة — إلى حد ما — فى البحث وراء الحقيقة .

ولا جدال فى أن القلب الإنسانى آلة موسيقية معقدة . كثيرة الأوتار . ولا يعدم الناس عالماً نفسانياً يستطيع أن يرجع

بدقات قلب المرء على كل وتر إلى سبب من الأسباب الإنسانية.

ولكن يكاد يكون أقرب إلى اليقين أن حب الملكة «كريستينا» لأن تظفر بأحاسيس غير عادية هو الذى دفع بها إلى اعتناق مذهب دينى جديد .

وكان شعارها فى الحياة قولها : يجب على المرء أن يجدد دائماً فى كل شىء .

وقد كان سهلا عندها ان تخلع رداء «المذهب اللوثرى» ذلك لأنها كانت تلبس دائماً هذا الرداء مفكك الأزرار .

وكانت وهى طفلة بل كانت وهى امرأة تقرأ ديوان « فرجيل» أثناء الصلاة فى يوم الأحد .

والآن قد لبست ملابس المذهب الكاثوليكى . ولما أراد قساوسة لوقان أن يضعوا اسمها فى قائمة القديسين أجابتهم قائلة : لا وأشكركم . وإنى لأفضل أن أجد اسمى فى قائمة الفلاسفة .

وقد قيل إنه بعد الانتهاء من حفلة تحويلها إلى الكاثوليكية فى مدينة « أنسبروك » طلبت أن تمثل أمامها ملهاة غنائية . ترفيهاً وتسلية . وقالت للمحيطين بها ؛ من الأليق أن تسلونى بتمثيل ملهاة كما سليتكم بتمثيل مهزلة .

وقد سرها بعد هذا أن تصبح مركز الدائرة لريح عاصفة تتجاذبها الشتائم واللعنات من ناحية اللوثريين والإعجاب والتقدير من جانب الكاثوليكيين. فاتخذت سبيلها — فى تبجح المتبجحين —

إلى روما . لكى تتناول الأسرار المقدسة فى كنيسة القديس بطرس وهى فى ملابس الركوب وعلى رأسها قبعة زاهية الألوان غريبة الشكل .

فكان هذا العمل مدعاة لاستياء الحبر الأعظم من المرتدّة الجديدة وكان يرجو أن يلقى قديسة متوجة . فإذا به يلقى خاطئة غير متوجة . وقلق الآباء الكرادلة لرؤيتهم هذه الخاطئة المختالة المزهوة بين ظهرانيهم . وحاولوا أن يحولوا قلبها فنجحت هى فى تحويل عقولهم . وبخاصة عقل الكاردينال « كولونا » . فقد كان هذا الأسقف المسكين يذّرى الذّرور على وجهه ويغنى لها فى الليل أغانى العشاق تحت مخدعها كأنه أحد الشعراء المغنين بقيثارتهم . ولما وصل هذا إلى مسامع البابا أمر بإخراج هذا الكاردينال من روما .

وأرسل قداسته إلى « كريستينا » سبحة مصحوبة بتحياته ونصح لها أن تدعو الله عدد حباتها أن يغفر لها خطيئاتها .

وردت كريستينا على قداسته فى ابتسامة حلوة يشوبها الصلف أنها قد وجدت فى الكاثوليكية ما يفوق الدعاء على حبات المسابح . فلما حاول قداسته زجرها عن طيشها ورعونتها جثت تائبة نادمة تسأله البركة والدعاء .

ومع هذا فإن الندم — حتى فى حضرة الحبر الأعظم — لم يكن من خصائصها المألوفة .

وترجمة حياتها التى كتبتها لنفسها ملأى بالفقرات التى تنم عن الخيلاء والزهو وتمجيد الذات كقولها : صفقوا لى يا أهل بلادى . . . وكقولها : مجّدوا ذكاء عقلى . . . وكقولها : أيها الخالق أى عقل عظيم وهبتنى . . . فهأنذا كريستينا ملكة السويد ثامن أعجوبة فى العالم . . .

وقد ظل العالم ينظر إليها ويعجب ويصفق. ثم برم بها وبتمثيلها . فقد كانت رواياتها — أكثر ما تكون — تتخللها المفاجآت المؤثرة والألحان المحزنة .

وقد دار بينها وبين كثيرين فى روما عراك طال أمده حتى ملّوها وودوا التخلص منها . وهى كذلك — بدورها — قد ملّت العراك فودت التخلص منهم .

وقد شاهدت بعينيها زوال مجدها . فدعت مرة أربعين للغداء فلم يجب الدعوة منهم أحد .

وغاض معين ثرائها . فرغبت فى العودة إلى السويد — فرعاياها ما زالوا بها معجبين — لتحصل على المال الذى يعينها على إخراج روايتها الكبرى .

فقدم لها البابا ١٠,٠٠٠ كرون هدية لها . وعربوناً على الخلاص منها . فأقلعت كريستينا إلى السويد (فى اليوم التاسع عشر من يوليو عام ١٦٥٦) .

وفى طريقها إلى بلادها عرجت هذه الملكة المتشردة على

فرنسا كفترة راحة – بالغة الأهمية وإن كانت غير لذيذة – فى روايتها التى أذهلت العالم . وبعد مرور موكبها العاصف بعدة مدن فرنسية . امتطت حصاناً كبيراً أبيض والغدارات فى أجربتها وشعرها المستعار غير مرجّل وبدت على محياها سيما النوّر . وكانت يداها قذرتين وفى غير قفاز . وأدهشت العالم بحادث جديد من حوادث جنونها . وهو حادث قتل . وكان مسرح الجناية قصر لويس الرابع عشر فى فونتانبلو . وكان الضحية الكونت « مونالدسكى » المشرف على خيل كريستينا . فقد كتب هذاالرجل خطابات عديدة سب فيها الملكة . وقد وقعت هذه الخطابات فى يدها – وكانت سيدة فضولية ترى مسائل كل الناس مسائلها هى – وواجهته بها .

وأقر «مونالدسكى» بجريمته وطلب المغفرة . ولكن كريستينا لم تكن تعرف شيئاً اسمه التسامح . فدعت إلى غرفتها قسيس « فونتانبلو » وقالت له وهى هادئة مطمئنة : أيها الأب . إنى أترك هذا الرجل بين يديك . فأعده للموت . ثم دعت بالسيافين وكانوا ثلاثة من الهواة لا يعرفون كيف يقومون بمهمتهم . فظل الرجل بين أيديهم يذوق عذاب الموت البطىء ساعات عديدة .

والقتل فى ذاته وحشية . ولكن ارتكابه فى جو من الضيافة . وفى قصر كانت « كريستينا » و « مونالدسكى » فيه ضيفين قد أضاف إلى وحشية القتل شناعة الخلق الذميم . ثم قالت : وقد

أدى هذا القول إلى طردها من فرنسا – نحن أبناء الشمال وبناته ذوو طبائع خشنة لا تأبه لما يختلج فى أفئدة الناس . أما ما فعلته مع « مونالدسكى » فتعليله أنى أرى أسهل وأيسر أن أخنق الناس ذلك أولى من أن أخافهم .

وكانت تحس – بوصفها ملكة سابقة – أن ما فعلته يجب أن لا يشغل الناس أنفسهم بأمره . وكانت تقول : إن للآلهة ولكريستينا قانوناً أدبياً خاصاً بهم . ولنا كل شيء مباح .

ثم ظلت كريستينا – – وهى القلقة دائماً – تبحث عن إثارة جديدة للاحساس . فقد جربت من قبل الانفعال الذى سببه خلعها للتاج . وهى الآن تريد أن تجرب الانفعال الذى يسببه اقتفاء أثر ذلك التاج .

فحاولت أن تصبح «ملكاً» على نابولى. فلما فشلت هذه المحاولة قدمت نفسها لتكون « ملكاً » على بولندة وأعلنت « أنها سوف تبرهن على أن تكون أكبر محارب عرفته بولندة . وهى التى كانت أكبر نصير للسلم عرفه العالم » .

فلما رفض البولنديون هذا الترشيح متذرعين بأنها قتلت « مونالدسكى » وهى مطمئنة البال . قالت « كلا » فإنى لم أقتله وأنا مطمئنة البال بل عنيت العناية كلها أن يتناول الأسرار المقدسة قبل أن يلقى نهايته . ولكن الأشراف البولنديين قد أصمهم دعاءها . وكانوا عن فضائلها عمياً فلم يلبوا نداءها .

ثم أرادت أن تسير قدماً فى إتيان كل عمل مخالف يبعث فى النفس الذهول وهى تقول : « يجب أن يتوقع العالم منى دائماً كل شىء غير متوقع » . فبدأت تجيّش جيشاً لآخر حملة صليبية ضد الأتراك . وهذا الجيش — ككل تدابيرها الأخرى الخطيرة — قد ذاب فى مخيلتها . ولم ير النور أبداً .

وكتب « الكاردينال أزولينى » متهكماً — وكان كبير المشرفين على أمور بيتها — « إن الملكة لقديرة على أن تعلو بآرائها ثم تهبط بها قبل أن تنضج تلك الآراء نصف نضج . »

ثم جاءت أمرّ تجاربها مذاقاً . وهى أن يجر النسيان عليها ذيوله وهى حية ترزق . فقد انمحت ذكراها من عقول الناس . وهى لا تزال تريد أن تذهلهم بفعالها . ولكن العالم قد أبى أن تتولاه الدهشة والذهول . وخرج عليها جمهور مستمعيها ومشاهديها وما زالت هناك بقية فى فصول الرواية. وحاولت أن تختتم روايتها بفصل من فصول الحب يثير الشجن — وهى محاولة يائسة — لتدفئ نفسها فى قلب الكاردينال أزولينى . ولكن الرجال الشبان إنما يضحكون من عقول النساء العجائز .

فكريستينا اليوم قد أصبحت مفرطة السمنة ضخمة الجثة لها ذقن مزدوجة وشعر قصير أشعث . وقد لفت حزاماً حول خصرها الأكرش . وكتبت إلى « أزولينى » الرسالة فى إثر الرسالة تستعطفه أن ينظر إليها نظرة ود . وتقول له : لا شىء فى الدنيا

يحول دون حبي لك حتى ساعة الموت . أما وقد حالت دواعى التقوى بين حبك وبيني . فإنى أعفيك من واجبات خدمتى . وسوف أظل أنا قانعة بأن أعيش وأن أموت أمة لك وخادمة .

فكان « أزولينى » عند قولها . وكتب وثيقة وقدمها لها للتوقيع وقال لها إن هذه الوثيقة هى فى صالح بيتها . ولما كانت كريستينا قد أصبحت لا تستطيع القراءة فقد أمضت الورقة . وكانت وصية تجعل أزولينى وريثها . وكان هذا الإرث يرتفع إلى أرقام الملايين من الكرونات .

وكان أزولينى هو المتفرج الأخير والمصفق الأخير لنهاية هذه الممثلة .

وقال الناس — وإن كان هذا القول لا بد أن يكون خيالياً كقصة حياتها .

«إن شخصاً آخر قد كان حاضراً ساعة أن فاضت روحها . ذلك الشخص هو شبح « مونالدسكى » الذى قتلته فى إبان شهرتها . . . »

أليزابيث باريت براوننج

١٨٠٦ – ١٨٦١

نشأ أبوها فألفى نفسه مالكاً للأرقاء من العبيد ، وكان لذلك يعامل أولاده الاثنى عشر معاملة العبيد الأرقاء . وكان قاموس مفرداته يحتوى على كلمتين هما فى المكان الأول من صفحاته . وهما « الأمر » و « الطاعة » فله « الأمر » وعلى أولاده أن يطيعوا ذلك « الأمر » .

وكان رحيما بهؤلاء العبيد الصغار الذين هم من لحمه ودمه رحمته بكلابه .

ولكنه كان يستقطر من أولاده آخر نقطة من ذلك الولاء الذى لا يعرف المروق دون أن يناله منهم نبحة أو عضة .

وقد بنى لهم ولزوجته — وهم لم يستشاروا بالطبع — قصراً هو بقصور الشرق الفخمة أشبه . ثم وضع كل واحد منهم فى خلية مذهبة من خلايا ذلك القصر ثم أغلق الباب دونهم .

وحدثتنا أليزابيث : « أنها طالما تاقت نفسها أن تنفلت — والقوم كلهم نيام — فتهرب هروب الروح من سجن الجسد . وتتخطى المروج وتسير فى الدرب حتى تبلغ الجبل فترتع وتلعب

فوق الجبال ساعة أو ساعتين ثم تعود إلى البيت قبل أن يصحو أولئك النوّام .

ولكن عبد الرق لا ينبغي له أن يأبق ويهرب من مالكه .

وحرّم على أليزابيث أن تخاطر كما يخاطر الأطفال وهم يلعبون . فكان عليها أن تقنع بمخاطراتها الفكرية . ولم يكن « مستر باريت » يمانع مطلقاً فى أن تستمتع بتلك المخاطرات الفكرية .

ويجب أن نذكر — لوجه الحقيقة — أنه كان يشجع هذه المخاطرات أو الألعاب الفكرية .

وقد بدأت صاحبتنا — والفخر بقدرتها الشعرية يملؤها — تقرض الشعر وهى تكاد تكون فى المهد .

وقد أذن لها أبوها أن تطوف بمكتبته كلما شاءت . وكان يقول لها : اقرئى الكتب التى فى هذا الجانب من المكتبة . ثم لا تقربى أبداً الكتب التى على الجانب الآخر ذلك لأنها كتب ممنوعة . ومن تلك الكتب الممنوعة — « تاريخ جيبون » ورواية « توم جونس » للروائى هنرى فيلدنج . وأمثالها .

وفى الجانب المباح كنت تلقى : أفلاطون وشكسبير وهوميروس وملتون والكتاب المقدس .

وفى هذا الجانب أيضاً كنت تلقى : وقد غاب هذا عن فطنة مستر باريت ويقظته — عصر العقل « لتوم بين » و« قاموس

الفلسفة » لفولتير « وورتر » لجوته . ومقالايت « هيوم » . وقالت أليزابيث : وهى كتب لم تتولانى الريبة عند النظر إليها . ولكنها كتب لا تقل أثراً عن تلك الكتب المحرمة الممنوعة .

وقد أوتيت أليزابيث روحاً متمردة جبارة فى جسم ضئيل . وكأنها كانت جنية صغيرة فى عالم ترابه من عبقر .

ومن أقوالها — « إن الكتب والأحلام كانت عالمى الذى أعيش فيه » . وبخاصة كتب هوميروس . وكان يلذ لها أن تقرأ حصار « طروادة » . ورحلات عوليس ومأساة « هكتور » . حتى لقد صنعت فى حديقتها تمثالا ضخما من الحشائش لهكتور. وجعلت فيه عينين زرقاوين وخدين متوردين ووضعت على صدره لوحة من ذهب .

ولم تكن بطبيعتها صانعة تماثيل ولكنها كانت شاعرة . وفى الثامنة من عمرها أدخلت السرور على أهلها بدفتر حوى قصائد غنائية وأناشيد . وفى التاسعة من عمرها . صنعت قصيدة من شعر الملاحم . وفى العاشرة ألفت مأساة بالفرنسية مثلتها هى وإخوتها فى غرفة الأطفال .

وفى الثالثة عشرة أتمت ملحمة فى أربعة أقسام عن معركة « ماراتون » . وقد أعجب والدها بهذه الملحمة حتى لقد أمر بطبع خمسين نسخة منها . وكانت أليزابيث فخورة بسرور والدها حتى لقد أهدت القصيدة إليه . وقالت فى الإهداء : « إلى الوالد

الذى تغمرنى إنعاماته التى لا تنقطع . والذى لا أستطيع أبداً أن أجزيه جزاء حبه . أقدم هذه الصفحات شهادة صغيرة تنطق بعرفان الجميل » .

وكانت أليزابيث . كما كان كل إخوتها وأخواتها . يعجبون إعجاب العبيد الأرقاء بحكم والدهم ذلك الحكم الذى يقوم على الظلم المنطوى على الإحسان والخير .

وقد استأجر هذا الوالد الظالم المحسن معلماً لولديه الكبيرين (أليزابيث وإدوارد) وقال له إن التعليم يجب أن يكون كله كلاسيكيا . وكان علم الحساب عنده من المحرمات المنهى عنها . وكانت أليزابيث إلى آخر أيام حياتها تحسد من الناس من وهب القدرة على أن يضرب الرقم ثلاثة فى الرقم ستة . دون أن يستعين بالعد على أصابعه .

وكانت قليلة الحظ فى العلم بالرياضيات وكانت وثنية مشبوبة الهوى . وقد أولعت — بتوجيه من معلمها وكان أديباً مكفوف البصر اسمه هـ . س . بويد — أقول قد أولعت بالقدماء من آلهة الأولمبيين حتى لقد كانت تقدم لهم القرابين فى الخفاء .

وكان والدها يشجعها على المضى فى دراساتها الإغريقية وكان يجهل ميولها الوثنية . ولو علم وهو المسيحى التقى بتلك الميول الوثنية لصعق إذا سمع فتاته تقول فى صلاتها بالليل . « أيها الإله — إن كان هناك إله — أنقذ نفسى من مهاوى الهلاك إن كانت لى نفس» !

وكانت أليزابيث فى السادسة والعشرين من عمرها عند ما خطت أولى خطواتها فى طريق الثورة الصريحة على الأوضاع . وكانت تختار للترجمة الأشعار الإغريقية القديمة التى تمت للثورة بسبب متين . كاجتراء بروميثيوس الجبار على مناقشة الإله زيوس أبو الآلهة وسيدهم . وفى اختيارها لهذا الموضوع تشير أليزابيث من طرف خفى أنها هى أيضاً تود أن تناقش سلطة زيوس فى بيتها وهو أبوها وأبو إخوتها وسيدهم .

ولكن هذه الثورة من جانب أليزابيث كانت ثورة مخففة . ولم تكن ترجمتها « لبروميثيوس » إلا إشارة خفية لا إعلاناً صريحاً لرأيها فى استبداد والدها . أو قل إنها إشارة خفية من العقل اللاواعى لا من العقل الواعى . ذلك بأنها لم تكن إلى تلك الساعة تعرف أن والدها كان على غير حق .

وكانت ترسف فى الأغلال والقيود ولكنها كانت تظن أن تلك الأغلال والقيود قد يكون فيها الخير لها . ذلك لأن والدها قد قال ذلك القول . ومن المقطوع به أن والدها كان طاغية رحيما . وكانت له القدرة على أن يكون ظريفاً جداً أحياناً . وعلى أن يكون مفكراً يطيل التأمل والتفكير . وعلى أن يكون مرحاً يطلق النكات ذات اليمين وذات الشمال . وكل هذا إذا لم يقم فى سبيل ما يريده متحد أو معارض .

وكانت طريقته فى اختيار الكتب التى يتحف بها فتاته أن

يقرأها فإذا راقت له أباح لها قراءتها .

أما الصور فكان يختار لها صور « رمبرانت » و « تيتيان » و « أندريا دل سارتو » . وكل صورة تروق لها . على أن تروق له أولا . وكانت فى هذه المرحلة كسيحة مقعدة . فقد نهك قواها احتقان فى الرئتين . وقد لازمها هذا الضعف طوال حياتها ، فكانت تظل دائماً فى غرفتها . وقلما كانت تفتح النوافذ وقلما كانت تزيح الستائر لتأذن للشمس فى الدخول .

وكان والدها يحسن إليها الإحسان كله . فكان يقرأ لها ويدللها ويحضر لها ما تطلب من دواء . ولو أنه لم يكن ممن يوصى باللجوء إلى العقاقير وكان يقول لها : أولى لك ثم أولى أن تقللى من العقاقير وأن تكثرى من مقادير اللحم » .

أما الرغبة التى لا تجاب أبداً فهى أن ترى فى صحبة واحد سواه .

وكان « مستر باريت » شديد الغيرة إلى حد الجنون على أولاده . فهو لا يسمح أبداً بأن يشاركه فى حبهم غيره . فهو لم يدع إلى طعامه أحداً . ولم يسمح لأولاده أن يدعوا إلى طعامهم كائناً من كان . حتى لا يتحدثوا أو يتحدث إليهم كائن من كان . أما الأحاديث التى تجيئهم عن طريق الكتابة والكتب فهى أحاديث قد مرت تحت سمعه وبصره فراقبها وأقرها .

وفى رقابته على مخالطى أليزابيث قد أجاز أبوها استثناء واحداً

وهو صحبتها لكلب صغير من كلاب الصيد واسمه Flush .

وكان هذا الكلب مستبداً كثير التجنى فإذا سمينا مستر «بارت» المستبدالكبير وجب أن نسمى Flush المستبد الصغير . وكان Flush فى طعامه كثير التشهى كأنه إحدى السيدات المدللات . فإذا لم يعجبه الطعام ولى وعلى محياه دلائل الترفع والازدراء .

وكان لا يأكل لحم الدجاج ولحم الخراف إلا مشوياً . لا مسلوقاً . وكان يعاف القهوة إذا لم تصحبها الفطائر . وكان لا يأكل «البسكوت» إلا معجوناً بالزبد والسكر . وكانت شرائح اللحم تقطع قطعاً صغيرة لكى يستطيع أن يستعمل الشوكة . وإلا فلن يذوقها .

وبالرغم من هذا كله فقد كان هذا الكلب سلوة أليزابيث الدائمة كما كان مصدر قلق دائم لا ينقطع .

وكانت له طريقة فى أن يبيح للناس خاطفى الكلاب أن يخطفوه . وكانت أليزابيث تقول : إنى لعلى يقين أنه يفعل ذلك عامداً .

وكان أولئك الخاطفون يصرون فى كل مرة على أن يردوه لقاء فدية لا تقل عن عشرة جنيهات .

وكانت أليزابيث جد سعيدة بأن تدفع الفدية لتسترجع ذلك المستبد الصغير وتعيده إلى موطن سيادته بين آل « باريت » .

وكانت هذه السيادة كسيادة مستر باريت تشوبها الأنانية والرغبة فى الاستئثار بحب أليزابيث . فكان ينبح كلما دخل البيت داخل . وكان يرى أن لا يقف أحد فى سبيل استئثاره بها حتى لو كان ذلك الواحد ذلك الشاب الجميل الذى كان يدخل البيت أحياناً على حين غفلة من مستر باريت .

وكانت هذه الحالة لا تعجبه وكان يعبر عن سخطه بالنباح . وليته كان يستطيع الكلام إذاً لحذر مستر باريت وأنذره . . .

ولكن مستر بارينت ظل — لحسن الحظ — غير عالم بأن بنته تفسح فى بيته مكاناً لزيارات شاعر شاب . وكان كذلك غير عالم بأن هذا الشاعر قد كان بينه وبين بنته رسائل قبل أن يتلاقيا — فى أول زورة — ببضعة شهور . وكانت هذه الرسائل ثانى اثنين من أسرارها التى أخفتها عن والدها وهما : الكتب الممنوعة والحب الممنوع . فقد وصاها أن تنأى بجانبها عن ذلك الجانب من « المكتبة » وعن ذلك الجانب من « الحياة » . ولكن كان من تدابير القدر أن يفلت من الرقابة أحياناً « كتاب ممنوع » « وشخص ممنوع » وهذان الممنوعان كانا : كتاب « عصر العقل » و « الشاعر روبرت برونتج» . وبذلك وجد « المنطق » و « الحب » طريقهما إلى السجن الذى تقيم فيه أليزابيث باريت. وكان السجان عن ذينك الممنوعين من الغافلين .

وكانت أليزابيث يتولاها الذعر كلما فكرت فى العاقبة إذا صحا

السجان من نومه . وأفاق من غفلته .

وطالما حاولت أن لا تشجع « روبرت براوننج » على زيارتها وعلى إرساله الرسائل لها . لا كراهة منها — فقد كانت هذه الرسائل والزيارات مصدر سعادة لها لا تحد — ولكن خوفاً من عاقبة تلك الأمور إذا علم أبوها . فقد كانت وصيته الوحيدة : يجب أن لا تفعلى . . . وهذهالوصية يجب أن تطاع فى كل حين ، وبخاصة فى هذا الوقت . ذلك لأنها قد أغضبته مرة من قبل بأن أصرت على الذهاب إلى شاطئ البحر فى رحلة ومعها أخوها « إدوارد » وكان هذا أحب إخوتها إليها . وكانت تدلله فتدعوه « Bro » وهو اختصار لكلمة Brother وكان هو يدعوها Ba وهو اختصار لكلمة Baby وكان هذا الاخلاص فى الصحبة بين Bro و Ba حديث القوم فى بيت « باريت » .

ولكن عند ما اقترحت أليزابيث أن ترحل مع أخيها فى رحلة إلى شاطىء البحر فى « توركى » تميز أبوها من الغيظ . وقال إن من الجنون الذى ليس بعده جنون أن ترتحل المرأة فى أيام عطلة أو أجازة . ومن سمع بذلك من قبل؟ ولكن أليزابيث أصرت وألحت فى أصرارها . ورضى لها أبوها ذلك فى النهاية . وقال لها : حسناً يا أليزابيثوالمسئولية فى هذا على عاتقك . . .

فقالت له أليزابيث : سأتحمل مسئولية هذا يا أبى . . .

وسار أدوارد فى صحبتها إلى « توركى » . وركب يوماً زورقاً

شراعياً مع واحد من أنداده وسرعان ما فوجئت اليزابث بعاصفة من الصراخ والزعيق وسرعان ما قذف البحر بجثى الشابين إلى الشاطىء .

ومنذ ذلك الحين يتولى اليزابث الفزع القاتل إذا فكرت فى مخالفة أوامر والدها ونواهيه .

ولذلك فقد تلقت باحساس من الفرح يخالطه الضيق والقلق أول كتاب جاءها من مستر روبرت براوننج . وكانت قد أصدرت منذ قليل جزءاً من ديوان شعرها . وهذا الشاعر الشاب النابغ حقاً والذى يفوقها شاعرية قد كتب لها يقول فى كلمات تشع ضياء : « إنى أحب أشعارك حباً لا يدانيه حب » . بهذا استهل الشاعر خطابه . فأمسكت صاحبتنا عليها أنفاسها ثم مضت تقرأ : « إنى أعيد القول إنى أحب هذه الأشعار حباً لا يدانيه حب.أيتها العزيزة الآنسة باريت. وكذلك أحبك أنت... وأعادت هى قراءة الكلمات الأخيرة : وكذلك أحبك أنت . . . وهى كلمات ظريفة من واحد من الآلهة الشبان الظرفاء . ولكن هذه كلمات خلت من المعنى . ما فى ذلك شك ولا ريب . فهما لم يتلاقيا من قبل . ويبدو أن مستر براوننج لم يكن يعرف أنها كسيحة وأنها امرأة — فى رأى نفسها — قاتلة . فقد ساقت أخاها إلى حتفه بمخالفتها إرادة أبيها مخالفة لا تغتفر .

وعلى هذا فلا ينبغى أبداً لمستر براوننج أن يأتى ليراها . ولا

ينبغى له أن يضل فى أمرها . ويجب — كرامة لمستر براونج وكرامة لوالدها — أن يبقيا . لا تجمع بينهما صلة . وأن تكون بينهما فلاة إلى غير اللقاء تجاب .

وكان مستر براونج يضمر لها الخير كله . وكان غاية فى القوة . وكنت تعرف فى وجهه نضرة النعيم . وكان يصغرها بخمس سنين . فقد كانت حينئذ تهدف إلى الأربعين . وكانت صلتها بالقبر صلة الجار الجنب . فكيف تلز فى قرن تلك العليلة المريضة المسنة وذلك الشاعر القوى الملهم .

وفضلا عن ذلك فماذا يظن والدها فى هذا النوع من الصحبة حتى على فرض إمكان تلك الصحبة ؟ وقد سبق لوالدها أن أبدى رأيه فى هذا النوع من الصحبة . فى حالة أختها « هنريتا » . فقد تجرأ ضابط شاب أن يدخل البيت ليراها . ولقيه أبوها فى البيت يوماً ما لقاء غير متوقع فطرده شر طردة .

وكان بالمستر باريت مس من جنون ضد أى نوع من أنواع الابتهاج يبدو على بناته . ذلك لأن الابتهاج — وهو خاطر من الخواطر المزعجة — قد يؤدى إلى الزواج . وكان هو يعتقد اعتقاداً جازماً . أن زواج بناته هو أشنع الجرائم الدنيوية .

وكانت كراهة الزواج غريزة من غرائز هذا الرجل الفطرية. مع أن حياته الزوجية كانت أقرب إلى الحياة السعيدة . ولكن — وقد ماتت زوجته — فإنه يعتبر نفسه زوجاً لبناته .

والويل لمن تجسر منهن على التفكير فى الضماد بزواجها من رجل آخر .

من أجل ذلك ظلت اليزابيث — وهى تستمع إلى غزل برونج فى رسائله — تتردد بين لا ونعم . وكتبت له مرة تقول : «قلت لك فى الليلة الماضية . نعم . واليوم أقول لك يا سيدى . لا . ذلك لأن الألوان التى تراها فى ضوء الشمعة تختلف ماهيتها إذا رأيتها فى ضوء النهار» .

وما يبدو ممكناً فى ضوء الرواية التخيلية يبدو بعيداً عن التصديق فى ضوء غضب والدها .

ثم توالت رسائل برونج وقد برح به حبها وزاده جوى فكتب إليها يستعطفها أن تسمح له بزيارتها . وكان جوابها دائماً أن تلك الزيارة يجب أن تؤجل إلى يوم آخر أو إلى شهر آخر أو إلى عام آخر .

فتكتب له مرة أنهما سوف يلتقيان فى الربيع فإذا كتب لها أن الربيع قد جاء مبكراً فى شهر فبراير . كتبت له تقول إن ربيعها يبتدئ متأخراً فى شهر مايو . . .

فلما ظفر منها آخر الأمر بموعد مضروب ترددت ولامت نفسها على ما بدا منها من طيش وما بدر منها من رعونة . وقالت لنفسها : لقد كنت طائشة فى البداية . وظل الطيش يلازمنى . فتنكبت الجادة والطريق السوى وسرت أتخبط والأشواك تدمى قدمى .

وأخيراً وفى يوم ٢٠ مايو من عام ١٨٤٥ أتيح لبروننج أن يجىء إلى شارع « ويمبول » . وكتبت له أليزابيث تقول : إن وقت الزيارة يجب أن يكون بعد الساعة الثانية وقبل السادسة . فقد كان « مستر باريت » يعود دائماً من عمله فى المدينة فى الساعة السادسة . ويجب أن لا يلقى مستر باريت هذا الشاب الغريب فى بيته .

فوصل بروننج فى الساعة الثالثة . وكانت أول تحية تلقاها : نبحة بل زمجرة من جانب كلب أليزابث . ولكن اليزابث هدأت من روعه وأسكتته . فجلس الكلب ونظر إلى بروننج نظرة ملؤها العداوة والبغضاء . بينما كان الشاعران يتنقلان بين مختلف مواضيع الحديث . إلا ذلك الحديث الذى هو أقرب إلى قلبيهما .

ثم اعتاد الكلب حضور هذا الدخيل . ذلك الدخيل القوى النشيط الذلق اللسان والشاب الحبيب إلى قلب سيدته . فقد كانت زياراته لها تفعل فعل الدواء المقوى المنعش لهذه السيدة الكسيحة .

وفى ضوء تشجيعه نهضت اليزابث من فراشها وسارت خطوات إلى المكتبة . ثم حدثت معجزة المعجزات . . . فقد سارت وإياه مسافة قصيرة فى الشارع وكان يسير فى أعقابهما Flush يهز ذيله . وكان الكلب قد بدأ فعلا يستخف ظل هذا الشاب . وعلى أية حال فقد كان استبداد Flush أخف وطأة

من استبداد مستر باريت .

وكان من دواعي الحظ السعيد أن مستر باريت لم يكن يعرف شيئاً عن زيارات براوننج لابنته . وقد سعى هذا مرة أو مرتين ليلقاه وكان يقول : « إنى لواثق أنى إذا تحدثت إليه فسوف أجعله لا يعارض فى أن نكون صاحبين » .

ولكن أليزابيث كانت تعرف أباها وكانت تقول لصاحبها : « يمكنك أن تزيل ثلث نجوم السماء بحركة من أهداب عينيك. ولكنك لن تستطيع أن تجعل مستر باريت يرضى عن صحبتنا » .

فاضطرا لذلك أن لا يبوحا بسرهما لوالدهما . ثم انزلقا فى سرعة من درجة « الشعور بالصحبة » إلى درجة « الصحبة » ومن درجة الصحبة إلى درجة « الحب » . وكانا يكتب كلاهما لصاحبه عقب كل زيارة كل كلمة لم يجرؤا . أن يجهرا بها وهما ملتقيان .

فكتب إليها كلمة اعتراف فى واحد من خطاباته يقول فيها : « لو استطعت أن أنبئك . . . أن أنبئك ؟ أية سعادة عليا سوف أحظى بها يوم أظفر . . . مهما يكن هذا اليوم بعيداً . . . .

وأجابته هى بقولها — لو أنى كنت أختلف عما أنا فيه فى بعض حالاتى. . . ولو أنى كنت حرة فى الحالات الأخرى . . . إذن لتمنيت أن أتقبل بالسرور هذه المنحة الكبرى . منحة سعادتك . . . أقول — لتمنيت . . . ولا أقول — لتقبلت . . .

ذلك لأنها كانت لا تزال مترددة . وكانت تقول — لو كنت أختلف عما أنا فيه . . . ولو كنت حرة من القيود . . . ولو كنت أصح جسما وأقوى إرادة . . .

وكانت تظن أنها قطعت فى طريق المرض شوطاً طويلا . وكانت ترتب على هذا الظن أنها لن تستطيع أبداً الاستمتاع بسعادة الحياة الزوجية .

ومن مأثور قولها له فى ذلك :

« لقد تلاقينا متأخرين فمن البعيد جداً أن نتلاقى أيها الصديق . ولا أكثر من صديق . . . إنى أحس أن كفى المرتقب يلف حول قدمى . فاذا خطوت أنا أو تحركت أشرفت على النهاية . . . »

ولو كانت قوة صاحبتنا البدنية تتيح لها أن تقبل أن تكون له زوجة فان إرادتها المقيدة لا تتيح لها ذلك . فقد عصت والدها مرة فأفقدته ولداً من أولاده . وهى لن تجرؤ أن تعصيه مرة أخرى فتفقده بنتاً من بناته . . .

ولكن برونج ظل متحمساً فى مطارحاته الغرامية . وأخيراً رضيت أليزابيث بأن تتزوجه . وأصرت على أن يبقى هذا الزواج سراً لا يباح به . وقالت لو أننى اخبرت والدى بهذه النية إذن لتمنى أن يرانى ميتة تحت قدميه . وانه ليقول هذا القول . وانه ليعنى ما يقول . . . وإنه ليمعن فى ما يعنيه . . . وهذا هو ما وقع فعلا من

والدها عند ما ركبت أليزابيث رأسها وأقلعت السفينة بها إلى إيطاليا وهي . «السيدة أليزابيث باريت برونج » . فقد قال : « إن بنتى الآن فى قبرها . فلننس الأموات . . . »

وأصبحت أليزابيث فى جو جديد من السعادة . وفى ذكرى قديمة من الحزن والأسى . فإن شبح طغيان والدها يحوم حولها ويطوف بها أينما ذهبت .

وكانت تضيق أنفاسها قبل زواجها بنقيقه الدائم وصخبه الذى لا ينقطع . والآن فان أنفاسها تضيق بسكوته الدائم وصمته المطبق . وقد كتبت له ألف مرة ومرة ترجوه الصفح وتسأله المغفرة . ولكنها لم تظفر بكلمة منه .

ولكن سعادتها أتاحت لها أن تنسى حزنها أحياناً . وكان برونج لا يفارقها أبداً . وأصبحت الآن تستطيع أن تمشى . ولكن زوجها الشاعر كان يصر دائماً على أن يحملها إلى الدور الأعلى استمتاعاً بلذة حملها . واستقر بهما النوى حيناً ما فى « بيزا » . وكان ذلك الزمن زمن اللعب غير المقيد بالقيود لهؤلاء الثلاثة. أليزابيث وبرونج و Flush . وهم الثالوث الفاسد . . . وقد سار الكلب سيرة سيده وسيدته فكان يطوف بشوارع « بيزا » يصادق الكلاب الإيطالية ويخادنها . ويرجع إلى البيت . وفى قلبه صنوف من الحب وأشكال وفى جسمه صنوف من البراغيث وأشكال . . .

ولا يلبث الصاحبان أن يمسكا بكلبهما ويضعاه فى الطشت ويحكا جسمه ويمشطا شعره ويغرقاه بوابل من التدليل والتنكيت والضحكات .

وكانت فترة اقامتهما هناك فترة راحة واستجمام وخلو بال . فلا متاعب منزلية . ولا قلق . ولا تفكير فى المسائل المالية فقد كان لهما دخل يبلغ ٤٠٠ جنيه سنوياً . وهو مبلغ يزيد على حد الكفاية لهذا المنهج من العيش الذى اختطاه لأنفسهما وهو عيش التشرد . وكان طعامهما يأتيهما من مطعم قريب . وقوامه : البيض والقهوة للفطور والطير ونبيذ « كيانتى » للغداء . والقهوة والفطائر المعجونة باللبن للعشاء . وتصبيرة من العنب « وأبو فروة » المشوى فى الساعة التاسعة مساء . أما الكلب Flush فطعامه شواء الضأن والجبنة الدسمة المملحة والفطائر المسكرة . وهكذا عاشوا عيشة جافاها العناء وجانبها القلق .

وهكذا كان الجو الذى كان ينتجان فيه قصائدهما المذهبة . وقد دست أليزابيث ذات صباح فى جيب صاحبها إضمامة صغيرة تحتوى على أربع وأربعين مقطوعة غنائية . وقالت له : أرجو أن لا تقرأها قبل أن أغادر هذه الغرفة .

فنظر هو فى هذه الأشعار . وكان موضوعها رؤيا مخلوق كسيح يعود إلى الحياة بعد أن عانى سكرات الموت . أو التغلب على الموت بقوة الحب . وكانت هذه الأشعار تدور حول

إيماءات أليزابيث وحول استبدالها نصيباً فى جنة الخلد بنصيبها فى سعادة هذه الدنيا .

وقرأ هو المقطوعات مرة أخرى . فألفاها نوعاً من فرط التدفق من قلب مفعم بالحب . وقد كتبت هذه الأشعار لتقع عليها عينه هو . لا عينا واحد سواه . ومع ذلك فقد كانت تبدو على تلك الأشعار خصائص التعميم . فهى تمثل انتصار الحب لدى كل محب . وفى هذه الأشعار ثروة ليست وقفاً عليه هو . بل هى ملك مشاع لكل أبناء هذه الدنيا . فليس من حقه إذن أن يخفيها عن الناس .

ورفضت أليزابيث أول الأمر فكرة نشر تلك الأشعار وقالت : « هذه الأشعار يجب أن تبقى سراً خاصاً بنا . حكمها حكم رسائل حبنا » .

هو — ولكنها أيتها العزيزة أبدع مقطوعات منذ عصر شكسبير .

هى — هذا سخف . . . أنك تكبر من شأنها كما تكبر من شأنى فحاجها وبين لها ما فى تلك الأشعار من حلاوة وعذوبة وألح فى وجوب مشاركة بنات جنسها لها فى تلك العذوبة ومقاسمتها تلك الحلاوة . ثم قال لها . لا حق لك فى حبس ذكائك ونبوغك كما لا حق لك فى حبس أموالك عن السائل والمحروم .

وأخيراً نزلت على حكمه وقالت : إن لله فينا مشيئة أن ننفق

من ثمرات ما وهبنا . ومما رزقنا من « أموال قلوبنا على المحبين فى العالم » .

ولكن يجب أن تنفق هذه الثروة على أنها فلسفة «لاشخصية» لا على أنها « انفعالات شخصية » .

وأضافت إلى ذلك قولها . وبعد كل شيء فإنك لن تستطيع « تشريح » قلبك ليكون هذا القلب مجالا لتفكير أصحابك وتأملاتهم . فلتبد هذه الأشعار على أنها أشعار مترجمة من لغة أجنبية . كأن نسميها : « مقطوعات مترجمة عن اللغة البوسنية » . إذ لا أحد يعرف « اللغة البوسنية » ولذلك فلن يستطيع أحد أن يكشف سرها . فما قولك فى هذا ؟

ولكنه اقترح عنواناً أفضل وأحسن بأن يسميها : « مقطوعات مترجمة عن اللغة البرتغالية » . ثم قال : وسوف يظن الناس أن الأشعار كتبتها « كاترينا » إلى « كاموانش » (شاعر برتغالى) ولم تكتبها « أليزابيث» إلى « برونج » .

وهكذا ظهرت تلك المقطوعات تحت عنوان : « مقطوعات من البرتغالية » . فقال النقاد : « أنها مجموعة من أبدع المجموعات المترجمة فى تاريخ الآداب . . » . وكان النقاد على حق . فقد كانت هذه المقطوعات أبدع ترجمة للقبس الالهى فى كلمات إنسانية، ذلك لأنها تمثل حالة من حالات الدوام فى عالم من الأشياء لا يعرف الدوام . . . أو بعبارة أخرى إنها تمثل الحبّ

الذى يبقى ويدوم . فى حياة لا تعرف البقاء والدوام . . .

ثم سافر الصاحبان من بيزا إلى فلورنسة ومن فلورنسة إلى جبال « فلومبروزا » حيث وجدوا الأشجار العالية التى تتنفس من عبير السماء . وحيث وجدوا « البسكوت » الذى لا يختلف طعمه ومذاقه عن « نشارة الخشب » . وحيث تقف اللقمة فى الحلق كما وقفت كلمة « آمين » فى حلق ماكبث . . . وعلى الرغم من ذلك فقد تمنّيا لو استطاعا أن يبقيا شهوراً أخرى ليستمتعا بمناظر الجبال . ولكن رئيس الرهبان فى « فلومبروزا » طردهما بعد خمسة أيام . ذلك لأن رهبان هذا الدير . « دير الظلال والأشباح » خافوا الفتنة على أنفسهم : وهؤلاء الرهبان كانوا لا يخافون إلا ثلاثة أشياء — الكلاب والخنازير والنساء . وكان النساء فى نظرهم أكره الحيوانات جميعها . وكانوا يقولون : « أولى لنا أن ننظف بأيدينا . وبلا فأس ولا مجرفة زريبة الخنازير من أن نمس إصبعاً من أصابع امرأة . . .

وتقبلت أليزابيث هذه الإهانة وهذه الشتائم بالابتسام والرضا وقالت : لقد طردنا من جنة عدن . . . ألم يأخذ « ملتون » وصفه لجنته من مناظر « فلومبروزا » ؟

ثم عادا إلى فلورنسا . وهى المدينة التى يعجز لسان الناس ولسان الشعراء عن وصفها . وهى أجمل المدن . ونهر الأرنو الجميل يشق صدرها . كأنه سهم من السهام . . .

وهناك فى الغرف الباردة من قصر « جويدى » وصلا فى سعادتهما إلى القمة . فقد ولد لهما ولد : وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من عيد ميلادها الثالث والأربعين . وكان طفلاً جميلا كأنه قطعة الحلوى . وكانت ذقنه ملأى بالنونات .

وقالت اليزابث وهى تبتسم : يكاد المرء لا يصدق أن هذا الولد القوى المتين هو ولدى أنا . . .

واستمدت اليزابث من مولودها الجديدقوة جديدة . فليست هى بعد الآن نؤوم الضحى . يقوم على خدمتها الخدم . بل هى الآن أكثر أهل البيت حركة وأقلهم راحة . فكانت تدعو إلى الصحو المبكر والى النزهات فى « بانيى دى‌لوكا » وفى « سبتزيا » وفى الصخور المرمرية فى « كرارا » . وإلى صعود الجبل على ظهر حمار . وإلى الرحلة إلى البندقية وميلان وجنيف وباريس وأخيراً إلى لندن لكى تحاول أن تسترضى أباها . . .

وقد كتبت لأبيها ألف مرة ومرة ولكن هل يرد القبر جواباً . وكتبت له تحدثه حديث ولدها « ويدمان » وكانت تسميه « بنينى » وجاءته هذه التسمية من محاولاته نطق اسمه . ثم تحدثه حديث استباقه مع الكلب Flush ليلتقطا الأشياء التى يلقيها والداه على الأرض . ثم تقول له عنه . إن هذا العفريت الصغير كثير العفارة والشيطنة . فهو يقلب آنية الماء ويبل نفسه (وهذا ما يسره ويبهجه) . وهو ينسز قش المكنسة ثم يقص أجمل أثوابه

بالمقص . وهو يضحك بملء فيه كلما استطاع أن يرتكب خطأ من الأخطاء .

ثم كتبت لوالدها تقول : وقد يجلس هذا الطفل أحياناً هادئاً على ركبة أمه . وهو ينصت لعزف والده على البيانو مقدماً فمه الصغير يستقبل القبلات كل دقيقتين . . .

وكان جواب كل هذه الخطابات — السكوت — ولا شيء غير السكوت . . . فلما جاءت اليزابث إلى لندن رفض والدها أن يراها . وأمر الخدم أن يقولوا لها : إذا جاءت يوماً إلى بيته — إنه ليس فى البيت .

وهذا الرفض النهائى المخيب للأمل من جانب والدها . الذى مازالت تعجب به إعجاباً أعمى كان ضربة قاضية عليها . فعاودها المرض والهزال . وقد أضر ضباب لندن برئتيها فعادت إلى باريس ثم إلى إيطاليا وعادت أيضاً إلى التعزى والتسلى بالكتابة

وعلى الرغم من انحراف صحتها أو قل — بسبب انحراف صحتها — ذلك لأنها كانت تحس أنه لم يبق من أيام عمرها إلا القليل — أخذت تعد العدة لكتابة أشهر كتبها وأبعدها صوتاً . وهذا الكتاب هو رواية شعرية سمتها « Aurora Leigh » وهو اسم بطلة الرواية . وهى رواية تمثل — إلى حد كبير — قصة حياة المؤلفة .

والشعر فى هذه الرواية . كالشعر فى « مقطوعات من اللغة

البرتغالية » قد كشف – كما يقول روبرت برونج – عن طبيعة جد ملائكية تصدر عن قلب فيه قبس من النور الآلهى .

وقال نقّاد كثيرون مثل هذا القول . فسماها « بارى كورنوال – « أجمل شعر كتبته امرأة منذ قيل الشعر » .

وقال « ولتر سافدج لاندور » – . « لست أعلم أن أحداً قد قال شعراً أو يستطيع أن يقول شعراً كهذا الشعر فى أى عصر من العصور . ولقد أصبحت به نصف سكران .

وقال جون رسكن وقد بالغ فى مديحه – « إنى أظن أن Aurora Leigh هى أجمل قصيدة فى اللغة الانجليزية . لا تفوقها إلا قصائد شكسبير . بل أنى لأقول إن قصائد شكسبير ليست تفوقها . وهى لذلك أجمل قصيدة فى اللغة الانجليزية .

وقرأت اليزابث هذه التقاريظ فأحست بالزهو . وهزت رأسها فى ابتسامة . وقالت – ياالعمى النقاد . . . إنهم يعجبون بضوء هذا الشعر الذى يشبه ضوء المصباح الضئيل وقد عميت عيونهم عن جمال شعر زوجها الذى – إذا قيس إلى شعرها – كان بضوء الشمس أشبه .

وهذه هى الغباوة . وهذه هى قلة الانصاف التى يحكم بها كل من جلس للحكم بين المتبارين فى هذه الدنيا .

ثم قالت – وسيجىء ذلك اليوم الذى يمدحونه فيه . وهو الذى يستحق المديح أكثر منى عشرين مرة .

ولكنها لم تعش لترى ذلك اليوم . فقد انهارت صحتها فى سرعة جارفة . وقابلت هذا الانهيار بالهدوء والرضا . لولا ذلك الحزن الذى ران على قلبها . ذلك الحزن الذى انبعث من سكوت والدها وصمته .

ثم انقضى عهد الصمت وجاء خطاب من والدها . ومعه رزمة . ففتحت الخطاب وقد تولتها رجفة . وكان الخطاب يحتوى على كلمة موجهة إلى براوننج . وهى كلمة مختصرة . واضحة المعالم والحدود . قال فيها : فى هذه الرزمة ستجد الخطابات التى أرسلت إلى من زوجتك . وسترى أن جميع تلك الخطابات قد بقيت مقفلة . كما بقيت أختامها سليمة لم تمس .

ثم مات والدها بعد قليل . وقد أصابت أخبار موته أليزابيث بنكاس لم تبرأ منه أبداً .

وجلس براوننج إلى جانب سريرها . وكان قد مضى على زواجها أربعة عشر عاماً . وقد بدا لها أن هذه الأعوام قد مرت وكأنها أربعة عشر يوماً أو كأنهما أسبوعان قصيران من شهر العسل . ولكن شهر العسل عندهما لم يكن قد انقضى . فما زالا يتوقان إلى المزيد من الشعر . وإلى المزيد من الإخلاص والتفانى .

وكان يدخل السرور على قلب أليزابيث أن ترقد فى حمى عينى زوجها الحارستين . ثم مدت ذراعيها إليه . فضمها إليه ضما قوياً . فأغفت إغفاءة . فلما أفاقت والفت نفسها بين

ذراعيه ابتسمت وقالت — إنك بى حفى يا روبرت . ثم لما ران على عينيها الكرى مرة أخرى . قالت له — لو استطعت أن أبقى كذلك بين ذراعيك إلى الأبد . . .

فاستعاد روبرت قولها . . . وكان جوابها أنها ألقت برأسها على خده . ثم أغمضت عينيها مرة أخرى . فلما أعاد عليها القول مرة أخرى كان السكوت جواب قوله . . . »

سوزان برونل أنتونى
١٨٢٠ – ١٩٠٦

لم تكن « سوزان أنتونى » كسائر الأطفال . وقد قالت معلمتها الآنسة « دبورة مولسون » : إن فتيات القرن التاسع عشر يجب أن يسلكن سلوك الفتيات فى جميع القرون الأخرى . وإن حرمة التقاليد يجب أن ترعى .

ولكن « سوزان » تفعل ما تشاء ولا تؤمن بالتقاليد . ولها عقلها الخاص بها . وهذه كلها جرائم لم يسمع بها فى « الكلية المختارة للبنات » التى تديرها « الآنسة مولسون » فأن المنهج فى تلك الكلية يقوم على دعائم ثلاث قد أضفى عليها الزمن رداء من التوقير والتشريف وهى : الخلق الطيب وحب الفضيلة وفوق ذلك الخضوع . ولكن سوزان لا تعرف الخضوع . وقد حاولت هى ذلك فلم تفلح .

والرأى عند « دبورة » أن الأطفال يجب أن لا يسمع الناس لهم صوتاً ويجب أن لا يروهم إلا قليلا .

ولكن سوزان كانت تحب أن يسمعها الناس وأن يروها . وقد ضحكت يوماً ضحكة غير رزينة . فقالت لها « دبورة »

أيتها الخائنة تذكرى مصير « يهوذا الأسخريوطى . . . »

وكانت الخطابات التى تكتبها الطالبات لآبائهن يجب أن تمر على الآنسة مولسون فهى الرقيبة عليهن . ولكن سوزان أعدت خطاباً ضمنته بضع معلومات خاصة وحاولت أن تبعث به إلى أبيها قبل أن تراه عين الرقيب . ولكن « دبورة » قطعت على الخطاب الطريق . وقد كان الدمع يفيض من عينى « سوزان » سنين عدداً بعد هذا الحادث كلما خطرت ذكراه ببالها .

ثم إن سوزان قد انحطت إلى الدرك الأسفل من سوء السلوك يوم وقفت على مكتب « مولسون » فكسرته وهى تحاول أن تزيح عن سقف الغرفة ما نسجته العناكب .

وكانت هذه جريمة لا يكون عقابها أقل من التعنيف والتشهير أمام تلميذات المدرسة جميعاً .

فجمعت الآنسة « مولسون » جموع المدرسة بعد أن قرأت — فى خشوع — فصلا من الكتاب المقدس . وأرسلت — بدعائها سوزان إلى جهنم التى لا تموت فيها ولا تحيا .

وقد ورثت « سوزان » عن معهد الآنسة مولسون . شيئين : أسلوب فى الأدب لا ماء فيه ولا رواء . ومجانبة كاملة لكل ما اصطلح عليه الناس . وأعانها على هذه المجانبة . ما ورثته عن أبيها من ثورة على الأوضاع . فقد خالف أوضاع مذهبه الدينى وقد كان من غلاة « فرقة الأصحاب » بتزوجه من بنت أحد

أتباع مذهب « المعمدين » . وكانت زوجته هذه تحب التحية الظريفة. كما تحب الملابس الجميلة . وكانت تغنى وهى تعمل؛ وكان هذا يعد طيشاً ونزقاً فى الحلقة الثانية من القرن التاسع عشر . وكانت قبل زواجها ببضعة أيام ترقص حتى الساعة الرابعة صباحاً . وهى جريمة لا تغتفر فى تلك السنين . ثم تقدمت بها الأيام فأصبحت زوجة وأماً . دقيقة الحس . رقيقة الشعور . فورث أولادها منها دقة الحس ورقة الشعور كما ورثوا عن أبيهم الثورة والتمرد .

وقضت سوزان سنى حياتها الأولى فى جو من « العسر المالى المريح » . وكان أبوها مالكاً لمحلج صغير للقطن . وكان أكبر الأولاد يعاونون أمهم فى العناية بأخوتهم الصغار وكانوا كذلك يؤدون نصيبهم من العمل فى ذلك المحلج القائم فى بيتهم .

واتفق فى فصل من فصول الصيف أن والدة سوزان كانت مضطرة أن تعول فى بيتها أحد عشر ضيفاً . وكان على ذراعيها طفل رضيع . فلم تكن تلك الأم تجد يومئذ وقتاً للغناء وهى تغزل بمغزلها . أو وقتاً لملاعبة أطفالها . وكانت تصرف ساعات عديدة من النهار . فى الغسل والكى . وفى الحياكة والخياطة . وفى الخبز والطبخ .

وكتبت سوزان كلمة عابرة فى يوميات أمها : « لقد خبزت اليوم واحداً وعشرين رغيفاً . أما الترويح عن النفس فليس من

شيمة نساء العالم . فإنهن خلقن لأن يعملن الأعمال المنزلية . وقد كتب عليهن أن يخفن الخالق وأن يلزمن الصمت .

أما سوزان فلم تكن إحدى من كتب عليهن أن يلزمن الصمت . وقد خسر والدها محلجه فى وهلة من وهلات الفزع الذى حدث عام ١٨٣٨ فاضطرت أن تزيد فى دخل أهلها ريالين كل أسبوع كانت تكسبها أجراً لها كمعلمة . ولكن عقدها لم يجدد بعد نهاية مدته الأولى . ذلك لأنها كانت ترخى العنان لنفسها فى القول والعمل . وقد حذرت مرتين وأنذرت بأنها بصحبتها للعبيد تخاطر برزقها فلم تبال ولم تغن النذر . وأرسلت ترد عليهم وتتحداهم وتبعد فى التحدى وتقول : « لقد ظفرت اليوم بلذة لا تعادلها لذة بزيارتى لأربعة من ذوى السحنة السوداء وشربت الشاى معهم .

وكما كانت تكن فى نفسها إشفاقاً على القطعان السود من العائلة الانسانية فكذلك كانت تطوى ضلوعها على التحقير لكل مشاغب من البيض .

ونحن الآن نراها معلمة فى مدرسة أخرى . وهذه المدرسة كانت بؤرة من بؤر الفساد . وكان الأجلاف من الفلاحين الذين يرودونها إنما يقصدونها للهو والتسلية لا للتأدب والدرس . وسرعان ما وجدوا أن الآنسة سوزان كانت صيداً حراماً . وقد قومت يوماً ما اعوجاج زعيم أولئك الأجلاف بالضرب المبرح .

نظفرت منه ومن أنداده بالاحترام والتوقير . وقالوا : لقد أوتيت هذه المرأة أعصاب رجل وعقل رجل . . .

ونحن نراها الآن ناظرة قسم البنات فى كلية «كاناجوهارى» بولاية نيويورك . وقد خلبت عقول أهل تلك القرية . وقال أحد وكلاء الكلية : إن هذه المرأة هى أذكى رجل جاء إلى «كاناجوهارى» .

وعرض كثير من وجوه القوم المحليين الزواج بها . وقد دفعهم إلى ذلك إعجابهم بجرأتها . وقال واحد منهم وكان مالكاً لمزرعة فيها ستون بقرة : سوف تكون هذه المرأة بارعة فى حلب الستين بقرة .

ولكن سوزان رفضت فى أدب ولكن فى إصرار لا يعرف الموادة عرض هذا الرجل كما رفضت عروض الخطاب الآخرين. وقالت لهم فى رفضها : لست أريد أن أكون خادمة شرعية لأى رجل .

وفضلت أن تصر على استقلالها . وكانت تستطيع السعى لعيشها بما أوتيت من قوة فى البنية ومتانة فى الألواح . ولكن ماذا يعملن أولئك الملايين من النسوة اللائى لم يرزقن الشجاعة والقوة الكافيتين للصمود أمام عالم من صنع الرجال الظالمين وحيهم .

وفى صيف عام ١٨٤٨ قرأت عن مؤتمر عقد فى «سينيكافولز» بولاية نيويورك . وقد اجتمع فيه النساء لبحث

المسائل الخاصة بحقوقهن الاجتماعية والمدنية والدينية . وقد أغرتها الفكرة . وبدأت تدرس القوانين الاجتماعية والمدنية والدينية الخاصة بالنساء فى الولايات المتحدة . وقد هالها ما قرأته فى تلك القوانين خاصاً بحقوق المرأة . فقد جعل القانون فى امريكا وفى كل بلاد أخرى المرأة فى أدنى مكانة ومنزلة بالقياس إلى الرجل .

وقد قضى هذا القانون على كل امرأة أن لا تبلغ سن الرشد أبداً وأن لا تستمتع بحقها الشرعى . فإذا تزوجت أصبحت ملكاً لزوجها . وإذا فاتها الزواج وجب أن يقام عليها وصى من الرجال ولم يكن مباحاً للمرأة أن تتقدم إلى القضاء تشكو « خلف الوعد » . ولم يكن لها حق أن تستبقى لنفسها ما كسبته من أجر على عملها . أو أن تطالب بالتعويض عما يصيبها من ضرر فى جسمها أو فى عرضها . وفى كل حالة من الأحوال كان الغنم للرجل . ولم يكن هو المتحكم فى مالها ومصيرها فقط بل كان المالك لأولادها . وكان يستطيع أن ينزل عن أولاده بغير رضاها وفى حالة الطلاق كان يمنح حق الرعاية على أولاده حتى لو ثبت أنه كان فاسقاً أو سكيراً .

وكان يباح للرجل أن يضرب امرأته وأولاده وكلبه . ولم يكن مباحاً للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر .

ومجمل القول أن المراة الامريكية كانت واحدة من جوارى الرقيق ولما أراد النساء أن يفككن عنهن الأغلال ويكسرن القيود

بقين من الرجال فى كل مكان عواء مستمراً . ونباحاً مزعجاً .

وقد وسم النساء اللائى حضرن مؤتمر « سينيكا فولز » بأنهن ملحدات . وبأنهن خنائى وبأنهن ضبعات لبسن ملابس النساء. ولم يعدم النساء نفراً قليلا من الرجال أقروا ما فعل النساء من إعلان استقلالهن . وكان أحد أولئك النفر من الرجال « دانيل أنتونى » والد سوزان . فقد كان ينظر إلى الذين كانوا يعملون فى محالجه نظره إلى المخلوقات الآدمية . أما فى المحالج الأخرى فقد كان ينظر إلى العمال والعاملات كأنهم آلات ميكانيكية . وكانوا يعملون ١٤ ساعة فى اليوم لقاء أجر زهيد . ويصدق هذا القول على الصناعات الأخرى التى يعمل فيها النساء . فكانت تؤجر الواحدة منهن على خياطة بذلة ثمانين مليما وعلى خياطة زوجين من السراويل أربعين مليما . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن النساء العاملات إذا تزوجن حرم عليهن أن يقبض أجورهن بل أجبرن على تحويل أجورهن لأزواجهن . وكان أغلب الأزواج يبددون ما يكسبه نساؤهم فى الخمر وفى الانفاق على النساء الأخريات .

وكان أفراد عائلة « أنتونى » يبحثون هذه المسائل وهم على المائدة . وقد حدث سوزان والدها عن مؤتمر آخر لحقوق النساء عقد فى « روسشتر » وحضر هو اجتماعاته . وقص على بنته حكاية طريفة وهى أن إحدى خطيبات المؤتمر واسمها السيدة

أليزابث كادى ستانتون » جرى بينها وبين أحد القسيسين حو
طريف . فقد قال لها القسيس موبخاً ومعنفاً : .إن بولس الرسو
قد أوصى النساء بالصمت . فلماذا تخالفين أوامر الرسول ؟ »

فأجابته : إن بولس الرسول قد أوصى القسيسين بالعزو
فلماذا خالفت أمره ؟

فضحكت سوزان لما سمعت القصة وقالت — لقد أحببت
السيدة « ستانتون » حباً جماً . وإنى لأود أن ألقاها .

وقد مرت بضع سنين قبل أن تلقى سوزان السيدة ستانتون
ذلك لأنه فى وقت انعقاد مؤتمر « سينيكافولز » كانت سوز
معنية بإصلاح الرجال أكثر من عنايتها بتحرير النساء .

ولما كانت ثائرة عاتية كأبيها فقد انضمت إلى القائلين
بتحرير العبيد وكذلك إلى القائلين بتحريم صنع المسكرات
وبيعها . وكان يبدو لها أن الاسترقاق وشرب الخمر مصيبتان
وكلتاهما فى الشر سواء . وكان رواد القائلين بمنع الخمر رجالا
قد جفت حلوقهم واستعصت بطونهم على النار . وكان الناس
كلهم يشربون . وكان أغلبهم يفرطون فى الشرب . ففى الوليمة التى
أولمت تكريماً « لدانيل وبستر » وكان عدد المدعوين ألفاً ومائتين
أفرغ القوم فى حلوقهم ألفين وأربعمائة زجاجة من خمر شمبانيا .
فكان ما خص كل مدعو زجاجتين وهذا المقدار من الخمر كان
فاتحاً لشهوة الطعام وكان المدخل إلى ما سيتلوه من الخمور القوية .

وكان هذا الافراط فى الشراب رد فعل للتزمت الذى ساد فى ذلك الزمن . فقد حرم ضمير أمريكا على الناس أن يلعبوا . فهب الناس وأجمعوا أمرهم على أن يغرقوا هذا الضمير فى طوفان من « الويسكى » . وكاد الناس جميعاً أن يكونوا من صفوة الصهباء . فكانوا — من العامل الأجير إلى القاضى فى منصة القضاء — يذهبون إلى أعمالهم تظللهم غمامة من السكر .

وهكذا كانت الأمور تجرى يوم انضمت « الآنسة أنتونى » إلى دعاة الاعتدال . وفى تلك الآونة لم تكن تعنى أقل عناية بمنح النساء حق التصويت . بل لم تكن تعنى حتى بمنح الرجال حق التصويت . . . فقد نشأت فى بيئة « فرقة الأصحاب » وكان هؤلاء القوم لا يؤمنون بمسألة التصويت . ولكن أفراد عائلة « أنتونى » كانوا يؤمنون بحق التعبير بالكلام عما يجول فى خواطرهم وكانت سوزان أكثرهم إيماناً بهذا الرأى .

وحضرت ذات يوم من أيام عام ١٨٥٢ مؤتمراً لحركة المعتدلين ووقفت تحاول أن تخطب القوم فبادر الرئيس بإسكاتها وقال لها فى صراحة صاخبة — يجب على النساء أن ينصتن ويتعلمن ولكنه لا ينبغى لهن أبداً أن يتكلمن .

ثم اقتيدت إلى خارج مكان الاجتماع . فحز فى نفسها هذا العمل الذى ينافى شهامة الجنس المتحكم من الرجال .

وقالت — ما دام قد امتنع الاحترام الواجب تبادله بين النساء

والرجال . فعلى النساء أن يطالبن بالمساواة فى الحقوق .

وفى ذلك اليوم ولدت حركة مساواة النساء بالرجال .وانضمت « سوزان أنتونى » إلى تلك الحركة ولم تلبث أن أصبحت واحدة من قادتها . ذلك لأن النساء كلهن عرفن فيها الذكاء الخارق والشخصية القوية . ومع ذلك فقد كانت هى تعرف حدودها وكانت منظمة من الطراز الأول . ولكنها لم تكن كاتبة قديرة . ولا خطيبة بليغة . ولذلك فقد شدت أزرها . وأكملت نقصها باثنتين من قائدات الحركة فى ذلك الحين وهما — « أليزابث كادى ستانتون » و « إرنستين روز » . وألف أولئك الثلاث « حاملات البنادق » ما يمكن أن يسمى « أول حكومة ثلاثية نسائية » فى التاريخ .

وكانت سوزان ترسم خطط المعارك . ذلك بأنها كانت العضو الأكثر تشبثاً بالطرق العملية فى حكومة النساء الثلاثية .

أما أليزابث ستانتون ذات الموهبة الشعرية فكانت تضع الخطط فى إطار من الكلمات ذات الأجنحة . وأما « إرنستين روز » التى أوتيت فصاحة القول فسميت « ملكة الرصيف » فكانت تلقى الخطب . وكان هؤلاء النساء الثلاث جد مختلفات من حيث المركز المالى والاقتصادى . وما كان يمكن فى بلد غير أمريكا أن يتحدن ويمتزجن فقد كانت « سوزان أنتونى » بنت رجل من أصحاب المذاهب الدينية وكانت أليزابث ستانتون

زوجة محام غنى . وكانت « إرنستين روز » مهاجرة يهودية .

وكان هؤلاء النساء الثلاث يطفن أنحاء البلاد . ينظمن الاجتماعات ويشجعن النساء ويعنفن الرجال . وكانت الحرب طويلة صعبة ولم تلق أول أمرها من الصحافة صدراً رحباً .

وكان أصحاب الصحف يقولون — من ذا الذى يعنى نفسه بقراءة أشياء عن هؤلاء النسوة الثرثارات المجنونات ؟

ولكن مديرى الصحف قد بدأوا شيئاً فشيئاً يعنون بتلك الحركة عناية عكسية . فحاولوا أن يغرقوا تلك الحركة فى طوفان من الغمز واللمز . على طريقة الكاتب الفرنسى الساخر « رابليه» فى تهكمه اللاذع .

وتساءل أحد الصحفيين فى جريدة « نيويورك هرالد » (١٢ من سبتمبر سنة ١٨٥٢) ما الذى يريده هؤلاء النسوة : إنهن يرغبن أن يملأن كل الوظائف التى يرغب فيها الرجال . إنهن يردن أن يكن محاميات وطبيبات وربابنة سفن وقواداً فى الميدان

ألا يطرب المرء ويبسم إذا قرأ فى الصحف خبراً يقول : إن المحامية « لوسى ستون » قد نقلت من قاعة الجلسة فى المحكمة إلى المستشفى أثناء قيامها بالدفاع فى إحدى القضايا . ذلك لأن آلام حمى النفاس قد أعجزتها عن الاستمرار فى دفاعها . أو أن القسيسة « أنتونيت برون » قد أجاءها المخاض إلى ركن من أركان المنبر وهى تعظ القوم وتخطبهم .

أو أن الدكتورة « هريوت . ك . هنت » اضطرت — وهى تعمل عملية ناسور فى المستقيم لمريض من مرضاها — أن تستدعى هى الطبيب وأن تبقى فى مكانها لتلد توأمين . . .

ثم لما رأى محررو الصحف أن الحركة النسوية قد كسبت أنصاراً استبدلوا السخرية بالتشهير .

وكانت حكومة النساء الثلاثية تناصر فكرة التطليق بسبب إدمان الخمر . وفكرة تحديد النسل عند زوجات السكارى . فكتبت جريدة « سيراكوز ستار » إن هذا الضلال سوف يؤدى إلى أمور تقشعر من هولها أبدان الشياطين .

وحتى أولئك الذين ناصروا الحركة النسوية كان يتولاهم الدهش لدى رؤيتهم إحدى النساء تخطب الجماهير .

وقال أحد الصحفيين البارزين : لقد كانت خطبة بارعة ولكنى . . . أفضل أن أرى زوجتى أو بنتى يضمها النعش، وأن لا أراها تتكلم فى مجتمع عام .

وكان السياسيون يناصرون الصحافيين فى حملتهم التشهيرية على الحركة النسوية . فلما تقدمت « سوزان أنتونى » بخطاب إلى المجلس التشريعى فى نيويورك تطالب فيه بحقوق المرأة قام المناوئون للحركة بالرد عليها مستعينين بآيات الإنجيل . وقال أحد الأعضاء يخاطب رئيس المجلس : أيليق بنا يا سيدى الرئيس أن نبدى الرضا عن مطالب لا يقبلها العقل . وهى مطالب أقل

ما يقال فيها إنها مطالب مخجلة بل مطالب مجرمة كتلك المطالب التي ضمنتها تلك العريضة ؟ أنقر نحن يا سيدى الرئيس حكماً باطلا يقر المساواة بين الرجال والنساء ؟ نحن نعرف يا سيدى أن الله سبحانه قد خلق الرجل ممثلا للجنس البشرى . وأن الخالق سبحانه بعد أن خلق الرجل أخذ من جنبه المادة التي خلقت منها المرأة . وأنهما بذلك أصبحا جسداً واحداً من اللحم والدم رأسه الرجل . . . فإذا أصر النساء على المطالبة بحقوقهن فليس هناك سبيل لأن يسلم شرف الرجال من الأذى إلا بجعل نسائهن فى حراسة الأقفال والمفاتيح وإلا بين السدود والقيود . . .

ولكن النساء قد رفضن أن يظللن بين السدود والقيود . ثم بدأت الصفوة المختارة من نساء أمريكا من أمثال « لوسى ستون بلاكويل » و « لوكريسيامت » و « إيزابيلا بيشر » (أخت هريت بيشر ستو) و « أنتوانيت برون » و « أنا شو » و « كارى شابمان كات » تعضد القضية وتؤيدها بعقولهن وتصميمهن .

ولكى يخرجن الرجال من أوهامهم المتحجرة فقد عمدت زعيمات الحركة إلى ما يثير الانفعال ويحرك الاحساس بقصهن شعورهن ويلبسهن ملابس هى بملابس الرجال أشبه . وقلن « ليس أدعى لنشر الفكرة من المفاجأة » .وقد دهش رجال أمريكا فعلا وذهلوا من أثر المفاجأة . وقالوا — ماذا ؟ أتتخلى النساء عن طبقاتهن السبع من الملابس التحتية . وينبذن أقمصتهن

المنشاة ومشداتهن الضيقة . ويلبسن ملابس تجعلهن بالرجال أشبه ؟ فوا رحمة على العقل الذاهب ... ووا رحمة على الحياء الذى عفا أثره وغاض معينه . . .

وبعد قليل أقلع النساء عن زى الرجال . ولكنهن لم يقلعن عن الكفاح فى سبيل الحرية والانعتاق . ثم سرن قدماً بحرب جهادهن التى لا تعرف هوادة . ولا وقفاً . يطالبن بحق النساء فى أجورهن وبحقهن فى الولاية على أطفالهن . وكانت « سوزان ب . أنتونى » أكثر المجاهدات صلابة وضراوة . وكانت تسمى «نابليون» الحركة النسوية . وإنها وإن لم تكن بها قسوة « نابليون» فقد كان فيها ذكاؤه . وقدرته على التنظيم وتفوقه فى القيادة . وصبره على الألم . واستعصاؤه على الخضوع للهزيمة . وكلّما اشتد القوم فى مناوأتها اشتد كلبها على الكفاح .

وقد أصارتها كثرة المران خطيبة قديرة . فذهبت تطوف المدائن والقرى تستحث النساء وتعلمهن وتنظمهن . وقد رضيت صاحبتاها فى الجهاد « أليزابث ستانتون » و « إرنستين روز » من الغنيمة بالإياب . فاستنامتا إلى الراحة وكفتا عن الكفاح . ولكن « سوزان أنتونى » لم تكن تعرف طعم الراحة . وكان جلدها إحدى عجائب الجيل .

وكتبت مرة لقومها الطيبين تقول : إن القطار الذى استقلته فوق الجبال الصخرية قد ارتطم بصخرة ثلجية عمقها أحد عشر

بدماً . ولكنها عرفت كيف تحافظ على موعد محاضرتها التالية .

ثم اعتلت صحتها بحكم الزمن . وأصبحت جسما مريضاً تسكنه روح ملتهبة .

وعلى الرغم مما أصابها من فقر وعسر فقد ظلت روح الفكاهة تلازمها .

وقد عاشت الآنسة أنتونى فرأت زهرة عملها ولكنها لم تشهد الثمرة .

وقد ألقى القبض عليها مرة وهى تحاول أن تعطى صوتها . ولكنها الآن لم تصبح غرضاً للسخرية وهدفاً للتهكم .

وقد تعلم نساء أمريكا أن يعبدنها . وحتى الرجال كانوا ينظرون إليها كأنها إحدى صانعات تاريخ أمريكا . وهى فعلا قد كانت إحدى صانعات التاريخ .

وكان بفضل تحريضها أن اجتاز نساء أمريكا فى سبيل تقدمهن مرحلة كان يلزم لقطعها ألف عام . فى زمن قصير لم يتجاوز الخمسين عاماً .

ففى عام ١٨٦٥ فتحت جامعة « فاسار » أبوابها لتعليم البنات تعليما عالياً . وأعدت لهن برنامجاً مساوياً لأحسن البرامج التى أعدت للرجال .

وفى العشر السنين التالية اتخذت أربع عشرة جامعة نظام التعليم الموحد .

وفى عام ١٨٨٠ بلغ عدد الجامعات التى تقبل الجنسين معاً أربعاً وخمسين ومائة .

وبدأ النساء — وقد رفع التعليم العالى من قدرهن — يحترفن مختلف الحرف .

ففى عام ١٨٥٠ كان عدد المدرسات قليلا . وفى عام ١٩٠٠ كان ثلثا المعلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية من النساء . وسرعان ما أخذ النساء مكانهن إلى جانب الرجال فى الطب والأدب واللاهوت والقانون والفنون .

وفى عام ١٨٧٩ أتيح لأول امرأة أن تترافع أمام المحكمة العليا وهو حادث جليل الأثر فى التاريخ الأمريكى .

ثم حدث أهم حادث فى تاريخ النساء الأمريكيات . وهو رفع الحجر عنهن فيما يتعلق بالحقوق المدنية .

ففى نهاية القرن التاسع عشر كادت جميع الولايات تلغى من قوانينها كل حظر كان موضوعاً على حقوق النساء المتزوجات ، وأصبح لهن حق الامتلاك وحق التصرف فى ملكهن . كما أصبح لهن حق التقاضى . وحق الاحتفاظ بأموالهن . وحق التعاقد . وأن يشركن أزواجهن فى الولاية على أطفالهن .

وأصبح الزواج تراضياً واتفاقاً بعد أن كان استعباداً واسترقاقا . بل أصبح الزواج معاهدة مشتركة بين شريكين متساويين .

وقد عاشت الآنسة أنتونى ورأت كل هذه الاصلاحات الأصيلة . وكانت هذه الاصلاحات التى تمت . بمثابة الأزهار لما غرسته فى حياتها . ولكنها لم تعش لترى ثمار ما زرعت .

ولم يصدر القانون الذى يجيز للنساء حق التصويت إلا فى عام ١٩٢٠ أى بعد أربعة عشر عاماً من وفاتها . وإن كان بعض الولايات المنعزلة قد أجازت مثل هذا القانون قبل ذلك التاريخ .

وظلت هى لآخر يوم من حياتها تعمل لتقريب النصر النهائى وبقيت حواسها سليمة غير منقوصة . ولا سيما حاسة التفكير عندها .

وتوجت أعمال حياتها فى أخريات أيامها برحلة إلى أوربا وحضرت فى الرابعة والثمانين من عمرها مؤتمراً نسوياً عقد فى ألمانيا وكانت تحاضر وتكتب . وتجادل وتستضيف . وكأنما كانت فى نشاطها تمتح من معين من الشباب لا ينضب . ولما سئلت عن سر هذا النشاط قالت — سره إنى أدافع عن قضية كسبها غير مضمون . . .

وتميزت اقامتها فى ألمانيا بحادث يبين العقلية الرجعية للحكومة البروسية . فقد كتبت الآنسة أنتونى خطابات لأصحابها فى أمريكا . كانت تختم كل خطاب منها بنداء من نداءاتها الحربية كقولها — « ليست هناك حكومة عادلة يمكن أن تقوم بغير رضا المحكومين . وكقولها — « فرض الضرائب بغير تمثيل نيابى ظلم » .

وإذا بهذه الخطابات ترد إليها وعليها توقيع رسمى يقول : « مثل هذه الأقوال لا يمكن أن تشق لها طريقاً فى مكاتب البريد فى ألمانيا

وماتت وهى فى السادسة والثمانين من عمرها . وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد ميلادها فى وشنطن . وكانت قد أصيبت حديثاً بنوبة من نوبات الفالج . وقد أمرها الأطباء أن تبقى فى سريرها . ولكن « العمة سوزان » ضحكت من قول الأطباء . وقالت — « إذا قدر للمطرقة أن تهبط من عل . فلتسقط على وأنا واقفة على قدمى » .

وكذلك قد تلقت الضربة وهى واقفة على قدميها . فقد ذهبت لحضور مأدبة الغداء التى أعدت تكريماً ليوم ميلادها . ثم وقفت لكى ترد على هتاف الهاتفين بآخر خطبة من خطبها النارية . وقالت : « إننى لا أرجو ثناء أو مديحاً . وإنما أرجو عدالة . وسوف تأتى العدالة فى النهاية . ذلك لأنّ الفشل مستحيل . . . » وما أن عادت إلى بيتها حتى فاضت روحها...

فلورنس نيتنجيل
١٨٢٠ — ١٩١٠

لم يكن فى مستشفى « أشقودرة » أقمصة نظيفة . ولم تكن ملابس الرجال غير خرق مشبعة بالدماء . والمستشفى لم يكن إلا ثكنة صارت إلى مستشفى . وتحت جدرانه مجار تطفح بالأوضار والأقذار . تصعد منها روائح كريهة فتضيق بالرائحة أنفاس المرضى الراقدين فى مختلف أقسام المستشفى . تلك الأقسام التى تعج بأسراب من الفيران والحشرات .

وأرض المستشفى كثيرة الشقوق . والأثاث ناقص . وكل ما يساعد على النظافة ويؤدى إلى راحة المرضى ويحفظ عليهم حياتهم لا أثر له ولا وجود .

ولو أتيح للحشرات أن تتكاتف وتتساند لاستطاعت أن تحمل على ظهورها فراش المستشفى وتسير بين النجاد والوهاد والبحار حتى تصل إلى وزارة الحربية فى لندن .

فإذا تحدث « لورد تنيسون » عن بطولة الشجعان فى الميدان تحدثت « فلورنس نيتنجيل » عن غباوة الرجال فى وزارة الحربية . فقد وصلت الأسرة من انجلترا إلى « اشقودره »

ولكن أرجل تلك الأسرة قد ركبت سفينة أخرى واتخذت طريقها فى البحر إلى ميناء « بالاكلافا » .

فكان المرضى والجرحى فى أشقودرة ينامون على فرش موضوعة على الأرض الحجرية .

هذا ما قالته « فلورنس » فى خطاب من خطاباتها وقالت فى خطاب آخر . إن الموظفين فى لندن قد أرسلوا لنا كثيراً من المؤن ولكنهم نسوا أن يرسلوا أوانى لنطبخ تلك المؤن . ولما وصلت الأوانى أخيراً جاءت الأوامر أن يقطع اللحم قطعاً متساوية الحجم . فكان نصيب هذا المريض غضروفاً خالصاً . ونصيب جاره شحماً خالصاً . ونصيب الثالث عظماً خالصاً . وكأنما أراد الآمرون بهذا أن يرسموا صورة حظ كل جندى فى الحرب.

وقالت الآنسة نيتنجيل » إن شكواى من الموظفين غير المحاربين تقوم على أنهم ينظرون إلى الجنود كأنهم آلات من آلات القتال . فإذا كسرت تلك الآلات . ورميت بها مع السلع التالفة فماذا فى الأمر ؟ لا شيء . . . والأمر سهل ... فهناك كثيرون يحلون محلهم .

وكان الجنود أنفسهم ينظرون إلى أنفسهم كأنهم خشب مسندة وأنهم ليسوا جديرين بالعناية من رؤسائهم .

وكتبت الآنسة نيتنجيل مرة تقول . — طاف معى مرة فى أنحاء المستشفى « دوق كامبردج » فعرف من بين الجرحى

رجلا من رجال الحرس قد بتر ثلث جسمه على الأقل . فقال له « الدوق » وهو يسبه ويلعنه ويدعوه باسمه ولقبه : ألم تمت بعد ؟ فقال لى الجندى – والدموع فى عينيه – بعد ذهاب الدوق أنى أقدر هذا الشعور من سموه الملكى . أليس كذلك يا سيدتى بارك الله فيه . . . . إن سموه يتساءل لماذا لم أمت بعد .

إلى هذا الميدان من قلة الكفاءة ومن الأفلاس والآلام نزلت فلورنس نيتنجيل وعصبتها الشجاعة من الممرضات وقد بلغت عدتهن ثمان وثلاثين . فخلقن من الفوضى نظاماً . وهبطت نسبة الوفيات فى المستشفى بعد وصولها إلى « اشقودره » من ٤٠ – إلى أقل من٣٪ . ولما جاءت « فلورنس » أهلها أول مرة تعلن رغبتها فى أن تصبح ممرضة . جزع أهلها وهلعوا كأنما نزلت بهم نازلة . وقالوا : ماذا ؟ أبنت عائلة من أغنى عائلات إنجلترا وأكثرها ثراء « تحترف حرفة » من أحط الحرف ؟ ذلك لأن التمريض – فى الأغلب الأعم – كان يقوم به فى تلك الأيام (والكلمات كلمات طبيب معاصر العاهرات السكارى اللائى كن – إذا جىء بهن أمام محاكم البوليس – يخيّرن بين خدمة المرضى فى المستشفيات وبين السجن . . . .

وكن يوجدن فى كثير من الأحيان نائمات تحت أسرة المرضى الميتين بعد أن يسرقن نصيبهم من الخمر . . . .

وتقول « فلورنس » : فلما أعلنت لأهلى ما استقر عليه رأيى كنت كأنى أردت أن أكون خادمة فى المطبخ . وقالوا : ما لهذه الحرفة أعدت بنت « السيد وليم شور نيتنجيل «سيد » أمبلى بارك » فى هامشير .

إنما هو أعدها لتكون إحدى سيدات العلية من القوم كأمها الجميلة الأنيقة .

وقالوا : إن هذه الفتاة هى أجمل فتيات عائلة«نيتنجيل» وأكثرهن ثقافة . وقد علموها كما تعلم الأميرات : الرياضيات العالية والموسيقى والعلم والفن والأدب . كما علموها الإيطالية والألمانية والفرنسية وكانت تتكلم هذه اللغات فى طلاقة كأنها لغات أمها وأبيها . وكذلك علموها اللغات القديمة .

وقد قال مرة أحد علماء الجغرافيا لواحد من علماء طبقات الأرض : « إنها فتاة كاملة لولا مضايقتها إياى بلاتينيتها وإغريقيتها » .

وقد طافت بأنحاء أوربا . وهبطت مصر . وصعدت فى النيل . وكانت تستطيع التحدث إلى الأقوام كلها . فى الموضوعات كلها . وكانت ضمن من استقبلتهن الملكة . فكانت لذلك مطمح أنظار الطامحين من شباب إنجلترا . فماذا بعد ذلك تبغى ؟ ولكنها قالت : أريد أن أنجو بنفسى من هذا الضيق كله » . وكانت مستقلة فى رأيها . مستقلة فى

خلقها . وقد أوتيت فى فمها الجميل لساناً لاذعاً .

ومن كلماتها : إن جمع مختلف العلوم وتكديسها ليبعث فى النفس الضيق والحرج . وكذلك يبعث فى النفس الحرج جمع الصحاب من الطبقة الأنيقة المثقفة .

وإليك نظام تمضية الوقت بينهم :

« الإصغاء إلى شخير « لورد ملبورن » بعد الغداء . والتصفيق « للأمير ألبرت » لبراعته الوهمية فى لعبة « البليارد » . واصطحاب والدها لها لترد التحية لمن لا تود أن تحييهم . ثم الذهاب لتهنئة السيدة فلانه على عقدها الماسى الجديد . والذى بدا عليها كما تبدو حبة من فاكهة التوت فوق القرعة المستديرة . »

فأرادت « فلورنس نيتنجيل » أن تنجو بنفسها من هذا العيش المجلوب حسنه بالتطرية والمساحيق .

أرادت أن تعرف الرجال الحقيقيين فى اللحظات الحقيقية من الحياة وهى لحظات الألم الممض » .

وكثيراً ما طلب منها أبوها أن تقرأ له بصوت عال كتاباً فى أداب السلوك . اسمه فقرات من « حياة فتاة بيت » . فكانت تفضل أن تقرأ لنفسها كتاباً آخر وهو « التقرير السنوى عن معهد فلدنر » .

وهذا المعهد كان معهداً ألمانياً اختص بتخريج الممرضات وقد ولدت «فلورنس نيتنجيل» وولد معها هواها بأن تمرض

الجرحى والمرضى . وكانت هوايتها فى طفولتها أن تصلح ما أعوج « من » عرائسها وأن تضمد جراح حيوانات الفلاحين فى « أمبلى » .

وتقول هى . — إنها لما بلغت السادسة من عمرها كان قد تنبه وعيها بأنها ستصبح داعية من داعيات الرحمة .

ولما بلغت الثامنة عشرة من عمرها كانت تمشى فى صحبة صديق لها أمام غرفة الاستقبال فى قصر أبيها . فقالت لصاحبها . — أتعرف فيم أفكر كلما رأيت صفاً من النوافذ ؟ انى افكر فى كيفية تحويل البناية إلى مستشفى وفى كيف توضع الأسرة .

وفيما بين العشرين والثلاثين من عمرها فكرت فى الزواج وفى الاستقرار . وقد كان لها فى الحب قصة أو قصتان . ولكنها محت من خاطرها فكرة الحياة الزوجية . ذلك لأنها لم تخلق للزواج . وذلك لأنها قد تجد فى الزواج ما يشبع طبيعتها العقلية . وقد تجد ما يشبع شهوتها . ولكنها لن تجد فى الزواج ما يشبع طبيعتها الخلقية . وكان الفوز فى النهاية للطبيعة الخلقية .

وقد كتبت فى عام ١٨٣٠ فى دفتر مذكراتها : « إنى الآن فى الثلاثين من عمرى . وهى السن التى بدأ فيها المسيح رسالته . فعلى ألعاب الطفولة العفاء . وعلى غرور الشباب

العفاء . وعلى الحب وعلى الزواج العفاء . » ثم قالت لأبويها .

ـ « إنى عقدت العزم على أن أكون ممرضة » .

ـ ولماذا ؟ أمجنونة أنت ؟

ـ قد أكون مجنونة . وكل ما أستطيع أن أقوله : إنى أحمد الله على جنونى .

واقتطعت من وقتها ساعة كل يوم تدرس التشريح وتزور مستشفى الإقليم . ثم سافرت إلى ألمانيا فأمضت أسبوعين فى « معهد التمريض » فقال لها مدير المعهد ـ وقد رأى بضاضة يديها ـ إنك لن تستطيعى أن تمسحى البلاط . فكان جوابها : يمكنك أن تجربنى . فلما جربها أيقن أنها خلقت للتمريض.

ولم يمض زمن طويل حتى برهنت للشكاك من الإنجليز أنها ولدت ممرضة . ثم عينت مديرة لمصحة شارع هارلى . وهى مصحة أعدت لسيدات الطبقة الراقية المريضات . فأقامت صاحبتنا البرهان على أنها قادرة على مسح البلاط وعلى تضميد الجروح وكذلك على إحياء ميت الآمال .

وقد ثارت ثائرتها يوم قيل لها أن لا تقبل المرضى من المسيحيين الكاثوليك . وأصرت أن تقبل المرضى من كل صنف وجنس .

وقد لاقت ما يلاقيه أمثالها المجاهدون من كيد الكائدين وحسد الحاسدين. ولكنها صمدت للمحنة وخرجت ظافرة منتصرة.

ثم جاءت الأخبار أن الأحوال قد ساءت جداً فى مستشفيات القرم » وأن الجنود هم الذين يكلفون بتمريض بعضهم . فلا ممرضون ولا ممرضات ولا أربطة لتضميد الجروح ولا دواء . وارتفع صوت الرأى العام يطلب علاجاً لهذه الحالة السيئة، ثم كتب الكاردينال «ماننج » فى جريدة التيمس يطلب أن يعهد بهذا العمل إلى فلورنس نيتنجيل .

فسمعت فلورنس الصرخة وأجابت الدعاء . وكتبت إلى سر سدنى هربرت وكان وزيراً للحربية وكان من أخلص أصدقائها . كتبت إليه تقول : إن بعثة خاصة من الممرضات قد أمرت بالسفر إلى « اشقودره » وقد طلب إلى أن أكون على رأسها . وسنقوم نحن بنفقات طعامنا وسكنانا . ولن نكلف حكومة بلادنا شيئاً . ثم طلبت إليه — دفعاً لكل شك — أن يطمئن وزارة الحربية وأن يذكر لها شيئاً عن كفاءتها . وأن يؤكد للقوم أنها ليست سيدة من علية القوم وإنما هى ممرضة مشهود لها فى فنها . وقبلت وزارة الحربية أن تبعث بها ولكن على مضض .

وفى يوم ٢١ من اكتوبر عام ١٨٥٤ أقلعت بها السفينة إلى « القرم » ولقيت فى سفرها هذا نصبا . فقد هبت الأعاصير فى البحر الأبيض المتوسط وقد ساءها ما بدا على رفيقاتها الممرضات من روح التمرد . فتأثرت صحتها ووصلت

إلى القرم مريضة .

فتقاتل الجنود على نيل الشرف . شرف حمل محفتها من محطة إلى أخرى . ولكنها سرعان ما برئت . وقالت : من ذا الذى يجد وقتاً لأن يمرض وأمامه كثير من الجرحى فى حاجة إلى العناية ؟ ثم أمامه كثير من الأخطاء يجب أن تعالج ؟ وكثير من العناد يجب التغلب عليه ؟

وكان الموظفون الموكلون بالمستشفى يصرون على أن يسير كل شىء طبقاً للخطة المرسومة . وكانوا يرون أن لا حق لامرأة أن تتدخل فى الأمور التى ثبتت كفاءة الرجال فيها .

وقد أثبتت هذه الكفاءة بؤساً مستحكماً وسوء تنظيم. ولم يكن المسئول عن هذه الحالة رجل واحد . بل كان المسئول ذلك النظام العتيق الذى يحاول أن يمشى قدماً إلى المستقبل متطلعاً دائماً إلى الوراء . وقيل فى مستشفى « أشقردرة » ما قيل فى جحيم دانتى . — « أن الداخل هنا يفقد كل أمل » .

ولكن مخلوقاً واحداً قد دخله ولم يفقد أمله . ذلك المخلوق هو « فلورنس نيتنجيل » التى بدلت الفوضى نظاماً . بإتباع طريقة سهلة ميسرة . وهى طريقة التخلص من الإجراءات الرسمية العقيمة . فبعد وصولها بقليل . أنزلت فى « اشقودره » رسالة قوامها ٢٧٠٠٠ قميص . ولكن «الموكل» الرسمى » أبى أن تفك عنها الأربطة قبل أن يجيئه الإذن من مجلس الإدارة . بقى

المرضى والجرحى ثلاثة أسابيع عراة يرتجفون . وظلت «نيتنجيل» ترجو الكساء لهؤلاء العراة ثم لا تجد لدعائها مجيباً .

وأخيراً أحيط مجلس الإدارة علماً بالمسألة بالطريقة النظامية المقررة ثم صدر الأذن .

ولما وصلت الرسالة الثانية من الأقمصة تولت الأمر بنفسها فأمرت الممرضات أن يفككن رباط الرسالة وأن يوزعن الأقمصة وظل الموكل الرسمى يضرب كفيه أسى وحزناً على أن الأمور صارت إلى « أيدى النساء وإلى أيدى الكلاب » .

ولكن النساء تحت قيادة فلورنس نيتنجيل كن قد اختططن لهن طريقاً . فمسحن بلاط المستشفى وجدرانه . وأعدن تنظيم أقسام المستشفى ومطابخه ومغاسله . ثم أعدن تنظيم توزيع الطعام حتى لا يضطر أحد أن يظل جوعان . وأضفن إلى قائمة الطعام أصنافاً مشهية كالحساء والأنبذة والمواد الهلامية وهى متع ينصح العقل باجتنابها . . . .

وكن قادرات على أن يفعلن كل هذا ذلك لأنهن كن لا يعولن على أموال الحكومة بل على أموال « نيتنجيل » الخاصة وعلى ما يجيئها من معونة ورفد من الرجال والنساء البعيدى النظر .

وقد دعا « لورد ستراتفورد دى رد كليف » سفير بريطانيا فى تركيا بالويل والثبور على هذه الأموال المضيعة فى مثل هذه

لأشياء التافهة الحقيرة . . . .

وكان يقول : لوددت أن تصرف هذه الأموال فى غرض نافع وهو بناء كنيسة إنجيلية فى القسطنطينية ...

فلما سمع هذا القول أحد الجرحى قال : إن هذا المستشفى كنيستنا والآنسة نيتنجيل » هى قسيسنا وملاكنا ...

وكم من رجل عاد إلى الحياة أو عادت إليه الحياة لما رآها بعد أن يئس الجراحون من شفائه . وكان الجنود يعبدونها وكانوا يقبلون ظلها وهى تطوف بأقسام المستشفى . وكان هؤلاء الجرحى المشوهون الذين عرفوا معنى التعب يدهشون لهذه الآنسة أو لهذا الملاك . ملاك الرحمه . التى لا تعرف معنى التعب . فقد كانت تمر بها أيام تظل جاثية على ركبتيها ثمانى ساعات تضمد الجروح وتفك الأربطة عن الأعضاء المهيضة ، وكانت أحياناً تظل عشرين ساعة تعاون الجراحين .

أما كيف كانت تجد هذا الوقت . فقد كان هذا سراً غامضاً . ذلك لأنها كانت تعمل فوق الأعمال التى أسلفنا بيانها . أعمال المستشفى الأدارية وكثيراً من الأعمال اليدوية .

وكانت تقول . — إنى أعمل طباخة ومديرة بيت وكناسة وغسالة وبياعة وخازنة . ثم كاتبة خطابات لاذعة لأوقظ بنى قومى من نومهم الهنيء وأحلامهم السعيدة .

وكانت تقول . — عندما أكتب خطاباً رقيقاً يجيئنى رد

رقيق مهذب . ولا شيء غير هذا الخطاب الرقيق المهذب . وعندما أكتب خطاباً قاسياً يصلنى خطاب قاس ولكن شيئاً يعمل ...

وكانت – أيام أقامتها فى أشقودرة – فى نضال مستمر بين إرادتها الحديدية وبين جدار المعارضة الجرانيتى وأخيراً بض الماء من الحجر ...

وكان الموظفون الرجعيون يحرقون الأرم عندما يرونها تعامل الجنود كأنهم مخلوقات آدمية . وكانوا يقولون لها : إنك بصنيعك هذا تتلفين هؤلاء البهائم .....

وكانت « الآنسة نيتنجيل » تجيب على هذا بقولها : هذا هو كل ما أبغى . فأنا أريد إتلافهم كبهائم لكى أعيدهم سيرتهم الأولى كرجال . . .

ثم عادت إلى بلادها لتعيش عمرها كله قعيدة كسيحة . ولكن عملها كان لم ينته بعد بل كان قد بدأ . فإن مستشفى « أشقودرة» ليس هو المستشفى الوحيد . إنما العالم كله كان غرفة واحدة للمرض الذى يحتاج إلى التمريض .

وكانت تلقى من القوم المديح والثناء وكانوا يجيئون زرافات ووحدانا ليحظوا بنظرة منها . ولكن أحداً منهم لم يفعل شيئاً فى سبيل معاونتها .

وقد وضعت الحكومة تحت أمرها بارجة حربية تعود بها

إلى انجلترا . ولكنها رفضت . مفضلة أن تجىء إلى بلدها فى سكون وفى غير ضجة . وقالت فى رفضها : « لا أريد أحداً يتملقنى بل أريد قوماً يفهموننى .

أما أن تجد قوماً يفهمونها فكان آخر شىء تستطيع أن تحصل عليه . وحاولت أن تفتح مدرسة لتعليم الممرضات . أو ما سمته مكاناً تستطيع المرأة فيه أن تثبت وجودها . وكان بها ظمأ شديد أن تحدث إصلاحاً شاملا . فى جميع المستشفيات والثكنات العسكرية فى انجلترا . وتحدثت إلى كل ذوى المقام فى الحكومة وتشرفت بلقاء الملكة فكتوريا وظفرت بكلمة دعاء وتشجيع من جلالتها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت كلما ظنت أن الطريق قد تمهد . قام موظف عنيد يضع فى سبيلها العراقيل .

وكان « لورد بانمور » أشد الموظفين إصراراً وعناداً وهو خليفة سر سدنى هربرت » فى وزارة الحربية .

وقد سمته فلورنس بسبب إصراره وعناده « الثور الأمريكى » ولم يكن بينه وبينها أى عداء . ولكنه كان ينقم منها ما كان يسميه (التدخل والفضول) . فقد انتهت حرب « القرم » وكانت إنجلترا فى حالة سلم . وهو لذلك قادر على أن يستمتع بصيد القطا لولا تفكير فلورنس » السخيف بشأن مدارس التمريض والمستشفيات العسكرية والإصلاحات الصحية .

فيالها من سخيفة ثقيلة . . . وهو يستطيع أن يوقف كل هذا لا بالرفض . بل بتجزئة العطاء أقل تجزئة ممكنة .

وكذلك بدأ معركة الأهمال المنطوى على الخير . ووقف وراءه يعاونه ويعضده فرقة كاملة من الرجعيين . الذين كانوا يقولون لها قولا ليناً . مثل قولهم . — أنلك جد متعبة . بل إنلك مريضة . فلماذا لا تريحين نفسك زمناً ما . نستطيع بعد انقضائه أن نبحث المسألة من جميع وجوهها .

فكتبت فى إحدى خطاباتها اللاذعة ترد على « الثور الأمريكى » وأصحابه الذين عاشوا فى زمان غير زمانهم وتقول لهم . — « أنى أرقد الآن وقد طوحت برأسى الطوائح . وقد قلمت أظفارى . وأنتم جميعاً تضربوننى ضرباً متوالياً . »

أما وقد فشلت فى إقناع اللوردات فقد بدأت تحاول إقناع الجمهور فكتبت كتاباً فى موضوع التمريض يثير السخط وسمته « ملاحظات فى فن التمريض » وسهرت بنفسها على نشره حتى ترجم إلى لغات عديدة . ووصل إلى مئات الألوف من البيوت .

فأنصت الجمهور لقولها وهب لمعاونتها بالهبات وبالشكوى. وأخيراً سمح « الثور الأمريكى » كارها غير راض أن يكون طوع بنانها . وفتحت مدرسة الممرضات . وبنى المستشفى العسكرى وأدخلت الإصلاحات الصحية .

ولكن « الثور الأمريكى » — حتى وهو فى حالة الأسر — قد حاول أن يظهر للمرة الأخيرة فى مظهر الرجل المتفوق . وقال . — ما الذى يمكن أن تعرفه امرأة فى بناء المستشفيات ؟ وإن من واجبه هو أن يخطط البناية ويعد لها الرسم .

ثم أعد الرسم فعلا وبدىء بالبناء قبل أن تعطى «فلورنس» الفرصة لزيارة المشروع . ثم رأت — وهذا ما أثار فى قلبها الرعب والفزع — أن المستشفى الجديد قد أريد به أن يكون نموذجاً لأشنع الأغلاط التى حوتها المستشفيات التى نال منها البلى . فألحت على « الثور الأمريكى » أن يوقف العمل . فكان عن دعائها فى صمم . وقال لها . — إنى أعرف أحسن ما يمكن عمله . فانظرى إلى الموقع الذى اخترته . وإلى ما يستقبلك من منظر وجه المكان . فلم تر بدأ من أن تكتب إلى « لورد بالمرستون » رئيس الوزراء . وأن تبين له بالرسم أخطاء البناء فى المستشفيات القديمة . ومحاسن البناء على النظام الجديد . ثم زارت الرئيس وسلاحها حزنها ووثائقها . وبقيت فى مكتبه ساعات . وتركته مقتنعاً بأنها كانت على حق .

فكتب رئيس الوزارة إلى لورد « بانمور » : يبدو لى أنه عند البدء فى بناء المستشفى الجديد كان الاعتبار الأول ملحوظاً فيه أن يكون البناء لافتاً للنظر إذا نظر إليه من نهر « سوثمبتون» وقد ضحى فى سبيل ذلك براحة المرضى وشفائهم اكتفاء

بإرضاء عاطفة الغررور لدى المعماريين . والمرجو وقف العمل حتى تدرس المسألة الدرس الواجب .

وقد وقف العمل ودرست المسألة الدرس الواجب وأعيد بناء المستشفى كما شاءت فلورنس نيتنجيل .

ونحن الآن نراها قعيدة كسيحة . ولكنها قعيدة كسيحة من نوع غير عادى فهى الدؤوب التى لا تعرف القعود والكسل . وهى الآن جليسة غرفة فى سطح بيتها التى اشترته فى «سوث ستريت» . تستقبل الساسة والقادة والفنانين والشعراء واللوردات . وترسم بيديها الشاحبتين خطط الإصلاح فى كل ناحية من نواحى الإصلاح .

فإذا خرجت فى عربتها إلى الحدائق العامة تجمع الناس حولها . هذا يقول . — دعينى أقبل شالك وهذا يقول دعينى أقبل يدك . وهذا يقول دعينى أمتع ناظرى بنظرة إلى عينيك الجميلتين . فالشعب كان يعبدها . ذلك لأنها جعلته يشم ريح الشمال مما زاد فى صحته الجسمية فوق ما زاد فى صحة يقينه .

وقد كان من مظاهر نشاطها المتعددة أنها كتبت كتاباً فى ثلاثة مجلدات فسرت فيه الحقائق المسيحية القديمة على ضوء حاجات الناس الجديدة .

وكانت تقول : إنى امرأة . ولذلك فأنى أعنى بكل

ما يخص الطفولة والعائلة الإنسانية .

وكان عمرها يوم قالت هذا القول اثنتين وثمانين عاماً . ولكنها لم تكن ترى أنها قد بلغت السن التى تتخلى فيها عن عملها . فكانت تقضى نهارها كله تفكر وترسم الخطط وتملى خطابات فى كيف ينشأ عالم جديد . إذا بنيت المستشفيات والكنائس بطريقة أوفى وأحسن .

ونحن نراها الآن وقد بلغت التسعين من عمرها وأصبحت لا تقدر على شيء . « والحمل الأسود » الذى ينيخ فى كل بيت قد جاء يمشى وئيداً إلى بابها . ثم تخلت عن ذلك الحمل الذى يؤودها حمله فى سفرها إلى عالم الأرواح . وصحت ذات ليلة صحوة الموت وقالت . — أأنا تلك التى وقفت فى مرتفعات « القرم » ؟

ثم سألها أحد أصحابها يوماً ما : أتعرفين أين أنت ؟ فأجابته . — نعم أنى أرقب المحراب . محراب الشهداء ثم قالت فى صوتها القديم الذى ينبئ عن القوة والعزم : وسأظل أحارب فى سبيل قضيتهم ما دمت على قيد الحياة . . . . .

سارة برنار
(١٨٤٤ — ١٩٢٣)

لقد كانت حياة « سارة برنار » أكبر رواية مثّلت فيها . وإن الأقدار التى فقدت عقلها لم تجد فى أول ليلة افتتحت بها حياتها رواية بدأت كما تشاء الأقدار وتهوى أحسن من روايتها . فقد ولدت سارة لأم يهودية غير متزوجة . وكانت الأم بائعة قبعات للسيدات . وكانت تغنى فى أحد المقاهى كعصفور صغير يكاد يقتله البرد . وكانت بحكم مهنتها هذه فريسة لمغازلات الجنود المفلسين .

وقد حرمها القدر أباها وهى فى شبابها الباكر . فقد ألفت نفسها وقد ألقى بها — وهى كارهة — إلى الشوارع . وقضى عليها أن تعيش على حساب دهائها وشجاعتها .

وقد بدا أن ملاكاً من الملائكة قد نسى — فى زحمة العمل فى السماء — أن يسترعى لها نظر الخالق . ومع ذلك فقد تولاها الله برعايته .

وعلى الرغم مما أحاط بها من قسوة فقد كان لجوليا — وكان هذا اسمها — شعر فى حمرة الذهب . وكأن كل خصلة من شعرها قد عقصتها إصبع إلهية . وكان لها عينان كأن الروح

الإلهى قد نظرت فيهما قبل أن تولد . وتركت فيهما شعاعاً من النور الإلهى .

وكانت تجرى فى الحى اللاتينى مباريات غريبة فى الحب ولكن قليلا من تلك المباريات كان يملك العناصر التى تخلق الذكاء والعبقرية .

ومع هذا فقد لقيت جوليا أحد طلبة الحقوق . وكان محبًّا مخاطراً ممن جاءوا من الأقاليم . وفى ذلك المأوى الذى تمتزج فيه شمعة الطالب وشمعة حبيبته ساعة قصيرة ثم ينفصلان وكل منهما يحمل معه شمعته نصف محترقة . فى ذلك المأوى أقامت جوليا مع حبيبها وقتاً ما ثم ذهب كل منهما فى وجهة مختلفة .هو إلى الأقاليم ليحترف المحاماة وهى إلى أحياء باريس الأكثر غنى وجاهاً لتحترف الحب . ولكن هذين الطائريين البوهيميين قد تركا وراءهما تمثالا للعبقرية يقوم إلى الأبد رمزاً على طيشهما . ذلك بأنه فى أكتوبر من عام ١٨٤٤ قد ولدت سارة برنار .

وسما « بجوليا فون هارد » الحظ من دكان القبعات إلى صالونات يحمل أصحابها أضخم الألقاب فى فرنسا .

وكان دمعها كاللالىء غالٍ . فتقاضبت عن كل دمعة حب ذرفتها احترافاً لؤلؤة من غالى اللالىء .

وبقيت لا تكدر صفو عيشها هموم الأمومة وواجباتها . فألقت طفلتها بين يدى مرضع فى إحدى قرى « بريتانى »

وسرعان ما نسيت كل شيء عنها .

ومرت الأيام وتزوجت المرضع بواباً فى بيت من بيوت الأحياء الحقيرة فى باريس وأخذت الطفلة معها فى مأواها الجديد وكان هذا المأوى حجرة ضيقة مظلمة تفوح من زواياها رائحة كريهة . وكانت المرضع تضع سارة فى طشت الغسيل وعليها جوارب زوجها وملابسه التحتية القذرة ثم تتولى غسلها جميعاً فى آن واحد وفى إناء واحد ..

فلما كبرت الطفلة كانت تكنس سلم البيت وتغسله لقاء أجر تعليمها . وكانت تلعب وتلهو فى الأزقة الحقيرة المجاورة .

وأول لغة تعلمتها كانت متبلة ببذاءة سكان تلك الأحياء وقطانها . وقد اصطلح على لونها الشحوب كما اصطلح على جسمها الهزال والضعف . فلما بلغت الخامسة كان مرض السل منها قاب قوسين أو أدنى . وماذا ينتظر غير هذا لطفلة مشردة تخلى عنها أهلوها فلا أم ولا أب . . . .

وقد كتبت المرضع لأمها غير مرة فكان جوابها الاغضاء والصمت . وزادت الأم بأن قطعت عن بنيتها ما كانت تبعث به من مال قليل .

وحدث فى عصر يوم من الأيام أن جاءت خالة لسارة كانت تسوم سرح اللهو كأمها فى بيت مجاور فلما رأتها سارة — وكانت تلعب فى مجرى ماء قذر — عرفتها لأنها

كانت قد رأتها من قبل . فلما نزلت عن ركوبتها ومشت وهى ترفل فى الدمقس وفى الحرير سمعت من جانب الحى صوت طفلة اغرورقت عيناها بالدموع وهى تشكو وتصيح : خالتى روزين . . . خالتى روزين . . . . أبعدينى عن هذا المكان يا خالتى . إنى أختنق بين هذه الجدران . فأبعدينى يا خالتى ودعينى أرى الأزهار ودعينى أرى السماء فعادت الخالة من حيث أتت . ولم تلتفت إلى بكاء الطفلة .

وتجمعت الجموع حول « سارة » وخالتها . فلم تر الخالة بدًّا من أن تدخل بسارة عند من هى فى بيتها وسألتها ما خطبها . والطفلة لا تنى عن البكاء وعن الصراخ وهى تقول : خذينى معك . . . خذينى معك . . . . إننى سأموت هنا . . .

وكان الصراخ صراخ روح صغيرة حزينة قلقة تحارب من أجل البقاء . ولكن ماذا تستطيع أن تعمل تلك الخالة . إذ لم يكن من المعقول أن تأخذ تلك الطفلة العليلة القذرة من هذا الحى الحقير وأن تذهب بها إلى بيتها الفخم حيث تستقبل خلانها . ولذلك فقد حاولت أن تبعدها عنها بقولها : سأجىء لآخذك غداً . ولكن سارة عرفت أنها لن تجىء فراقبتها حتى ركبت عربتها ثم ألقت بنفسها من النافذة إلى أرض الشارع فسقطت على مسافة بضع أقدام من العربة . ثم أخذت وقد تهشمت أعضاؤها إلى بيت أمها .

وبقيت الطفلة على أثر هذا الحادث سنتين كسيحة في بيت أمها . ثم بدأت تستعيد قوتها وكانت قد بلغت السابعة ولم تكن إلى تلك الساعة تعرف القراءة والكتابة . فأجمعت أمها أمرها على أن تبعث بالفتاة إلى مدرسة داخلية . وهي طريقة حسنة للتخلص منها مرة أخرى .

ولما جيء بها أمام ناظرة المدرسة لم تنطق بكلمة حياء وخجلا .

فقالت خالتها « روزين » للناظرة : ألا ترين أنها طفلة آية فى الغباوة .

وقالت أمها وهى تتنهد : لست أعرف من أين جاءتها هذه الغباوة . أنا واثقة أنها لم ترث هذه الغباوة منى .

ولكن إحدى المدرسات قالت بصوت يمازجه الحنان : إن عينيها عيناك ياسيدتى . وهى آية فى الذكاء . . .

وعندئذ قبلتها أمها وقبلتها خالتها قبلة مستكرهة وخرجتا وعادت أمها إلى بيتها لتلد طفلا آخر .

وما إن احتوت « سارة » المدرسة حتى كتبوا لأمها أن طفلتها قد انتابتها نوبات من الغضب تركتها فريسة للحمى بضعة أيام . فعبست أمها وهى تغدق القبل على آخر محبيها . ثم أخرجت « سارة » من المدرسة وأودعتها أحد الأديرة وقالت : هنا لا تستطيع الطفلة أن تبدو للأنظار .

ومرت سنتان والأمور تبدو كأنها تسير سيراً حسناً . ومع ذلك فقد قالت الأم لحبيبها : أتعرف يا سيدى الدوق أن الطفلة دائماً فريسة هوى من الأهواء . فاما هواها مع الشر وإما مع الخير . وقد استحالت الطفلة إلى متدينة مترمتة. منذ أن عمدت فى الكنيسة الكاثوليكية . وهى تريد أن تكون راهبة . فضحك « دوق دى مورنى » كما ضحك من ضمتهم حلقتها من السمار ضحكاً مدوياً والحق إن « سارة » ما كان يمكن أبداً أن تكون راهبة . ذلك أنها قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها قد حيل بينها وبين الدير ثلاث مرات بسبب سوء سيرتها . وحدث مرة أن أغمى عليها فى احتفال مدرسى وتصنعت الموت حتى استولى القلق على رئيسة الراهبات ثم فتحت عينيها وقالت : إنما كنت أمزح . فيا لها من طفلة متمردة وكانت تقضى وقت فراغها كله فى قراءة الكتب الممنوعة وفى أكل الملبس الذى كان يهربه لها البواب .

وحدث ذات مساء أنها قادت ست فتيات وأنزلتهم من حائط الدير متخذة الملاءات سلماً للنزول. وقد رآهن الراعون ظهيرة اليوم التالى يقذفن خيل فرسان الحرس الملكى بالحجارة. وقد علمت كل من أحاط بها أن يتوقع منها كل شىء غير متوقع . وقد وقع عليها نظر القوم مرة وهى تغازل شاباً من الفرسان فلما قيل لها فى هذا عرضت نفسها للبرد وكانت على وشك الموت . وهذا ما جعل إناء الصبر

يطفح . فلما فارقتها الحمى أمرت بأن تفارق هى الدير فراقاً إلى غير رجعة. فماذا يُفعل بفتاة متهورة رعناء لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها . . . ؟ وهى فتاة نحيفة ضعيفة هزيلة تشكو السعال الذى يهزها هزاً عندما تنتابها نوباته . ولها تحت عينيها تجاعيد سود علامة فقر دم قد أزمن واستعصى على العلاج . ولكن فقر الدم هذا وهذا الشحوب . أليس لهما فتنة وسحر ؟ وهذا الشحوب يضفى على وجهها نوعاً من الجمال النادر الذى تزيد فى جماله عيناها المعبرتان إذا تكلمت . أما ملامحها فتصور كل نزوة من نزواتها . وكم لها من نزوات .

كل هذا ولم ترسم لمستقبلها خطة . فهى تحب النقش ولكن هذه الهواية لا تدر على فتاة ربحاً . وقد ترك لها أبوها — وقد أصبح الآن محامياً ناجحاً — مبلغاً من المال يحق لها أن تأخذه إذا بلغت الحادية والعشرين وبشرط أن تتزوج ولكن « سارة » لا تريد أن تتزوج . فهذا واحد من وكلاء الدعاوى يطلب يدها وهى تقول لا . . . وآخر يتقدم لزواجها فتلقى عليه زجاجة من خمر شمبانيا . . . وأحد الكونتات يضع بين يديها لقبه وماله فتلطمه على وجهه . . . .

وعقد مجلس عائلى فلما استقروا على رأى دعيت « سارة ». وقال لها دوق دى مورنى . — لقد أضنانا التفكير فى أمرك . وسنبعث بك إلى معهد الممثلات فقد يتاح لك أن تقفى على

المسرح . فامتقع لون الفتاة وصرخت قائلة : أنا لا أريد أن أكون ممثلة . . . فسخرت منها أمها وقالت : ألا ترون أنها لا تريد أن تكون ممثلة . . . كأن لارادتها وزناً وقيمة . ثم قالت لها : إنى لن أضيع فى سبيلك أى مبلغ وإن قل بعد أن تبلغى الواحدة والعشرين . . .

وحاول الدوق دى مورنى أن يهدئ من روع سارة فقال لها فى حنان ورفق : يا طفلتى سنذهب بك .أملك وأنا . إلى حفلة تمثيلية هذه الليلة فى مسرح الكوميدى فرانسيز وسترين بعينى رأسك أية مهنة جميلة اخترناها لك .

وذهبت « سارة » وقد جمد الشك عينيها . وجلست فى أحد « الألواج » تشاهد أول رواية أتيح لها أن تشاهدها . فلما شاهدتها قالت : ومع ذلك فلا بأس . . . وعندئذ أمطرها أهلها وابلا من روايات «كورنى» و« راسين » و «موليير » لتقرأها وتدرسها استعداداً لدخولها المعهد . ولم يكن أمامها لكى تستعد لدخول الامتحان إلا تسعة أسابيع . وكانت مدة الدراسة ثمانية عشر شهراً .

وبعد امتحان الدخول قدموها إلى مسيو أوبير مدير المعهد فنصح لها بأن لا تحاول يوماً ما أن تكون سمينة . كما نصح لها أن تفتح حروف إل (O) وأن تطيل فى إمالة حروف أل (R) وأن تعمل على أن تعيش حياة جد يخالطها اللهو البرىء .

وأخيراً وبعد كثير من الاستذكار والحفظ وبعد كثير من الاستفزاز والزجر جاء اليوم المشهود يوم الامتحان .

وكانت أمها قد قالت لها عند دخولها المعهد بجملة كانت كطلقة مدفع التوديع : إنك أغبى من أن تكونى ممثلة ولكن هذا العمل سوف ينأى بك عن مواطن السوء .

فلما فرغ الفتيات اللائى تقدمنها من تمثيل الأدوار التى اخترنها أمام الممتحنين نودى باسم « سارة » ، فارتقت خشبة المسرح . وعلى وجهها صفرة الموت ثم حيت وقالت : سأتلو عليكم قصيدة الحمامتين . . .

فقال لها أحد الممتحنين غاضباً : إن من يجىء هنا إنما يجىء ليمثل لا ليتلو أساطير وحكايات .

فلما استعادت الفتاة رباطة جأشها . بان فى عينيها الغضب وصاحت : بل سأتلو عليكم قصيدة الحمامتين . . . .

وعندئذ عرف الممتحنون أن طباع هذه الفتاة هى طباع ممثلة . وتفوقت سارة فى المعهد لا فى التمثيل ولكن فى اتخاذ الأصدقاء والأصحاب . واستناداً إلى جاه هؤلاء الأصدقاء والأصحاب ألحقت عند تخرجها بمسرح الكوميدى فرانسيز وهو أعظم مسرح فى أوربا .

فلما اعتلت خشبة المسرح أول مرة كان الفشل حليفها . وكان النقاد قساة . فشربت « سارة » السم وظلت أياماً بين

الحياة والموت . فلما شفيت قالت لأصحابها الذين تولتهم الدهشة لشفائها : إن الحياة كانت لدىّ لا قيمة لها ، فأردت أن أذوق طعم الموت . . .

وكانت ممثلة قديرة فى تمثيل أدوار المآسى فى كل مكان إلا على المسرح فى تلك السنين الأولى . فقد تدلهت حبا فى واحد من أصحابها ولكنها رفضت أن تتزوجه ذلك لأنه رفض أن تشهد تحنيط جثة .

وكان من عادتها أن تزور المقابر وتجلس بين القبور كأنها إحدى أخوات الراحلين إلى العالم الآخر .

وكانت فتاة غير مستأنسة ولها طباع النمرة الضارية . ففى إحدى غضباتها لطمت أقدم ممثلة فى الكوميدى فرانسيز وأكثرهن احتراماً على وجهها . ثم استقالت ملقية بمستقبل حياتها إلى الريح مفضلة ذلك على طلب المغفرة .

ثم اختفت عن باريس وأول خبر ظهر عنها فيما بعد عند أصحابها أنها رؤيت فى إسبانيا تشهد مصارعة الثيران وأنها وقعت فريسة حب لدى أحد المصارعين حمر الوجوه .

ولم يكن أحد ممن يتمنون لها الخير أو ممن يتمنون لها الشر ليستطيع أن يماشيها فى حياتها التى كانت تحياها . ففى الثامنة عشرة من عمرها كانت اللقمة الشهية لكل مائدة فى المقاهى . وكانت لها واقعة غرام مع أحد أمراء الإمبراطورية

الفرنسية وولدت له ولداً . ثم تنكر لها ولطفلها هذا المحب . وتنقلت بين أبواب المسارح وطفلها بين ذراعيها . ولقيت عملا فى مسرح « الجمناز » ولكنها استقالت فى نوبة من نوبات الغضب .

ثم كانت لها صلة بالممثل الأول فى « الأديون » وهو المسرح التالى فى الأهمية للكوميدى فرانسيز وأعطيت دوراً فى رواية جديدة . ولم تلق إلا الفشل مرة أخرى وهى تمثل هذا الدور .

ولا غرابة فى ذلك فقد كانت كما قال « الكسندر ديماس » الذى كان بين مشاهديها : إن لها وجه عذراء وجسم يد المكنسة » . وكان أولى له أن يقول قولا أكثر صدقاً : « إن لها وجه عذراء وجسم مانعة الصواعق » . وهو ذلك الجسم الذى احتوى كهرباء العالم كله .

وهى الآن فى الثانية والعشرين من عمرها وقد استقرت عندها الأمور . فكان لها ولد وكانت عندها رغبة فى فعل الخير . وكان لها صوت ندى . وقد حذقت أصول فنها وعنيت بأمر صوتها . وأخضعت لإرادتها كل عصب من أعصاب جسمها الدقيق . فلم تمض سنتان حتى كان لها فى الفن صوت عيد .

وأكبر نجاح لها صادفته لأول مرة كان فى تمثيلها رواية

« عابر السبيل » « لفرنسوا كوبيه » . وهى رواية مثلت فى باريس أكثر من مائة مرة .

ومثلث « سارة » فى حضرة الامبراطور نابليون فى قصر « التويلرى » . وتحول النقاد الذين كانوا يناصبونها العداء إلى معجبين يدقون الطبول وينفخون المزمار ويرتلون آيات الثناء .

واكتشف هؤلاء النقاد أن جسمها الدقيق وشعرها الذهبى الناعم لم يكونا نقمة من النقم بل كانا نعمة من نعم السماء .

وقال مؤلف الرواية الشاب : ماذا أقول عن « سارة » « الدقيقة التكوين » « سارة » التى لم تمنح — لحسن الحظ — أردافاً تنوء بحملها ساقاها . بل منحت ظرف شاب مهفهف القد مليح الغنج . وذلك لكى تجيد تمثيل أدوار الذكور .

فلما سمع النقاد هذا القول صاحوا جميعاً آمين .

وقال واحد منهم إن « سارة » تسير على هدى غريزة كامنة ، فهى فى تلاوتها للشعر كأنها القنبرة فى تغريدها أو الريح فى صفيرها أو البحار فى هديرها . وقد شاعت الشائعات أنها لم تكن امرأة بل كانت صبياً يتمسخر فى زى امرأة . ومن الأقاصيص التى رويت عنها أنها تصدقت على شحاذ ضرير بخمسمائة فرنك ذلك لأنه كان يشبه حبيباً من أحبابها الغابرين .

وأنها كانت تطوف الشوارع تتحدى الرجال للعراك .

وأنها كانت تدخن السيجار وتشرب الخمور القوية .

وكانت أحاديث هذه النزوات تفيض أخبارها الشوارع والبيوت .

وكانت « سارة » تطرب لشيوع هذه الشائعات . وكانت تضيف إليها قصصاً من نسج خيالها .

ولم تقنع « سارة » بما فى وجهها من شحوب فكانت تلون وجهها بالطباشير . ولم تقنع « سارة » بما قاله لها الأطباء من أن حياتها سوف لا تطول . بل صنعت لنفسها نعشاً من شجر الورد وله مقابض من فضة وكانت تؤخذ صورتها الفوتوغرافية وهى فى ذلك النعش وعيناها مغمضتان ويداها مطبقتان .

وكانت هذه طريقتها فى تحدى الموت . وكانت تضع النعش إلى جانب سريرها حتى يكون أول شىء يقع عليه نظرها إذا صحت من نومها . وكانت تأمر فيحمل مع سائر متاعها كلما كانت على سفر . وكثيراً ما نامت فيه . وكانت تصنع الشاى فوقه إذا زارها ضيف .

فهى مخلوقة مضطربة الأهواء . ولكى تعوض ما بها من نقص وضعف فقد أحاطت نفسها بعدد من الحيوانات المفترسة. فكان فى بيتها قط من القطط الأوابد وشبلا أسد صغيران وكان يصحبها إلى دار التمثيل نمر صغير . يقف إلى جانبها وهى تتزين . وكان يحرس بيتها كلب ضخم الجثة .

وفوق أنها ممثلة بارعة . فقد كانت أيضاً رسامة بارعة
لعصبية أيضاً . وكانت تجيد الرسم والتأليف كما تجيد التمثيل.
كانت ترسم لأصحابها صوراً . وكانت تلك الصور تعرض فى
معرض الفنون الجميلة .

وكتبت رواية تمثيلية نالت نجاحاً عظيماً . وكتبت قصة
فلقيت فشلا عظيماً ودرست الطب فبرعت فى التشريح .

ولقد كانت « سارة » إحدى النابغات اللائى كن يرين أن
رياضتهن الوحيدة لا تقوم على ترك العمل بل على تغيير نوع
العمل .

وقد عملت « سارة » وقد أحبت وقد انتصرت . فقد
كانت أسماء خلانها وأسماء من يحوطونها بالملق تؤلف قائمة
كبرى من الأسماء اللامعة فى فرنسا فى القرن التاسع عشر .

وهى الآن الممثلة الأولى فى الكوميدى فرانسيز . بين تلك
الجدران التى أضفت السنون عليها القداسة . وكان الناس
يتوقعون منها أن تمثل كلاسيكيات « راسين » و « كورنى »
وكانوا يتوقعون منها أن لا تجهر بالقول أمام تمثال موليير .

ولكن العبقريين كتب عليهم أن يثيروا صخباً وضجيجاً
لا يرضى عنهما المترمتون . وكذلك لم يرض أصحاب الكوميدى
فرانسيز عن الحياة التى كانت « سارة » تحياها .

ولكن لما زارت فرقة الكوميدى فرانسيز لندن جن جنون

النّظارة بتمثيل« سارة » وقد جاءوا ليشهدوا « سارة » لا ليشهدوا تمثيل فرقة الكوميدى فرانسيز . فنى أول ليلة مثلت فيها هناك أذهلها التّهليل والتصفيق فمثلت دور «فيدر» وكأنها كانت إحدى آلهات الأساطير السكارى . ولما أسدل الستار نزلت إلى ساحة المسرح منهوكة القوى وهى تقىء دما .

وفى اليوم التالى انسلت « سارت » من فراشها بالرغم من نصيحة الطبيب وركبت عربة سارت بها إلى المسرح . ذلك لأنه كان مقرراً أن تمثل فى تلك الليلة رواية أخرى . وقد أغمى عليها ثلاث مرات فى غرفة التزيين . وكانت نصف مخدرة بالأفيون فأدت نصف دورها وهى مذهولة تاركة جمهور النّظارة فى صخبهم وضجيجهم . وأدت النصف الآخر فى صعوبة بالغة حتّى بكى سائر زملائها وزميلاتها إشفاقاً وحزناً.

وقد أصرت « سارة » أثناء إقامتها فى لندن أن تأخذ ابنها غير الشرعى إلى بيوت الطبقات التى لا تعرف الخروج على العرف وكانت تطالب دائماً بأن توجه إليها الدعوات باسم « الآنسة سارة برنارد وابنها » .

فلما لامها فى ذلك أصحاب الفرقة استقالت . فقال لها أصحابها إنك الآن فى حكم الهاربة . فقالت لهم إنكم واهمون إنما أنا أستبدل ثكنة بأخرى . . .

وكانت تختبر بعد هذا الحادث قوة طاقتها الإمكانية

وكانت تحلم بما يخبئه المستقبل للمأساة الانفعالية من مستقبل أبعد أفقاً من أفق الكوميدى فرانسيز .

وكانت تحلم بأن تصبح صاحبة مسرح خاص بها وأن تختار رواياتها الخاصة . وأن تتولى بنفسها شرح الأدوار .

ثم سافرت إلى أمريكا لكى تدخل فيها الدنيا الجديدة . فهرع سكان تلك البلاد ليشاهدوا تلك المرأة الفرنسية العجيبة . تلك المرأة التى دوخت أوربا وجعلت جبالها ترتل ألحانها .

ولكن صحافة تلك البلاد كانت من أعاديها . وشكا النقاد أن بيان أدوارها التمثيلية مملوء بروايات يخجل منها وجه الحياء . ولا يستسيغ المسرح الأمريكى أن تمثل فى ساحته . وخاصة تلك الرواية من روايات إسكندر دوماس الصغير وهى رواية غادة الكاميليا . فانها رواية فتاة مسلولة من بنات الهوى . وهى رواية يراها الذوق الأمريكى شجى فى الحلق وقذى فى العين .

ولما وصلت « سارة » إلى نيويورك نصحها مديرو مسرحها أن لا تمثل تلك الرواية . لأن لها شهرة سيئة واسماً غير مقبول . فقالت لهم : حسناً . سأغير اسمها . فاكتبوا فى الإعلان عنها أنى أمثل رواية « كامى » ووجه المتذمرون نقدهم وتشهيرهم إلى تلك الرواية . ولكن المسارح كانت تعج بالمشاهدين كلما مثلت « سارة » تلك الرواية .

ولما سافرت « سارة » إلى شيكاغو لتمثل تلك الرواية كتب مدير مسرح « سارة » إلى رئيس الأساقفة خطاباً قال فيه لقد تعودت أنا يا صاحب النيافة أن أصرف على الإعلان أربعمائة ريال . أما وقد تفضلتم نيافتكم فقمتم بالإعلان بدلاً مني فإني أبعث لنيافتكم بمائتي ريال تنفقونها على الفقراء والمساكين .

وقد أثار تمثيل دور كامى حماسة بالغة . وقد أصبح تمثيل دور موت فتاة الهوى قطعة فنية خالدة. فلم يمثل دور الموت أحد كما مثلته « سارة » . ولو أن العديد الأكبر من النظارة لم يكن يعرف الفرنسية فإنهم عرفوا شحوب وجه الممثلة وأحسوا ببنيتها المحطمة فذرفوا الدموع حزناً على موتها الفاجع .

وكثير من أولئك النظارة تذكروا قصة قرأوها فى الصحف وهى : أنه حدث ذات ليلة فى باريس أثناء تمثيل « سارة » لأحد أدوارها أن صاح أحد خدم المسرح أن سارة قد ماتت... فهرع المدير وهرع الممثلون فوجدوها فى غرفة تزيينها ممددة على وسادة وهي فى ملابس بيضاء ويداها متعارضتان وبقعة حمراء على ذقنها وأربع شمعات ضخام فوق رأسها وعند قدميها . ثم أنزل مدير المسرح الستار وأعلن النبأ الفاجع إلى جمهور النظارة وعاد إلى غرفة الزينة لينفس عن حزنه. وعندئذ انتصبت «سارة» واقفة وأطفأت الشموع وانفجرت تضحك ضحكات شيطانية.

وهى تقول : هذا هو أعظم أدوارى . . . .

وهكذا كانت تمثل « سارة » ملكة القوام المعتدل وملكة الايماء وملكة النشاط . وفى آخر ليلة مثلت فيها فى « نيويورك » وقف على باب المسرح خمسون ألفاً يودعونها ولما وصلت إلى فرنسا وقف على رصيف ميناء الهافر خمسون ألفاً يهنئونها بسلامة الوصول .

وفى باريس استمر لفيف من النقاد يذمون « سارة » تلك الطفلة الفظيعة كما كانوا يسمونها وكان لفيف آخر يكاد يعبد « سارة » الملهمة .

واستأجرت سارة مسرحاً لحسابها وسمته مسرح « سارة » برنار » وفى هذا المسرح بلغت « سارة » مرتقى لم يبلغه من قبل أحد سواء فى الشهرة أو فى الفضيحة . وأصبحت هى المسرح وهى فن الدراما وهى معهد تمثيل المأساة والملهاة . وهى المحبة المغامرة التى تمنح نفسها من يشتهيها من أحبابها المغامرين .

وقد طوّفت بممالك أوربا ومعها ثمانون حقيبة تحوى حليها وأدوات زينتها وأدهشت الجماهير بتمثيلها ميلو درامات فيكتورين ساردو .

وكانت لا ترضى بأقل من التمام . سواء أكان ذلك فى الحَسن أو فى القبيح . وقد كادت تموت فى « جنوة » . وفى بطرسبورج جن بها الجمهور . وقد حل الطلبة هناك خيلها

وتولوا جر عربتها . ودفعوا أثماناً باهظة لشهود رواياتها . وفى « كييف » لعنت وأهينت وفى « أوديسا » رجمها الناس بالحجارة وفى بلاد إسكنديناوا حيث شهر القوم بهدوء الطبع . أغمى على النظارة وهم يشاهدون تمثيلها فى المآسى .

وأثنى عليها ولى عهد إنجلترا . ووصلتها شتائم من الحكومة الألمانية . وبكى عليها قيصر روسيا .

وعندما عادت إلى باريس تحلّت بالجواهر التى أهديت لها من رؤوس متوجة فى أوربا .

« وسارة » . نعم سارة . هى نصر الشيطان المؤزر . فبعد ارتباطها بصلات الحب الوثيق مع عظماء باريس تزوجت أكبر نصاب فى فرنسا وهو « جول بول داماﻻ » وكان فتى جميلا كما كان فتى لا يعرف للمبادئ معنى ، حكمه فى ذلك حكم الشيطان ذاته . وقيل فى وصفه : إن له أخلاق سيد ماجد . وعقل قرد . وكان مدمن مورفين . وقد أودى به إسرافه ثم فارق الدنيا .

وقد كان هذا الزواج فشلا تحدث به الركبان كما تحدث الركبان بعدئذ بأكبر نصر بلغته فى معاركها وهو حبها بعد أن تجاوزت الخمسين من عمرها « لأدمون روستان » . وقد خلّف هذا الحب أثراً لامعاً براقاً .

ولما رأت « أدمون روستان » أول مرة كان شاعراً مغموراً ..

فكانت تصطحبه معها فى عربتها وهى تتنزه . فكان يتلو عليها قصائده . ويقرأ لها رواياته . فتآلفت الروحان . وخلق هذا التآلف « روستان » الذى عرفه المجد كما عرفه الذهب . روستان صاحب « النسر الصغير » وصاحب « سيرانودى برجراك » .

وقد مثلت سارة برنارد ألف دور من أدوار الموت ولكن قوتها كممثلة غلبت الموت . وكانت تعمل خمس عشرة ساعة فى اليوم . بينما كان أعوانها من الرجال يتولاهم الكلال . وكان شعارها : « إن الأحسن هو عدو الحسن » وأنها يجب أن تعيش وتعيش . تمثل أدواراً تتجدد يوماً بعد يوم فى مسرح هذا العالم الواسع .

وان أدوار الشبان والنساء العجائز وإن أدوار الخطاة والمنقذين من الضلالة وأن أدوار « هاملت » و « توسكا » و «تيودورا » و «جان دارك » إنما يقصد بتمثيلها أن يكون الغد أحسن من اليوم . وهكذا قضت هذه الممثلة المريضة حياتها حتى بلغت سنها التاسعة والسبعين على الرغم من وصايا الأطباء ونُذرهم .

وفى منتصف عمرها سقطت مريضة وهى تمثل دور « هاملت » والتهبت العروق فى إحدى ساقيها . وفى السنين التالية تقلصت ساقها وانكمشت فعاشت حياتها التمثيلية بعد ذلك كأنها إحدى الشهيدات . وسرى السم من ساقها إلى أعلى

أجزاء جسمها . فلما بلغت الحادية والسبعين وكان ذلك عام ١٩١٥ أنذرها الأطباء بضرورة بتر الساق . فتقبلت المحنة بالاغتباط والرضا . ومنذ ذلك الحين كانت تمثل أدوارها وهى تسير على كرسى ذى عجلات . ولكن صوتها الندىّ وفنها الساحر لم ينقصا .

وفى عام ١٩١٦ حُملت فى كرسيها ذى العجلات إلى الجنود فى جبهة القتال . ترفه عنهم فى خنادقهم فعادوا إلى معاركهم والدموع فى مآقيهم أسفاً على الجريحة العظيمة وأسى على العاجزة المجيدة .

ولما عرف الموت طريقه إليها عام ١٩٢٣ كانت تكتشف لفنها طريقاً جديداً . فقد تعاقدت مع مخرج من مخرجى الصور المتحركة . ولكنها كانت لا تستطيع مبارحة بيتها . فمثلت وهى فى حجرة جلوسها . ولما لم تستطع أن تجلس فى كرسيها همست قائلة : « صورنى فى فراشى » .

وهنا حضرها الموت بعد قيامها بتمثيل الدور تمثيلا نال إعجابها هى، وكان من عادتها أن تقول إظهاراً لإعجابها بتمثيلها : « إن الله سبحانه كان حاضراً » .

فإذا أرجعنا البصر كرة إلى أكبر رواية تمثيلية قامت بها وهى حياتها . ألا يحق لنا أن نقول : « إن الله سبحانه كان حاضراً . . . »

قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية .

فمثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

١ ــ شجرة الكرز العجيبة .
٢ ــ رأس من طين .
٣ ــ هدية التنين .
٤ ــ حكم رادع .
٥ ــ الأصدقاء .
٦ ــ كلام بوذا .
٧ ــ الحماقات الثلاث .
٨ ــ الحبوب المقوية .
٩ ــ الملك شقرا .

اقرأ

الدكتور سامي الدهان

شاعر الشعب

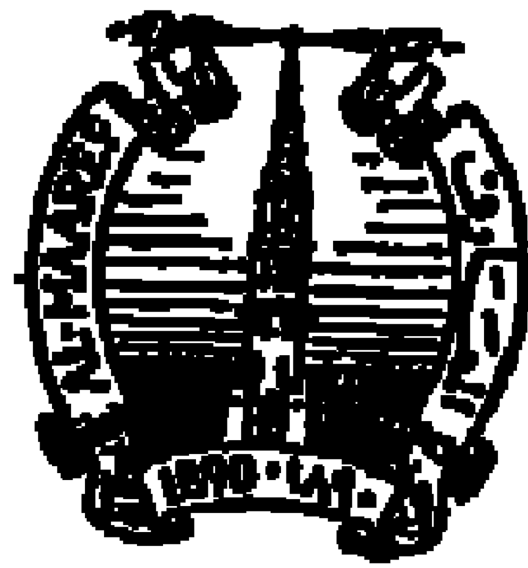
شاعر الشعب

الدكتور سامي الدهان

شاعر الشعب

اقرأ ١٢٠
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٠ - يناير ٩٥٣



من رأى « حافظاً » نذيراً بشيراً ... جائلا صائلا بغير اتئاد

غرِداً كالهزار آناً وآناً ... حرداً كالخضمّ ذى الأزباد

ينبر النبرة العزوف فما تس ... مع إلاّ أصداءها فى الوادى

وكأن الأثـــير يحمل منها ... كهرباء تهزّ كل فؤاد

فهى عزّ للأريحى المفادى ... وهى ذل للخائس المتفادى

وهى خفق اللواء يحدوه من إيقا ... ع أبطاله إلى المجد حاد

ذاك أن الروح المردّد فيها ... روح شعب والصوت صوت بلاد

خليل مطران

العصر

فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانت مصر مسرحاً لحوادث خطيرة ، لو وقعت فى أية مملكة من ممالك الأرض لأقعدتها عن السعى ، وردتها عن المجد ، وأوردتها موارد البؤس . فقد كانت الدولة العثمانية تحتفظ بالسيادة الاسمية على مصر ، وكانت إنكلترا وفرنسا تعملان على محو الاستقلال ، وتتنافسان فى التدخل بشؤونها . وكان الخديو يريدها للسلالة العلوية موطن الملك ومربع الحكم لا ينازعه فى ذلك منازع .

وكانت خاصة الشعب المصرى موزعة الأهواء ، مقسمة العواطف ، ففريق منها يسير تحت علم الهلال يرفرف فى حماية الإسلام والجامعة المحمدية ويرى فيه رمز الخلافة واتحاد المسلمين . وفريق يتمسك بالبيت العلوى يرى فيه قوة للسلطان واستقلالا لمصر ، وبعداً عن سيطرة الغرب . وفريق ثالث يئس من الأستانة لضعف المالكين فيها ؛ ومل جور المستعمر المستبد لظلمه وجرائمه ، وكفر بالسلطان لتذبذبه بين العثمانيين

والإنكليز ، فآمن بمصريته ، وتعلقت آماله بالاستقلال ووحدة النيل ، فهو لا يرى النور إلا بهما ، ولا يجد عضداً إلا بقوتهما .

وأصاب هؤلاء الأفرقاء جميعاً هزات عنيفة بعثت روح اليأس ، فجنح كثير منهم إلى السكوت ، وجنح فريق منهم إلى موالاة الاحتلال ، وظلت مصر تتخبط فى أمواج السياسة دون أن تبلغ شاطىء الأمانى .

أما عامة الشعب المصرى فقد تأرجحت لهذه الهزات ، وترنحت لهذه النكبات ، لا تؤمن بالأستانة ولا تدين للندن ، ولا ترى الخير ينبعث من أى ميدان فى القاهرة أو قصر من قصور الحكم . فانطوت على نفسها ، وسعت وراء العيش تكدح من غير أن تصل إلى النعيم أو تنعم بالاستقرار ؛ فهى تصبح على وزارة وتمسى على إنذار ، وتروح إلى ثورة وتغدو إلى سجن . وما يلوح بارق الأمل إلا ليختفى فتحول الاستقلال إلى احتلال ، وولد مع الاحتلال الانحلال . عاد الشعب المصرى القهقرى ، وخسر فى الميادين جميعاً ، فقد شهد الديون تتراكم ، والضرائب تتزايد ، والزراعة تتراجع ، والمدارس تتضاءل ، واللغة العربية فى احتضار ، والأخلاق فى خسار . وضاق باضطهاد الغربيين

وظلمهم وخداع الفئة الحاكمة وسياستها الملتوية ، فسار مع تيار الجلاء ، وقام ضد التدخل الأجنبى ، وقدم على مذبح الكنانة ضحاياه بريئة فى سبيل مجد يبزغ ،ونور يسطع ، ومستقبل هنىء .

وكانت الحركة الفكرية تصل إلى عامة الشعب عن سبل ألسنة ثلاثة : الصحافة ، والخطابة ، والشعر . وقد جاهدت هذه الألسنة فى نصرة مصر حيناً ، وموالاة المستعمر حيناً ، وتأييد السلطان أحياناً . ولكنها على اختلاف مبادئها عملت على إيقاظ الشعب ، وإثارة الشعور ، وبعث المشاكل . وكان جهاد هذه الألسنة مشكوراً أبداً سواء أأصابت فى الحق ونصرت الخير أم أخفقت ووقعت على الشر ؛ فهى قد سارت باللغة العربية شوطاً بعيداً ، ونقلت أساليب الكتابة إلى ميادين جديدة . فكان ما نراه اليوم من نثر مرسل يبتعد عن السجع والتكلف ، وما نقرؤه من شعر يتطرق إلى أبواب لا يعرفها أدبنا القديم ، ولا يستغنى عنها أدبنا الحديث .

وهذا النثر وهذا الشعر — كما وصلا إلينا — يمثلان هذه الحقبة ، وينيران سبيل الدراسة لهذا العصر ، ويقربان لنا صورة الحياة السياسية والاجتماعية فيها .

وما أعرف شاعراً من شعرائنا خص شعره بأمته وأحداثها فى العصر الحديث كما فعل محمد حافظ إبرهيم ، فقد عاش فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، فسجل الأحداث والكوارث ، وحفظ فى ديوانه يوميات أمته — إذا صح التعبير — ترى فيها أحوال الكنانة وأعراضها ، بشرها وأحزانها ، بمظاهراتها وثوراتها ، بأنينها وشكواها ويأسها وبؤسها ، فكان شاعر الحياة الاجتماعية ، ومحامى الشعب ، وكان مصوراً للآلام والآمال .

لذلك جاء شعره عنيفاً حيناً ضعيفاً حيناً آخر ، فيه رعدة من الأجنبى طوراً ، وفيه رعود على الأجنبى أطواراً ، يصور الزمن الذى قيل فيه ، والميدان الذى انطلق منه ، والبيئة التى صنع فيها ، والتعاليم التى أوحت إليه. وما الشاعر إلا ابن الأرض والبيئة والزمان ، لا يصح أن نضعه فى غيرها ، وأن نحكم عليه بغير منظارها . وبغير ذلك نظلم الشاعر والأدب والحقيقة .

ونحن إنما نريد فى هذه الصفحات اليسيرة أن نبسط حياة الرجل وشعره وأخلاقه وثقافته كما كان لا كما نريد أن يكون . وللتاريخ أن ينصف الأموات من الأحياء .

حياة محمد حافظ إبرهيم

١
ولادته وصباه

ولد محمد حافظ فى سفينة صغيرة (ذهبية) على النيل ببلدة « ديروط » من مديرية أسيوط ، فى الرابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ – على أغلب الآراء والظن – من أب مصرى هو المهندس إبرهيم فهمى ، وأم تمت بنسبها إلى أسرة تركية هى الست هانم ابنة أحمد البورصه لى .

وتفتحت عيناه على نهر النيل المبارك أول ما تفتحتا ، واستنشقت رئتاه أريج نسيمه منذ ظهر على النور ، فتغلغلت نسماته فى صدره ، وانطبع على حبه ، ولبث طيلة عمره وفيًّا بأرضه ، محبًّا لأهله .

ودرج الطفل مع العام الأول يحبو على أطراف السفينة ثم يقف علي سلالمها فى العام الثاني والثالث ، فإذا كان العام الرابع

سيطر على السفينة حزن شامل لم يفهم كنهه الغلام ، فقد قضى أبوه ، وقدر للصبي منذ نعومة أظفاره وحدة ووحشة وفقر وبؤس لازمت حياته ، وطبعت أشعاره بطابعها .

واضطرت الأم أن تحمل وحيدها إلى القاهرة لتعيش فى كنف أخيها المهندس محمد نيازى ، وتعول ابنها ، وتقوم بتعليمه وتنشئته . ودخل الطفل المدرسة الخيرية بالقلعة ، يتعلم القراءة والكتابة وبعض العربية ومبادئ الحساب . وظل يتنقل من مدرسة إلى مدرسة حتى دخل المدرسة الخديوية .

فلما انتقل خاله إلى «طنطا» وانتقل البيت معه ، سافر محمد حافظ مع أمه إلى هذه المدينة سنة ١٨٨٧ وسنه إذ ذاك ستة عشر عاماً .

ويبدو أنه راح يقرض الشعر منذ هذه السن فيتعثر حيناً ، وينهض حيناً بجناحين ضعيفين وثقافة بسيطة لم تصقلها الدراسة المنظمة ، ولم تهذبها الأساليب العلمية ، وكل زاده فيما نظن كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفى . وهذا الكتاب مادة دسمة لنحو اللغة وصرفها ، فيه فنون البلاغة والفصاحة ، وألوان من أمثال العرب وأشعارهم ومختارات من دواوين فحولهم

منذ الجاهلية حتى العصر الحديث . وفيه على ذلك صفحات كثيرة من ديوان محمود سامى البارودى . ولا شك فى أن محمد حافظ قرأه وقرأه ، فصقل به ذهنه ، وروض به حافظته ، وشحذ به لسانه ؛ فهو الكتاب الشامل لعصره يثير القرائح الصحيحة ويشحذ الألسنة الفصيحة . وقد وهب الله شاعرنا الصغير لساناً ناطقاً وذاكرة حافظة ، وذهناً متوقداً ، فأخذ بتقليد الشعراء ، وظل يهذى حتى قال الشعر .

وقد ذكر الذين عرفوا الفتى فى طفولته أنه كان يعنى بالشعر والأدب عناية لفتت الأنظار إليه ، وجمعت القلوب حوله . فكان يسهر الليل فى مطارحة الشعر ومذاكرة نوادر الأدب ، ويسمر فى استعادة جيد القريض وطيب الشعر . وقد كتب الأستاذ عبد الوهاب النجار يحيى ذكرى الشاعر قال :

« فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً فى الجامع الأحمدى بطنطا ، وقد سافرت فى أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر محمد حافظ

إبرهيم . ولم تمض إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر وحضور نادرة » .

ونقل الأستاذ النجار لمحمد حافظ نماذج من شعر يدل على تشاؤم الفتى وتأثره بأبى العلاء :

عجبتُ لعُمرى كيف مُدّ فطالا وما أثّرت فيه الهموم فزالا
وللموت ما لى قد أراه مُباعداً وجل مرادى أن أوسّد حالا
فللموتُ خير من حياة أرى بها ذليلا وكنتُ السيد المفضالا

فهذا شعر فتى تظهر عليه ندوب الأسى واليأس والبؤس . ومع ذلك نقل إلينا أنه كان يعبث نهاره بالناس ويلهو بالحيوان فيثير جيرانه ويقلق الناس ؛ فإذا شكوه إلى خاله تبرم بهذه البطالة ، وتأثر لهذا الشاب ما يكاد يربح ما يعينه على العيش ، وخاله مهندس تنظيم ، ووظاف متوسط الحال لا يستطيع أن ينفق فى سعة ؛ وليس للطفل مال موروث أو أسرة غنية ، وهما مفتاح العيش فى الشرق ، فاختلفا كثيراً ، وقام بينهما النزاع كثيراً .

وأخيراً آلى الشاب على نفسه أن يهجر بيت خاله ، وأن يقطع دابر الخلاف ، وأن يطرق أبواب الحياة . فلما قرر الحرب كتب إلى خاله بهذين البيتين :

ثقلتْ عليكَ مؤونتي   إني أراهــا واهيَهْ
فافــرح فإني ذاهب   متوجِّــهٌ في داهيهْ

٢
فى المحاماة

لم يكن للمحاماة آنذاك فى مصر نظام محدود أو قانون مسنون ، فقد كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، ولم يكن للامتحان مكان فى ذلك العهد ، وإنما كان للناس أن يدافعوا عن أنفسهم أو يوكلوا من يتولج القضايا ويختص بها . وما كان يشترط فى المحامى شهادة أو معرفة ، بل كل ما فى الأمر أنها كانت تعتمد على ذلاقة اللسان وحضور الكلام وسرعة التقليب فى الأمور وفهم المشاكل الناشئة .

لذلك فكر محمد حافظ فى أن يعمل بالمحاماة لعلها تدر عليه بعض المال ، فقصد إلى المحامى محمد الشيمى بطنطا ، واشتغل عنده فى مكتبه . وكان يسافر إلى المحاكم القريبة من البلدة ، ويترافع فيها ، لكنه لم يكسب ما يكفيه ، فاختلف مع الأستاذ الشيمى وهجره بعد أن ترك له هذين البيتين :

جرابُ حظىَ قد أفرغته طمعاً ببابِ أستاذنا «الشيمى» ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوءٌ فقلتُ له : مِم؟ فقال : من الحشرات واحَرّبا

وانتقل إلى مكتب المحامى محمد أبى شادى بطنطا فمكث عنده مدة فى سرور وفرح، لأنه وجد ما يبعث على التندر بالأدب ومعالجة الشعر ، ولكن ذلك لم يطل لأن الشاب انتقل إلى غيره من المحامين ، فعمل فى مكتب عبد الكريم فهيم ، ثم فى مكتب إبرهيم الحلباوى . ولا شك فى أنه كان كثير الضجر بالمهنة ، تتطلب إليه العمل والدأب والسفر والمراجعة ، وحافظ فى كل ذلك كسول ملول لا يكاد يعنى بأمر نفسه ، ولا يجد من الصبر ما يدفعه إلى ترتيب عمله وتنظيم عيشه .

ولا نشك فى أنه نظم شعراً خلال هذا العام الذى قضاه مع المحامين وفى مكاتبهم ، ولكن هذا الشعر ضاع فى جملة ما رمى به الشاعر ، تهاوناً بأمره ، واعتماداً على ذاكرته . ولو وصل إلينا لبلغنا بفهم هذه الفترة مبلغاً نصف به حياته فى طنطا .

٣
فى المدرسة الحربية

ضاق حافظ بالمحاماة وأساتيذها، وبرم بالقضايا والمرافعات، كما ضاق بكل شيء فى حياته ، ففكر فى أن يتخذ باباً آخر للرزق ، وموردا مختلفاً للعيش. وعول على أن يقلد محمود سامى البارودى ، فلعله يصبح ضابطاً خطيراً أو شاعراً كبيراً ، تلقى إليه الأمور الهامة ، فتوجه إلى المدرسة الحربية بالقاهرة سنة ١٨٨٨ وعمره إذ ذاك سبعة عشر عاماً .

وكان دخول هذه المدرسة لا يتطلب شهادة ولا يشترط معرفة . وما هو إلا أن يزج نفسه فى غمارها حتى يخرج وعلى كتفه نجمة وفى خصره سيف .

وكان الجيش والمدرسة الحربية قد وقعتا فى قبضة الاستعمار فنقص من وزنهما وعمل على تشويههما ، ووقف رجاله على قتل نشاطهما . وما للاستعمار أن يبعث قوة أو يخلق مصنعاً للرجال . فمال بالجيش حتى قلم أظافره ، وبتر منه الأعضاء الصالحة ،

فأصبح بؤرة للمرض ، وميداناً للتراخى ، وعدة للأجنبى وسلاحاً على المصرى ، يديره ضباط بريطانيون ثقفوا احتقار الشرق وإنكار حقه فى الحياة ؛ فأقصوا جميع الضباط الوطنيين من الجيش ، وأصبح الغرض القضاء على روح الشهامة والرجولة والوطنية . وصار يؤخذ للمدرسة الحربية من ساقطى الشهادة الابتدائية .

كذلك كانت المدرسة الحربية عقب الثورة العرابية ، صورة للنقمة البريطانية على الجيش المصرى الثائر ، فليس فيها إلا ثقافة مريضة ومعارف بسيطة . دخلها محمد حافظ وخرج منها كما دخل ، فلم يتعلق بفن ولم يتعمق فى معرفة . وما لنا لا نعتمد على الشاعر نفسه فى وصف حالها فقد كتب يقول :

« ولو لم أكن متخرجاً فى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال ، ولكننى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجهلُ شخصٌ يُنَادِى فوْقَ قامته
لاتسألى الربعَ ما فى الرَّبْع من أحد »

ووصف عمل الإنكليز لخراب هذه المدارس ونقمتهم على الجيش فقال :

« دخلوا مصر وفى جيشها من هم أولى سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم ، ومن حنكته السن وغذته التجربة ، وخبطته الحروب ، فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيماوى الباهر ، والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلداً فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عطلا من كل رجل ركين .

«ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها ، وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حلى فضائلها ، حتى أصبحت كالأخيذة السليبة . ثم يتموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شىء بمصانع الدجاج ؛ يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها ، لا يزيد علمه فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرع فى أخذ الصور من تلك المدرسة فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش .

« فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح

العلوم ونضبت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة . وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك . وبات يطلبها كل فدْم وجاهل كما تطلب اليوم الضيعة الخربة » .

فى هذه المدرسة قضى حافظ أربع سنوات حتى تخرج فيها سنة ١٨٩١ ، وهو فى العشرين من عمره .

٤

حافظ الضابط

تخرج حافظ برتبة ملازم ثان ، ومن رأى الرجل فى بزته العسكرية ، وقامته المديدة ، وبنائه القوى ، وعضله المفتول ، وشاربيه الطويلين ، والسيف على جنبه لا يعرف أن هذا الضابط يحمل بين جنبيه قلب شاعر وحس أديب .

عين حافظ فى الحربية بعد تخرجه ، ولبث ثلاث سنوات ثم نقل إلى ملاك وزارة الداخلية ، فأرسل ملاحظاً إلى بنى سويف — وكانت الداخلية تأخذ من الحربية ضباطها لأن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت فى ذلك الزمن .

ثم انتقل بعد شهور كمعاون بوليس بمركز الإبراهيمية ، وعاد بعد سبعة أشهر إلى وزارة الحربية . وأرسل إلى السودان سنة ١٨٩٦ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

ولا بد من الوقوف فترة قصيرة عند هذا العهد فقد زادت فيه بلية مصر بالاستعمار ، وقال المؤرخون لهذه الحقبة : إنه لم

يكن ثمة عدل ولا قانون، ولا قضاء ولا حرية ولا مساواة ؛ وكان الضرب بالسوط شائعاً يستعمله الحكام لتحصيل الأموال أو أداة للقسوة والتعذيب . وكان النفى إلى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ، أو لتقرير ، أو لمحضر يوقعه من دان بالاستعمار وآمن بالإنكليز .

واعتزّ الأجنبى بنصره فى الثورة العرابية وثورة المهدى ، وعززه تدخل أوربة فى فقر مصر المالى ، فاستخف بالشعب وعمل على قمع حركاته بالشدة ، فاستسلم كثير من الناس إلى اليأس . وأخذ كبراء البلاد وموظفوها ، ومثقفوها وأعيانها وخاصتها يتنكرون للحركة الوطنية ، متأثرين بهزيمة الثورة وانتصار الاحتلال . وأصبح كثير منهم يبتغون الزلفى للحاكم المستعمر . وأصبح الجيش البريطانى صاحب الحول والطول فى البلاد كلها . وأصبحت الصحافة ، وسيف الظلم مسلط على الرءوس ، فى خوف وتردد خشية المصادرة والتعطيل . وساد النفاق ، وعم الرياء وتفشى الخنوع والملق للرؤساء ، وأصبح للصّغار فى النفوس الموطن والمستقر .

كل هذا والأمم الأوربية ساكتة راضية عن موقف الإنكليز

وجيشهم يفعلون من غير وازع ويأمرون من غير معترض .

في هذه الفترة العصيبة أرسلَ حافظٌ إلى السودان وهو رقة إحساسه ودقة عواطفه ، وعظيم شعوره بالألم والبؤس ، وشد تعلقه بالقاهرة وأهلها ، فأصبح يكتوى بنار الغيظ ونار القيظ .

وكان الإنكليز يشتدون على المصريين خاصة ، ويسعون في سياسة التفريق إلى تفضيل السودانيين لعل المصريين ينفروا من السودان إلى غير رجعة فيخلو لهم العيش ، ويصبحون الساد الحاكمين من غير رقيب أو عذول .

فلما دخل حافظ السودان عرف ذلك كله فوصف الإنكليز في الجيش يقول :

« ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم الجيش وينظر إلى الإنجليزى فى لين عيشه ورخاء باله ، بين متبسم زمانه وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ؛ وإذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج . وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج » .

ثم وصف نظرة الإنكليزى إلى المصرى وتفضيله السودانى

عليه لا لشيء إلا ليخلق التفرقة وتشتيت الشمل قال :

« فأيّ مصريّ لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده بسواد جدّه ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ، ويحظى عند القوم بتلكم الحظوة ، والإنجليزى فى الجيش مشغوف بحبّ الأسود من الألوان ».

ثم يصف موقف المصريّ من المستعمر فيقول :

« لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب غير مرعيّ الجناب ، يعتوره الذلّ والخور ، وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مرّ به يوم لحق به النقص .

« ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس فى جوّ يتنفس الإنجليزى فيه ، وهو إنْ خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر » .

ثم يقول عن أخلاق الإنجليز :

« والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبّه » .

لذلك شقى الضابط الشاعر بهذا الإقليم وهذا الوسط وراح يرسل زفراته الواحدة تلو الأخرى يتحرّق على الخروج من هذه البيئة ، فلقد أصبح حاله إلى همّ وتسهيد إذ يقول :

فأمسكا الرّاح إنى لا أخامرها ... وبلغا الغيدَ عنى سلوة الغيا
ثم امضيا ودعانى إننى رجلٌ ... قدْ آل أمرى إلى همٍ وتسهيدِ

وبلغ به اليأس أقصاه حتى لقد أصبح يصرخ بلهجة المعرى قائلاً :

لم تلدنا حوّاء إلاّ لنشقى ... ليتها عاطلٌ من الأولادِ
أسلَمَتْنا إلى صُرُوفِ زَمانٍ ... ثمّ لمْ تُوصِها بحفظ الوِدَادِ

وزاد شقاؤه فراح يستنجد بإخوانه ، ويستغيث بأصدقائه ، وفيهم الأستاذ محمد عبده ، فقد كتب إليه من السودان يصف حاله :

« فلقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت ، والمغاضب فى جوف الحوت ، بين الضيق والشدّة ، والوحشة والوحدة . لا ، بل حلول الوزير فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب ،

بين نارين نار القيظ ونار الغيظ

فناديتُ باسم « الشيخ » والقيظُ جمرَةٌ

يذيبُ دماغ الضَّبّ والعقلُ ذاهلُ

فَصِرْتُ كأنى بين رَوْض ومَنهل

تدبّ الصّبا فيه وتشدو البلابلُ »

وأرسل كذلك إلى صديقه محمد بيرم يشكو ويندب حظه :

نزحتُ عن الديار أروم رزقى وأضرب فى المهامه والتّخوم

وما غادَرْتُ فى السودان قَفْراً ولم أصْبغ بتربته أديمى

وهأنا بين أنياب المنايـــا وتحتَ براثن الخطْب الجسيم

ولولا سَوْرةٌ للمَجْد عندى قنعتُ بعيشتى قنع الظَّليم

وكتب كذلك يصف سعيه وإخفاقه ، ويرسم فقره وإملاقه فقال :

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التراب

وحتى صيَّرتنى الشمسُ عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى

وحتى قلم الإملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى

متى أنا بالغٌ يا « مصر » أرضاً أشمّ بتربها ريح الملاب

وليت الأمر وقف بالضابط الشاعر عند الهجير والرياح

السافيات ، وظلم الطبيعة وقسوة البشر ، ولكنه ساقه إلى أمر حاسم يختم به شقاء السودان ليفتح له شقاء آخر .

فقد حدث أنّ فرنسة قامت تشارك الإنكليز فى اقتسام السودان لعلها تحصل على نصيبها من غنائم الاستعمار ، فأرسلت قوة تحتل قسما من السودان ، ولكن الإنكليز حاربوا زميلتهم وحشدوا لها قوة بالغة تفوقها فى العَدد والعُدد ، فانتصروا عليها فى « فاشودة » سنة ١٨٩٩ .

وأصبحت إنكلترا بعد هذا الحادث تخاف القلاقل فى السودان ، وقرّرتْ أن تستبد به دون سواها ، وعملتْ كحاكمة مستعمرة ، فأخمدتْ كل حركة تبدو ، وقتلتْ كل شعور يلوح فى الجيش والأمة . وأخذت تجمع السلاح من الجنود خوفاً من ثورتهم وفرقاً من انتقاضهم . أما الجنود المصريون فخافوا على أنفسهم أن يبقوا بغير سلاح فى المهمه البعيد ، فاجتمعوا ووقر فى نفوسهم أن يبلغوا الشكوى والاحتجاج . ولكنّ الدهاة الإنكليز عرفوا كيف يفسدون الضمائر ويشترون القلوب ، فاستجلبوا السودانيين واتخذوا منهم بطانة سوء تدلهم على أسماء المتآمرين . وهنا نترك الكلام للشاعر الكاتب نفسه يصف لنا كيف وقع

التحقيق فى القضية :

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى مالا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ؛ وجمع فى خريطته ما يربو على الثمانين اسماً ، خف إلى كبيره وقد حمل ظلماً فوالذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملتْ خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه » .

فلما استكثر الضابط الكبير الأسماء المعروضة عليه طلب أن يضرب عليها بالقداح ، فأصاب سوء الطالع شاعرنا حافظاً مع سبعة عشر ضابطاً آخرين ، فوقع عليهم الاختيار والتهمة ، فقال فى ذلك : « ولقد كنتُ أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية » .

وسيق الضباط إلى مصر وحيل بينهم وبين العمل أو الرجوع إلى الجيش ، وأحيلوا على الاستيداع . وعاد حافظ بينهم إلى القاهرة مثقلا بالهم ، مشبعاً بالبؤس والشقاء وظلم الدنيا ، وقد أحيل على الاستيداع فى شهر مايو سنة ١٩٠٠ بعد أن سلخ فى السودان سنوات عجافاً لم تغنه ولم تسمن من جوع ، ومع ذلك لم تطل إذ عاج إلى الاستيداع ، فأضحى مرتبه أربعة جنيهات ليس غير .

٥

فى صحبة الإمام

يقول الأستاذ داود بركات فى ذكرياته عن حافظ :

« عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، وقد جاء من السودان ، أو بالأحرى جىء به منه ، حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشر مع الخديوى عباس الثانى ، ومكاتبته سراً بعد افتتاح الخرطوم . عرفته وشوقى يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملا بالأهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيلوا إلى الاستيداع بطلب اللورد كرومر — وكيل الدولة الإنكليزية — وكان يطلب من الخديوى إعلان استنكار عملهم ، والخديوى يماطل ويتردد ، فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم » .

وهذا يوحى إلينا بأن حافظاً كان ضحية من ضحايا الخديو عباس الثانى ، وأنه كان يعتمد عليه فى إيجاد مرتزق له ، فراح

شاعرنا يتقرب منه ، ويرسل إليه الرسائل الشعرية — إذا جاز التعبير — فقد قال فيه يهنئه بعيد الفطر سنة ١٩٠١ :

مليكٌ أباح العيدُ لثمَ يمينه ويا ليت ذاك العيد يبسط أعذارى
ويحملُ عنى للعزيز تحية ويذكر شيئاً من حديثى وأشعارى

ويتضاءل حافظ أمام الخديو وشاعره فيقول :

لم يبق «أحمد» من قول أحاوله فى مدح ذاتك فاعذرْنى ولا تعب
فلستُ ممن سمَتْ بالشعر همتهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى
لكن عيدك يا «عباس» أنطقنى كالبدر أطلق صوت البلبل الطرب

فهو يمجد أحمد شوقى ويرفع شأنه ، كأنه يريد أن يظهر له عواطف الشكر لما صنع ، ويدفعه إلى أن يعينه عند الخديو وأصدقاء الخديو ، فيصف شعره بالضعف والتخاذل أمام شعر شوقى ، وكأنه يطمئن زميله إلى أنه لن ينافسه فى منصبه عند الملوك .

وقد رأينا أن وساطة الخديو وشاعره لم تنفع فى عون حافظ ، فلبث من غير عمل ، وركن إلى البطالة ، فتعلق بأذيال الفقر والحاجة ، وعاد إلى بؤسه وهمومه يتمنى أن لو مات قبل هذا ، فيقول :

لا تطعمانى أنياب الملام على هذا العثار فإنى مهبط العجب
وَددتُ لو طرحوا بى يومَ جئتهم
في مسبح الحوت أو في مسرح العطب

وهو يرى أن الحرية قد فقدت فى مصر ، وأن الحظ قد مات ، وأنّ حال بلاده فى أسوأ ما يستطيع حتى ليبكى لوضعها فيقول :

لكننى غيرُ مجدودٍ وما فتئت يدالمقادير تُقْصينى عن الأربِ
متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مُرْتَهب . لله مرتقبِ
فقد غدتْ مصرُ فى حال إذا ذكرت
جادتْ جفونى لها باللؤلؤ الرطبِ
إذا نطقتُ فقاعُ السِّجْنِ متكأً
وإن سكتُّ فإنّ النفس لم تَطِبِ

ويشكو حافظ انصراف مصر عن شعره وستطول شكواه من ذلك ، فهو يرى أن المصريين مقصرّون فى إكباره وجعله فى المرتبة اللائقة به . ولعل سبب ذلك أنه لم يكن يتصل بالمجتمعات التى تسيغ الشعر وتحفل بصاحبه ، ولم يكن يطرق موضوعات تتصل بحوادث الساعة — كما نقول اليوم .

فلما اتصل حافظ بمجلس الإمام محمد عبده أفاد منه ثقافة وعلماً ، وأفاد منه صلات وجاهاً ، فتعرف إلى سعد زغلول وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ومحمود سامى البارودى ، وخليل مطران ، وعلى يوسف ، وحفنى ناصف . . . وهؤلاء كانوا عيون الأمة ووجوه الشعب وألسنته الناطقة وصحفه السيارة ، فاستمع إليهم يتناقشون فى القضية المصرية ، وأخذ عنهم هذه الشكوى والوطنية فأفرغ الموضوعات فى شعره وساقها فى قصيده ، فإذا مصر تستمع له عاماً بعد عام حتى سارت بشعره المجتمعات والصحف وردده الخطباء وراح الناس يتغنون به ويعجبون بصاحبه .

ولكن ذلك كله لم يجد على حافظ ، ولم يدر عليه المال فلبث فقيراً معوزاً ، منذ عودته من السودان سنة ١٩٠٠ حتى انقضت عشرة أعوام دخل بعدها الوظيفة .

وإذا كانت هذه الحقبة من الزمن لم تنفع فى مال حافظ وثروته فإنها نفعته فى علمه واتصاله بالموضوعات الهامة فقد أصبح صديقاً للإمام حتى قال فيه : « وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث » . وقال

كذلك يصف هذه المجالس وما كانت تثير في ثقافته وأدبه ، وما كان لها من أثر في توجيه شعره :

« فلقد كنتُ ألصق الناس بالإمام، أغشى داره ، وأردُ أنهاره، وألتقطُ ثمارَه فما سمعته يخوض في ذكر السياسة — قبحها الله — ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ، ويسمو بأنفسهم إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . . . »

وقد يخطئ الذين يظنون أن حافظاً سياسيٌ يعمل في الأحزاب الوطنية ويقول باسمها ، فهو ينشد شعره باسم الأمة ، ولا يجد في قوله سياسة ، متبعاً في ذلك خطة أستاذه الإمام محمد عبده وقد وصفها بقوله :

« يلقى في الأزهر دروس التفسير ، وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله ، فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران . على أنه كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها . »

ولا يخطئ الدّارسُ حين يرى في مجلس الإمام مدرسة

عالية أو جامعة ثقافية ، يتخرج فيها الطالب كما يتخرج فى الجامعة سواء بسواء . ولا حرج إذا وجدنا فى صلة حافظ بهذه الدروس والمجالس صلة الطالب بالجامعة ، فقد أخذ بها وعب من منافعها ، واستفاد من فوائدها . فكان يقرأ فى « المنار » شروحه ، ويحضر مجالسه اللغوية ، فصهر شعره بما حفظ وما وعى ، وما أكثر ما يحفظ حافظ وما يعى ؛ فصقل ألفاظه ، ونمق مفرداته ، وجمل تعابيره حتى كان شعره فى العيوق جزالة ومتانة .

وقد حفظ الشاعر للإمام هذه اليد حتى آخر أنفاسه ، ولبث ملازماً له فى السفر والحضر . وتابعه فى خطته من حيث صلاته مع السلطان والمستعمر والأحزاب . وكان بين اللورد كرومر والإمام تفاهم إلى حد الصداقة ، لعل الذى دفع إليه خوف الإمام من الخديو وتشبثه بكرومر يحميه من شره وغدره .

والناس يعرفون أن الشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه سنة ١٨٨٩ آثر الراحة والبعد عن السياسة والعمل للعلم والأخلاق والدين ، فأخذ عليه الناس تخلفه عن الفكاح السياسى وانقطاعه عن أستاذه جمال الدين الأفغانى فى المراسلة . وعدوا ذلك عليه

ضعفاً وتراجعاً وتخاذلا . وزاد فى اتهامهم أنه كان مسموع الكلمة عند الحكام المستعمرين ، فتابعه حافظ إبرهيم فى سياسته هذه ، ولم يشتد فى التقريع بالإنكليز مشايعة له أول الأمر ؛ ونحن نجد فى « ليالى سطيح » تفسيراً لسياسة الإمام ، قال حافظ :

« ولولا أن الإمام مادّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنها شرة القوم ، ويصلح ما تفسده أهل الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حيًّا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى دنشواى لرأيت غير ذلك الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك التهديد والوعيد » .

لذلك وقف حافظ من الإنكليز موقفه يعاتب وينقد ويسخر ويطلب الرفق والشفقة بهذا الشعب . فلما قضى الإمام سنة ١٩٠٥ فقد بفقده سنداً عظيما ، فراح يعمل فى الترجمة والكتابة والقريض على مدى واسع ، متنقلا بين أصحاب الإمام وأصدقائه ممن أصبحوا أصدقاءه وخلانه .

٦
مع المرأة

فى سنة ١٩٠٦ ، أى بعد عام من وفاة الإمام رأى شاعرنا أن يطلق حياة الوحدة ، ففكر فى الزواج لعله ينتقل من بيت خاله ، أو يتخذ له مسكناً ينفرد به ، أو ينشئ أسرة تتصل بينه وبين أهلها روابط القرابة والعيش . فتزوج من أسرة بحى « عابدين » ؛ ولكن هذا الزواج لم يمتد أكثر من أربعة أشهر انفصل الزوجان بعدها إلى غير اتصال .

ونحن نجهل كل الجهل ما كان من أثر هذه المرأة فى نفسه وعيشه ، فهو لا يتحدث عنها بشىء ، ولا ينبئنا المتصلون به عنها فى شىء .

ونكاد نظن أن هذا الشاعر لم يخلق لنظام أو قانون يفرضه الزواج ويمليه البيت ، لذلك نحسب أنه آثر الحرية والانطلاق ، وأحبّ الفوضى ، فعاد إلى حياة المقهى وإدمان الشرب ، فكأنه

أسف لهذا الاتصال أو كأنه أخفق فى هذه التجربة ، فلم يعد إليها طيلة حياته . ولا نعرف أثراً لامرأة أخرى فى عيشه ، فقضى من غير أن يترك ذرية أو خلفاً يحمل هذا الاسم .

ولا نرى فى ديوانه حبًّا لامرأة أو تحبباً أو تغزلا بأنثى ، فقد حرمته الطبيعة هذه الناحية من الشاعرية ولعل سعيه وراء العيش وأمجاد الحياة ومجالس العلماء والشعراء قد دفعه عن المرأة والتلهى بذكرها أو العيش إلى جانبها .

وفى سنة ١٩٠٨ توفيت أمه ، مثقلة بالأتعاب والهموم التى أورثها ابنها ، فهى لم تفتح عينها على بحبوحة العيش منذ انتقل زوجها ، ولم تسعد برفاهية المال منذ نشد ابنها وترعرع ، فهو أبداً ينتقل من عمل إلى عمل ، ومن مكتب إلى مكتب حتى قضت وهو لا يعرف راتباً معيناً إلا راتب المعاش وهو ضئيل .

وتوفى خاله محمد نيازى ، فعاش مع زوجة خاله الست عائشة هانم ، فكانت تعنى به ، وتدبر أمره ، وظلت فى قضاء شؤونه حتى قضت قبيل وفاته بثلاث سنين .

والواقع يقتضينا أن نشير إلى أن محمد حافظ إبراهيم وهب روحه للوطن وأهله ، وما انصرف إلى حياة الأسرة إلا أشهراً

معدودة ، قضى فيها سحابة الليل فإذا طلع النهار انسل إلى المقهى يمضى فى صحبة إخوانه ساعاته ، ويقتل الوقت — كما يقول الغربيون — فى جدّ القول وهزله ، ما يفتأ جياشاً بصوته الجهورى فى المجالس والحلقات ، حتى لقد ظن به الناس أنه مستهتر قليل الاكتراث بالأسرة وما يتصل بها من روابط وشائج .

٧
فى دار الكتب المصرية

مل" حافظ هذا اللون من العيش ، وآثر أن يدخل فى وظيفة تعينه على الحياة ، فسعى عند ناظر المعارف آنذاك أحمد حشمت فعينه رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية فى شهر مارس سنة ١٩١١ ، بمرتب قدره ثلاثون جنيهاً . وتنقل فى مراتب الدار حتى أصبح وكيلا لها ، وحصل على مرتبة البكوية من الدرجة الثانية وأنعم عليه بعدها بنيشان النيل من الدرجة الرابعة . وأما عمله خلال هذه الحقبة فقد وصفه الدكتور زكى مبارك بقوله :

« استطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخلصاً تامًّا فكنت لا تراه فى دار الكتب المصرية إلا زائراً ، ولم يستطع الأستاذ لطفى بك السيد أن يحتجزه فى تلك الدار إلا فى اللحظات التى يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق . وكان

ـ رحمه الله ـ يخرج من بيته فيظل يتنقل من ناد إلى ناد ومن منزل إلى منزل باحثاً عن أصفيائه الذين ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث » .

وقال الدكتور طه حسين يصف حافظاً كذلك :

« فى سبيل الله هذه الأعوام الطوال التى قضاها حافظ فى دار الكتب لا يعمل شيئاً ولا يقول شيئاً ؛ وإنما يقضى صباحه فى الدار يعبث بالموظفين ، ويتندر عليهم أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة أو العامة » .

وهكذا يتفق الكاتبان فى وصف حياته بدار الكتب ، لا يستقر فيها ولا يطول مقامه بها ، على عادة الموظفين آنذاك تختلف على مكاتبهم أكواب الشاى والقهوة ، وتنطلق من غرفهم ضحكات تتلوها ضحكات ، وقد تجمع ثلاثة أو أربعة حول مكتب واحد ، أو ساروا فى موكب إلى رئيس الدار ووكيلها يسلمون فى الصباح ، ويتندرون فى ساعات الفراغ ؛ وما أظن إلاّ أن أكثر أوقاتهم فراغ . يدور الحديث عن الحرّ أو القرّ ،

والسياسة الداخلية أو الخارجية ، والعلاوات والترقيات ، وقلما ينشب خلاف حول مشكلة لغوية أو طريقة علمية للطبع ، أو صحيفة عالمية فيها مقال ثقافى أو أدبىّ .

فى هذه البيئة عاش حافظ عشرين عاماً ، يعبث كما يعبث الموظفون ويتندر كما يتندرون ، ويدخن سيجاره غير ملتفت إلى رقيب أو رئيس ، فقد أرضى مدير الدار فعاونه فى كتاب الأخلاق وغيره ، وله أن ينصرف بعدها إلى لقاء إخوانه فى نواديهم وبيوتهم يتحدث إليهم فى كثير من الحذر والرفق بوظيفته وراتبه .

وقد قال خلال هذه الفترة شعراً كذلك . ولعله كان يلتقط مواد شعره فى جلساته بمقهى « جراسمو » أو « متاتيا » — كما يروى الأستاذ المازنى — وكان خلال هذه الجلسات ينظم الشعر على عادته ، يفيض فى كل مكان كما حدثنا مطران ، فتقتتل على ذهنه ولسانه صور الشعب وحياته . ويسمع عن أخبار السياسة الخارجية وحوادث العالم وكوارثه فينظم فى ذلك كله شعراً . فهو يتحدث عن فظائع الطليان فى حرب طرابلس الغرب ، ويصف وحشيتهم فى ضرب بيروت ، ويحيى الطيارين العثمانيين .

ويندد بغليوم إمبراطور ألمانيا لإعلانه الحرب الأولى . ولما تألف الوفد المصرى ، وتحركت مصر إثر القبض على سعد وصحبه بدأت مظاهرات سلمية ، وأضرب الطلاب عن تلقّى الدروس ، وخرجت السيدات فى ١٦ مارس ١٩١٩ بمظاهرة عامة ، فوصف حافظ قيام الجيش ضد النساء ، وتشتيته شملهن فى سخرية لاذعة قال :

فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنّه
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا « بهندنبرج » مخ تفياً بمصر يقودهنّه
فلذاك خافوا بأسهن ّ وأشفقوا من كيدهنّه

والذين قمعوا المظاهرات من وراء ستار هم الإنكليز ، والذين أمروا بالوقوف ضدها هم رجال الحكومة ، وحافظ موظف فيها ، وأسلوبه فى هذه القصيدة لا يكاد يختلف عن أسلوبه فى غيرها : سخرية قوية وكلمات مقرعة من غير أن يعمد إلى التّهديد والوعيد .

ولما قضى سعد زغلول رثاه حافظ إبرهيم فى حفل كبير أقيم فى ٧ أكتوبر ١٩٢٧ ، فما خاف موقعه من الحكومة ومحله من

الوظيفة ومكانه من الراتب ، وما جهل أن الذى يرثيه زعيم قاوم الإنكليز ، وثار عليهم وطالبهم بالاستقلال والجلاء ، فنفوه وعذبوه . وإنما قال حافظ فى جرأة وصراحة يخاطب هؤلاء المستعمرين وهو موظف كما خاطبهم وهو فى حل من كل قيد قال :

وأتيتم بالحائمات ترامى   تحملُ الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانبَ النيل وعـــداً   ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبىّ   أو رأيتم منا إليكم مثابـــا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها   إن عند العرين أسداً غضابا

هذا هو الموظف بدار الكتب المصرية يعود مع تصفيق الأيدى وصيحة الحناجر إلى مكانه من الدار فى اليوم التالى ، عزيز النفس ، كبير الثقة ، وقد أدى إلى قومه ما أدى من قبل ، لم تمنعه أذناب الحراس والشرطة والسعاة والدساسين من قول الحق والدفاع عن مصر وبكاء رجالها الأفذاذ الوطنيين .

وقد لبث عشرين عاماً لم يفتر ولم يسكت ، على عكس ما قال النقاد فيه ؛ ولعلهم لو قرءوا الديوان وأنعموا النظر فيه لعاجوا معجبين بوطنية حافظ وشاعريته .

والذين ينقدون حافظاً يفهمون الوطنية والشجاعة على غير ما يفهمها الرجل ؛ وقد كفانا هو نفسه تعريف الشجاعة فقال وهو يرثى محمد المويلحى سنة ١٩٣٠ :

يا شجاعاً وما الشجاعة إلا الصبـــــر لا الخوض فى صدور الصعاب

فهو كاتب وشاعر ، ولم يدّع أنه كان زعيما وطنيًّا أو قائداً حزبيًّا. ولعله سمع النقد من حوله، وبلغه أنه ما يفتأ ينوح ويبكى ويشكو ويتأسى فقال فى ذلك :

النّوح فى الجلى اجتهاد مقصر ألفى دُعاء الصّبرِ غير مُجابِ
فأنا الذى يبكى بشعرٍ خالدٍ يبْقى على الأجيال للأعقابِ

٨

وفاته

ظلّ حافظ يندب مصر ورجالاتها واحداً بعد واحد حتى أحس بطول الرحلة وعظم المسافة . وشعر فى أواخر حياته بأنه يجب أن يستريح بعد عناء السفر . فكثيراً ما ردد هذا الملل وهذا الوقوف يبكى أحبابه متلهفاً فى كل يوم ، فقد تفرقوا وبقى وحده ، لأن المنون أخرت يومه .

وكان ينتابه المرض الحين بعد الحين فيلزم فراشه خائفاً ، ثم تعود إليه الصحة فيلبث قلقاً أبداً كلما زارته بوادر الضعف وتقلبت عليه عوارض الأمراض ، ولكنه لم يكن يركن إلى بيته طويلا ولم يقعده الضعف كثيراً .

وبعد خمسة أشهر من إحالته إلى المعاش اعتلّ جسمه ولم يلازمه منزله مع ذلك ولم يلبث فى فراشه ، وفى ذات ليلة دعا

صديقين من أصدقائه إلى تناول الطعام معه ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما ، فتمدد على مقعده ، وبعد انصراف صديقيه أحس بالتعب ينهك قواه ، فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، فلم يخفف عنه الألم . واستدعى الطبيب إلى منزله بكوبرى القبة ، ولكنه وصل والشاعر فى النزع الأخير لا يقوى على كلمة الوداع ، فلفظ أنفاسه صباح الخميس ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، وقد ناهز الستين من عمره .

ونعاه إلى مصر فى الساعة الخامسة صباحاً صديقه مدير المطبوعات آنذاك إسماعيل شيرين ، فانتشر الخبر فى القطر المصرى ، وشيعت جنازته فى الساعة السادسة ، ومشى وراء نعشه جمهور كبير من الأعيان والأدباء ، وحف بالنعش صديقاه عبد العزيز البشري وخليل مطران ، فبكيا حتى بللا جدثه الطاهر ، وبكى الناس لبكائهما . وسار النعش حتى جامع الكيخيا حيث صلى عليه .

وسار به موكب السيارات إلى مدافن أهله فى مقابر السيدة نفيسة فوورى التراب ، ورثاه على القبر الأستاذ عباس محمود

العقاد ومحمد الهراوى . ووقف صديقه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين يتقبل فيه العزاء .

رحم الله الرجل رحمة واسعة ، فقد كان جريدة مصر الناطقة ، ولسانها البيّن ، وشاعرها الاجتماعى ، وترجمان بؤسها وآلامها .

٩

شخصيته وأخلاقه

عاش حافظ إبرهيم غريباً عن الحياة البيتية لم يطل زواجه ولم يرزق ولداً ، ولم يحس طعم الراحة والنعيم ، وإنما كان ملجؤه المقهى وملهاته الشيشة والسيجار . وقضى وليس من أسرته من يقوم بأمره أو يحدب عليه ، أو يبثه شكاته وأوجاعه ؛ وذلك كثير على شاعر مرهف الحس . لذلك كان يضيق بالناس والحياة ، ويتبرم أبداً ، ويشكو دائماً ، وينظر إلى الأشياء والحوادث من نواحيها المظلمة القاتمة ، فكان ناقماً على الدهر ، وتحولت نقمته إلى استخفاف بالدنيا لأن شكاته لم تُجْدِ وصرخاته لم تنفع ؛ فراح يضحك من بؤسه وشقائه ، ويتخذ سبيله إلى الضحك على الناس والسخرية منهم والعبث بأوضاعهم ، والتندر عليهم . ولذلك كان وحده المتكلم فى المجالس ، يتحدث فلا ينفد حديثه ، ويقول فلا ينتهى قوله ، ويروى مما يحفظ فما يقف

سيله ، وبهذا نفق سوقه فى المجالس ، ونادم الوجهاء والأعيان وأضحك غيره من بلية أو رزية فى حين كان قلبه يتألم ويبكى

وصفه الأستاذ عبد العزيز البشرى فقال فيه :

« حافظ إبرهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له : ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة . . .

« ... وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه أو ينفقها فى يوم إن استطاع ، فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه السبل لإتلاف الأموال عد هذا أيضاً من معاكسة الأقدار. ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب شكوى الزمان وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام. وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظاً يحققها بيده إذا قصرت فى تحقيقها الأيام » .

والدكتور طه حسين يوافق الأستاذ البشرى على رأيه فى دعوى البؤس عند حافظ فيقول :

« كان البدع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال والافتنان فى شكوى الناس والزمان . وكان ذلك بدعاً فى العصر الأول من هذا القرن . وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروّجه » .

وكيفما كان الأمر فى هذا البؤس فإن حافظاً قد ذاق ألواناً من العذاب والفقر والفشل . فقد أراد أن يكون شاعر الخديو فخاب ، وأن يصبح شاعر الإسلام فحيل بينه وبين الخليفة العثمانى ، وأن ينفرد بلقب شاعر مصر الأول فلم يوفق .

وحسبنا أن نستعرض أمانيه فى شعره لنرى خيبة الأيام فيها فقد كتب يخاطب الخديو فى عامه الجديد :

عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلى ليل الأسى وينير

وأنشد فى حفل تكريمه بنزل «الكونتننتال » يعدّد ما فعل فى سبيل مصر وما لقى من جزاء قال :

وأكرم حتى كأنى نبغت وقمت لمصر بما قد وجب

فماذا أتيت من الباقيات وهذا شبابى ضياعاً ذهب
عملتُ لقومىَ جهد المقلّ على أنه عملٌ مقتضب
وهل أنا إلا امرؤ شاعر كثير الأمانى قليل النشب

. . . .

فلا السبق لى فى مجال النهى ولا لى يوم الفخار الغلب
ولا أنا من علية الكاتبين ولا أنا بالشاعر المنتخب

ويعود فى كثير من شعره إلى شكوى دهره وأهله فيقول :

عقّنى الدهر ولولا أننى أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
أنا لولا أن لى من أمّتى خاذلا ما بتّ أشكو النُّوَبا

ويقول كذلك :

قد كنتُ عوناً للضعيف وإننى ضعيف ومالى فى الحياة نصيرُ

ثم يقول فى مكان آخر :

ومالى صديق إن عثرتُ أقالنى ومالى قريب إن قضيتُ بكانى

ويخيل إليه أن حظه فى الآخرة سيشبه حظه فى دنياه فيسائل إسماعيل صبرى وهو يرثيه :

أتحت التراب يُضام الكريم ويشقى الحليم ويخفى القمر
ويهضم حق الأديب الأريب ويطمس فضل النبيه الأغرّ

وقد كان يرضيه أن يدعى البؤس وأن يسمى بائساً فيردّد هذه اللفظة فى شعره ، ويردّدها فى نثره فيقول فى صدر ترجمته لكتاب « البؤساء » وهو يهديه إلى الإمام محمد عبده سنة ١٩٠٣ :

« إنك موئل البائس ومرجع اليائس . وهذا الكتاب أيدك الله قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين ... وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب » . ويقول فى المقدمة : « وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرّبه معرّبه وهو بائس » ، ثم يقول إنى ما عربته « لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء » .

ويقول كذلك فى كتابه « ليالى سطيح » :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث فلم تجد له عزماً ولم تصب منه حزماً » .

ويقول فى هذا الكتاب :

« ونحن بحمد الله فى بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف حتى إذا ظهر أثره فى الناس قامت تقرظه بصنوف المديح والإطراء » .

ويضيف إلى ذلك قوله :

« ولو لم أكن خامل المنزلة بعيداً عن الشهرة لكنت أول الصائحين غداً بما وقع فى نفسى » .

وقد حاول كثير من النقاد أن يفسروا كلمة البؤس بأنها معنوية وليست مادية ؛ فإن الرجل كان يملك وينفق ، وكان سخيًّا على إخوانه يفى أجر ما ابتلعوا وما شربوا فى المقهى . وكان سخيًّا على نفسه يمتطى سيارة أجرة فى تنقلاته ويشترى السيجار بثلاثين قرشاً ، ويقرض إخوانه مبالغ لا يسأل عنها ولا يحاسب فيما آلت إليه . وقد قرر بعضهم أن لحافظ شخصيتين متعاكستين : أولاهما مرحة فرحة حين يلقى إخوانه ويحدث أقرانه ، وأخراهما حزينة بائسة حين يتحدث فى شعره ونثره فيشكو ويبث حزنه وألمه .

وقد روى الذين عرفوه أنه كان فى السودان على أسوأ حال من الشقاء — كما رأينا — ولكنه كان يداعب صديقه الدكتور إبرهيم الشدودى الرمدىّ الشهير ، وقد نشرت مجلة « سركيس » مداعبات شعرية لطيفة للرجلين يشك قارئها بأنها لشاعر يكتوى بنار الغيظ والقيظ .

وقد قال الأستاذ سلامة موسى فى حافظ :

« أما حافظ إبرهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم ، يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة .

وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : (إنّ أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب) . وهو عندى ذكرى تترنم بها نفسى » .

وقال الأستاذ البشرى فيه :

« وحافظ لم يكن متحجباً ولا منقبضاً عن الناس ولا برماً بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثرًّا متدفقاً يسمح بطرائفه كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضنّ على أحد بما طالت يده

ولا بما يطول لسانه » .

وأحاديثُ الرجل ونكاته ونوادره غدت مضرب الأمثال بين الذين عرفوه . فقد نقل لنا معاصروه كثيراً منها . ذكر الأستاذ حسن الحطيم بعضها قال :

« خرج حافظ إلى مقهى الجندى فى الأوبرا ، وكان يتردّد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وجيئة ليدخن نرجيلة هناك فى حوالى خمس دقائق ؛ ثم يدفع ثمنها لخادم القهوة ، وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف .

والتقى به إذ جلس فى ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الأسبوعية وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيهاً أنا فى أشد الحاجة إليه . فضحك حافظ وقال له : عمرك أطول من عمرى » .

ثم أضاف الأستاذ الحطيم نكتة أخرى قال :

« أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها ، فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم : هكذا أبناء الأمهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم . كما لن

أنسى طرفة لأحد أدبائنا الأفذاذ إذ بادره بقوله : وعلى هذا الأساس تكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك» .

« وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً . فلما التقى إمام بحافظ دلف إليه فى شــأن مادي . فقال حافظ : والله يا مولاى كما خلقتنى » .

وأما كرمه وسخاؤه فقد تحدث عنه الأستاذ الحطيم قال :

« وإنى لأذكره فى جلسته فى بار اللواء وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون ، وداروا حوله فى شبه حلقة ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة ، فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير » .

وقد روى المازنى خبر مجلس ضمه فى قهوة (جراسمو) مع الشاعر ، فرأى إمام العبد يقبل على حافظ فى لهفة وينحنى عليه فى رجاء ، فيدس حافظ يده فى جيبه ، ويخرج حافظة كبيرة يدفعها إلى إمام فى صمت ، وإمام يأخذ منها بضعة جنيهات ثم يرد الحافظة .

وقال المازنى عن أخلاق حافظ :

« إنه لم يكن يمدح أحداً فى وجهه أو فى غيبته نفاقاً أو

إشفاقاً ، فقد كان جريئاً مطمئناً إلى طريقته فى الشعر ، راضياً عنها ، غير راغب فى التحول إلى سواها ولا مستعد لذلك ».

ويصف المازنى نفس حافظ فيقول :

« كماء النبع الصافى الذى لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقذارها ، وكانت فيه على إسرافه وجوده قناعة وصبر عجيب وحياء شديد من الشكوى أو التململ . وكانت رجولته تستنكف من ذلك وتخشى سوء تأويله » .

وكتب الأستاذ داود بركات يصفه :

« كان شخصيته بارزة ، وأول الأدلة على بروز شخصيته أنك إذا التقيتَ به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع فى ذهنك صورة جسمه القوى العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الأعضاء ، ورقة صوته وغنته ، وحركة يديه الفصيحة ، وتهدّل جسمه إذا مشى على حركة يديه كمجذفى السفينة وإرسال عباراته فى التبسط أو فى الجواب كأنما كل نبرة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلا ولا حواراً » .

ويمضى الأستاذ داود بركات فى وصف وطنية حافظ ودينه فيقول :

« أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها إلا دينه المحمدى . فلك من حافظ ما شئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين دينه ووطنيته ، ولك أن تخيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما » .

والذين يقرءون الديوان يجدون التسامح فى كل صفحاته فلم يكن حافظ يحمل على المسيحية أو اليهودية ، وإنما كان على عكس ذلك يدعو إلى التآخى بين المسلم والمسيحى ، ‏يهيب بالأقباط أن يحبوا المسلمين ، وأن يخلصوا لهم الود ، فما بين الشريعتين من تنافر أو تخالف . وكان كثيراً ما يشيد بصداقته للسوريين المسيحيين ويمحضهم الود والإخلاص ، ولا يرى وجودهم فى مصر إلا أنهم مع إخوانهم المصريين يعملون لرفعة الوطن العربى ، فالشام والكنانة أختان تميل كل منهما إلى خير الأخرى ، وليس من الخير أن ترى مصر فى السوريين منافسين أو غرباء . وقد ألحّ فى ذلك حتى امتدح الجالية السورية كلها ، وقال فى مطران وشبلى شميل وجرجى زيدان وأصحاب المقتطف ودار المعارف ، واعترف أنه اغترف

من علمهم وقبس من فضلهم، وأشاد بأياديهم على مصر فهم يعملون فى جدّ ، ويسهرون على أن تكون أعمالهم كاملة غير منقوصة .

وقد تحدّث فى « ليالى سطيح » فأحسن الحديث عن السوريين ورأى أنهم جديرون بالحب حقيقون بالود، وأنه لا ينقصهم إلا أنهم لا يحسنون التنكيت ولا يجيدون التبكيت ، وأن لهجتهم وحدها هى التى تختلف ، وفيما سوى ذلك فللشامى من مصر وطن ومربع ومكان ، وللمصرى أن يقلد الشامى فى نشاطه وأن يحذو حذوه فى جدّه .

وأما الغرباء فى رأى حافظ فهم هؤلاء الذين يستغلون مصر فى غير فائدة لمصر ، ويعملون فيها فيسدون مواطن الكسب وطرق العيش على المصريين . وهو يهاجم الإنكليز لأنهم غرباء عن الديار مختلفون فى العرق والنسب . وهو شديد التعصب للأدب العربى واللغة العربية يفضلهما على آداب الأمم الأخرى ولغاتها . ويجد فى أخلاق الغربيين بإيطاليا وإنكلترة ما يجب أن يقلده المصريون المعاصرون من حبّ للعمل وسعى وراء النظام ، وترك داء التواكل والإهمال .

١٠
ثقافته وأدبه

لم يفد حافظ من المدارس التى دخلها ثقافة عميقة واسعة وإنما أخذ ببعض الكتابة والقراءة ، وتعلق بحفظ الشعر والنثر ، وشحذ لسانه وحافظته بهذه المجالس التى كان يعيد فيها ما حفظ ويكرر ما وعى قلبه . وقد كانت ذاكرته مضرب المثل بين أصحابه حتى لقد قال الأستاذ البشرى يصفه :

« يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزاً حتى يأتى على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك فى أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال فإذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه

بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف » .

بهذه الذاكرة النادرة حفظ صاحبنا أكثر ما قرأ من كتاب « الوسيلة الأدبية » أو « الأغانى » لأبى الفرج ، أو من دواوين الشعراء ، أو من كتاب « المكافأة » أو غيرها من كتب وقعت له ، فأصبح صدره يعجّ بمتنخل الشعر والنثر فى ذوق عظيم واختيار لطيف ، ولو قدّر لكاتب أن يجمع من صدره ما وعى حافظ إبرهيم لخرج بديوان شبيه بكتاب الحماسة أو بمختارات البارودى .

وقد قال فى ذلك الأستاذ البشرى :

« وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق ، وهيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبّ على سمعك عصارة الشعر العربىّ وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدّ بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربىّ عرف إلى اليوم » .

وقال فيه خليل مطران :

« حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها » .

ولكنّ شاعرنا كان ملولا قليل الصبر لم يسع إلى التحبير بالتأليف والترجمة إلا فى ظروف خاصة ؛ وفيما عدا ذلك فإننا نظن أنه كان يكره النظام والتقيد والجلوس إلى عمل معين ، فلم يكن يسجل شعره ولم يكن يجمع أقواله ، ولولا الصحف لضاع ديوانه ، ولولا أنه طبع هذه الكتب الصغيرة فى حياته لفقدت كذلك من المكتبة العربية وفقد معها خير كثير . وإذاً لبقى لنا من حافظ هذه الصورة القديمة للأديب يدير المجلس بنكاته ونوادره ، ويوزع فى جمله أطيب القول من من نثر وشعر ، فيسكر الناس بحديثه ويطربون لقوله ، فإذا انفض السامر ضاع الكلام مع الريح .

ولكننا نحمد الله إذ هيأ لنا مجال القول فى نثره وشعره ، فقد ترك لنا الرجل من هذا وهذا . وقد بدأ أول كتبه فى الترجمة عن الفرنسية فى الأخلاق ، نشره بعنوان « التربية الأولية » وهو فى شكل سؤال وجواب عن الواجبات البيتية والاجتماعية والقومية ؛ ظهر فى جزءين .

* * *

وعرّب بعده عن الفرنسية كتاب « البؤساء » لڤيكتور

هوغو ، أخرج منه جزءين صغيرين اختارهما حافظ من أصل كتاب كبير . وقد بذل فى الأسلوب جهداً غريباً ، فقد لبث يقلب العربية ومفرداتها وصورها واستعاراتها حتى خرج به عن أسلوب شاعر فرنسه ليلبسه ثوباً أمويًّا فى البؤساء بعيداً عنه كل البعد ، لاصلة بينه وبين الأصل إلا تشابه الأفكار والحوادث . وأما ما سوى ذلك فقد كتبه حافظ ليعرض فيما نرى قوة بلاغته ، وشدة فصاحته ، وعظيم غناه بالمفردات والتراكيب ، فغدا آية من آيات الأسلوب العربىّ القديم لا يقع من نصوص القرن العشرين إلا بالأسماء الأعجمية الموزّعة فيه .

ولن نضرب الأمثلة على جمال الأسلوب ومتانته ، فذلك يضطرنا إلى إثبات الكتاب كله ، فكله حسن بارع مصقول فذّ . ولكنه كل شيء إلا أن يكون تعريباً أو ترجمة . ولا يضير حافظاً فى هذا تضاؤله فى الفرنسية ، فلعله عمد إلى ما كان يصنع أبناء زمانه فى ترجمة روائع الغرب . ولعلهم كانوا يرون فى الترجمة أنها فكرة ينبسجها العربى بعد أن يطرح النصّ الغربى جانباً . وما يستطيع أسلوب حافظ أن يلوّن الأشخاص

أو يبدّل من لهجاتهم أو يصطنع تقليد عباراتهم فيسهل حتى يصوّر أسلوب الشحاذ والمجرم ، ويتعمق حتى يتشبه بأسلوب المحامى العالم ، فذلك يستطيعه ڤيكتور هوغو وحده فى أسلوبه الفرنسى ، ويخفق فيه حافظ إلا إذا كان ينشئ رواية جديدة للبؤساء على غرار الشاعر الفرنسى .

وقد صدر الكتاب فتناوله الدكتور طه حسين بالنقد ثم قال :

« فلست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ، ولا تركيباً أرصن ، ولا لفظاً أحسن اختياراً ، وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء » .

وقال فيه الأستاذ عباس محمود العقاد بعد نقده :

« فلا خلاف فى أنه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالى إذا قلنا إننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة فى البلاغة من طبقة بعض التراجم الإنكليزية فى لغتها » .

وقد اتفق الكاتبان الناقدان على بعد ما بين الأصل والترجمة

ولكنهما حمدا للمعرب أسلوبه فى النثر ، فقد حلق فيه تحليقاً أناف فيه على تراكيبه فى شعره .

* * *

وألف حافظ بعده كتيباً عنوانه « ليالى سطيح » جعله فى وصف ما كان يدور بمصر من أحداث وحوادث ، فوصف الإنكليز فى السودان ، ورسم عيشه فى الجيش المصرى ، وتحدّث عن كتاب قاسم أمين ، ورأى أن النساء الغربيات سيطالبن برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات ، ثم تعرّض للسوريين فى مصر فانتصر لهم ، وأشاد بخدمتهم للسان العربىّ ، وأفاض فى الحديث عن أحمد شوقى وأدبه ، ووازن بينه وبينه على لسان الكاهن سطيح ، ثم تحدث عن الإمام محمد عبده وواسع علمه وبارع سياسته نحو الإنكليز . ونثر بين أجزاء الكتاب ما للمصريين من عيوب . وهذه المواضيع نفسها طرقها حافظ فى ديوانه فأوسعها بلاغة وبياناً من شعره . فهو هو فى أفكاره لم يتسع أفقه ولم يختلف نثره عن شعره إلا حين نعدّ الشعر منحصراً فى بحور « الخليل بن أحمد » . ولولا ذلك لتشابه الديوان وهذا الكتاب . ففى « ليالى سطيح » سجع

وجمل قصيرة ، وتراكيب شعرية ، وخيال جيد . وقد جعله على أسلوب المقامات فجارى كتاب المويلحى « حديث عيسى ابن هشام » ولكنه بذّه فى الأسلوب مما يرفع من مكانة حافظ فيجعله فى صدر الكتاب الناثرين للقرن العشرين : ولا يعيبه إلا ضيق الصفحات وقلة الموضوعات .

ثم عرّب حافظ كتاباً فى الاقتصاد بالاشتراك مع زميله الشاعر خليل مطران ، وعنوانه : « الموجز فى علم الاقتصاد » للمؤلف الفرنسى پول لروا بوليه — Paul Leroy Beaulieu وجعله فى خمسة أجزاء ، وقدّمه إلى وزير المعارف أحمد حشمت وكتب مقدمته حافظ إبرهيم بأسلوبه المسجع ، وحشر فيه كل ما فى قاموس العربية من مفردات غنية تقابل الكلمات الفنية فى الاقتصاد . فجعل للدارسين فى هذا العلم اصطلاحات وتعابير متينة تتفق مع الفرنسية حيناً ، وتختلف عنها حيناً آخر . وكلّ ما رمى إليه حافظ قوة اللغة ومتانة التراكيب على عادته .

* * *

وأما السفر الخامس الذى وصل إلينا عن حافظ فهو ديوانه وسنعرض له فيما يلى . ولكننا قبل أن نختم عن ثقافته

وأدبه ومؤلفاته نحبّ أن نورد كلمة الأستاذ البشرى عن مكتبة حافظ بعد أن عرفنا مدارسه ومجالسه قال :

« إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس فى داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغانى — طبعة بولاق القديمة — وكتاباً أو اثنين فى الفرنسية وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية فى لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهراً بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسها فى جيبه ليقرأها كلما تهيأ له ذلك » .

وهذا دليل جديد على أن حافظاً لم يستق ثقافته من المدارس ولم يأخذ علمه عن الجامعات ، وإنما لقن نفسه الشعر والنثر ، وتعلم فى مجالس الإمام محمد عبده ومن كانت تضمه مجالس الإمام أكثر ما علم عن اللغة وفقهها . وأضاف إليها قراءته للكتب القديمة يعتمد عليها كلما واتاه الصبر ، وسكنت ثائرة نفسه ، حتى قضى عمره وهو يتتلمذ على الناس والحوادث فكان منه شاعر الشعب ، نشأ فيه ، وعاش معه ، ثم نطق بلسانه .

١١
ديوانه

وُلد حافظ على نهر النيل – كما رأينا – وتنقل عليه من مصر إلى السودان فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهده ما يبهر الطرف فى الإصباح والإمساء. تشرق عليه الشمس فتنبعث الألوان زاهية ترقص على أمواهه، وتختال بين الظلال من خلال النخيل الباسق، وتغيب عنه فتسبح العين فى سحب رقيقة تحيط بالشمس الحمراء وهى تحتضر مع المغيب، فتعيش النفس فى سحر مثير ووحى جميل.

وتمتد الصحراء المنبسطة إلى غير نهاية على شطئان النيل، وتنعكس عليها أنوار الشمس، وتضيع فى طياتها ألوان السراب فتبدو كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذى يغطى أرض مصر فى رفق ودعة، وسحر وفتنة.

وأما المعابد المزروعة هنا وهناك من أرض الكنانة فى

الشمال والجنوب فهى تذكر بأمجاد المصريين الذين استغل التراب والماء والصخر ، ونحتوا من الطبيعة أهراماً تناهض السم وتشهد بالجلد والصبر ، وجمال الهندسة وقدرة الفن ، وهي كذلك سحر مصر وخلودها .

والبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة : ويبتلع ما يحمل إليه هذا النهر « نيلٌ مبارك الغدوات ، ميمون الرَّوْحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر » فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل أبداً بين مدّ وجزر يقبّل أقدام مصر ، ويرتد عنها ليعود إليها ، مسحوراً مفتوناً ، وهذا كله مساعد للوحى والإلهام .

كل هذه المشاهد الخلابة باعثة على الشعر حقيقة بالخيال خلّدت منذ فجر الإنسانية وشباب الدنيا شعراء وكتاباً وفلاسفة وفنانين كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة الإنسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديرة بأن توحى إلى الشاعر المصرى المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز بالقديم يحيى النخوة فى الجيل المصرىّ الجديد ، وفيها جمال

فتنة تحركان النشوة فى النفس والموسيقا فى الشعر والفتنة فى القول . ولكنها على ذلك كله لم تبعث فى شاعرنا محمد حافظ إبرهيم إلا أبياتاً متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش فى ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية إلا كما ينقش الإزميل فى الماء أو القلم فى الصخراء .

مرّت هذه المشاهد عابرة فى ذهن شاعرنا فلم تمكث ولم تحرّك خياله لأن الرجل لم يتخذ من الهرم درساً أو من النيل صورة ، فلم يهتم بالأرض والماء والمشيد من الصخر ، فلذلك عبقرية أخرى لم تكتب لحافظ ، وإنما كتب له أن يهتم بالقوم الذين يعيشون بين ظهرانى النيل والهرم والنخيل ، فالتفت إلى حاضرهم البائس وعيشهم اليائس ، وقد غمّه المستقبل فانصرف إلى التفكير بهذه الأمة يريدها كالغرب نهوضاً أو كاليابان بعثاً ، فتعمل على وحدة الوادى من منبعه إلى مصبه ، تحت تاج واحد ، فى حرية مطلقة وإخاء جميل ونشاط فى الحياة .

ولكنه كان يعوج إلى البكاء والنواح والتشاؤم حين يجد بُعْدَ ما بين الماضى البعيد والحاضر القريب . بذلك لم يكن

له من رحلاته بين شمالى الوادى وجنوبه إلا لوحات يائسة
فلما استقر فى مصر ، وسكن إلى حدائقها وميادينها ، ف
بالأزبكية والخليج المصرى ، ورأى الماء والشجر يتعانقان
ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواه
لم يثر فيه ذلك أية قافية . حتى ليخيل لقارئ الديوان أ
شاعره عاش فى المقهى أو فى منزل الإمام محمد عبده أو أخا
إلى بيته أو دار الكتب فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف
ماءه من النيل أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن
طول فارع وقامة فاتنة. ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشه
الأشرعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترس
لوحات من الطبيعة بارعة ، فلم يقل كما قال عمرو بن العاص
« فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار
المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل »
وكأنه لم يسهر ليله على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات
المآذن ، وهى كالمسلات المزروعة فى قلب الأحياء ينعكس
عليها الضياء ، وتنبق من خلاياها صيحات الإيمان فى قلب
الليل .

كل ذلك لم يكن لحافظ إليه من سبيل ، كأنّ الطبيعة تحدّثه ولا يحدّثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين اضل عن عيشهم بلسانه ، ويحارب عن وضعهم السياسى يانه ، فقضى عمره محامياً لامعاً عنهم ، كلما وقعت جريمة بّ لاتهام الأجنبىّ وذيوله ، ووقف للدفاع عن الضعيف لفقير والبائس . وكلما قام مصرىّ لعمل الخير أو هبّ شرقى تسجيل المآثر فرح حافظ وراح يشيد بالشرق والوطنية والإسلام. ما هؤلاء الذين كانوا يقعون فى ساحات الموت من بنى قومه لأفذاذ فكان يبكى لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا يه وصالوا ، فيترحّم عليهم ويسجّل مآثرهم ، ثم ينبرى إلى فسه فيجد فى الموت مهدّداً لا يبعد أن يقرع الباب وما مو إلا أن يستجيب للنداء ، فهى سنة الكون ولن تجد من سنة الكون مهرباً .

كذلك كان حافظ وبهذا التفكير أرسل ديوانه قصيدة بعد قصيدة على مرّ السنين ، ينشره حيناً فى « المنار » وحيناً فى « المجلة الجديدة » ، فقام بجمعه صديقه وصفيّه محمد هلال ، واستأذنه فى نشره ، فأذن له لما بينهما من ودّ قديم ، فعمل الرجل على

شرحه والتعليق عليه حتى أصبح فى أجزاء ثلاثة صغار .

وقامت مطبعة أخرى بإضافة ما فات هذه الطبعة ولكنها لم توف على الغاية ، ولم تجمع بين دفتى طبعتها ك شعر حافظ ، ثم قامت وزارة المعارف بطبعه فكلفت أساتيذ بالتعليق عليه ونشره . فجعلته هذه اللجنة على أبواب ، واستقص ما وقعت عليه من شعر حافظ ، ولكن أنى لها أن تستنفد شعر وقد أهمله صاحبه ونسيه أصدقاؤه ، وأنى لها أن تبوّب قصائده وفى المدائح شكوى ، وفى الرثاء مدائح ، وفى الإخوانيات سياسة ، وليس من سبيل إلى الإحسان فى ديوانه إلا إذ قام به الناشر بترتيب الشعر على السنين . فقد كان حافظ فى شعره سجلاً للحياة التى عاصرها ، بل هو مدوّن يوميات هامة يحسن أن يضعها المحقق على ترتيب ولادتها لتظهر ل كيف عاش الرجل وشعره سنة بعد سنة ؛ وكيف كانت الأحداث تكرّ على مصر ، وما هى صورتها فى شعر المصريين وكيف كان صداها فى دواوينهم ؟ !

وكيفما كان الأمر فإنّ للرجل ديواناً ينيف على خمسة آلاف بيت ، أكثره فى المدائح والتهانى وفى السياسيات

بالمراثى ، وأقله فى الشكوى والوصف والخمريات والغزل والأهاجى ، طُبع فى خمسمائة صفحة . وقيلت أحسن قصائده سنة ١٨٩٥ وسنّ الشاعر أربع وعشرون سنة . ونظمت آخر أبياته سنة ١٩٣٢ قبيل موت الشاعر . وقد نيف على الستين .

فالديوان يضمّ حوادث مصر خلال ثلث قرن أو تزيد . فما هى هذه الحوادث التى استلفتت نظر الشاعر وسلكت إلى قريحته ، وسالت على قلمه فسجّلها شعراً ؟ وكيف وفّق الشاعر إلى هذا التسجيل ؟

إنّ ديوان حافظ إبرهيم يصوّر ثلاث مراحل : أولاها مرحلة السودان ؛ وثانيتها مرحلة البطالة ؛ وثالثتها مرحلة الوظيفة .

أما مرحلة السودان ففيها قلق واشتياق إلى مصر ، وفيها شكوى مريرة ومدائح يرسلها إلى أصحابه لعلهم ينقذونه من ورطته ؛ وهو فى هذه المرحلة مدّاح يرفع بممدوحه إلى قمم الثناء ، وهو راثٍ يتنكر للزمان وصروفه ، فيرى الدنيا دار شقاء ، ويجد أن الإنسان خلق للفناء . وأعظم قصائده فى هذه الفترة ما كتب به إلى الإمام محمد عبده وما مدح به

محمود سامى البارودى . وهو فى شعره لهذه المرحلة يصوّر بؤسه وشقاءه وفناء ثيابه وعظيم بلواه .

والمرحلة الثانية تبدأ بعودته إلى مصر سنة ١٩٠١ ، وفيها يخاطب الخديو عباس الثانى فى قصائد عدّة يرجو بها الخير لنفسه ولأمته ، ويخاطب عبد الحميد فيصف فرح الشرق بخليفة الإسلام ، وينظم فى الإنكليز فيرى فيهم دهاء ومضاء ، ويجد الخير كل الخير فى اتقاء شرهم ، ويأخذ عليهم مهاجمة العربية الفصحى واتخاذ الإنكليزية مكانها فى المدارس والدوائر . ويتحدث عن الإمام محمد عبده فيشكر له فضله عليه وعلى المصريين والمسلمين ؛ وهو فى كل ذلك يهاجم عيوب المصريين واستخافهم بفطاحلهم وشعرائهم وانصرافهم عن تقدير نوابغهم ويريد منهم أن يقلدوا اليابان . وهو فى هذه الفترة غزير الشعر ، يمدح سعد زغلول وهوغو والمويلحى وإسماعيل صبرى ، ويشكو كرومر وحادث دنشواى ؛ ويرثى الزعماء والأصدقاء كمحمد عبده ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل وتولستوى ورياض باشا ويهتم بالمشاريع الثقافية والعمرانية كرعاية الأطفال والجامعة المصرية .

والمرحلة الثالثة تبدأ بدخوله دار الكتب المصرية سنة ١٩١٢ وفيها يمدح ويهنئ ويرثى ويشجع ، ويندد كذلك بعيوب أمته ويتحدث عن الحروب وطغيان الطليان . ويحيي خليل مطران ويمدح شوقى وأصحاب المقتطف ، ويهنئ السلطان حسين وسعد زغلول ، ويمدح فؤاد الأول ، ويرثى الطيارين ، وزيدان ، والسلطان حسين ، وباحثة البادية ، ومحمد فريد ، وإسماعيل صبرى ، وسليمان أباظه ، وسعد زغلول ، وأمين الرافعى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد المويلحى ؛ ويشجع رعاية الأطفال ونادى الألعاب ، ويسخر من الإنكليز حين مظاهرة السيدات وفى رثاء سعد .

* * *

هذه هى أغراض الديوان لم تخرج عن التهانى للخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء ، والمديح لإخوانه وأصدقائه ، والرثاء للأعلام المشاهير ، والتشجيع للمشاريع ، والشكوى من عيوب أمته ، والتنديد بالإنكليز . وهكذا نرى أنه اهتم بالسياسة الداخلية والاجتماعية ونصب نفسه للحديث عن الشعب المصرى

وخصّ يراعته برفعة الوطن وتنقية أخلاقه ، وبعث مكارمه ، لم يُعمل فى ذلك حاسة السمع أو حاسة البصر والشم — كما يقولون — فلم يحدثنا عن موسيقا الطبيعة فى مصر وعن زهرها ونورها ، ونيلها وهرمها ، وصحرائها وبستانها ولم يصف لنا من خلال نفسه إلا الشكوى والبلوى .

١٢

ألوان شعره

نشأ حافظ كما نشأ غيره من متوسطى الحال . ولكنه خاض غمار الحياة فى مختلف الأعمال ، فدخل فى المحاماة والجندية وعاشر مختلف الطبقات ، فعرف الشعب والوجهاء والأعيان والوزراء ، ووقف على آلام الناس وآمال الزعماء ، فازداد خبرة بالحياة ومعرفة بالشعب .

وأضاف إلى ذلك قراءة للكتب والدواوين ، ووهبته الطبيعة ذاكرة نادرة فحفظ أطيب الشعر وأحسن النثر منذ صباه ، فاجتمع حوله إخوانه وزملاؤه ، وقدّروا فيه مواهبه ، ورأوا فيه محدّثاً وراوية للشعر القديم ، وناظماً شاعراً يقلّد القدماء ، فأحبوه .

ولما كان فى السودان برزت هذه المواهب فاجتمع حوله الضباط ، والأدباء ، والأساتذة ، فأكبروه كذلك .

ولما اجتمع بالإمام وأصحابه صقل أذهانهم بطيب شعره وعظيم نوادره فألفوا صحبته وظلوا له أوفياء حتى لفظ آخر أنفاسه .

ونحب أن نستعرض هنا هذه الألوان من شعره على اختلاف مراحل حياته لعلنا نتبين منها المدارس التى اتبعها والمذاهب التى سار عليها .

قال شعراً وهو فى السودان طبعه بطابع القدماء ، وحن فيه إلى الشكوى والأنين ، ولكنه لا يحرك عاطفة ولا يستلفت سمعاً ، فنظم سنة ١٨٩٥ شعراً منه :

يا لقومى إننى رجلٌ حرت فى أمرى وفى زمنى
أجفاءٌ أشتكى وشقاً إنّ هذا منتهى الحزنِ

وفى سنة ١٨٩٦ أنشد راثياً فقال فى مبالغة لبثت تلازمه :

أمست تنافس فيك الشهب من شرف
أرضٌ تواريت فيها يا فتى الجودِ
لولم تكن سبقتك الأنبياء لها قلنا بأنك فيها خيرُ ملحودِ

وقال كذلك سنة ١٨٩٧ يرثى ، وهو يعمد إلى المبالغة :

رحم الله منه شهماً وفيًّا كان ملء العيون فى كل نادِى

ألهم الله فيك صبراً جميلا كلُّ من بات ناطقاً بالضّادِ

وقال فى سنة ١٨٩٩ يصف الإمام محمد عبده ، فيرى فيه عمر وعليًا :

رأيتك والأبصارُ حولك خشّعٌ
فقلت : (أبو حفص) ببرديك أم (على)

ويقول سنة ١٩٠٠ فى محمود سامى البارودى :

سلبتَ بحار الأرض درّ كنوزها فأمستْ بحارُ الشعر للدّر مورد

ويقول فى سنة ١٩٠١ يخاطب الخديو عباس الثانى ويصف شعره :

معان وألفاظٌ كما شاء (أحمد)
طوتْ جَزْل (بشّار) ورقّة(مهيار)
إذا نظرت فيها العيون حَسِبْنَها
لحسنِ انسجام القول كالجدول الجارى

هذه بعض أقواله وهو فى السودان ، وقد جاوز الخامسة والعشرين من عمره ، طبعها بطابع القدماء فيها تهويل وفيها مبالغة وتشابيه ضخمة لا براعة تشع منها ولا اختراع ، فهى تفتتح غالباً بالغزل المصطنع وتنتهى بمدح أو رثاء ، وتختتم

فى عواطف باردة لا تقع من الشعر العالى العالمى بمكان .

ولكن حافظاً عاد بعد السودان إلى القاهرة فسمع فى مجالس الإمام شعراً ونثراً ولغة وأدباً ، ووطنية واجتماعاً ، فأحس بما يحس الشعب به ، ونظر إلى مصر نظرة الإمام إليها فانصرف ذهنه إلى قضايا الأمة ، وسبح خياله فى حبّ مصر والدفاع عنها والتشهير بأعدائها والسخرية من جلاّديها . وهنا يصحّ أن يُدرج حافظ فى سلك الشعراء المعاصرين وأن يكون من رجال القرن العشرين ، ولولا ذلك لعدا عليه الزمن ، ومحت الأيام سطوره ، ووقع فى شعراء القرن التاسع أو العاشر الهجريين .

فلنسمعه يمدح الخديوى عباس الثانى ويهنئه سنة ١٩٠٨ فيقول له :

أمانيّك الكبرى وهمّك أن ترى ... بأرجاء وادى النيل شعباً منعما
وأنْ تبنيَ المجد الذى مال ركنه ... وأن ترهف السيف الذى قد تثلّما

ويخاطب السلطان حسين كامل سنة ١٩١٥ فيذكره كذلك بمحبة الشعب والعمل لخدمته ، وبغيره لا يدوم تاج ولا عرش فيقول :

فعرشٌ لا تحفّ به قلوبٌ   تحفّ به الخطوب ويضمحلّ

وهكذا ظل يطرق أبواب السياسة والاجتماعيات ، وليس له فى المديح كبير غناء ، فالمديح فيما نرى لا يتصل بروحه ، فهو شاعر ناقم ساخر ، وإنما أكبر همّه أن يرمى الإنكليز بآيات بارعات هنّ مصحف شعره ، وهو فيه صاحب أسلوب فذّ لا نقع عليه فى دواوين معاصريه ، بل لا نقع عليه فى شعرنا العربىّ القديم كله ، فهو به شاعر الجيل ، وشاعر الشعب المصرى والأمة العربية الحديثة ، لم يقلّد فيه غيره من القدماء أو المحدثين ، ولم نجد من يقلّده فيه ، فلم يسبقه إليه سابق ولم يلحق به لاحق .

وأقوى شعره فى الإنكليز ما كان من أثر حادثة دنشواى فقد قال يصف عمل الإنكليز :

ليت شعرى أتلك محكمة التف   تيش عادت أم عهد نيرون عادا

كيف يحلو من القوىّ التشفى   من ضعيف ألقى إليه القيادا

ويخاطب العميد اللورد كرومر ، فيصف حادثة دنشواى ويقول :

خلّيتهم والقاسطون بمرصد   وسياطهم وحبالهم تتأهبُ

جُلِدوا ولو مَنَّيْتَهُم لتعلَّقوا بحبال من شُنِقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو مُنحوا الخيار لأهَّلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على المات، وكأسُهُ بين الشفاه، وطعمه لا يعذُبُ

ويسخر من عهد اللورد كرومر فيقول :

فليتَ «كروماً» قد دام فينا يطوّق بالسلاسل كل جيدِ
ويتحف (مصرَ) آناً بعد آن بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ

ويرى الإنكليز يُعنون بالقطن واستغلاله فيقول لهم :

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طيناً أرخصتم دما
إذا أخصبتْ أرضٌ وأجدب أهلها فلا أطلعتْ نبتاً ولا جادها السما

ويودّع اللورد كرومر فيرى من الخير أن يذكر محاسنه ومحاسن الإنكليز وجهدهم فى بعث الشقاء بين الشعب وزرع الشركات الأجنبية لامتصاص دمه فيقول له :

أشرتَ برأى فى كتابك لم يكن سديداً ولكن كان سهماً مسدّدا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة تجرّ علينا الويل والذلَّ سرمدا
فياويل (مصر) يوم تشقى بندوة يبيت بها ذاك الغريب مُسَوَّدا
ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعنا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كلُّ ممارس خبير وكنا جاهلين ورقَّدا

وما الشركات السُّودُ فى كل بلدة ... سوى شَرَكٍ يلقى به من تصيَّدا

ويصف الاستعمار الإنكليزى وموقفه من الشورى ورجال الأمة فيقول :

وفى الشورى بنا داء عهيدٌ ... قد استعصى على الطبّ العهيد
شيوخ كلما همّت بأمر ... زأرتم دونه زأر الأسود
لحى بيضاء يوم الرأى هانت ... على حمر الملابس والخدود

إلى أن يقول :

أرى أحداثكم ملكوا علينا ... بمصر موارد العيش الرَّغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعاً ... وضاق بحملهم ذرع البريد
أكلّ موظف منكم قديرٌ ... على التشريع فى ظل العميد؟!

ويرسم لبنى قومه سياسة الإنكليز ويوازن بينهم وبين المصريين ويحذّر من خداعهم وأباطيلهم فيقول :

فما سادوا بمعجزة علينا ... ولكن فى صفوفهم انضمامُ
فلا تثقوا بوعد القوم يوماً ... فإنّ سحاب ساستهم جهامُ
وخافوهم إذا لانوا فإنى ... أرى السواس ليس لهم ذمامُ
فكم ضحك العميد على لحانا ... وعزّ سراتنا منه ابتسامُ.

ويضيق بالإنكليز الذين ملئوا رحاب مصر فيقول فيهم :

صبوا البلاء على العباد فنصفهم يجبى البلاد ونصفهم حكّامُ

ويقول فى قصيدة أخرى :

وبنو مصر فى حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاماً فعاما
أيها النيل كيف نمسى عطاشا فى بلاد رويّتَ فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
إن لين الطباع أورثنا الذ لّ وأغرى بنا الجفاة الطغاما

ولا يرى فى دواء لهذا الداء إلاّ الضحية والفداء فيهددهم ويفهم القوم أن مصر قررت أن تموت فى الذود عن حماها فيقول مخاطباً سعد زغلول :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفى البلاد دخيلُ
عزلٌ ولكن فى الجهاد ضراغمٌ لا الجيش يفزعها ولا الأسطول

ويقول كذلك :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموتُ أو نحيا ونحن كرامُ

هذا هو موقف حافظ من المستعمرين يصف استهتارهم بأمته ، وعدوانهم على كرامتها وحقوقها ، فكأنه يبكى لحظ مصر وقد وقعت فى قبضتهم ، لذلك حقٌ له أن يبكى الجنود المدافعين عن حماها ، وأن يرثى هؤلاء الزعماء الذين يقودون الأمة فى

معركة الحرّية ويسقطون فى الميدان قبل الوصول إلى الغاية وتحقيق الاستقلال .

رثى محمود سامى البارودى وقد قام بدوره فى زعامة الجيش وقيادة الثورة ، بلسانه وسنانه فقال فيه :

كم وقفة لك والأبطال طائرة
والحرب تضرب صنديداً بصنديد

تقول للنفس إن جاشت إليك بها
هذا مجالك سودى فيه أو بيدى

نسختَ يوم (كريد) كلّ ما نقلوا
فى يوم (ذى قار) عن (هانى بن مسعود)

نظمتَ أعداك فى سلك الفناء به
على روىّ ولكن غير معهود

كأنهم كلم والموت قافيةٌ
يرمى به عربىّ غير رعديد

ورثى الإمام محمد عبده وقد جاهد كذلك فى حلقات العلم واللغة والفضيلة فانطوت بموته صفحة فخار للأزهر والمسلمين فقال :

وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها
عن النيّر الهاوى إلى الفلواتِ
مشى نعشه يختال عجباً بربه
ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدّموعُ الجاريات تقله
وتدفعه الأنفـــاس مستعرات
بكى الشرق فارتجّت له الأرض رجة
وضاقت عيون الكون بالعَبرَات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات
بكى عالَم الإسلام عالِمَ عصره
سراج الدياجى هادم الشبهات

ولما خرّ الشهاب الثالث مصطفى كامل بطل الوطنية والصراع القوى رثاه الشاعر وبكى فيه بانى صرح المجد وخطيب مصر المفوّه ورجلها الجرىء فقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرنّ كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا هذا بناءٌ أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يناشدنا بالله ألا تفرّقوا وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا

ثم يرثيه فى قصيدة أخرى فيفتقد فيه المدافع المناضل الذى كان يذود عن الكنانة ضد كرومر وأضرابه :

أين الخطيبُ وأين خلاّب النُّهى طال انتظار السمع والأبصارِ
بالله مالك لا تجيب منادياً ماذا أصابك يا أبا المغوارِ
قم وامحُ ما خطت يمين (كرومر) جهلاً بدين الواحد القهارِ
قد كنت تغضب للكنانة كلما همّت وهمّ رجاؤها بعثارِ

. . . .

جزع الهلال عليك يوم تركته ما بين حرّ أسى وحرّ أوارِ
متلفتاً متحيّراً متخيرا رجلاً يناضل عنه يوم فخارِ
إنّ الثلاثين التى بك فاخرت باتتْ تقاسُ بأطول الأعمارِ

وفى سنة ١٩٠٩ أنشد فى ذكرى وفاة مصطفى كامل مرثية أخرى بين فيها الظلم الذى تكتوى مصر بناره فقال :

قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا عسف الجناة وأعلى صوتنا الألم
قد اتهمنا ولما نطّلب جللا إن الضعيف على الحالين متهم

قالوا : لقد ظلموا بالحق أنفسهم ! والله يعلم أن الظالمين هُمُ
إذا سكتنا تناجوا : تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنةٌ عَمَمُ

وانتقل سعد زغلول فمشت مصر فى جنازته وتقطعت عليه القلوب حسرات فرثاه الشاعر فى سنة ١٩٢٧ :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمتَ عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهيّابا
كنت فى معية الشباب حساماً زاد صقلا فرنده حين شابا

ولم يكتف حافظ برثاء رجال الوطنية والعاملين فى حقل النضّال وإنما بكى رجال الأقلام فهم فى الصفوف الأولى من خطوط القتال ، قال يرثى محمد المويلحى سنة ١٩٣٠ :

مؤثر البؤس والشقاء على الشكـ وى وإن عضّك الزمان بنابِ
كنت تخلو بالنفس والنفس نشوى من كئوس الهموم والأوصابِ
فتسرى بالذكر عنها وتنفى ما عراها من غصّة واكتئابِ

ولن نستطيع فى هذه الصفحات القليلة بيان ما لحافظ فى الرثاء ، ولن نتمكن من تعداد مراثيه وألوانها فذلك يطول ، ولكننا أردنا أن ندلّ على وطنية حافظ وحبه لمصر وتعلقه برجالها ومقاومته لرجال الاحتلال فبسطنا نماذج من شعره

ليست خير ما قال وإنما اخترناها لنضرب الأمثلة على أن حافظاً كان شاعر أمته وشاعر شعبه خصّ بهما أكثر قصيده ووقف عليهما كلّ نبوغه .

وقد جاوز الشاعر فى ديوانه حدود الإقليم ، وحلّق خياله وراء مصر ، وتناول فى موضوعاته الشرق والغرب فطرق أبواباً من القول تضع شعره فى مصاف الشعراء العالميين ، وترفع من قدر أدبنا الحديث إلى حيث يجب أن يرتفع ، فاستحق عاطر الذكر وعظيم الثناء .

نبض قلبه لكل كارثة فى العالم فشارك الأمم فى مصائبها وقاسمها أحزانها ، ووقع فى ذلك على التوفيق وحالفه فى ذلك النصر . قال يصف زلزال مسينا وقد حدث سنة ١٩٠٨ ، ويرسم ما كان من نكباته :

بغت الأرض والجبال عليها ... وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنشـ ... ـق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً ... بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار رداً عليها ... بجيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسود اللون جونٌ ... وهنا الموت أحمر اللون قانى

جند الماء والثرى لهلاك الـ خلق ثم استعان بالنيران
ودعا السحب عاتباً فأمدّ تـ ـه بجيش من الصواعق ثانى

. . . .

رُبّ طفل قد ساخ فى باطن الأر
ض ينادى : أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ
ـر تعانى من حرّه ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى
مستميتاً تمتد منه اليدانِ
باحثاً عن بناته وبنيه
مسرع الخطو مستطير الجنانِ
تأكل النار منه لا هو ناجٍ
من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصّت الأرض أتخم البحر مما
طوياه من هذه الأبدانِ
وشكا الحوت للنسور شكاة
ردّدتها النسور للحيتانِ

أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً
ثم باتا من كظة يشكوانِ

وما أحسب أن فى الطليان من وفق إلى رسم الزلزال وأثره فى السكان كما وفق حافظ فى قصيدته هذه ، فقد وصف الأرض والجبال والبحر والمياه ، وصوّر المعركة التى قامت بين عناصر الطبيعة تغلى بالحقد وتثور بالموجدة ، فتزرع الموت فى كل مكان . ولا ينجو منها فتى أو فتاة ، ولا يجنبها أب أو أم ، وإنما يلوذ جميعهم بالفوضى الناشبة ، ويتعلقون بحبال اليأس بين النار والماء .

وخير للأدب الإيطالى الحديث أن يترجم هذه اللوحة البارعة إلى صفحاته فيجعل منها فى المتاحف الأدبية صورة للشعر المصرى الحديث . وحين يتساءل المرء عمّا دفع حافظاً الشاعر العربى إلى المشاركة بالمصاب ، ووصف ألوان العذاب يجيبه حافظ : « ذاك حق الإنسان عند بنى الإنسان » .

ووصف حافظ سفينة أقلته إلى إيطاليا فى نوفمبر ١٩٢٣ ، فرسم ما يعرض للمسافر فى عرض البحر قال :

عاصف يرتمى وبحر يُغير
أنا بالله منهما أستجيرُ

وكأنّ الأمواج – وهى توالى محنقات – أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدورُ
ثم أوفت مثل الجبال على الفلـ ـك وللفلك عزمة لا تخورُ
تترامى بجؤجؤ لا يبالى أمياه تحوطه أم صخورُ
أزعج البحر جانبيها من الشدّ فجنب يعلو وجنب يغورُ
وهو آناً ينحطّ من علو كالسيـ ـل وآناً يحوطها منه سورُ
وهى تزورّ كالجواد إذا ما ساقه للطعان ندب جسورُ
وعليها نفوسنا خائراتٌ جازعاتٌ كادت شعاعاً تطيرُ
فى ثنايا الأمواج والزبد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبورُ
مرّ يوم وبعض يوم علينا والمنايا إلى النفوس تشيرُ

ووصف حافظ الشرب والكاس فأبدع فيهما وسارت قصيدته فى الناس قال:

يا غلامُ المدامَ والكأسَ والطا
سَ وهيِّء لنا مكاناً كأمسِ
أطلق الشمس من غياهب هذا الدّ
نّ واملأ من ذلك النور كأسى

إذن الصبحَ أن يلوح لعيني
من سناها فذاك وقت التحسّى
وادع ندمان خلوتى وائتناسى
وتعجّل واسبل ستور الدمقسِ
واسقنا يا غلام حتى ترانا
لا نطيق الكلام إلا بهمسِ

ووقعت الحرب بين الروس واليابان فوصفها حافظ كما وصف الزلزال من قبل ، فهى كارثة كذلك ، وهى أعملت منجل عزرائيل فى حصاد النفوس قال :

أضحى رسول الموت ما بينها حيران لا يدرى بما يؤمرُ
عزريل هل أبصرتَ فيما مضى وأنت ذاك الكيّس الأمهرُ
كذلك المدفع فى بطشه إذا تعالى صوته المنكرُ
تراه إن أوفى على مهجة لا الدرع يثنيه ولا المغفرُ

وشاعرنا يحبّ اليابان ويؤثرها فى أخلاقها على أمم الشرق كله ، فما يتصدى لحربها ونضالها وانتصارها وبطولتها حتى ينقلب إلى قومه فينعى عليهم تخاذلهم واختلافهم فيقول فى وصف أمته :

أمّة قد فتّ فى ساعدها بغضها الأهل وحبّ الغربا

تعشق الألقاب فى غير العلا   وتفدّى بالنفوس الرتـ
وهى والأحداث تستهدفها   تعشق اللهو وتهوى الطر
لا تبالى لعب القوم بها   أم بها صرف الليالى لعـ

وتتحرر الأمة العثمانية من كابوس ثقيل ، وينبثق فيـ الدستور فيعرض حافظ لذلك ، ويتخلص منه إلى نصـ قومه وإرشادهم ودعوتهم إلى الاتحاد والائتلاف فيقول واصفـ حالهم :

سرى داء التواكل فيه حتى   تخطّف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا   كما استعصى على الطب الجذا
هلاك الفرد منشؤه توان   وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنّا قد ونينا وانقسمنا   فلا سعى هناك ولا وئام
فساء مقامنا فى أرض مصر   وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا عجب إذا ملكت علينا   مذاهبنا وأكثرنا نيام

ويخيّل إلينا أن الشاعر يصطاد المناسبات ليعظ قومه ويصف ما هم عليه من تفكك اجتماعى أثاره الاحتلال وعزّزه الفقر ونصره الجهل فقال يصف قومه :

هذا يطير مع الخيا   ل وذاك يرتجل النوادر

ما هدّ عزم القادرين بمصر إلا قول (باكرْ)

وكأننا بالشاعر وقد نشأ فى مدرسة الإمام محمد عبده قد اتخذ لنفسه صفة المصلح الاجتماعى ، والناصح المرشد ، يهبّ فى كل آن إلى الإصلاح والدعوة إلى الدين . والقيام بتطهير الشعب من أمراضه وآفاته ، ومداواته من شقائه وآلامه ، بل لعله يحسّ أنها رسالة أودعها الإمام فى عنقه يؤديها كلما حزب الأمر ودعا إلى الإصلاح داع .

فهو لاينى ولا يقف عن المناداة بالرحمة والإشفاق والدعوة إلى الزكاة والإكرام ، وإغاثة الضعيف ونصرة الملهوف .

فلما حدث حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢ نادى بالأغنياء قائلا :

أيها الرافلون فى حلل الوشى يجرّون للذيول افتخارا
إنّ فوق العراء قوماً جياعاً يتوارون ذلة وانكسارا

وحين حدث خلاف بين الشيخ على يوسف والسيد أحمد عبد الخالق السادات حول زواج الشيخ ، كتب حافظ قصيدة عرض فيها كذلك لأخلاق الشعب ونادى بالإصلاح على عادته فقال : ·

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (أبو الطيب)
أمور تَمُرُّ وعيش يُمِرُّ ونحن من اللهو فى ملعبِ
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجربِ
وصحف تطن طنين الذباب . وأخرى تشن على الأقربِ
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحبِ
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى وِده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وكأنه لا يُشفى غليله بهذا النقد وهذا التجريح فيلحّ على الأمراض ويعرض لها فى أكثر شعره حتى لنظن أنه معرىّ عصره ، يتناول أفراد الأمة بالنقد فى القرن الرابع عشر كما تناول المعرىّ عصره فى القرن الخامس ، فلا يكاد يخلو من نقده رجل صناعة أو علم إلا وصفه ونال منه . قال يصف العلماء المزيفين لعصره :

كم عالم مدّ العلوم حبائلاً لوقيعة وقطيعة وفراقِ
وفقيه قوم ظل يُرصدُ فقهه لمكيدة أو مستحلّ طلاقِ
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاقِ
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذى يدعون خدن شقاقِ

وطبيب قوم قد أحلّ لطبه ... ما لا تحلّ شريعة الخلاقِ
قتل الأجنة فى البطون وتارة ... جمع الدوانق من دم مهراقِ
أغلى وأثمن من تجارب علمه ... يوم الفخار تجارب الحلاقِ
ومهندس للنيل بات بكفه ... مفتاح رزق العامل المطراقِ
تندى وتيبس للخلائق كفه ... بالماء طوع الأصفر البرّاقِ
لا شىء يلوى من هواه فحده ... فى السلب حدّ الخائن السرّاقِ
وأديب قوم تستحق يمينه ... قطع الأنامل أو لظى الإحراقِ
يلهو ويلعب بالعقول بيانه ... فكأنه فى السحر رقية راقى
فى كفه قلم يمجّ لعابه ... سمًّا وينفثه على الأوراق
يرد الحقائق وهى بيض نصّع ... قدسيّة علويّة الإشراقِ
فيردّها سوداً على جنباتها ... من ظلمة التمويه ألف نطاقِ

ولا يكتفى الشاعر بوصف الأمراض والعلل وإنما يشارك فى وصف الأدوية والعلاجات ، فينادى مع المنادين فى عون الفقير ومساعدة العميان وتعليم الطفل ، قال يدعو إلى الخير :

أنقذوا الطفل إن فى شقوة الطف ... ل شقاء لنا على كل حال
إن يعش بائساً ولم يطوه البؤ ... س يعش نكبة على الأجيال
رب بؤس يخبّث النفس حتى ... يطرح المرء فى مهاوى الضلال

أنقذوه فربما كان فيه مصلح أو مغامر لا يبالى
ربما كان تحت طمريه عزم ذو مضاء يدك شم الجبال
رب سر قد حل جسم صغير وتأبى على شديد المحال

وذلك لأن حافظاً ذاق ألم اليتم والبؤس والفقر ، فعرف ما تفعل هذه جميعاً فى الأطفال ، فالتفت إلى أمته وأهاب بها أن تعنى بهذه الآفات فتجنب الشعب ويلات وويلات .

وإذا كان الشاعر قد أحب الأرض وعمل للذود عن حياضها ضد المستعمر ، وأحب الشعب وسعى إلى تعليمه ونصحه ومداواة أمراضه ، فهو قد أحب اللغة العربية حباً جماً لا يعادله حب ، فلما قرر المستعمرون أن يضعفوها وأن يضعوا الإنكليزية فى المدارس وفى المؤسسات والدوائر غضب وثار ، وامتدح اللغة الفصحى لغة القرآن المجيد ، ونال من اللغة الإنكليزية ونعتها بالضعف والخور ، قال فى سنة ١٩٠٣ على لسان العربية يخاطب أمته :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم بما تحته من عثرة وشتات
سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما يعز عليها أن تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
خرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات

. . . .

أيهجرنى قومى عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات

وهو لا يفضل اللغة العربية على الإنكليزية فحسب ، وإنما يفضل الشعر العربىّ على الشعر الغربىّ فيقول :

سل (ألفريد) و (لامارتين) هل جريا
مع الوليد أو الطائى بميدان
وهل هما فى سماء الشعر قد بلغا
شأن النواسى فى صوغ وإتقان ! ..

هذا هو المحامى الذى انبرى طيلة عمره للدفاع عن أمته وقومه ضد المستعمر ، ونقد أخلاق الشعب وهو يحبّ له الخير ويتمنى له الاستقلال والعزة والكرامة والصحة والغنى ، فهو بشاعر الشعب وهو مصدر من مصادر تاريخه القومى . وهو على ذلك إنسان يتسامى بشعره الإنسانى فيصف ما يصيب

الأمم من كوارث وأحداث سواء فيها الشرقية أم الغربية .

وحين يستعرض القارئ ديوانه فيقع على وصف بركان المارتينيك وثورته، وزلزال مسينا ونكبته، وحرب اليابان وضحاياها، وسلطان مراكش ومجونه ، وحوادث العثمانيين وعبثهم ، يجد أن الشاعر عاش على قمة الإنسانية يعطف على البؤساء والمنكوبين، ويرقّ للعجائز والبائسين ، ثم ينظر إلى قومه فإذا هم فى الأصفاد والقيود ، فيغضب ويثور .

وأما هؤلاء المصريون الذين ماتوا ، فهم نذر بفقد الرجال العاملين فى حقل الحرية والنضال ، يعدّهم حافظ ، وينظر إليهم يتوارون وكأنهم قطعة من بلاده المقدسة تغيب تحت الماء أو تنهار تحت الزلزال أو تنصهر بنار البركان ، وكأنّ فى بقائهم بالميدان ضمانة للسور الذى يحيط بالوطن ، ينهار بانهيارهم ويتضعضع بزوالهم .

وإذا استعرضنا هؤلاء الذين بكاهم عرفنا المجتمع الذى عاش فيه والأفراد الذين أحبهم وفقدهم وهم أعلام مصر ومشاهيرها قرنوا إلى اسمه مع الزمن ، فأصبح هو كذلك من الأعلام الذين يذكرون إذا ذكر القرن العشرون وذكر الأدب المصرى الحديث ؛ رفعه شعره إلى مصافّهم ولولاه لعاش منسياً مغموراً فى الملايين التى تضمها الصحراء وترويها السماء .

١٣

موقعه من الشعراء القدامى والمحدثين

قرأ حافظ إبرهيم دواوين القدماء وحفظ أكثر شعرهم وسعى إلى تقليدهم ، وعاش وهو يؤمل أن يبذهم ، وأن يفوق فى ألفاظه ومعانيه جزالة بشار ورقة مهيار وألفاظ المتنبى وأسلوب حسان وأغراض أبى نواس .

قال منذ سنة ١٩٠١ يصف شعره :

معان وألفاظ كما شاء (أحمد)

طوت جزل (بشار) ورقة (مهيار)

وقال فى خطاب الخديو عباس الثانى سنة ١٩٠٤ :

واليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم

عهد (النواسى) أو أيام (حسّان)

وظلّ شعره فى حلبة الأسلوب والصياغة على سباق مع الأقدمين حتى كاد يقع شعره من هذا الباب فى الشعر العباسى .

وما نظن أنه يختلف عن شعراء العباسيين فى الجزالة والمتانة ونحسب أن الزمان قد انقطع بينه وبينهم فوصلته القوافى والأساليب فهو تتمة الشعراء العباسيين وخاتمتهم .

ولقد وضعه الدكتور طه حسين مع شوقى فى أشعر العرب بعد المتنبي وأبى العلاء فقال : «هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك» .

وقال فيه خليل مطران :

«يتعب فى قرض قريضه تعب النحّات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة . . . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً فى التصور لم يفته الابتكار فى التصوير » .

وقد كان حافظ يعجب بالبارودى وخليل مطران وإسماعيل صبرى ، ويمدحهم فى شعره ، ويجعلهم طلائع النهضة فى زمانه . وقد كان يرى للبارودى فضل التقدم ، فقد جدّد الشعر ونقاه من التكلف قبل أن يقول حافظ شعراً ، ولكنه لم يكن للشعب كما كان حافظ ، فلم يطرق الأبواب التى طرق ،

لذلك نرى فى شعره جسراً عبر عليه شاعرنا إلى الشعر الحديث المصقول الفنىّ .

وكان الشعراء المعاصرون يكيلون لحافظ المديح ويجدون المتانة والجزالة فى تراكيبه وأساوبه ، وسنعرض هنا لبعض أقوالهم فيه لعلنا نعرف موطن التقدير والإكبار .

قال البارودى فى شعر حافظ :

لبق بتصريف الكلام يسوقه ما شاء بين سهولة وعزاز
فإذا تغزل فالنفوس نوازع وإذا تحمّس فالقلوب نوازى

. . . .

حاك القريض بلهجة عربية أغنت عن الإسهاب بالإيجاز
ألفاظها نمّت على ما تحتها وصدورها دلت على الأعجاز

وقال فيه أحمد شوقى :

ما زلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميتَ أمانة القدماء
جدّدت أسلوب (الوليد) ولفظه وأتيت للدنيا بسحر (الطائى)

وقال فيه خليل مطران :

شاعر لم يبادره أحدٌ فى ال أخذ بالمستحب والمستجاد
يحكم الصوغ فى القلاد فما يأ تى صناع بمثلها فى القلاد

. . . .

فى تراكيبه وفى مفردات اللفـ ـظ حارت نفاسة الحسَّاد

فالشعراء المعاصرون كانوا يرون أنه يحكم الصياغة والأسلوب والألفاظ والمفردات . وهو نفسه يعترف لنا بحبه للقدماء وسعيه فى تقليدهم وسبقهم ، وأنه كان يقلّب اللزوميات فيستفيد منه حين يتبرم بالحياة ويضيق بالعيش فيقول فى « ليالى سطيح » :

« فقمتُ إلى ربيع الأرواح ومسرح النفوس — وأعنى به اللزوميات ، فطويتُ بفتحه كتب الأوهام ، ومحوتُ بسطوره سطور الآلام » .

لذلك نرى فى شعره ما فى دواوين المتنبى والبحترى وابن الرومى وأبى تمام والمعرّى من ألفاظ ومعان وسخرية لاذعة ، وقد أعلن أكثر من مرة أنه سار على طريقة مثلى فى الشعر فقال :

ولمّا أصِفْ كأساً ولم أبك منزلا ولم أنتحل فخراً ولم أتنبّل

وقال فى وصف غزله :

هوينا فما هنّا كما هان غيرنا ولكننا زدنا مع الحب سؤددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا بأيسر من حكم السماحة والندى

وقال فى قصيدته إلى الخديو عباس الثانى :

أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاّها يراع فتى صافى القريحة صاح غير نشوان
ماضاق أصغره عن مدح سيّده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته فى موطن بجلال الملك ريّان

وقال كذلك يخاطب الشعر القديم ويبين عن طريقته فى النظم :

ضعتَ بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يابن المعالى
ضعت فى الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسال
قد أذالوك بين أنس وكأس وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
وحماس أراه فى غير شىء وصغار يجرّ ذيل اختيال
عشتَ ما بينهم مذالا مضاعاً وكذا كنت فى العصور الخوالى
حملوك العناء من حب ليلى وسليمى ووقفة الأطلال
وبكاء على عزيز تولّى ورسوم راحت بهن الليالى
وإذا ما سموا بقدرك يوماً أسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر أن نفك قيودا قيدتنا بها دُعاة المُحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

وحافظ بهذه القصيدة عرّف طريقته فى الشعر كما عرّفها قبله بعشرة قرون أبو فراس الحمدانى حين قال :

لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائى النجب
لا فى المديح ولا الهجا ء ولا المجون ولا اللعبْ

وانتقد الوقوف على الديار وبكاء الأحباب كما فعل أبو نواس قبله باثنى عشر قرناً حيث قال :

قل لمن يبكى على رسم درس واقفاً ماضر لوكان جلسْ
تصف الربع ومن كان به مثل سلمى ولُبَيْنَى وخنسْ
اترك الربع وسلمى جانباً واصطبح كرخيّةً مثل القبسْ

ولكنه على كل حال عرّف الشعر الذى نظمه ، وبيّن لنا الأبواب التى طرقها ونرى أنه كان وفيًّا صادقاً مخلصاً فى ذلك كله ، فهو لم يتغزلْ ولم يهجُ ولم يقل فى الحماسة والفخر . ولكنه مدح فسقط على كثير من البسيط الغث ، ورثى فبكى وأبكى ، وكان رثاؤه كما يقول نصف ديوانه . وأعظم ما فى هذا الديوان وصفه آلام الدهماء من الشعب ، وتصويره وطنية الأمة لذلك العهد وموقفه من المستعمر والسلطان والخليفة ،

ووصفه حالة الكنانة فى جهلها وفقرها وتفرقها وذلها وأمراضها ، فكأنه كان مؤرخاً لحالها كما قال هو نفسه فى تعريف شعره :

ولكننى فى معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولا مخلّدا

فديوانه تاريخ أمته نظمه شعراً . يقرؤه المصريون فيجدون فيه سجلا لنصف قرن من حياة مصر ، غامت السحب خلاله ، واحلولك وجه السماء . فلعلّ الأيام تحقق آمال الشاعر وتردّ إلى مصر عزّها القديم ومجدها الخالد فترتع فى النعيم وتسبح فى السرور ، وتمتلك من جديد ناصية الخلود .

١٤
حافظ وشوقى

عرفنا آراء الشعراء المعاصرين والكتاب الناقدين فى حافظ وفى شعره ، وعرفنا أنهم كانوا يحفظون له فى قلوبهم أطيب الود وأعظم الحب . وكان حافظ يبادلهم ودًّا بود وتحية بتحية ، ويجدر بنا بعد أن استعرضنا آراء الشعراء فيه أن نستعرض رأيه فيهم واحداً بعد واحد . قال فى محمود سامى البارودى يمدحه سنة ١٩٠٠ :

أمير القوافى إن لى مستهامة بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى

وقال فى إسماعيل صبرى :

(صبرى) استثرت دفائنى وهززتنى
وأريتنى الإبداع كيف يُنَسَّقُ
فأبحتَ لى شكوى الهوى وسبقتنى
فى مدح (عباس) ومثلك يسبقُ

وقال فى خليل مطران :

فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعـ ـر وألقى إلى (الخليل) الزماما

ومدح الكتاب المعاصرين كمحمد المويلحى ومحمد عبده وأصحاب المقتطف ودار المعارف والضياء والهلال والجامعة .

ولكنه كان يقف من شوقى موقفاً غريباً . فهو يعلن فى شعره كله منذ سنة ١٩٠١ حتى وفاته أن شوقى أمير الشعراء وأنه وحده الخالد . ولعله أول الأمر كان يجعل أحمد شوقى وسيلة إلى إرضاء القصر ، ولكنه وقد اشتهر بلقب أمير الشعراء وشاعر الأمراء لم يستطع أن يتراجع عن مدحه ، بل كان يغتنم الفرص والمناسبات ليعلن فى شعره هذا الود والإكبار ، وقد كان يضرب المثل بشعر شوقى ، فقال فى تهنئة عباس الثانى سنة ١٩٠١ :

إلى سدة (العباس) وجهت مدحتى
بتهنئة (شوقية) النسج معطار

وقال فيه بالسنة نفسها :

لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى إلا فتى ماله فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعته وأكرم الله والعباس مثواه

ثم قال فيه :

لم يبق (أحمد) من قول أحاوله . في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

ولما هنّأ الخديو عباس الثاني سنة ١٩٠٨ قال :

(شوقي) نسبت فاملكتُ مدامعي من أن يسيل بها النسيب الشيّقُ

وفي سنة ١٩١٣ قال فيه :

يا سيّدي وإمامي ويا أديب الزمانِ
حرمتُ رؤية شوقي ولثم تلك البنانِ

وفي السنة نفسها قال في شوقي وصبري وهو يهنئ المطران :

وتلونا آيات شوقي وصبري فرأينا ما يبهر الأفهاما
ملآ الشرق حكمة وأقاما في ثنايا النفوس أنّى أقاما
غنيا المشرقين ماترك الأفلا كَ حيرى وأذهل الأجراما
وأعادا عهد الرشيد لعبّا س فكانا يراعه والحساما

ولما سافر شوقي إلى مؤتمر المستشرقين ودعه بقصيدة لقبه فيها بشاعر الشرق فقال :

يا شاعر الشرق اتئد ماذا تحاول بعد ذاك
هذي النجوم نظمتها درر القريض وما كفاك

وفي سنة ١٩١٩ عاد شوقي من منفاه فحيّاه حافظ بقوله :

امرؤ قد جاء قبل أوانه   إن لم يكن قد جاء بعد أوانه
بما لم يأته متقدم   أو تطمع الأذهان فى إتيانه

وفى سنة ١٩٢٧ نظم قصيدة يهنئه بها فى حفلة تكريمه بالأوبرا قال فيها :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل   فتى الهوى والقلب جم التواضع
لقد شاب من هول القوافى ووقعها   وإتيانه بالمعجز المتمنع

وبعد أن لخص قصائد الشوقيات وحللها قال :

تملكت من ملك القريض فسيحه   فلم تبق يا شوقى لنا قيد أصبع

وهكذا ظل حافظ خلال ثلاثين سنة يكيل المديح لشوقى فى قصائد يخصه بها أو يتطرق إلى ذكره فيها ، لا يقتصد فى كلامه ولا يبخل فى تقريظه . فهل كان هذا حباً حقاً صادراً من أعماق نفسه ؟ أم كان ذلك خوفاً من مقام شوقى ومكانته فى القصر وبين الأعيان وعلية القوم ؟ أم كان ذلك نفاقاً وتقرباً لعله يحظى بمثل ما حظى به أمير الشعراء من غنى ونعيم وترف !

إن الخلاف كان واقعاً بين الشاعرين وأنصارهما ما فى ذلك ريب ، وإن الحسد كان شائعاً ذائعاً ما فى ذلك شك .

قال شوقى فى رثاء حافظ يلمح إلى ذلك :

وودتُ لو أنى فداك من الردى
والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى
والموغرو الموتى على الأحياء

من كل هدّام ويبنى مجده
بكرائم الأنقـاض والأشـلاء

ما حطّموك وإنما بك حطّموا
من ذا يحطّم رفرف الجوزاء

والغريب أن حافظاً لم يشر إلى ذلك فى شعره ، وإنما بسط أمره فى وضوح وهو يخط كتابه « ليالى سطيح » ، فقد عرض بصورة عامة أولا إلى حساده فقال فيهم :

« ينبغ فيها — أى مصر — النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه ؛ ويكتب فيها الكاتب ، فينبرى له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ، ويفسد عليه كتابه ؛ ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهها فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على سره » .

ثم عرض بصورة خاصة دقيقة لأمر شوقى فبسط الخصومة بينه وبينه ، فأجرى على لسان صديق حواراً بينه وبين الكاهن سطيح عن الشوقيات قال سنة ١٩٠٦ :

« فلو بُعث اليوم صاحب اللزوميات وحاول أن ينشر فى تلك الصحف حرفاً مما أخذه على الأمراء وأنكره على الكبراء لأبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكاناً بين جداول الأموات فضلا عن جداول الأحياء . ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الأستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم ، وقد أدى فريضة الجمعة أو تحركت شفتاه بالإنعام على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام .

« بربك ماذا رأيت فيها من الآيات وما جاء به صاحبها من المعجزات اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغريبة التى ما سكنت فى معنى عربىّ إلاّ وذهبت برواته .

« قلتُ : حسبك لاتغضض من شاعر الشرق ولا تنقص من أدبه ، فتالله إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة

متناوله عليه إلا أنه مكثار ، وقلّ أن يسلم المكثار من العثار .
فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » إلى أن يقول :

« وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر غير مشغول بغيره فالعجب أنه لا يجيد . وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . »

وينتهى حافظ على لسان سطيح فى الحكم على شوقى بقوله :

« ولو أنه مُنح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير منازع .

« قال صاحبى — وهو يكظم غيظه — إنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلاّ سلخَه ثم مسخه ، فإن كان الأسلوب على ما وصفت وكانت المعانى لغيره فما عسى يكون فخره علينا وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز : أن البلاغة لا تقع فى اللفظ ولا فى المعنى ولكنها تقع فى الأسلوب ، فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحدّ كان خليقاً أن لا يسمى

بليغاً ، وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ غامض المعنى يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همّه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدلّ على شعره وإن كان غفلاً من ذكره . ولقد نظرتُ فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين فهو لم يغادر معنى فى خدره إلاّ سباه . ولا لفظاً فى ذكره إلا وأزعجه .

« ألا ترثى بربك إلى عظام أبى الطيب وهى تئن فى قبرها على أبيات شادها صاحبها ، وخربها صاحب الشوقيات ... »

ويتعقب حافظ أبيات شوقى فيبين أخذها من المتنبى وسرقتها من البحترى ونظرها فى ابن الرومى ، ويمضى صفحات عدة فى تعقبه وإحصاء الشواهد على ذلك كأنه أستاذ للأدب أو ناقد للشعر أو مدرس فى الجامعة ، ويختم مطافه فى بيان موقفه فيقول فيه :

« فهو عميد جال هذه الدولة الجديدة فلا يكن مثلك وإياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجدّ »

هكذا صوّر حافظ موقفه من شوقى وموقف شوقى منا حتى جمعهما الموت تحت التراب وآواهما الخلود بجناحيه ، ورفعهما إلى سماء الشعر العربى ، وضمهما إلى أترابهما من شعراء القرن الثالث والرابع ، فتلاقت أرواحهم بعد ألف سنة فى عناق ووئام بجنان الخلود ورياض الجنة ، يسرحون ويمرحون يطوف عليهم ولدان مخلدون ، وقد أنساهم النعيم فى الدار الآخرة ما كانوا فيه بهذه الدنيا من شظف النقد وغيرة الأدباء وحسد الحاسدين .

نماذج من شعره

من الخير أن نختم هذه الصفحات ببعض الشعر الذى يعين القارئ على تصوّر حافظ والتعرف إليه من خلال هذه الأبيات ، ولكننا لا نطمع فى أن نستوفى الموضوع كله من جوانب هذه المختارات فذلك طويل عسير ؛ وإنما هى محاولة لعرض ما لم نستطع عرضه فيما سبق من صفحات .

حريق ميت غمر

شبّت النار فى مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وأتت على أكثر الدور خلال سبعة أيام وكانت الضحايا كثيرة والنكبة عظيمة .

سائلوا الليل عنهمُ والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأ م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا

ومن النار أن تكف أذاها ... ومن الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يُروى ... هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت ... تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يميناً ... ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض ... ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلت دورهم فلما استقلت ... لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة ... حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما ... أقبل الصبح يلبسون النهارا
حلة لا تقيهم البرد والحـ ... ـر ولا عنهم ترد الغُبارا

بركان مارتينيك

ثار البركان فى المارتينيك إحدى جزر الهند الغربية يوم ٨ مايو سنة ١٩٠٢ فالتهم من الضحايا ما يثير الأسف والأسى والشاعرية فقال الشاعر يخاطب الأرض :

ألبسوكِ الدماء فوق الدماء ... وأروكِ العداء بعد العداءِ
فلبستِ النجيع من عهد قابيـ ... ـل وشاهدت مصرع الأبرياءِ

فلك العذر إن قسوت و إن خنـ ت وإن كنت مصدراً للشقاء
غلط الناس ما طغى جبل النا ر بإرسال نفثة فى الهواء
أحرجوا صدر أمه فأراهم بعض ما أضمرت من البرحاء
أسخطوها فصابرتهم زمانا ثم أنحت عليهم بالجزاء
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الأ أرض ماذا يكون سخط السماء

حظ الشاعر فى مصر

حطمتُ اليراع فلا تعجبى وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك يوم الوفاق سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضب
أنابتة العصر إنّ الغريب مجدٌ بمصر فلا تلعبى

أمنية الوطنى

كاشف الكهرباء ليتك تُعنَى باختراع يروض منا الطباعا

آلة تسحق التواكل فى الشر ... ق وتلقى عن الرياء القناعا
قد مللنا وقوفنا فيه نبكى ... حسباً زائلا ومجداً مضاعا
وسئمنا مقالهم كان زيد ... عبقريًّا وكان عمرو شجاعاً
ليت شعرى متى تنازع مصر ... غيرها المجد فى الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحـ ... ـياء فخراً فى الخافقين مذاعا

غلاء الأسعار

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ ... ـش ولم تحسنوا عليه القياما
عزّتِ السلعة الذليلة حتى ... بات مسح الحذاء خطباً جُساما
وغدا القوت فى يد الناس كاليا ... قوت حتى نوى الفقير الصياما
يقطع اليوم طاوياً ولديه ... دون ريح القتار ريح الخزامى
ويخال الرغيف فى البعد بدراً ... ويظن اللحوم صيداً حراما
إن أصاب الرغيف من بعد كدّ ... صاح : من لى بأن أصيب الإداما

عقّنى الدهر . . .

لا تلم كفّى إذا السيف نبا ... صحّ منى العزم والدهر أبَى

رُبَّ ساعٍ مبصرٍ فى سعيه　　أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحباً بالخطب يبلونى إذا　　كانت العلياء فيه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى　　أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
إيه يا دنيا اعبسى أو فابسمى　　لا أرى برقك إلاّ خلّبا
أنا — لولا أن لى من أمتى　　خاذلا — ما بت أشكو النوبا
أمة قد فَتَّ فى ساعدها　　بغضها الأهلَ وحبّ الغربا

إلى المستعمرين

أيها القائمون بالأمر فينا　　هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفّضوا جيشكم وناموا هنيئاً　　وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق　　بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء　　لم تغادر أطواقُنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق . ولكن　　أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل　　صادت الشمس نفسه حين صادا
جاء جهالنا بأمر وجئتم　　ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ　　أقصاصاً أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ　　أنفوساً أصبتم أم جمادا ؟

إلى الطليان

قد ملأنا البحر من أشلائهم   فدعوهم يملأوا الدنيا كلاما
أعلنوا الحرب وأضمرنا لهم   أينما حلوا هلاكاً واختراما
خبّروا ڤيكتور عنّا أنه   أدهش العالم حرباً ونظاما
أدهش العالم لمّا أن رأوا   جيشه يسبق فى الجرى النعام
لم يقف فى البر إلا ريثما   يسلم الأرواح أو يلقى الزماما
حاتم الطليان قد قلّدتنا   منة نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عدّة   ولباساً وشراباً وطعاما
وسلاحاً كان فى أيديكم   ذا كلال فغدا يفرى العظاما
أكثروا النزهة فى أحيائنا   وربانا إنها تشفى السقاما
وأقيموا كل عام موسماً   يشبع الأيتام منا والأيامى

مصر القديمة

هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ   ـبر يوماً فريتم بعض جهدى
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى   أعجزت طوق صنعة المتحدى

خال لون النهار من قدم العهـ ـد وما مسّ لونها طول عهد
هل فهمتم أسرار ما كان عندى من علوم مخبوءة طىّ بَردى
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ ـر وأبلى البلى وأعجز ندّى
قد عقدت العهود من عهد فرعو ن ففى مصر كان أول عقد
إن مجدى فى الأوليات عريق من له مثل أولياتى ومجدى
أنا أم التشريع قد أخذ الرو مانُ عنى الأصول فى كل حدّ
ورصدت النجوم منذ أضاءت فى سماء الدجى فأحكمت رصدى
وشدا (بنتاءور) فوق ربوعى قبل عهد اليونان أو عهد (نجد)
وقديماً بنى الأساطيل قومى ففرقن البحار يحملن بندى
قبل أسطول (نلسن) كان أسطو لى سريّاً وطالعى غير نكد
فسلوا البحر عن بلاء سفينى وسلوا البر عن مواقع جُردى

إلى الإنكليز

جوّاوا النيل واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسف فى كل شبر (كنستبلاً) بالسوط يفرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا فى الترب عظما رميما

دنا الموت

راعني فقد شبابي وأنا — لا أراع اليوم من فقد مشيبي
حن جنباي إلى برد الثرى — حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكي صاحبه — شدة الدهر ولا شد الخطوب
لا ولا يسئمه ذاك الذي — يسئم الأحياء من عيش رتيب
قد وقفنا ستة نبكي على — عالم المشرق في يوم عصيب
وقف الخمسة قبلي فمضوا — هكذا قبلي وإني عن قريب

ظهر حديثاً

ذخائر العرب

الكتاب السابع

طبقات فحول الشعراء

لابن سلام الجمحى

أول ناقد أدبى فى الإسلام

تحقيق وشرح الأستاذ

محمود محمد شاكر

كتاب من أهم المراجع فى النقد والأدب والشعر العربى. اعتمد فيه المحقق على أقدم مخطوطة وأوفاها وصدره ببحث عن ابن سلام وكتابه وضمنه شروحاً مبتكرة تجعل من هذا الكتاب ذخراً من أنفس ذخائر العرب .

٧٢٠ صفحة من القطع الكبير فى حلة قشيبة وإخراج أنيق .

الثمن ١٠٠ قرش

دار المعارف بمصر